

بسم الله الرحمن الرحيم

الجامعة الإسلامية - غزة
عمادة الدراسات العليا
كلية أصول الدين
تخصص التفسير وعلوم القرآن

عوامل ارتقاء الأمم وانحدارها في ضوء القرآن الكريم

متطلب تكميلي لنيل درجة الماجستير في التفسير وحلوه
القرآن

رسالة مقدمة من الطالب / عودة سليمان عيد أبو مصطفى

إشراف د. عبد الكريم الدهشان

العام الجامعي

١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م

الجامعة الإسلامية - المكتبة - قسم الرسائل الجامعية

بسم الله الرحمن الرحيم

الجامعة الإسلامية - غزة
عمادة الدراسات العليا
كلية أصول الدين
تخصص التفسير وعلوم القرآن

عوامل ارتقاء الأمم وانحدارها في ضوء القرآن الكريم

متطلب تحصيلي لنيل درجة الماجستير في التفسير وحلوه

القرآن

اب و/227



1240400

رسالة مقدمة من الطالب / عودة سليمان عيد أبو مصطفى

إشراف د. عبد الكريم الدهشان

مكتبة الجامعة الإسلامية بغزة

400

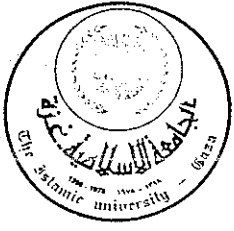
الرقم العام :

الرقم الخاص : 227/اب

التاريخ : 2001-12-10

العام الجامعي

٢٠٠٠ - ١٤٢١ هـ



الرقم : مكتب عميد الدراسات العليا
التاريخ : ج بر غ / 35 /
2001/10/06

نتيجة الحكم على أطروحة ماجستير

بناء على موافقة عمادة الدراسات العليا في الجامعة الإسلامية بغزة على تشكيل لجنة الحكم على أطروحة الباحث / عودة سليمان أبو مصطفى ، المقدمة لكلية أصول الدين من أجل نيل درجة الماجستير في التفسير وعلوم القرآن ، وموضوعها :

" عوامل ارتفاع الأمم وانحدارها في ضوء القرآن الكريم "

وبعد المناقشة العلنية التي تمت يوم الأربعاء 2001/4/4 الموافق 11/محرم /1422هـ الساعة 12 ظهرا ، اجتمعت لجنة الحكم على الأطروحة المكونة من الأساتذة :

- | | |
|-----------------------------|-----------------|
| د . عبد الكريم حمدي الدهشان | مشرفا ورئيساً . |
| د . عبد السلام حمدان اللوح | مناقشا داخليا . |
| د . رياض محمود قاسم | مناقشا داخليا . |

وبعد المداولة أوصت اللجنة بمنح الباحث / عودة سليمان أبو مصطفى . درجة الماجستير في كلية أصول الدين قسم التفسير وعلوم القرآن .

والله ولي التوفيق

أعضاء اللجنة :

- | | |
|--------------------------------|-------|
| 1- د . عبد الكريم حمدي الدهشان | |
| 2- د . عبد السلام حمدان اللوح | |
| 3- د . رياض محمود قاسم | |
- ٢٠٠١/١٠/٨

إهداء

إلى الذين يضحون في سبيل ارتقاء الأمة وعزتها.
إلى الذين يأخذون بحُجْر الأمة لئلا تقع في الهاوية.
إلى الذين يعملون على إنقاذ سفينة المجتمع من الغرق.
إلى والدي ووالدتي العزيزين.
إلى إخوتي وأخواتي.
إلى زوجي وأبنائي.
إلى إخواني وزملائي طلاب العلم.
إلى هؤلاء جميعاً أهدي هذه الرسالة المتواضعة.

شكر و عرفان

انطلاقاً من قوله تعالى ﴿وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾^(١) وقوله سبحانه ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾^(٢) واعترافاً مني وإقراراً بالفضل لأهل الفضل فإنني أتقدم بجزيل الشكر والامتنان لأستاذي ومشرقي الدكتور عبد الكريم الدهشان على ما بذله من جهود مضية خلال إشرافه عليّ أثناء كتابة الرسالة، وعلى ما قام به من مراجعة وتصحيح في هذه الرسالة حتى وصلت إلى هذا المستوى اللائق الذي انتهت إليه.

وأسأل الله العليّ القدير أن يكون هذا الجهد العظيم في ميزان حسناته يوم القيامة كما أوجه جزيل الشكر والعرفان لأساتذتي في كلية أصول الدين على النصائح العظيمة التي وجهوها لي وعلى العناية التي أولوني إياها.

وأتوجه بجزيل الشكر والامتنان للدكتور وليد شبير على الجهد الجليل الذي بذله أثناء مراجعته للجانب الاجتماعي في هذه الرسالة، وعلى ما أسداه لي من نصائح هامة وتوجيهات حساسة.

وأتوجه بالشكر الجزيل لعمادة البحث العلمي والدراسات العليا وعلى رأسها الدكتور أحمد أبو حلبية على التسهيلات العظيمة التي منحني إياها خلال كتابة هذه الرسالة وطباعتها.

كما وأقدم عظيم شكري لأعضاء لجنة المناقشة كلاً من الدكتور عبد السلام اللوح والدكتور رياض قاسم على ما قاما به من مراجعة الرسالة وعلى الملاحظات والتوجيهات التي قدمها لي.

ولا يفوتني أن أتقدم بالشكر الجزيل للعاملين بالمكتبة المركزية وقاعة التخريج على المساعدات والتسهيلات التي قدموها لي خلال البحث والكتابة.

وفي النهاية أشكر شكراً جزيلاً كل من قدم لي نصيحاً أو إرشاداً أو مساعدة

(١) سورة النمل آية ٤١.

(٢) سورة الرحمن آية ٦٠.

من إخواني الطلاب وغيرهم على ما قاموا به من جهود وما قدموه من توجيهات.
وأسأل الله العلي القدير أن يتقبل من الجميع وأن يجعله في موازين أعمالهم يوم القيامة.

المقدمة

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً، وجعل له في البلاغة مقاماً عالياً، لو اجتمعت الإنس والجن على معارضة لم يقدرُوا ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً، والصلاة والسلام على من أرسله ربه شاهداً ومبشراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً. وبعد:

إن الحديث عن ارتقاء الأمم وانحدارها له أهميته البالغة ودوره العظيم إذ من خلاله يتعرف المسلمون على أسباب وعوامل عزتهم وارتقائهم، كما يعلمون سبب انحطاطهم وانحدارهم، ويضعون أيديهم على الداء مما يسهل عليهم جلب الدواء، وهو موصوف في كتاب الله.

والأمة الإسلامية اليوم تعيش في حالة خطيرة، توشك معها على الوقوع في الهاوية فهي كالغريق الذي يستغيث، ويطلب يد العون والمساعدة لإنقاذه. إلا أن كثيراً من أبناء الأمة وللأسف يجهلون حقيقة الداء الذي يعانون منه، ومن ثم فإنهم يطلبون الدواء ممن لا يملكونه من الكافرين والمشركين وفاقد الشيء لا يعطيه.

إذ يظن بعض المسلمين أن سبب تأخر الأمة هو ضعف قوتها العسكرية، ويظن بعضهم أن سبب ضعفها قلة إمكاناتها الاقتصادية، ويعتقد فريق ثالث أن سبب ذلك هو الجهل وعدم التقدم التكنولوجي، وبالتالي فإن هؤلاء جميعاً يتزلفون ويتقربون إلى من يعتقدون أنهم يملكون هذه الإمكانيات ليمدوهم بها فتناهم العزة ويتقدمون ويرتقون، ولهذا فإنهم يرمون في أحضان الغرب تارة والشرق تارة أخرى، ويطلبون ودهم، بل يوالوهم ويدافعون عنهم ويتحاضرون إلى قوانينهم لعلهم يصلون إلى ما وصل إليه أولئك من التقدم والارتقاء في نظرهم وحسب ظنهم.

وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على جهل المسلمين بدينهم وعقيدتهم، وعلى جهلهم بقراءتهم الذي بين الله فيه سبب عزتهم وارتقائهم، والذي هو السبيل الوحيد لتحقيق ذلك ولا سبيل غيره.

وبناء على ذلك فإن المسلمين بحاجة ماسة إلى من يضع أيديهم على الداء الحقيقي لهذا الحال الذي يعيشون فيه، ويصف لهم الدواء لهذا الداء ليأخذوه ويعالجوا واقعهم به، ويتعدوا عن سبب الداء الذي هم فيه.

وإنني في هذه الرسالة العلمية المتواضعة حاولت جهدي أن أبين عوامل الارتقاء التي هي سبب عزة الأمة وكرامتها وسعادتها، لتأخذ بها الأمة الإسلامية فترتقي وتعز، ثم بينت أسباب الانحدار الأمم، وهي منتشرة في الأمة الإسلامية ليتعدوا عنها ويحذروا منها، وضربت أمثلة على أمم أخذت بأسباب الارتقاء فكان لها ما أرادت أمنه، وأمم عملت بأسباب الانحدار فأنحدرت وهلكت.

ثم حاولت جهدي إبراز جانب الإعجاز الاجتماعي في القرآن من خلال عقد مقارنة بين ما جاء في القرآن من عوامل الارتقاء والانحدار، وما ذكره علماء الاجتماع الغربيين في هذا الجانب، وقد اجتهدت في بيان ما يتميز ويتعالى به القرآن على نظريات علم الاجتماع، وما كان للقرآن من دور عظيم في إنشاء مجتمعات قوية متماسكة نظيفة طاهرة، تختلف تمام الاختلاف عن تلك المجتمعات التي تقيم بناءها على نظريات علم الاجتماع، وهي مجتمعات متفككة تنتشر فيها الجريمة والرديلة والأخلاق الدنيئة والعادات القبيحة.

وهذا جانب هام من جوانب الإعجاز القرآني.

أهمية وأسباب اختيار الموضوع:

تكمن أهمية الموضوع وأسباب اختياره في أنه:

١. يعالج واقع الأمة الإسلامية اليوم، وما أصابها من الذل والهوان بعدما كانت فيه من العزة والكرامة.

٢. الكشف عن الإعجاز الاجتماعي في القرآن الكريم، هذا الوجه من الإعجاز الذي لم يتعرض له أحد من العلماء حتى عصرنا الحاضر إلا ما كان من إشارة سريعة إليه في كتاب النبأ العظيم للدكتور محمد عبد الله دراز، دون تفصيل أو بيان له.

٣. إعادة الأمل إلى نفوس المسلمين بنصر الله وارتقاء الأمة الإسلامية وإقامة دولة الخلافة الإسلامية كما كانت في سابق عهدها.
٤. انغماس المجتمعات في الموبقات التي تؤدي إلى تعجيل العقوبة.
٥. علاج هذه الموبقات كما يعرضها القرآن الكريم.
٦. إظهار عوامل العزة كما يعرضها القرآن الكريم.
٧. إثراء المكتبة الإسلامية ببحث جديد يحمل في طياته خيراً للأمة الإسلامية.

أهداف البحث:

١. الكشف عن سنة الله في الكون والإنسان من حيث النصر والتمكين والدمار والهلاك، وذلك من خلال بيان نماذج من الأمم التي أهلكتها الله ونماذج من الأمم التي نصرها الله تعالى.
٢. التوصل إلى الفرق الشاسع بين ما يعرضه القرآن الكريم من قضايا وعوامل هامة للدمار والهلاك، وعوامل هامة للنصر والتمكين، وبين ما تزعمه القوانين الاجتماعية التي هي من نسج الخيال البشري، وإظهار قصور ذلك عن الوصول بالإنسان إلى بر النجاة.
٣. إقامة الحجة الواضحة على أن الحضارة والمدنية الحديثة ما هي إلا عرض زائل وأن الحرية الفردية الغير منضبطة سبب الانحراف، الذي يؤدي إلى الضياع والدمار.

منهج البحث:

١. جمع الآيات القرآنية التي تتعلق بكل جانب من جوانب الموضوع.
٢. تفسير الآيات القرآنية في أكثر الأحيان.
٣. أفسر الآيات من عدة تفاسير ثم اختصر تفسيراً شاملاً من هذه التفاسير جميعاً وهذا في الغالب.

٤. أربط الفقرات التي أكتبها بموضوع البحث وهو الارتقاء والانحدار قدر الإمكان مع الحذر من التكرار.
٥. أخرج الآيات القرآنية من مواضعها في كتاب الله.
٦. أستشهد بالأحاديث النبوية أحياناً عند الحاجة.
٧. أخرج الأحاديث من مصادرها الأصلية.
٨. لم أترجم للصحابة، وترجمت لغيرهم في أغلب الأحيان.
٩. لم أذكر جهود المسلمين في نظريات علم الاجتماع، وإنما اكتفيت بذكر نظريات لعلماء الاجتماع الغربيين لأن علماء الاجتماع المسلمين تأثروا بما جاء في القرآن من عوامل الارتقاء والانحدار.
١٠. أحيل إلى المواطن التي مرّ ذكرها للرجوع إليها عند الحاجة.

الدراسات السابقة:

إنني ومن خلال البحث في هذا الموضوع لم أعر على كتاب مستقل يشتمل على الجوانب العديدة التي اشتملت عليها هذه الرسالة.

إلا أنني عثرت على كتاب منشور وهو رسالة ماجستير مقدمة لكلية أصول الدين والدعوة بجامعة الأزهر الشريف، لباحث مصري وهو محمد السيد محمد يوسف، وهذه الرسالة موسومة باسم "التمكين للأمة الإسلامية".

يتحدث فيها الباحث عن عوامل التمكين وعوائقه، ثم تحدث عن السنن الربانية على طريق التمكين ومبشرات التمكين.

كما وجدت رسالة أخرى مقدمة لكلية الآداب جامعة عين شمس، وهذه الرسالة بعنوان "سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها" لباحث جزائري اسمه محمد هيشور وهي مطبوعة ومنشورة.

وقد ركّز الباحث في رسالته على جانب الحضارة ومفهومها وآراء المفكرين

الغربيين والمسلمين فيها. كما تحدث عن سنن التجدد والاستبدال الحضاري في القرآن الكريم.

وتعرض الباحث في رسالته إلى سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها إلا أنه لم يتطرق إلا لبعض السنن القرآنية في ذلك والتي يغلب عليها الطابع الثقافي. ومن الجهود السابقة في هذا الموضوع قرأت كتاباً بعنوان "أثر الذنوب في هدم الأمم والشعوب" وهو عبارة عن محاضرة ألقاها الشيخ محمود الصواف في مكة المكرمة، ولا يزيد عدد صفحاته على التسعين صفحة من القطع الصغير.

وقد استعرض المؤلف في هذا الكتيب أحوال بعض الأمم السابقة، وما آل إليه أمرها من الهلاك والبوار، إلا أنه لم يتعرض للموضوع من جميع جوانبه بل اقتصر على بعضها.

خطة البحث:

يشتمل البحث على تمهيد وستة فصول وخاتمة وهي على النحو التالي:

التمهيد ويشتمل على ما يلي:

١. التعريف بالأمة لغة واصطلاحاً.
٢. استخلاف الله للإنسان في الأرض.
٣. مدلول الحضارة ومقوماتها.

الفصل الأول

حقيقة الارتقاء ومقوماته في ضوء القرآن

تمهيد: تعريف الارتقاء

مقومات الارتقاء في ضوء القرآن الكريم وفيه عشرة مباحث وهي:

المبحث الأول: الإيمان.

المبحث الثاني: التقوى والعمل الصالح.

- المبحث الثالث: طاعة الله ورسوله.
- المبحث الرابع: العلم الديني والديني، ودور العلماء في ارتقاء الأمم.
- المبحث الخامس: الجهاد في سبيل الله.
- المبحث السادس: الصبر والشكر.
- المبحث السابع: التوكل على الله، والأخذ بالأسباب ومنها عمارة الأرض والسعي في مناكبها.
- المبحث الثامن: الاستغفار.
- المبحث التاسع: نصره دين الله بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والعمل لإقامة الخلافة الإسلامية.
- المبحث العاشر: الإصلاح والعدل.

الفصل الثاني

نماذج لأمم أخذت بعوامل الارتقاء فأعزها الله

- ويشتمل على أربعة مباحث وهي:
- المبحث الأول: قوم يونس عليه السلام.
- المبحث الثاني: بنو إسرائيل بقيادة يوشع بن نون.
- المبحث الثالث: طالوت ومن بعده داود وسليمان عليهما السلام.
- المبحث الرابع: الأمة الإسلامية.

الفصل الثالث

حقيقة الانحدار وأسبابه في ضوء القرآن الكريم

- تمهيد: تعريف الانحدار.
- أسباب الانحدار في ضوء القرآن الكريم وفيه خمسة مباحث وهي:
- المبحث الأول: "الكفر بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم" ويشتمل على مطلبين:

المطلب الأول: تعريف الكفر وأسبابه وأقسامه.

المطلب الثاني: أمثلة على أثر الكفر في الهلاك.

المبحث الثاني: الظلم. ويشتمل على مطلبين:

المطلب الأول: تعريف الظلم والنهي عنه.

المطلب الثاني: خطر الظلم على الأمة، وأمثلة على خطره.

المبحث الثالث: الفساد في الأرض. ويشتمل على مطلبين:

المطلب الأول: تعريف الفساد وأسباب انتشاره، وعلاج الإسلام للفساد.

المطلب الثاني: أنواع الفساد:

أولاً: الفساد السياسي: الحكم بغير ما أنزل الله، موالاة الكافرين،

الاستبداد السياسي.

ثانياً: الفساد الاقتصادي: الربا، التطفيف في الميزان.

ثالثاً: الفساد الاجتماعي: التنازع والتفكك وعدم التعاون.

المبحث الرابع: الانحطاط الأخلاقي. ويشتمل على ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: أسباب انتشاره.

أولاً: ضعف التقوى والوازع الديني.

ثانياً: الاختلاط والتبرج.

المطلب الثاني: من مظاهر الانحطاط الأخلاقي انتشار الزنا وشرب الخمر

والسرقة والخيانة.

المطلب الثالث: خطر الانحطاط الأخلاقي على الأمة في الماضي والحاضر.

المبحث الخامس: البغي والاستكبار في الأرض ويشتمل على مطلبين.

المطلب الأول: تعريفهما والتحذير منهما.

المطلب الثاني: بعض أمثلة البغي والاستكبار وآثارهما على الأمم.

الفصل الرابع

نماذج للأمم انحرفت فأهلكها الله

ويشتمل على ستة مباحث:

المبحث الأول: قوم نوح عليه السلام.

المبحث الثاني: قوم لوط عليه السلام.

المبحث الثالث: ثمود.

المبحث الرابع: عاد.

المبحث الخامس: قوم فرعون.

المبحث السادس: أصحاب القيل.

الفصل الخامس

عوامل الارتقاء والانحدار بين حقائق القرآن ونظريات علم الاجتماع

ويشتمل على مبحثين:

المبحث الأول: نظريات علم الاجتماع وتناولها لعوامل الارتقاء والانحدار.

المبحث الثاني: مقارنة هذه النظريات مع عوامل الارتقاء والانحدار في القرآن، مع

بيان نتيجة المقارنة وإبراز وجه الإعجاز الاجتماعي في القرآن.

الفصل السادس

الأمة الإسلامية بين الارتقاء والانحدار

ويشتمل على مبحثين:

المبحث الأول: نبذة عن ماضي المسلمين وحاضرهم.

المبحث الثاني: البشائر بارتقاء الأمة الإسلامية.

الخاتمة: وتشتمل على أهم النتائج والتوصيات.

الفهارس:

١. فهرس الآيات القرآنية.
٢. فهرس لأطراف الأحاديث الشريفة.
٣. فهرس الأعلام والرواة.
٤. فهرس المصادر والمراجع.
٥. فهرس الموضوعات.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مَهَيِّدٌ

تعريف الأمة لغة واصطلاحاً:

الأُمَّة لغة: أمُّ الشيء أصله.

وأصل الأم أمّة لذلك تجمع على أمهات.

والأُمَّة الجماعة التي يجمعها أمر ما، إما دين واحد أو زمان واحد أو مكان واحد سواء

كان الأمر الجامع تسخييراً أو اختياراً وجمعها أمم.

والأُمَّة: القرن من الناس: يقال قد مضت أمم أي قرون. وأمة كل نبي: من

أرسل إليهم.

والأُمَّة: الطريقة والدين يقال فلان لا أمة له أي لا دين له ولا نحلة له .

والأُمَّة: الحين قال تعالى: ﴿وَأَذَكَّرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾^(١) أي حين. وكل جنس من

الحيوان أمة^(٢) .

الأُمَّة اصطلاحاً: "تعني الأمة في الديمقراطية القديمة أو الحديثة "كل شعب محصور في

— حدود جغرافية تجمع بين أفرادها روابط الجنس واللغة والعادات المشتركة".

أي إن الديمقراطية مقترنة بفكرة القومية أو العنصرية وتسايرها، أما الأمة في

الإسلام فلا تقوم على هذه العناصر الضيقة، "وإنما تقوم الأمة في الإسلام على أساس

وحدة العقيدة دون تقييد بالجنس أو اللغة أو المكان"، فإن كل من اعتنق الإسلام

والتحق بالأمة أصبح عضواً في الأمة الإسلامية^(٣) .

(١) سورة يوسف آية ٤٥ .

(٢) انظر: المفردات في غريب القرآن- للراغب الأصفهاني، ص ٢٣. الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية-

إسماعيل بن حماد الجوهري، ج ٥ ص ١٨٦٤. لسان العرب- لابن منظور- ج ١ ص ٢٢ وما بعدها . المعجم

الوسيط- د. إبراهيم أنيس، د. عبد الحلیم منتصر- ج ١ ص ٢٧ ط ٢.

(٣) دراسات في الحضارة الإسلامية- د. أحمد الشريف- ص ٢٢٧-٢٢٨.

استخلاف الله الإنسان في الأرض:

كرم الله سبحانه وتعالى الإنسان، وجعله مفضلاً على جميع مخلوقات هذه الأرض، وهياً له فيها أسباب العيش والسعادة. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾^(١).

"وهذه الكرامة يدخل تحتها خلقهم على هذه الهيئة الحسنة وتخصيصهم بما خصهم به من المطاعم والمشارب والملابس على وجه لا يوجد لسائر أنواع الحيوان مثله، وأعظم خصال التكريم العقل، فإنهم به تسلطوا على سائر الحيوانات، وميزوا بين الحسن والقبيح وتوسعوا في المطاعم والمشارب، وكسبوا الأموال التي تسبوا بها إلى تحصيل أمور لا يقدر عليها الحيوان، وبه قدروا على تحصيل الأبنية التي تمنعهم مما يخافون، وعلى تحصيل الأكسية التي تقيهم الحر والبرد"^(٢).

يقول صاحب الظلال: "قد كرم الله هذا المخلوق البشري على كثير من خلقه... وكرمه بخلقته على تلك الهيئة، بهذه الفطرة التي تجمع بين الطين والنفخة، فتجمع بين الأرض والسماء في ذلك الكيان، وكرمه بالاستعدادات التي أودعها فطرته، والتي استأهل بها الخلافة في الأرض يغير فيها ويبدل، وينتج فيها وينشئ، ويركب فيها ويحسل، ويبلغ بها الكمال المقدر للحياة، وكرمه بتسخير القوى الكونية له في الأرض وإمداده بعون القوى الكونية في الكواكب والأفلاك"^(٣).

"فهو الذي أودع الأرض هذه الخصائص والموافقات التي تسمح بحياة هذا الجنس هو الذي جعلها مقراً صالحاً لنشأته بجوها، وتركيبها، وحجمها وبعدها عن الشمس والقمر، ودورتها حول الشمس، وميلها على محورها وسرعة دورتها إلى آخر هذه الموافقات التي تسمح بحياة الجنس الإنساني عليها، وهو الذي أودع هذه الأرض

(١) سورة الإسراء آية ٧٠.

(٢) فتح القدير - للشوكاني - ج ٣، ص ٣٠٤.

(٣) في ظلال القرآن - سيد قطب - م ٥ ج ١٥ ص ٣٤٦.

من الأقوات والأرزاق ومن القوى والطاقات ما يسمح بنشأة هذا الجنس وحياته، وبنمو هذه الحياة ورقبها معاً، وهو الذي جعل هذا الجنس أكرم مخلوقات هذه الأرض قادراً على تطويعها واستخدامها بما أودعه من خصائص واستعدادات للتعرف على نواميس هذا الكون وتسخيرها في حاجته" (١).

وهذا الإنسان الذي كرمه الله وشرفه جعله خليفة في الأرض يحكم فيها بالشرع قال تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٢).

قال ابن جرير: وإنما معنى الخلافة التي ذكرها الله إنما هي خلافة قرن منهم قرناً^(٣)، قال والخليفة الفعلية من قولك خلف فلان فلاناً في هذا الأمر إذا قام مقامه فيه بعده، ومن ذلك قيل للسلطان الأعظم خليفة لأنه خلف الذي كان قبله فقام بالأمر فكان منه خلفاً^(٤). وقد ذهب بعض العلماء إلى ان المراد بالخليفة هنا آدم عليه السلام خاصة إلا أن هذا ليس مراداً على الأرجح، يقول ابن كثير: (وليس المراد ههنا بالخليفة آدم عليه السلام فقط كما يقوله طائفة من المفسرين، وعزاه القرطبي إلى ابن عباس وابن مسعود وجميع أهل التأويل، وفي ذلك نظر، بل الخلاف في ذلك كثير ... والظاهر أنه لم يرد آدم عيناً إذ لو كان ذلك لما حسن قول الملائكة (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء) فإنهم أرادوا أن من هذا الجنس من يفعل ذلك وكأنهم علموا ذلك بعلم خاص أو بما فهموه من الطبيعة البشرية^(٥)).

"وهذا التكريم للإنسان يجعله خليفة في الأرض إنما يدل على القيمة الكبرى التي يعطيها الله سبحانه للإنسان ولدوره في الأرض، وملكانه في نظام الوجود، وللقيم

(١) دراسات في الحضارة الإسلامية- د. أحمد الشريف، ص ١٤٤.

(٢) سورة البقرة: آية ٣٠.

(٣) جامع البيان في تفسير القرآن- لابن جرير الطبري، ج ١ ص ١٥٨.

(٤) المرجع السابق ج ١ ص ١٥٦.

(٥) تفسير القرآن العظيم- لابن كثير، ج ١ ص ٦٩.

التي يوزن بها، ثم حقيقة ارتباطه بعهد الله، وحقيقة هذا العهد الذي قامت خلافته على أساسه.

وتتبدى تلك القيمة الكبرى التي يعطيها الخالق للإنسان في الإعلان العلوي الجليل في الملائكة الكريمة، إنه مخلوق ليكون خليفة في الأرض، كما تتبدى في أمر الملائكة بالسجود له، وفي طرد إبليس الذي استكبر وأبى وفي رعاية الله له أولاً وأخيراً. ومن هذه النظرة للإنسان تنبثق جملة اعتبارات ذات قيمة كبيرة في عالم التصور وفي عالم الواقع على السواء وأول اعتبار من هذه الاعتبارات هو أن الإنسان سيد هذه الأرض، ومن أجله خلق كل شيء فيها، فهو إذن اعز وأكرم وأعلى من كل شيء مادي، ومن كل قيمة مادية في هذه الأرض جميعاً، ولا يجوز إذن أن يستعبد أو يستذل لقاء توفير قيمة مادية أو شيء مادي، والاعتبار الثاني هو أن دور الإنسان في الأرض هو الدور الأول، فهو الذي يغير ويبدل في أشكالها وفي ارتباطاتها وهو الذي يقود اتجاهاتها ورحلاتها، وليست وسائل الإنتاج ولا توزيع الإنتاج هي التي تقود الإنسان وراءها ذليلاً سلبياً كما تصوره المذاهب المادية التي تحقر دور الإنسان وتصغر، بقدر ما تعظم من دور الآلة وتكبر! إن النظرة القرآنية تجعل هذا الإنسان بخلافته في الأرض، عاملاً مهماً في نظام الكون، ملحوظاً في هذا النظام، فخلافته في الأرض تتعلق بارتباطات شتى مع السموات ومع الرياح ومع الأمطار ومع الشمس والكواكب، وكلها ملحوظ في تصميمها وهندستها إمكان قيام الحياة على الأرض وإمكان قيام هذا الإنسان بالخلافة، فأين هذا المكان الملحوظ من ذلك الدور الذليل، الصغير الذي تخصصه له المذاهب المادية ولا تسمح له أن يتعداه"^(١).

(١) في ظلال القرآن - سيد قطب - م ١ ج ١ ص ٦٥.

الحضارة

الحضارة: لغة:

الحَضْرُ خلاف البدو، والحاضرُ خلاف البادي .
الحَضَارَةُ والحَضَارَةُ: الإقامة في الحضر.
والْحَضْرُ والحَضْرَةُ والحاضِرَةُ: خلاف البادية، وهي المدن والقرى والريف،
سميت بذلك لأن أهلها حضروا الأمصار ومساكن الديار التي يكون لهم بها قرار^(١) .
وفي المفردات حضر: الحضر خلاف البدو والحَضَارَةُ والحَضَارَةُ السكون بالحضر ثم
جعل اسمًا لشهادة مكان أو إنسان أو غيره قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ
أَحَدُكُمْ الْمَوْتُ﴾^(٢) وقال تعالى: ﴿وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ﴾^(٣) وقال تعالى: ﴿مَا
عَمِلْتُمْ مِنْ خَيْرٍ مُحَضَّرًا﴾^(٤) أي يحضره أصحابه.
والْحَضْرُ: خص بما يحضر به الفرس إذا طلب جريه يقال أحضر الفرس،
وحاضرته محاضرة وحضارًا إذا حاجتته من الحضور كأنه يحضر كل واحد حاجته.
والحضر يكون مصدر حضرت وموضع الحضور^(٥) .

هذا المعنى اللغوي هو الذي كانت تدل عليه كلمة الحضارة في الماضي، إلا أن
مدلول كلمة الحضارة قد أخذ منحى آخر في العصر الحاضر إذ أصبحت تدل على
معان أدق وأعمق من ذلك المعنى السابق، وهو معنى الارتقاء والارتفاع.

يقول الدكتور أحمد إبراهيم الشريف: "ظلت الكلمة -الحضارة- بجميع
مشتقاتها على هذا المدلول -اللغوي- ولم تتحول عنه إلا في العصر الحديث، حيث
أخذت تكتسب دلالة جديدة ومعنى مغايرًا لمعناها القديم في معاجم اللغة، ولم تعد

(١) لسان العرب - لابن منظور - ج ١ ص ٩٠٧.

(٢) سورة البقرة آية ١٨٠

(٣) سورة النساء آية ١٢٨

(٤) سورة آل عمران ٣٠

(٥) المفردات في غريب القرآن - للراغب الأصفهاني - ص ١٢٢.

كلمة "الحضارة" في العرف اللغوي المعاصر مقصورة على مدلولها القديم المقابل لمدلول "البداءة" وإنما جاوزته إلى مدلول آخر هو التعبير عن ارتقاء المجتمع وارتفاعه عن المستويات البدائية، ومن ذلك يقال مجتمع متحضر، ومجتمع غير متحضر. ويقصد عادة بالمجتمع المتحضر ذلك الذي له قيمة الروحية الرفيعة، وأساليبه المادية المتطورة في مواجهة الحياة والطبيعة. كما يقصد بالمجتمع غير المتحضر ذلك الذي لم يجاوز الطور البدائي في قيمه الروحية وأساليبه حياته العملية والمادية. هذا وقد توسع العرف اللغوي الحديث في مدلول الحضارة والتحضر، فلم يجعل ذلك المدلول مقصوراً على وصف المجتمع وتقدير طوره التاريخي، بل هو يمتد به حتى يتسع إلى وصف الأفراد والأعمال، فيقال إنسان متحضر أو غير متحضر، كما يقال كذلك عمل متحضر وعمل غير متحضر" (١).

أما الحضارة اصطلاحاً:

فقد اختلف الباحثون فيها، ولم يتفقوا على تعريف محدد لها، وجاءت تعريفاتهم تبعاً لاختلاف أقطارهم ومذاهبهم ومن هذه التعريفات تعريف ابن خلدون الذي يقول: "الحضارة أحوال عادية زائدة على الضروري من أحوال العمران، زيادة تتفاوت بتفاوت الرِّقَّة، وتفاوت الأمم في القلة والكثرة تفاوتاً غير منحصر... ثم يبين أن الحضارة لا تظهر إلا في المدن والقرى وأنها غاية العمران وأنها تتصل بالتفنن في الترف واستجادة أحواله، والكلف بالصنائع التي تؤنق من أصنافه وسائر فنونه من الصنائع المهيأة للمطابخ أو الملابس أو المباني أو الفرش أو الأواني، ولسائر أحوال المنزل، ويلزم لهذا التأنق صناعات كثيرة" (٢).

وعرفها الخوراني بقوله: "هي عقائد دينية وازدهار اقتصادي، وإنجازات إنشائية وفنية، وأنظمة تشريعية، وتضامن اجتماعي وفق تقاليد وعادات موحدة" (٣).

(١) دراسات في الحضارة الإسلامية - ص ١٢.

(٢) انظر: المقدمة - لابن خلدون - ج ١ ص ١٦٨.

(٣) الإنسان والحضارة - يوسف الخوراني - ص ١٤.

أما أحمد شلبي فعرفها بأنها: "الإجازات التي تحقق للبشرية، أو حققتها البشرية من خلق وسلوك ومعارف" (١).

أما أبو الأعلى المودودي فيعرف الحضارة فيقول: "هي تصور سليم للحياة الدنيا وغايتها في نظام اجتماعي، يقود الإنسان إلى الرقي والرخاء والأمان" (٢).

✓ أما سيد قطب فيعرفها بقوله: "هي ما تعطيه للبشرية من تصورات ومفاهيم ومبادئ وقيم تصلح لقيادة البشرية، وتسمح لها بالنمو والترقي الحقيقيين النمو والترقي للعنصر الإنساني وللقيم الإنسانية، وللحياة الإنسانية" (٣).

ومن العلماء الغربيين الذين عرفوا الحضارة غوستاف لوبون الذي قال: هي نضوج الآراء والمبادئ والمعتقدات، وتغير مشاعر الإنسان إلى الأفضل (٤). من التعريفات السابقة يتبين أن مفهوم الحضارة مفهوم عام يتناول كل قدرات الإنسان المتجهة نحو الرقي والتقدم في جميع مجالات الحياة (٥).

الفرق بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية:

أولاً: تقوم الحضارة الغربية على أساس فصل الدين عن الحياة وإنكار أن للدين أثراً في الحياة، فتتج عن ذلك فكرة فصل الدين عن الدولة لأنها طبيعية عند من يفصل الدين عن الحياة، وينكر وجود الدين في الحياة، فكانت المنفعة هي مقياس الأعمال والنفعية أساس النظام والحضارة فصورت الحياة بأنها المنفعة، ولذلك كانت السعادة عندهم إعطاء الإنسان أكبر قسط من المتعة الجسدية وتوفير أسبابها له.

ولهذا كانت الحضارة الغربية حضارة نفعية بحتة لا تقيم لغير المنفعة أي وزن

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية - د. أحمد شلبي - ج ١ ص ٢٠.

(٢) الحضارة الإسلامية وأسسها ومبادئها. الإيمان بالله وملائطته وكتبه ورسله واليوم الآخر - لأبي الأعلى المودودي - ص ٤، دار الخلافة للطباعة والنشر.

(٣) معالم في الطريق - سيد قطب - ص ١٢٦، بتصرف.

(٤) روح الجماعة، ص ١٧.

(٥) تاريخ الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامي - د. أبو زيد شلبي - ج ١ ص ٢٣.

وأما الناحية الروحية فهي فردية لا شأن للجماعة بها، وهي محصورة في الكنيسة ورجال الكنيسة.

وعلى هذا الأساس جعلت الأعمال الإنسانية تابعة لمنظمات منفصلة عن الدولة كمؤسسة الصليب الأحمر وغيرها، وعزلت عن الحياة كل قيمة إلا القيمة المادية وهي الربح.

فكانت الحضارة الغربية هي هذه المجموعة من المفاهيم عن الحياة.

أما الحضارة الإسلامية فإنها تقوم على أساس هو النقيض من أساس الحضارة الغربية، وتصويرها للحياة غير تصوير الحضارة الغربية لها، ومفهوم السعادة فيها يختلف عن مفهومها في الحضارة الغربية كل الاختلاف.

فالحضارة الإسلامية تقوم على أساس الإيمان بالله وأنه جعل للكون والإنسان والحياة نظاماً يسير بموجبه، وأنه أرسل سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم بالإسلام ديناً، أي إن الحضارة الإسلامية تقوم على أساس العقيدة الإسلامية وهي الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره من الله تعالى " فكانت العقيدة الإسلامية هي الأساس للحضارة، فهي قائمة على أساس روحي.

أما تصوير الحياة في الحضارة الإسلامية فإنه يتمثل في منهج الإسلام الذي انبثق عن العقيدة الإسلامية، والتي تقوم عليها الحياة، وأعمال الإنسان في الحياة هذا المنهج الذي هو مزج المادة بالروح، أي جعل الأعمال مسيرة بأوامر الله تعالى ونواهيه هي الأساس لتصوير الحياة.

أما القصد من القيام بعمل ما فهو القيمة التي يراعى تحقيقها حين القيام بذلك العمل، وهذه القيمة تختلف باختلاف الأعمال فقد تكون قيمة مادية كمن يتاجر بقصد الربح فإن تجارته عمل مادي ويسيره فيها إدراكه لصلته بالله حسب أوامره ونواهيه وابتغاء رضوانه تعالى، والقيمة التي يراعى تحقيقها من القيام بالعمل وهي الربح، وهي قيمة مادية، وقد تكون القيمة روحية كالصلاة والزكاة والصوم والحج، وقد تكون القيمة أخلاقية كالصدق والأمانة والوفاء، وقد تكون القيمة إنسانية كإنقاذ

غريق وإغائة ملهوف.

وهذه القيم يراعها المسلم حين القيام بالعمل حتى يحققها، إلا أنها ليست المسيرة لأعماله وليست المثل الأعلى الذي يهدف إليه، بل هي القيمة من العمل وتختلف باختلاف أنواعه.

وأما السعادة فهي نيل رضوان الله تعالى، وليست إشباع جوعات الإنسان لأن إشباع جوعات الإنسان جميعها "عضوية وغرائزية" هي وسيلة لازمة للمحافظة على ذات الإنسان، ولا يلزم من وجودها السعادة. هذا هو تصوير الحياة، وهذا هو الأساس الذي يقوم عليه هذا التصوير، وهو الأساس للحضارة الإسلامية، وأنها تناقض الحضارة الغربية كل المناقضة كما أن الأشكال المدنية الناجمة عنها تناقض الأشكال المدنية الناجمة عن الحضارة الغربية.

إن الحضارة الغربية التي تجعل أساسها فصل الدين عن الحياة خلافاً لفطرة الإنسان ولا تقم للناحية الروحية وزناً في الحياة العامة، وتصور الحياة بأنها المنفعة فقط، هذه الحضارة لا تنتج إلا شقاء وقلقاً دائمين وما دامت المنفعة هي الأساس فالتنازع عليها طبيعي، والاعتماد على القوة في إقامة الصلات بين البشر طبيعي فالاستعمار طبيعي عند أهل هذه الحضارة، وتكون الأخلاق فرعونية لأن المنفعة وحدها ستظل هي أساس الحياة^(١).

ثانياً: إن الحضارة الإسلامية يختلف طريقها عن طرق سائر الحضارات في التصورات والنظريات والأفكار والأخلاق والآداب والطباع، والإسلام ينظر للحياة الإنسانية نظرة مختلفة عن الغايات التي قد حددها لها سائر الحضارات في الدنيا، ولذا فإن الصورة التي يعامل بها الإسلام الدنيا وما فيها حسب نظريته وعلى مقتضى من غايته هي مختلفة عن الطرق التي تسلكها سائر الحضارات في الدنيا لتحقيق غاياتها، فكم من تصورات عقلية وأفكار ذهنية ورغبات نفسية وطرق مقررّة لقضاء الحياة ليس اتباعها بمشروع فحسب، بل هي من لوازم الحضارة في نظر حضارات أخرى لكن يأتي

(١) تاريخ الحضارة - د. أبو زيد شلبي - ج ١ ص ٣٠.

الإسلام إلا أن يحرمها وينهى عنها المؤمنين برسالته، لأنها لا تلائم ملاءمة تامة لما لهذه الحضارات من تصورات للحياة الإنسانية وتساعدتها في تحقيق غاياتها، ولكنها لا تلائم تصور الإسلام للحياة الإنسانية وتضع العراقيل في سبيل تحقيق غايته، فالفنون الجميلة -مثلاً- روح الحضارة وقوامها في نظر كثير من الحضارات القائمة في الدنيا فهي لذلك تعتبر البارعين في هذه الفنون من أبطالها القوميين البارزين وتنظر إليهم بعين الإجلال والتقدير، ولكن الإسلام يحرم بعض هذه الفنون ويقول بكراهة بعضها ويبيح بعضها إلى حد ما. إن قانونه -تشريعه- لا يبيح ترقية الذوق الجميل والاستمتاع بالجمال الصناعي إلا حيث لا ينسى الإنسان ربه، ولا يفتر عن العمل لابتغاء مرضاته ولا يتقاعس عن بذل الجهود لأداء واجبات منصب خلافته، إلى هذا الحد يبيح الإسلام ترقية الذوق الجميل، والاستمتاع بالجمال الصناعي، ولكن إذا غلب هذا الذوق شعور الإنسان بواجبه وإذا بلغ انهماك الإنسان في الاستمتاع بالمشتبهات والاسترسال وراء الرغبات واللذات النفسية حيث يصبح عبداً للحسن والجمال بدلاً من أن يكون عبداً لله عاملاً على ابتغاء مرضاته... فهناك يقيم الإسلام حواجز التحريم أو الكراهية في وجه الإنسان وينهاه عن التقدم في سبيل هذه الفنون. ولنا أن نقول مثل هذا في شؤون كثيرة أخرى من شؤون الحياة الاجتماعية والمدنية^(١).

مقومات الحضارة:

تقوم الحضارة على مقومات وأسس لا بد من توافرها، في أي أمة تريد أن تنشئ حضارة، وتقيم صرحها، ودون توافر هذه المقومات لا يمكن للأمة أن تقيم حضارة. وهذه المقومات هي:

١- العقيدة: "فالعقيدة هي الأساس الأول الذي تقوم عليه الحضارة الإنسانية وهي عند المسلمين شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، هي العبودية لله وحده دون سواه، والاعتراف بالخالقية، والسلطان له سبحانه، وتزويجه عن

(١) الحضارة الإسلامية وأسسها ومبادئها - للمودودي - ص ٦.

الشريك والمثيل" (١)

والعقيدة تكفل للمجتمع الوحدة والترابط، كما تُوجد فيه التعاون والتعامل والتكافل، وهي تدفع بسرعة متزايدة في رقيه وتقدمه يوماً فيوماً... وبذلك يبرز إلى حيز الوجود نوع خاص من العمران والمدنية، وتنهض الأمة بسيرة جديدة وعقلية جديدة ومنهاج للعمل جديد، وتشيد صرح الحضارة على أسلوب مبتكر جديد" (٢)

والعقيدة تسمو بالإنسان إلى أعلى درجات الطهر والعفاف فلا تستترله شهوة ولا تطوعه غريزة شرود، بل تعطيه العقيدة قوى يستعصى بها على أي هوى أو نزوة فلا يضعف ولا يستكين لعواصف الشهوات وإغراءات المادة.

كما تعطيه العقيدة كرامة يجالذ عبودية الإنسان للإنسان وتسلط الطواغيت على حياته ودينه فلا يتخذ رباً إلا الله ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (٣)

وتعطي العقيدة المسلم سمواً في التفكير فلا يكون أسيراً لرواسب ماضية ونحل منحرفة وقد كان هذا دأب الجاهلين من قبل ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ (٤)

وتبعث العقيدة في نفوس أصحابها التصور الحقيقي لقيم الأشياء فلا ينطلي عليها غيش الدعايات وبهرج الشبهات، فإن من يعرف ربه يعرف قيمة نفسه ويعرف قيمة إيمانه ويعلم تسخير العوالم له، ويعلم كذلك أن الناس كلهم عبيد الله وكلهم من خيره يرزقون، فلا تزلف لأحد إذاً، لأن الكل مخلوق، والكل محتاج إلى عطف الله ورضاه، وإذا استعان صاحب العقيدة فإنما يستعين بالله، وإذا طلب فليطلب من الله

(١) الحضارة الإسلامية مقارنة بالحضارة الغربية - د. توفيق يوسف الواعي - يوسف الواعي - ص ٢١١ -

٢١٢ باختصار - دار الوفاء للطباعة والنشر المنصورة - الطبعة الأولى ١٤٠٨ - ١٩٨٨

(٢) الحضارة الإسلامية وأسسها ومبادئها - أبو الأعلى المودودي - ص ٩٤ - دار الخلافة للطباعة والنشر

(٣) سورة آل عمران آية ٦٤

(٤) سورة البقرة آية ١٧٠

ويعلم أن الضر والنفع من الله.

كما تبث العقائد في نفوس أصحابها الرجاء في الله وطمأنينة القلب ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾^(١)

ويرى الإيمان القلب على كيفية نفسية قائمة على الثقة بالله والرجاء فيه، فهو في كل حال يتغلب على اليأس والقنوط لأن له من إيمانه كثر من الآمال الصادقة لا ينفد ولا يزول.

وتعطي العقيدة صاحبها صفات نفسية غامرة كريمة بغير حدود، من هذه الصفات الجرأة والشجاعة والبسالة النادرة، الشجاعة في كل ميدان من ميادين الحياة، الشجاعة في مواجهة النفس والشجاعة في مواجهة الشدائد، فأصحاب العقيدة لا يخافون الموت ويعلمون أنه حق لا مرية فيه ﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ﴾^(٢) فإن عاشوا عاشوا كراماً، وإن ماتوا فإلى جنة يرزقون فيها ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾^(٣) وما له لا يكون شجاعاً وقد أعد الله له ما أعد من الثواب الجزاء، وأصحاب العقائد مع هذا يعلمون أن لكل نفس أجل لا تتقدم عنه ولا تتأخر^(٤) ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا﴾^(٥).

٢- التكافل الإجتماعي: "وهو أن يتضامن أبناء المجتمع ويتساندوا فيما بينهم سواء أكانوا أفراداً أو جماعات، حكاماً أو محكومين على اتخاذ مواقف إيجابية كمرعاية اليتيم ... أو سلبية كتحریم الاحتكار ... بدافع من شعور وجداني عميق ينبع من أصل العقيدة الإسلامية، ليعيش الفرد في كفالة الجماعة وتعيش الجماعة بمؤازرة الفرد، حيث

(١) سورة التغابن آية ١١

(٢) سورة الجمعة آية ٨

(٣) سورة آل عمران آية ١٦٩

(٤) الحضارة الإسلامية مقارنة مع الحضارة الغربية ص ٢١١-٢١٧ باختصار.

(٥) سورة آل عمران آية ١٤٥

يتعاون الجميع ويتضامنون لإيجاد المجتمع الأفضل ودفع الضرر عن أفرادها" (١)
 لأن المجتمع الذي يقوم على التعاون ويتحقق بين أفرادها التكامل، ويسود في
 أرجائه الشعور بالمحبة والإخاء والإيثار والأخوة .. فهو مجتمع حصين متين متماسك،
 ولا تؤثر فيه معاول الهدم ولا ترعزعه نكبات الأيام ... ولا شك أن الأفراد حين
 يدفع الضرر عنهم ويسد خلل العاجزين منهم ويتأمن لهم مسكنهم وغداؤهم
 وتعليمهم وعلاجهم يعيشون في طمأنينة من العيش وسعادة هائلة في الحياة وإلا
 تعرضوا لتتائج لا تحمد عقبها قد تصل إلى الانتحار وارتكاب الجرائم واللجوء إلى
 أوكاز الريلة والفساد، ومعنى هذا أن المجتمع أصيب بنكسات أخلاقية واجتماعية،
 وتعرض للاهتيار والدمار" (٢)

٣- ملائمة البيئة لقيامها: من أهم الشروط التي ينبغي أن تتوفر لقيام الحضارة،
 واستمرارها ملائمة البيئة الطبيعية تربة ومناخاً لحياة الإنسان ومزاجه ملائمة تامة،
 بحيث تكون قادرة على إمداد المجتمع بمطالبة الضرورية من غذاء وملبس، ولذا كانت
 نشأة الحضارات القديمة في أودية الأنهار وفي الواحات، حيث يجد الإنسان مجالاً لمزاولة
 أسباب الحياة في حدود قدراته في ذلك الوقت بما ييسر له ممارسة الصيد والرعي
 والزراعة، هذا ومن الممكن كذلك أن تنشأ الحضارة في مكان لا تتوفر له أسباب
 الخصب، وحينئذ ينبغي لمثل هذا المكان أن يكون في ملتقى القوافل التجارية، ليعوض
 عن طريق التجارة والصناعة ما فاته من شحاء الطبيعة ومواردها.

٤- توافر المقومات الاجتماعية: هناك طائفة من المقومات الاجتماعية لا يمكن لأي
 كيان حضاري أن ينهض بدونها أو يستغني عنها، إذ إن هذه المقومات هي التي تتكفل
 بتنسيق الحياة الاجتماعية وإقامة التوازن بين حرية الفرد ومطالبة المجتمع. ويمكن أن
 تجمع هذه المقومات في أربعة مظاهر رئيسية وهي:

المقوم الإقتصادي والمقوم الأخلاقي والمقوم الثقافي والمقوم السياسي، وكل مقوم من

(١) التكافل الاجتماعي في الإسلام - عبد الله ناصح علوان - ص ١٨ - دار الإسلام للطباعة والنشر ط ٤

١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م.

(٢) المرجع السابق ص ١٩

هذه المقومات الحضارية نمط اجتماعي يعمل على تنظيم تيار معين من تيارات النشاط الإنساني.

أ. المقوم الإقتصادي: ويتمثل في أنه ذلك النمط الاجتماعي الذي يتحكم في مصادره الثروة المادية وتوزيعها بين طبقات المجتمع وأفراده، وهو بذلك من أهم مقومات الحضارة، إذ إن كثيراً من القيم الاجتماعية تتصل من قريب أو بعيد بالجانب الإقتصادي من حياة المجتمع.

ب. المقوم الأخلاقي: وهو تلك القيم التي ترسم للفرد وللجمع مثالية السلوك الإنساني في صورتها الأدبية والدينية. وكل كيان حضاري لا يمكن أن يحتفظ بحضارته إلا إذا كانت قيمه الخلقية ثابتة مستقرة فوق مستوى العقل، وفي مأمن من التساؤل الفلسفي والارتباط المنطقي ومن هنا درجت السليقة على توفيق الصلة بين الدين والأخلاق.

ج. المقوم الثقافي: ويقصد به ذلك النشاط الفكري وما يصدر عنه من ضروب المعرفة والتصورات الجمالية. وإذا كان المقوم الثقافي من أهم المقومات الحضارية، فإن اللغة هي أصل ذلك المقوم، فهي السجل الذي يشتمل على جميع المدلولات الحسية المجردة، ويشتمل كذلك على رصيد من المفهومات الروحية والتصورات الجمالية، وكذلك المضمونات العقلية والفكرية والفلسفية. ومع تقدم الحياة الاجتماعية وتطور الحضارة في صورتها الثقافية ظهرت فكرة الكتابة، فكانت خطوة واسعة ذات أثر واضح في تعميق المقوم الثقافي للحضارة. وإن من أهم وأخطر ما ينطوي عليه المقوم الثقافي للحضارة الدين بما يتضمن من معتقدات وتفسيرات لطبيعة الأشياء والظواهر الكونية، ومن المفهومات والتصورات بالنسبة إلى الطبيعة والتاريخ والعلاقات الاجتماعية ومصير الإنسان^(١)

د. المفهوم السياسي: ويتمثل في وجوب العمل بحكم الله في الأرض، وتطبيق شرعه فيها ونبذ التحاكم لأي منهج أو قانون يخالف منهج الإسلام وأحكامه.

وهنا من أعظم المقومات الحضارية لما يشمل عليه شرع الله من أحكام تصلح لإقامة مجتمع عظيم قويم.

(١) انظر دراسات في الحضارة الإسلامية - د. أحمد إبراهيم الشريف ص ٥٣ وما بعدها.

الفصل الأول

حقيقة الارتقاء ومقوماته في ضوء القرآن الكريم.

تعريف الارتقاء.

مقومات الارتقاء في ضوء القرآن الكريم

وفيه عشرة مباحث وهي:

المبحث الأول: الإيمان.

المبحث الثاني: التقوى والعمل الصالح.

المبحث الثالث: طاعة الله ورسوله.

المبحث الرابع: العلم الديني والدنيوي، ودور العلماء في ارتقاء الأمم.

المبحث الخامس: الجهاد في سبيل الله.

المبحث السادس: الصبر والشكر.

المبحث السابع: التوكل على الله، والأخذ بالأسباب ومنها عمارة الأرض

والسعي في منابها.

المبحث الثامن: الاستغفار.

المبحث التاسع: نصره دين الله بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والعمل

لإقامة الخلافة الإسلامية.

المبحث العاشر: الإصلاح والعدل.

الفصل الأول

حقيقة الارتقاء ومقوماته في ضوء القرآن الكريم.

تعريف الارتقاء:

الارتقاء: هو الصعود والارتفاع، وهو مشتق من مادة رقى، يرقى رقيًا. يقال: رقى فلان في الجبل يرتقي رقيًا إذا صعد. ويُقال رُقي فلان على الباطل إذا تقول ما لم يكن وزاد فيه، وهو من الرقي بمعنى الصعود والارتفاع، وحقيقة المعنى أنهم يرتفعون إلى الباطل ويدعون فوق ما يسمعون^(١).

ورقيت من الرقية، قال تعالى (وقيل من راق)^(٢) أي من يرقيه تنبيهًا أنه لا راق يرقيه فيحميه - أي يرتفع به من حال المرض والترع إلى حال الصحة، وينقذه مما هو فيه من مصارعة الموت^(٣).

حقيقة الارتقاء: لقد بذلت جهدي لأجد تعريفًا للارتقاء فلم أعثر على تعريفه، ومن ثم اجتهدت في تعريفه وهو: يعني تقدم المجتمعات وارتفاعها من حالة مستدنية إلى حالة متقدمة وذلك على ضوء ما ذكره القرآن الكريم من عوامل التقدم والارتفاع..

مقومات الارتقاء في ضوء القرآن الكريم:

إن القرآن الكريم مشتمل على كل عوامل ومقومات الارتقاء للمجتمعات البشرية، هذه المقومات التي لا يمكن لأي أمة من الأمم أن تنتصر وأن تعز إلا بها، وذلك لأن القرآن كتاب الله، الذي خلق الخلق، والذي يعلم سبيل سعادتهم وعزتهم،

(١) لسان العرب - لابن منظور - ج ٥ ص ٢٩٣ باختصار.

(٢) سورة القيامة آية ٢٧.

(٣) مفردات ألفاظ القرآن - للراغب الأصفهاني - ص ٣٦٣.

وقد بيّن هذا السبيل في كتابه ليسترشد به المسلمون ويهتدي به السالكون.
وقد وجدت أن من الأهمية بمكان بيان هذه المقومات وإبرازها، ليسهل
الإطلاع عليها والعمل بها، وهي مجموعة في عشرة مباحث على النحو التالي:

المبحث الأول: الإيمان

تعريف الإيمان:

الإيمان لغة: هو التصديق ومنه قوله تعالى ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا﴾^(١) أي بمصدق لنا^(٢).
الإيمان اصطلاحًا: ذهب معظم أئمة السلف رضوان الله عليهم إلى أن الإيمان هو:
"معرفة بالقلب وإقرار باللسان وعمل بالأركان"^(٣).

يقول ابن تيمية رحمه الله: أقوال السلف في تفسير الإيمان هي "تارة يقولون هو
قول وعمل وتارة يقولون هو قول وعمل ونية وتارة يقولون قول وعمل ونية واتباع
السنة، وتارة يقولون قول باللسان واعتقاد بالقلب وعمل بالجوارح، وكل هذا
صحيح. فإذا قالوا قول وعمل فإنه يدخل في القول قول القلب واللسان جميعاً وهذا
هو المفهوم من لفظ القول والكلام ونحو ذلك إذا أطلق"^(٤).
وعرفه ابن القيم^(٥) بقوله: هو حقيقة مركبة من معرفة ما جاء به الرسول صلى
الله عليه وسلم علماً، والتصديق به عقداً، والإقرار به نطقاً، والانقياد له محبة

(١) سورة يوسف آية ١٧.

(٢) الإيمان - لابن تيمية - ص ١٢٥.

(٣) المرجع السابق ص ١٢٥.

(٤) المرجع السابق ص ١٤٦.

(٥) هو شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعيد بن حريز الزراعي ثم الدمشقي الحنبلي، بل
المجتهد المطلق المفسر النحوي الصولي المتكلم الشهير بابن القيم الجوزية، ولد سنة إحدى وتسعين وستمائة، سمع
من الشهاب النابلسي وغيره وتفقه في المذهب وبرع وأفنى ولازم الشيخ تقي الدين ابن تيمية، وأخذ عنه وتفنن
في علوم الإسلام وكان عارفاً بالتفسير وباصول الدين والحديث ومعانيه وبالفقه وأصوله والعربية وله فيها اليد
الطولى، وتوفي سنة إحدى وخمسين وسبعمائة. انظر: شذرات الذهب في أخبار من ذهب . ج ٣ ص ١٦٨.

وخضوعاً، والعمل به باطناً وظاهراً، وتنفيذه والدعوة إليه بحسب الإمكان وكماله في الحب في الله والبغض في الله والعطاء لله والمنع لله وأن يكون الله وحده إلهه ومعبوده^(١).

وهذا التعريف شامل وجامع لجميع جوانب ومعاني الإيمان.

الإيمان يزيد وينقص:

إن لزيادة الإيمان ونقصه أثر في ارتقاء الأمة وانحدارها، فكلما زاد الإيمان في قلوب المسلمين ازدادوا ارتقاء ورفعة، وكانوا أهلاً لمعية الله وتأيده قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾^(٢) فالذين آمنوا بالله سبحانه حق الإيمان وأخلصوا أنفسهم لله لا يخلطون بهذا الإيمان شركاً في عبادة ولا طاعة ولا اتجاه هؤلاء لهم الأمن وهؤلاء هم المهتدون^(٣).

أما إذا نقص الإيمان في قلوبهم - وقد يصل في نقصانه إلى حد يقرب فيه من التلاشي - فإنهم عند ذلك ينحدرون ويضعفون، حتى يصبحوا أذلة صاغرين ضعفاء كما هو حال المسلمين اليوم وقد جاء ذكر زيادة الإيمان في القرآن الكريم فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾^(٤) "فالمؤمنون هم الذين إذا قرئت آيات الله زادتهم إيماناً على إيمانهم وتصديقاً على تصديقهم، وذلك هو زيادة ما تلى عليهم من آيات الله إيماناً"^(٥).

كما أن المؤمن يزداد إيماناً بالله وتوكلاً عليه عند البلاء والحن، وإذا ما تعرض للتحذير والترهيب قال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾^(٦) والمراد بالزيادة في

(١) الفوائد - لابن القيم - ص ١٠٧.

(٢) سورة الأنعام آية ٨٢.

(٣) في ظلال القرآن - سيد قطب - م ٣ ج ٧ ص ٢٩٦-٢٩٧.

(٤) سورة الأنفال آية ٢.

(٥) جامع البيان في تفسير القرآن - الطبري - ج ٦ ص ١٢٠.

(٦) سورة آل عمران آية ١٧٣.

الإيمان أنهم لما سمعوا هذا الكلام المخوف لم يلتفتوا إليه، بل حدث في قلوبهم عزم متأكد على محاربة الكفار، وعلى طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم في كل ما يأمر به وينهى عنه ثقل ذلك أو خف، لأنه قد كان فيهم من به جراحات عظيمة وكانوا محتاجين إلى المداواة^(١)، وحدث في قلوبهم وثوق بأن الله ينصرهم على أعدائهم ويؤيدهم في هذه المحاربة^(٢).

وقد كان حرص الصحابة رضي الله عنهم على زيادة إيمانهم شديداً، فهذا عمر ابن الخطاب رضي الله عنه كان يقول لأصحابه: "هلموا نزداد إيماناً فيذكرون الله عز وجل" وهذا معاذ رضي الله عنه يقول لرجل "اجلس بنا نؤمن نذكر الله عز وجل". وقال جندب بن عبد الله^(٣) وابن عمر وغيرهما: تعلمنا الإيمان ثم تعلمنا القرآن فازددنا إيماناً^(٤).

الإيمان مفتاح الرزق:

إن الإيمان من أعظم مفاتيح الرزق، التي تنزل بها البركات من السماء، وتستخرج بها الخيرات من الأرض، ويوسع الله بسببه على العباد، وقد تواردت الآيات القرآنية مثبتة هذه الحقيقة العظيمة، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾^(٥).

"فلو أن أهل القرى آمنوا بدل التكذيب، واتقوا بدل الاستهتار، لفتح الله عليهم بركات من السماء والأرض... هكذا بركات وبركات من السماء والأرض مفتوحة

(١) نزلت هذه الآية في غزوة حمراء الأسد بعد غزوة أحد بيوم واحد. وهم في طريقهم إلى المدينة - الرحيق المختوم - للمباركفوري - ص ٢٧٤ - دار إحياء التراث.

(٢) التفسير الكبير - الرازي - ج ٥ ص ١٠٠.

(٣) جندب بن عبد الله بن سفيان البجلي العلفي له صحبة ليست بالقديمة يكنى أبا عبد الله سكن الكوفة ثم انتقل إلى البصرة. أسد الغابة في معرفة الصحابة - لابن الأثير - ج ١ ص ٣٠٤ - دار إحياء التراث العربي.

(٤) الإيمان - لابن تيمية - ص ١٩٥.

(٥) سورة الأعراف آية ٩٦.

بلا حساب من فوقهم ومن تحت أرجلهم، والتعبير القرآني بعمومه وشموله يلقي ظلال
الفيض الغامر، الذي لا يتخصص بما يعهده البشر من الأرزاق والأقوات... إن العقيدة
الإيمانية في الله وتقواه، ليس مسألة منعزلة عن واقع الحياة وعن خط تاريخ الإنسان.
إن الإيمان بالله وتقواه ليؤهلان لفيض من بركات السماء والأرض وعداً من
الله ومن أوفى بعهده من الله؟ ...

والبركات التي يعد الله بها الذين يؤمنون ويتقون في توكيد ويقين، ألوان شتى
لا يفصلها النص ولا يحددها، وإيجاء النص القرآني يصور الفيض الهابط من كل مكان،
النابع من كل مكان بلا تحديد ولا تفصيل ولا بيان، فهي البركات بكل أنواعها
وألوانها، وبكل صورها وأشكالها ما يعهده الناس، وما يتخيلونه، وما لم يتهيأ لهم من
واقع ولا خيال" (١). وأكد الله الوعد السابق في الآية السابقة بزيادة الرزق للذين
آمنوا بقوله سبحانه ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ
لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا
يَعْمَلُونَ﴾ (٢).

فلو أن اليهود والنصارى أظهروا أحكام التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من
وحي وسنن على السنة الأنبياء (لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم). قال
ابن عباس: "لأعطتهم السماء مطرها وبركتها والأرض نباتها بفضل الله تعالى" (٣).
وحكى الطبري وغيره أن الكلام استعارة ومبالغة في التوسعة كما يقال فلان قد عمه
الخير من قرنه إلى قدمه" (٤).

الإيمان وأثره في ارتقاء الأمم:

الإيمان من أعظم عوامل الارتقاء والتمكين والنصر، وقد جعله الله شرطاً من

(١) في ظلال القرآن - سيد قطب - م ٣ ج ٩ ص ٥٨٦ باختصار.

(٢) سورة المائدة آية ٦٦.

(٣) المحرر الوجيز - لابن عطية الأندلسي - ج ٥ ص ١٥٢.

(٤) جامع البيان في تفسير القرآن - لابن جرير الطبري - م ٤ ج ٦ ص ٦٤٥ بتصرف.

شروط تحقيقها، إذ لا يمكن أن يتحقق أي منها بدونها قال تعالى ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (١).

"هذا وعد من الله للمؤمنين بأن يورثهم الأرض ويجعلهم فيها خلفاء متصرفين فيها تصرف الملوك في ملكهم، أو خلفاء من الذين لم يكونوا على حالهم من الإيمان والأعمال الصالحة وذلك كما استخلف الذين من قبلهم من الأمم المؤمنة برسالتها، التي أهلك الله عدوها وأورثها أرضها وديارها، كما وعدهم بأن يمكن لهم دينهم الذي ارتضاه لهم، أي يجعله ثابتاً مقررًا، مرفوع اللواء، ظاهرًا على غيره قاهرًا لمن ناواه. وفي إضافة (الدين) إلى الذين آمنوا وعملوا الصالحات وهو دين الإسلام، ثم وصفه بارتضائه لهم، تأليف لقلوبهم ومزيد ترغيب فيه، وفضل تثبيت عليه" (٢).

(وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنًا) بأن يجعل لهم مكان ما كانوا فيه من الخوف من الأعداء أمنًا ويذهب عنهم أسباب الخوف الذي كانوا فيه بحيث لا يخشون إلا الله سبحانه ولا يرجون غيره، قال تعالى ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ (٣). وقد كان المسلمون قبل الهجرة وبعدها بقليل في خوف شديد من المشركين، لا يخرجون إلا في السلاح ولا يمسون ويصبحون إلا على ترقب لتزول المضرة بهم من الكفار، ثم صاروا في غاية الأمن والدعة وأذل الله لهم شياطين المشركين وفتح عليهم البلاد ومهد لهم في الأرض ومكنهم منها" (٤).

ومما يؤكد أن الإيمان سبيل للارتقاء والعزة وشرط لذلك قول الله تعالى ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٥).

(١) سورة النور آية ٥٥

(٢) محاسن التأويل - للقاسمي - ج ٧ ص ٢٢٩ بتصرف.

(٣) سورة الأعراف آية ٨٢

(٤) فتح القدير - للشوكاني - ج ٤ ص ٦٠.

(٥) سورة آل عمران آية ١٣٩.

والخطاب في هذه الآية كان موجهاً للمؤمنين بعد غزوة أحد وما أصابهم فيها من الهزيمة والأذى وهو يناديهم "أن لا تضعفوا عن الجهاد لما أصابكم أو يصيبكم، ولا تحزنوا على ما فاتكم أو يفوتكم، أو ما أصابكم أو يصيبكم في سبيل الله (وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين) أي والحال أنكم أعلى منهم وأغلب إن صح إيمانكم، وهذه بشارة للمؤمنين بالعلو والغلبة والنصر والظفر في العاقبة، والآية تفيد أن صحة الإيمان توجب قوة القلب، والثقة بوعده الله، وقلة المبالاة بأعدائه" (١).

ويهدف القرآن بالمؤمنين، يهدف بهم إلى أرباح تجارة في الدنيا والآخرة، تجارة الإيمان بالله والجهاد في سبيل الله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَذِلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ يَغْفِرَ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢).

ولكن فضل الله عظيم وهو يعلم من تلك النفوس أنها تتعلق بشيء قريب في هذه الأرض يناسب تركيبها البشري المحدود، وهو يستجيب لها فيشرها بما قدره في علمه المكنون من إظهار هذا الدين في الأرض، وتحقيق منهجه وهيمنته على الحياة في ذلك الجيل، (وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب، وبشر المؤمنين) وهنا تبلغ الصفقة ذروة الريح الذي لا يعطيه إلا الله، الله الذي لا تنفذ خزائنه، والذي لا ممسك لرحمته فهي المغفرة والجنت والمساكن الطيبة والنعيم المقيم في الآخرة، وفوقها.. فوق السبيعة الراجحة والصفقة الكاسبة النصر والفتح القريب، فمن الذي يدلله الله على هذه التجارة ثم يتعاس عنها أو يجيد؟ (٣).

من خلال هذا الاستعراض للآيات التي بينت أثر الإيمان في الارتقاء يتجلى لنا هذا الدور العظيم الذي يحققه الإيمان بالله واتباع دينه في نصرة الأمم وارتقائها والأخذ

(١) الأساس في التفسير - سعيد حوى - ج ٢ ص ٨٨٥.

(٢) سورة الصف الآيات ١٠-١٣.

(٣) في ظلال القرآن - سيد قطب - م ٨ ج ٢٨ ص ٨٨، دار الشروق.

بأيديها إلى بر النجاة، وهذا سر الانتصارات التي حققها الله على أيدي المسلمين الأوائل والذين ملكوا مشارق الأرض ومغاربها في فترة وجيزة من عمر الأمم وهذا يعطي دافعية للأمة الإسلامية اليوم لترجع إلى ربها وتقوي إيمانها بالعمل الصالح وطاعة الله عز وجل واتباع هداه قال تعالى ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾ (١).

فاتباع هدى الله ومنهاجه سبب في الحياة السعيدة الكريمة التي لا يمكن التوصل

إليها إلا بهذا السبيل الوحيد.

المبحث الثاني: التقوى

التقوى لغة: الصيانة والحذر.

وهي من وقى يقال وقاه الله وقياً ووقاية وواقية أي صانه.
وَوَقَيْتُ الشيءَ أَقِيه إِذَا صَنَنْتَهُ وَسَتَرْتَهُ مِنَ الْأَذَى.
ويقال توقيت وأتقيت الشيء وتَقَيْتُهُ أَتَقِيهِ وَأَتَّقِيهِ وَأَتَّقِيهِ تُقِي وَتَقِيَةً وَتَقَاءً:
حَدِيثُهُ (١).

وقال ابن فارس: "التقوى يقال أصلها في اللغة قلة الكلام" (٢).
قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه هي: الخوف من الجليل، والعمل
بالتزليل، والاستعداد ليوم الرحيل، والرضا بالقليل" (٣).
وسأل عمر بن الخطاب رضي الله عنه أياً عن التقوى، فقال هل أخذت طريقاً
ذا شوك؟ قال نعم قال فما عملت فيه؟ قال تشمرت وحذرت: قال فذاك
التقوى" (٤).

وقال طلق بن حبيب (٥): التقوى أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو
رحمة الله، وأن تترك معصية الله على نور من الله تخاف عذاب الله" (٦).
اصطلاحاً: واستثناساً مما سبق في تحديد طبيعة التقوى وميادها أستطيع أن أضع
تعريفاً للتقوى وهي: قوة خفية مستكنة داخل النفس تدفع الإنسان لفعل الطاعات
وترك المحرمات، ابتغاء مرضاة الله سبحانه.

(١) لسان العرب ج ١٥ ص ٤٠١.

(٢) معجم مقاييس اللغة - ابن فارس - ج ١١ ص ٣-٥.

(٣) من وصايا الرسول صلى الله عليه وسلم لطفه عبد الله العفيفي - ج ١ ص ٢٢.

(٤) الجامع لأحكام القرآن - القرطبي - ج ١ ص ١٦٢.

(٥) طلق بن حبيب العتري، بضري، زاهد كبير، من العلماء العاملين، كان طيب الصوت بالقرآن، برأ بوالديه.

مات قبل المائة. سير النبلاء - الذهبي - ج ٤ ص ٦٠١-٦٠٢.

(٦) الإيمان لابن تيمية ص ١٤٤.

الأمر بالتقوى:

أكثر الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز من الأمر بالتقوى والحض عليها وذلك لما للتقوى من أثر عظيم في نفوس المسلمين المتقين، وفي تغيير ما في هذه النفوس، إذ بالتقوى ينتقل الإنسان من الضلالة إلى الهداية، ومن العمى إلى البصيرة، ومن الظلام إلى النور، وينتقل من فعل المعاصي والخطايا إلى فعل الطاعات والقربات. وجاء الأمر بالتقوى في القرآن الكريم بصيغ متعددة، فورد بصيغة (اتقوا) في مائة وتسع وستين موضعاً، في -مائة وسبع وستين- آية، وبصيغة (اتقون) في خمسة مواضع، وبصيغة (اتقوه) في أربعة مواضع، وبصيغة (اتق) في موضعين، وبصيغة (اتقين) في موضع واحد^(١).

هذه الصيغ الكثيرة جاء الأمر بالتقوى ليدل على عظمتها وأهمية الالتزام بها، ومن الآيات التي أمر الله فيها بالتقوى قوله سبحانه ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾^(٢).

فنادى الله تعالى نداءً عاماً للناس وأمرهم بالتقوى التي هي ملاك الأمر، وجعل سبب التقوى تذكارة إياهم بأنه أوجدهم وأنشأهم من نفس واحدة، ومن كان قادراً على مثل هذا الإيجاد الغريب الصنع وإعدام هذه الأشكال، والنفع والضرر فهو جدير بأن يتقى... وكرر الأمر بالتقوى تأكيداً للأول... وذكر أولاً الرب الذي يدل على الإحسان والتربية، وثانياً الله الذي يدل على القهر والهيبة، بنى أولاً على الترغيب وثانياً على التهيب " (٣).

ومن شدة ترغيبه سبحانه في التقوى والحض عليها أمر المؤمنين بالمداومة عليها مداومة تامة وحذرهم من الموت على غيرها فقال عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا

(١) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن - محمد عبد الباقي - ص ٧٥٩-٧٦١.

(٢) سورة النساء آية ١.

(٣) تفسير النهر الماد من البحر المحيط - لأبي حيان الأندلسي تقديم وضبط بوران الضناوي - ج ١ ص ٤١٩.

اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ» (١)

وهذا أمر من الله لعباده بأن يتقوه حق تقواه، وذلك بدوام خشيته ظاهراً وباطناً والعمل بموجبها وذلك بأن لا يتركوا شيئاً مما يلزمهم فعله، ولا يفعلوا شيئاً مما يلزمهم تركه، ويبدلوا في ذلك جهدهم واستطاعتهم (٢).

ويقول سبحانه وتعالى في مطالبته المؤمنين بالتقوى «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَانْتَظِرْ نَفْسَ مَا قَدَّمْتُمْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ» (٣).

وهذا خطاب للذين آمنوا بالله ووحده بأن يتقوا الله بأداء فرائضه واجتناب معاصيه (٤) وكرر الخطاب بقوله تعالى: (واتقوا الله) ليؤكد على وجوب التقوى وأهميتها وأتبع أمره بالتقوى بقوله (إن الله خبير بما تعملون) فهو سبحانه ذو خيرة وعلم بأعمال عباده خيرا وشرها لا يخفى عليه شيء منها، وهو مجازيهم عليها جميعاً (٥).

إن المتتبع للآيات السابقة وما سبق من تفسيرها يعلم قدر عناية القرآن العظيم بالتقوى وكثرة أمره بها وحضه عليها وترغيبه فيها، وهذا يلزم المسلمين كافة التمسك بالتقوى حيثما كانوا لا يغفلوا عن ذلك قيد أنملة فهي سبيل عزهم وكرامتهم، ورفعتهم وارتقائهم، وهي طريقهم إلى الفلاح والنجاح وبدون التقوى لن تقوم لهم قائمة ولن ترتفع لهم راية، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في وصيته لأبي ذر رضي الله عنه: (اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن) (٦).

(١) سورة آل عمران آية ١٠٢.

(٢) انظر محاسن التأويل - للقاسمي - ج ٢ ص ١٦٨، وفتح القدير - للشوكاني - ج ١ ص ٤٦٤.

(٣) سورة الحشر آية ١٨.

(٤) انظر جامع البيان في تفسير القرآن - الطبري - ج ١٢ ص ٣٥.

(٥) المرجع السابق ج ١٢ ص ٣٥ بتصرف.

(٦) سنن الترمذي - أبواب البر والصلة - باب ما جاء في معاشره الناس ج ٣ ص ٢٣٩ رقم ٢٠٥٣ وقال

حسن صحيح. سنن الدارمي - كتاب الرقائق - باب في حسن الخلق ج ٢ ص ٢٢٣.

التقوى مناط الأعمال الصالحة:

التقوى بالنسبة للعبادة كالرأس بالنسبة للجسد، فكما أنه لا حياة للإنسان

بدون رأس كذلك لا معنى للعبادة بدون تقوى.

وقد جعلها الله الغاية المتحققة من كثير من الأعمال، ومن أمثلة ذلك أنه

سبحانه عقب على الوصايا التي أوصى بها في سورة الأنعام بقوله في نهايتها ﴿وَلَنْ يَهْدِيَ صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾^(١) والتقوى هي النتيجة المترتبة على العبادة قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾^(٢) والتقوى من أعظم حكم الصيام التي فرض من أجلها قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾^(٣).

وفي هذه الآية يقرر الله سبحانه "أن الصوم فريضة قديمة على المؤمنين بالله في

كل دين، وأن الغاية الأولى منه هي إعداد قلوبهم للتقوى والشفافية والحساسية

والخشية من الله... وهكذا تبرز الغاية الكبيرة من الصوم... إنها التقوى... فالتقوى

هي التي تستيقظ في القلوب، وهي تؤدي هذه الفريضة، طاعة لله وإثارة لرضاه،

والتقوى هي التي تحرس هذه القلوب من إفساد الصوم بالمعصية، ولو تلك التي تهجس

في البال والمخاطبون بهذا القرآن يعلمون مقام التقوى عند الله، ووزنها في ميزانه فهي

غاية تتطلع إليها أرواحهم، وهذا الصوم أداة من أدواتها، وطريق موصل إليها، ومن ثم

يرفعها السياق أمام عيونهم هدفاً وضيقاً يتجهون إليه عن طريق الصيام"^(٤).

ومن خلال الآيات السابقة يتضح لكل متدبر فيها أن الغاية من العبادات،

والهدف المرجو تحققة منها هو التقوى، التي هي أساس الدين وقوامه.

(١) سورة الأنعام آية ١٥٣.

(٢) سورة البقرة آية ٢١.

(٣) سورة البقرة آية ١٨٣.

(٤) في ظلال القرآن - سيد قطب - ج ١ ص ٢ ج ٢ ص ١٣٩.

المتقون هم الذين يهتدون بالقرآن:

حض الله سبحانه المتقين على الاهتداء بالقرآن فقال سبحانه: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾^(١) ويفهم من مفهوم الآية - أي مفهوم المخالفة المعروف بدليل الخطاب - أن غير المتقين ليس هذا القرآن هدى لهم، وصرح بهذا المفهوم في آيات أخر كقوله تعالى ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾^(٢) وقوله سبحانه ﴿وَنُزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾^(٣)

"والمراد بالهدى في هذه الآية (آية البقرة) الهدى الخاص الذي هو التفضل بالتوفيق إلى دين الحق، لا الهدى العام الذي هو إيضاح الحق"^(٤).

"فالهدى حقيقة القرآن، والهدى طبيعته، والهدى كيانه، والهدى ماهيته، ولكن لمن يكون ذلك الكتاب هدى ونوراً ودليلاً ناصحاً مبيناً؟ إنه للمتقين، فالتقوى في القلب هي التي تؤهله للانتفاع بهذا الكتاب، وهي التي تفتح مغاليق القلب له فيدخل ويؤدي دوره هناك، وهي التي تهيء لهذا القلب أن يلتقط وأن يتلقى وأن يستجيب، لا بد لمن يريد أن يجد الهدى في القرآن أن يجيء إليه بقلب سليم، بقلب خالص، ثم أن يجيء إليه بقلب يخشى ويتوقى، ويحذر أن يكون على ضلالة، أو أن تستهويه ضلالة، وعندئذ يفتح القرآن عن أسراره وأنواره ويسكبها في هذا القلب الذي جاء إليه متقياً، خائفاً حساساً مهياً للتلقي"^(٥) إذن التقوى هي التي تهيء قلب المسلم للاهتداء بالقرآن والاستزادة من أنواره وضيائه، أما من لم تزود قلوبهم بتقوى الله، فإنها تبقى مغلقة ومقفلة أمام هدى القرآن فلا يدخل منه شيء إليها، وهذا هو عمى القلوب الذي يصيبها فلا تعرف معروفاً ولا تنكر منكراً قال تعالى ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ

(١) سورة البقرة آية ٢.

(٢) سورة فصلت آية ٤٤.

(٣) سورة الإسراء آية ٨٢.

(٤) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن - الشنقيطي - ج ١ ص ١٠٧.

(٥) انظر: في ظلال القرآن - سيد قطب - م ٥ ج ١٥ ص ٣٥٥.

تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ^(١)

ومما تجدر الإشارة إليه أن المتقين الذين يهتدون بالقرآن ويقتبسون من أنواره هم الذين يسهمون في رفعة الأمة ورفقيها، من خلال اتباعهم لمنهج الله، وأخذهم بسنن الله في الارتقاء وما فصله كتاب الله في عوامل ارتقاء الأمة، واجتنبهم لعوامل الانحدار والاندثار التي بينها القرآن الكريم.

وينبغي التنبيه هنا إلى أن موافقة القول للفعل يساعد في ارتقاء الأمة ورفعتها في حين أن الإكثار من القول دون العمل بالقول يؤدي إلى انحدار الأمة وانهارها.

التقوى وصية الله للأولين والآخرين:

مما يؤكد على عظمة التقوى وجلالتها وصية الله بما الأمم كافة، فما من رسول أرسله الله إلا أمر قومه بما وحضهم عليها، فهي وصية الله للأولين والآخرين قال تعالى ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ^(٢)﴾
وممن أخبرنا الله عنهم من المرسلين الذين أمروا أقوامهم بتقوى الله، نوح وهود وصالح ولوط وشعيب عليهم صلوات الله وسلامه. قال تعالى ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ^(٣)﴾ وقال سبحانه ﴿كَذَّبَتْ عَادَ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ^(٤)﴾ وقال عز وجل ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ^(٥)﴾ وقال جل جلاله ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ^(٦)﴾ وقال عز من قائل ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ^(٧) الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا

(١) سورة الحج آية ٤٦ .

(٢) سورة النساء آية ١٣١ .

(٣) سورة الشعراء آية ١٠٥-١٠٦ .

(٤) سورة الشعراء الآيات ١٢٣-١٢٤ .

(٥) سورة الشعراء الآيات ١٤١-١٤٢ .

(٦) سورة الشعراء الآيات ١٦٠-١٦١ .

(٧) الأيكة: هي اجتماع الشجر. معجم مقاييس اللغة - لأحمد بن فارس - ج ١ ص ١٦٥ .

تَتَّقُونَ^(١)

في الآيات السابقة دلالة واضحة على أن التقوى هي محور الرسائل السابقة جميعاً، وأن الدعوة إليها كانت في مركز اهتمام الأنبياء جميعاً، يرشدون الناس إليها ويأخذون بأيدي أقوامهم للنجاة من خلالها.

كذلك كانت عناية رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم بها كبيرة وعظيمة، إذ صح عنه صلى الله عليه وسلم أنه أمر المسلمين بالتقوى في أحاديث كثيرة، ومواطن عديدة ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي رواه العرابض بن سارية رضي الله عنه أنه قال "أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن عبد حبشي فإنه من يعش منكم يرى اختلافاً كثيراً".^(٢) وقال صلى الله عليه وسلم في وصيته بالتقوى "يا أيها الناس عليكم بتقواكم ولا يستهوينكم الشيطان"^(٣)

تقوى الله وأثرها في الارتقاء:

وعد الله أهل التقوى من عباده بالنصر والتأييد فقال سبحانه ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾^(٤) فهو معهم بتأييده ونصره ومعونته وهدية وسعيه، وهذه معية خاصة كقوله سبحانه ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾^(٥) وقوله لموسى وهارون ﴿لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ﴾

(١) سورة الشعراء الآيات ١٧٦-١٧٧.

(٢) سنن الترمذي - كتاب العلم - باب الأخذ بالسنة واجتتاب البدعة - ج ٤ ص ١٤٩ رقم ٢٨١٦ وقال حسن صحيح ، وسنن ابن ماجه - كتاب الجهاد - باب فضل الحرس والتكبير في سبيل الله ج ٢ ص ٩٢٦ رقم ٢٧٧١.

(٣) مسند الإمام أحمد ج ٣ ص ١٥٣.

(٤) سورة النحل آية ١٢٨.

(٥) سورة الأنفال آية ١٢.

وَأَرَى ﴿١﴾ والمعية العامة فبالسمع والبصر والعلم ^(٢) كقوله تعالى ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ ^(٣)

وأهل التقوى يجعل الله لهم فرقاناً ونصراً وفتحاً قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ ^(٤) والمراد "بالفرقان الفتح والنصر، وقيل المخرج من الشبهات والنجاة من كل ما يخافونه" ^(٥) وهذا كقوله سبحانه ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ ^(٦) جاء في سبب نزول هذه الآية "أن رجلاً من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يقال له عوف الأشجعي ^(٧) كان له ابن، وأن المشركين أسروه، فكان فيهم، فكان أبوه يأتي النبي صلى الله عليه وسلم فيشكوا إليه مكان ابنه، وحالته التي هو بها وحاجته، فكان النبي صلى الله عليه وسلم يأمره بالصبر ويقول له: إن الله سيجعل له مخرجاً، فلم يلبث بعد ذلك إلا يسيراً، إذ انفلت ابنه من أيدي العدو فمر بغنم من أغنام العدو فاستاقها، فجاء بها إلى أبيه، وجاء معه بفئ قد أصابه من الغنم فترلت هذه الآية ^(٨).

فالتقوى هي المخرج، والمخرج من الأزمات الاجتماعية كالتفكك والتمزق، والأزمات الاقتصادية كالفقر والحاجة وقلة المؤونة وغلاء الأسعار، والأزمات الأخلاقية كضياع القيم وانتشار الفواحش والمنكرات.

(١) سورة طه آية ٤٦.

(٢) تفسير القرآن العظيم - ابن كثير - ج ٢ ص ٥٩٢.

(٣) سورة الحديد آية ٤.

(٤) سورة الأنفال آية ٢٩.

(٥) فتح القدير - الشوكاني - ج ٢ ص ٣٧٦.

(٦) سورة الطلاق آية ٣.

(٧) عوف بن مالك بن أبي عوف الأشجعي، أسلم عام حجير، ونزل حمص، وقيل شهد الفتح، وكان معه راية

أشجع، وسكن دمشق، مات سنة ثلاث وسبعين في خلافة عبد الملك بن مروان.

الإصابة في تمييز الصحابة - لابن حجر العسقلاني ج ٢ ص ٤٧٣.

(٨) جامع البيان عن تأويل آي القرآن - لابن جرير الطبري - ج ٢٨ ص ١٣٨.

وهي بالتالي عامل أساسي في وحدة الأمة وترباطها، وفي زيادة رزقها وخيرها
وفي انتشار الأخلاق الفاضلة الحميدة، وهذه جميعاً من عوامل ارتقاء الأمة ونهوضها،
وأسباب علوها ورفعتها، وهذا ما تحتاج إليه الأمة الإسلامية في العصر الحاضر الذي
انحدرت فيه انحداراً شديداً فهانت وذلت، وأصبحت مهيضة الجناح، ضعيفة القوى.
وبناء على ذلك فإنه يتوجب على الأمة الإسلامية أن تتزود بتقوى الله الذي
هو خير زاد وأعظمه قال تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي
الْأَلْبَابِ﴾^(١) لعلها بتقواها الله أن ترتقي وتعز وتعود إلى سالف عهدا من المجد
والحضارة التي فقدتها.

(١) سورة البقرة آية ١٩٧.

المبحث الثالث

طاعة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم

إن طاعة الله ورسوله هي الغاية الأسمى التي خُلق الإنسان لأجلها، وهذا يقتضي من المسلم أن يكون مطيعاً لله ورسوله وعاملاً بأوامرهما، مجتنباً لنواهيهما، وقد تعاضدت الآيات بالأمر بذلك فقال الله سبحانه وتعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا / اللّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾^(١) قال عطاء: "أطيعوا الله في فريضته والرسول في سنته، وقال ابن زيد: أطيعوا الله في أوامره ونواهيها، والرسول ما دام حياً، وسنته بعد وفاته"^(٢)، وأولو الأمر: "الأمرء وأمرء الحق، لأن أمرء الجور الله ورسوله بريثان منهم فلا يعطفون على الله ورسوله"^(٣).

ووعده الله سبحانه من أطاعه وأطاع رسوله بالفوز الكبير والدرجات العلى في الجنة قال تعالى ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا﴾^(٤). فمن عمل بما أمره الله به ورسوله وترك ما نهاه الله عنه ورسوله يسكنه الله دار كرامته ويجعله مرافقاً للأنبياء ثم لمن بعدهم في الرتبة من الصديقين، والصديق: المبالغ في صدق ظاهره بالمعاملة، وباطنه بالمراقبة، أو الذي يصدق قوله بفعله، والشهداء الذين استشهدوا في سبيل الله، والصالحين من صلحت أحوالهم وحسنت أعمالهم وصلحت سرائرهم وعلا نياتهم، ثم أثنى الله عليهم بقوله (وحسن أولئك رفيقاً). روى أبو بكر بن مردويه عن عائشة قالت: "جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله إنك لأحب إليّ من نفسي وأحب إليّ من

(١) سورة النساء آية ٥٩

(٢) البحر المحيط لأبي حيان ٣م ج ٥ ص ٦٨٦

(٣) الكشاف - للزمخشري - ج ١ ص ٥٣٥.

(٤) سورة النساء الآيتان ٦٩-٧٠

أهلي وأحب إلي من ولدي، وإني لأكون في البيت فأذكرك فما أصبر حتى آتيك فأنظر إليك وإذا ذكرت موتي وموتك عرفت أنك إذا دخلت الجنة رفعت مع النبيين، وإن دخلت الجنة خشيت أن لا أراك، فلم يرد عليه النبي صلى الله عليه وسلم حتى نزلت عليه ﴿ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم...﴾ الآية (١)

ذلك الفضل من الله) أي من عند الله برحمته فما أعطى المعطون من الأجر العظيم ومرافقة المنعم عليهم من الله لأنه تفضل به عليهم أو أراد أن فضل المنعم عليهم ومزيتهم من الله (وكفى بالله عليمًا) فهو عليم بمن يستحق الهداية والتوفيق، وفي الآية دلالة على أن ما يفعل الله بعباده فهو فضل منه " (٢)

وطاعة الله إنما تكون باتباع كتابه والعمل بأوامره واجتناب نواهيه، أما اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم فيتحقق بالاعتداء به في حياته واتباع سنته بعد وفاته.

قال تعالى ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ (٣)

فالرسول مكلف بالتبليغ، وأنتم أيها الناس مكلفون بالطاعة، فمن أدى ما كلف به فعلى الله أجره وثوابه، وقد بلغ الرسول صلى الله عليه وسلم وأدى ما عليه، وبقي ما عليكم (٤)، وبعد هذا الإجمال لوجوب طاعة الله ورسوله أود أن أذكر بعض الآيات التي توجب تطبيق كتاب الله سبحانه على وجه الخصوص، إذ أمر الله باتباع وتطبيق كتابه في آيات كثيرة قال تعالى ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾ (٥)

قال بعض العلماء هذا أمر يعم النبي صلى الله عليه وسلم وأمته، والظاهر أنه

(١) سورة النساء آية ٦٩

(٢) انظر تيسير العلي القدير باختصار تفسير ابن كثير - محمد نسيب الرفاعي - م ١ ج ٥ ص ٤١٠ م. مدارك

الترييل وحقائق التأويل - للنسفي - م ١ ج ٥ ص ٣٢٦ ط ١.

(٣) سورة النور آية ٥٤

(٤) التفسير الكاشف - محمد جواد مغنية - م ٥ ج ١٨ ص ٤٣٥.

(٥) سورة الأعراف آية ٣

أمر لجميع الناس دونه صلى الله عليه وسلم ، أي اتبعوا ملة الإسلام والقرآن، وأحلوا حلاله، وحرّموا حرامه، وامتلوا أمره واجتنبوا نهيّه، ودلت الآية على ترك اتباع الآراء مع وجود النص (ولا تتبعوا من دونه أولياء) يريد كل ما عبّد وأُتبع من دون الله كالأصنام والأخبار والكهان والنار والكواكب وغير ذلك، وفيها دلالة على عدم جواز اتخاذ من عدل عن دين الله ولياً، وكل من رضي مذهباً، فأهل ذلك المذهب أولياؤه" (١)

وقال سبحانه وتعالى في التأكيد على وجوب اتباع القرآن الكريم الذي هو الصراط المستقيم والطريق الحق المبين ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (٢)

يدخل في قوله تعالى (وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه) كل ما بينه الرسول صلى الله عليه وسلم وهو المنهج القويم والصراط المستقيم، فاتبعوا جملته وتفصيله، ولا تعدلوا عنه فتقعوا في الضلالات. عن ابن مسعود رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه خط خطاً ثم قال هذا سبيل الرشده، ثم خط عن يمينه وشماله ثم قال "هذه السبل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه" ثم تلا هذه الآية (وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ) وقوله سبحانه (فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ) إنما وحد سبيله لأن الحق واحد، ولهذا جمع السبل لتفرقتها وتشعبها (ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ) أي بالكتاب (لعلكم تتقون) المعاصي والضلالات" (٣)

والقرآن الكريم هو التشريع الذي أنزله الله ليكون منهجاً للحياة، ومنه تُستقى الأحكام والتشريعات قال تعالى ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ (٤)

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن - للقرطبي - ٤م - ج ٧ ص ١٦٢. المحرر الوجيز - لابن عطية - ج ٥ ص ٤٢٥ .

(٢) سورة الأنعام آية ١٥٣

(٣) سنن الدارمي - المقدمة - باب في كراهية أخذ الرأي - ج ١ ص ٧٢ رقم ٢٠٦ . انظر التفسير الكبير -

للرازي - ٧م ج ١٤ ص ٤ . تفسير القرآن العظيم - لابن كثير - ج ٢ ص ١٩٠

(٤) سورة المائدة آية ٤٨

لقد أنزل الله الكتاب وعرض فيه أحكام الإسلام في صورتها النهائية الأخيرة، ليكون دين البشرية كلها، ولتكون شريعته هي شريعة الناس جميعاً، ولتهيمن على كل ما كان قبلها، وتكون هي المرجع النهائي، ولتقيم منهج الله لحياة البشرية، حتى يرث الله الأرض ومن عليها، المنهج الذي تقوم عليه الحياة في شتى شعبها ونشاطها، والشريعة التي تعيش الحياة في إطارها، تدور حول محورها، وتستمد منها تصورها الاعتيادي ونظامها الاجتماعي، وآداب سلوكها الفردي والجماعي، وقد جاءت كذلك ليحكم بها، لا لتعرف وتدرس وتتحول إلى ثقافة في الكتب والدفاتر! وقد جاءت لتتبع بكل دقة ولا يترك شيء منها ويستبدل به حكم آخر في صغيرة من شئون الحياة أو كبيرة، فإما هذه وإما فهي الجاهلية والهوى ولا يشفع في هذه المخالفة أن يقول أحد إنه يجمع بين الناس بالتساهل في الدين، (وأنزلنا إليك الكتاب) والخطاب موجه للرسول صلى الله عليه وسلم، والكتاب القرآن (بالحق) أي هو بالأمر الحق (مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيماً عليه) أي عالياً عليه ومرتفعاً، وهذا يدل على تأويل من يقول بالفضيل في كثرة الثواب (ومهيماً عليه) قال ابن عباس رضي الله عنهما أي مؤتمناً عليه (فاحكم بينهم بما أنزل الله) يوجب الحكم بما أنزل الله (ولا تتبع أهواءهم) أي لا تعمل بأهوائهم ومرادهم - يعني أهل الكتاب - على ما جاءك من الحق فلا تترك الحكم بما بين الله تعالى من القرآن من بيان الحق وبيان الأحكام، (والأهواء) جمع هوى (عما جاءك من الحق) على ما جاءك من الحق (لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً) يدل على عدم التعلق بشرائع الأولين، والشرعة والشريعة الطريقة الظاهرة التي يتوصل بها إلى النجاة" (١)

هذه جملة من الآيات التي توجب العمل بكتاب الله سبحانه واتباعه، والآيات

في هذا الباب كثيرة لا يمكن الإحاطة بها في هذه العجالة.

أما الآيات التي تأمر باتباع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فمنها قوله

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن - للقرطبي - ٣م ج ٦ ص ٢١١. في ظلال القرآن - لسيد قطب - ٢م ج ٦

سبحانه ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ (١) وهذا يوجب أن كل ما أمر به النبي صلى الله عليه وسلم أمر من الله تعالى، وقد ذهب بعض العلماء إلى أن الأمر هنا خاص بطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم في تقسيمه للغنائم والفيء، إلا أن الأصح فيها أنها عامة قال الزمخشري "والأجود أن يكون عامًا في كل ما أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ونهى عنه، وأمر الفيء داخل في عمومه". وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه لقي رجلاً محرماً وعليه ثيابه فقال له "انزع عنك هذه فقال الرجل أتقرأ عليّ بهذا آية من كتاب الله؟ قال نعم" وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا" قال ابن جريج والمراد ما آتاكم من طاعتي فافعلوه وما نهاكم عنه من معصيتي فانتهوا عنه" (٢)

ومما يدل على أهمية طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم أن جعل الله طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم من طاعته، فمن أطاع الرسول فقد أطاع الله قال تعالى ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ (٣) أي إن من أطاع الرسول صلى الله عليه وسلم فقد أطاع الله لأنه الأمر والنهي في الحقيقة، والرسول إنما هو مبلغ للأمر والنهي فليست الطاعة له بالذات، وإنما هي لمن بلغ عنه، إذ قد جرت سنته ألا يأمر الناس ولا ينهاهم إلا بواسطة رسل منهم يفهمون عنهم ما يوحى إليهم ليلغوه عنه، وعلى هذا فإن الرسول صلى الله عليه وسلم لا يأمر إلا بما أمر الله به ولا ينهى إلا عن ما ينهى الله عنه، فكانت طاعته في ذلك طاعة لله سبحانه. (وَمَنْ تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا) أي من أعرض، وتولى بنفاق أو أمر مما أرسلناك - هذا التفات - إذ لو جرى على الرسول لكان فما أرسله (حفيظًا) والحافظ هنا المحاسب على الأعمال، أو الحافظ للأعمال، وتتضمن هذه الآية الإعراض عمّن

(١) سورة الحشر آية ٧

(٢) انظر الجامع لأحكام القرآن - للقرطبي - ج ١٨ ص ١٧. الكشاف - الزمخشري - ج ٤ ص ٥٠٣. الفتوحات

الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين - سليمان الجمل - ج ٤ ص ٣١٥.

(٣) سورة النساء آية ٨٠

تولى والترك، رفقا من الله وهي قبل نزول آية القتال". (١)

وهكذا تأمر هذه الآيات بطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم والافتداء به، فالرسول صلى الله عليه وسلم هو المبلغ عن الله، وهو المبين لكتاب الله، إذ لا يمكن أن يفهم كتاب الله إلا من خلال سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يرجعون في تفسيرهم لكتاب الله تعالى إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، فكان الواحد منهم إذا أشكلت عليه آية من كتاب الله رجع إلى رسول الله في تفسيرها، فبين له ما خفي عليه، لأن وظيفته البيان كما أخبر الله عنه بذلك في كتابه حيث قال ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (٢) فأنزل الله الذكر وهو القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم ليبين للناس جميعا ما نُزِّلَ إليهم من ربه في هذا الذكر من الأحكام الشرعية والوعد والوعيد لعلمه صلى الله عليه وسلم بمعنى ما أنزل الله عليه وحرصه عليه واتباعه له (ولعلمهم يتفكرون) أي ينظرون لأنفسهم فيهدون فيفوزون بالنجاة في الدارين" (٣)

ووجوه بيان السنة للقرآن الكريم كثيرة، ومن هذه الوجوه ما يلي:

أ- بيان الجمل من القرآن: ومن ذلك بيانه صلى الله عليه وسلم لمواقيت الصلوات الخمس وعدد ركعاتها، وكيفيةها، وبيانه لمقادير الزكاة، وأوقاتها، وأنواعها، وبيانه لمناسك الحج.

ب- توضيح المشكل: كتفسيره صلى الله عليه وسلم للخيط الأبيض والخيط الأسود في قوله تعالى ﴿حَتَّى يَبَيِّنَ لَكُمْ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾ (٤) بأنه بياض النهار وسواد الليل" (٥)

ج- تخصيص العام: كتخصيصه صلى الله عليه وسلم الظلم في قوله تعالى ﴿الَّذِينَ

(١) انظر البحر المحيط- لأبي حيان - ج ٣ ص ٣٠٤، تفسير المراغي - ج ٢ ص ٥ ص ١٠٠.

(٢) سورة النحل آية ٤٤

(٣) انظر تفسير القرآن العظيم - ابن كثير - ج ٢ ص ٥٧١. فتح القدير - الشوكاني - ج ٣ ص ٢٠٥.

(٤) سورة البقرة آية ١٨٧

(٥) تفسير القرآن العظيم - ابن كثير - ج ١ ص ٢٢١.

ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ^(١) بالشرك، فإن بعض الصحابة فهم أن الظلم مراد منه العموم حتى قال: وأينا لم يظلم نفسه؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم "ليس بذلك، وإنما هو الشرك"^(٢)

د- تقييد المطلق: مثل تقييده اليد في قوله تعالى ﴿فَأَقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾^(٣) باليمين^(٤).
هذه بعض الأمثلة لبيان السنة للقرآن وهناك أنواع غير هذه عديدة.

هكذا كان يتلقى الصحابة رضوان الله عليهم عن الرسول صلى الله عليه وسلم بيانه في حياته، أما بعد وفاته صلى الله عليه وسلم، أو حال ابتعادهم عنه فإنهم كانوا يجتهدون في اتباع سنته والعمل بمنهجه، فعند ما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم معاذ بن جبل رضي الله عنه إلى اليمن قال له: "كيف تقضي إذا عرض لك قضاء؟ قال أقضي بكتاب الله، قال: "فإن لم يكن في كتاب الله؟" قال فبسنة رسول الله"^(٥)
من خلال الآيات التي ذكرتها والتي تدل على وجوب طاعة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم يتضح أهمية هذه الطاعة وأثرها، إذ في طاعة الله ورسوله الفلاح والنجاة وفي طاعتها الحياة السعيدة الكريمة العزيرة التي لا يمكن للمسلم أن يصل إليها بغير هذا السبيل يقول الله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾^(٦) ففي الاستجابة لله والرسول الحياة السعيدة الكريمة، قال جمهور من المفسرين: المعنى استجيبوا للطاعة وما تضمنه القرآن من أوامر ونواه، ففيه الحياة الأبدية والنعمة السرمدية، المشتملة على سعادة الدنيا والآخرة، وفيها كل حق

(١) سورة الأنعام آية ٨٢

(٢) صحيح البخاري - كتاب تفسير القرآن - باب ولم يلبسوا إيمانهم بظلم، سورة الأنعام م ٢ ج ٢ ص ٥٥٣.

(٣) سورة المائدة آية ٣٨

(٤) تفسير القرآن العظيم - ابن كثير - ج ٢ ص ٥٥

(٥) سنن أبي داود - كتاب الأقضية - باب اجتهاد الرأي في القضاء - ج ٣ ص ٣٠٣ رقم ٣٥٩٢ . سنن الترمذي - كتاب الأحكام - باب ما جاء في القاضي كيف يقضي ج ٢ ص ٣٩٤ رقم ١٣٤٢ قال ابن العربي "اختلف الناس في هذا الحديث فمنهم من قال إنه لا يصح، ومنهم من قال هو صحيح والدين القول بصحته" عارضه الأحمدي بشرح الترمذي - ابن العربي - م ٣ ج ٦ ص ٧٢.

(٦) سورة الأنفال آية ٢٤

وصواب، ويستدل بهذا الأمر بالاستجابة لله والرسول على أنه يجب على كل مسلم إذا بلغه قول الله أو قول رسوله في حكم من الأحكام الشرعية أن يبادر إلى العمل به كائنًا ما كان ويدع ما خالفه من الرأي وأقوال الرجال" (١).

هذه هي الحياة السعيدة في ظلال آيات الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، هذه الظلال الوارفة والتوجيهات الإلهية المنقذة من البؤس والشقاء والهلاك. فأى منهج يمكن أن يأخذ بأيدي الناس من الشقاء إلى السعادة، ومن الذل إلى العزة ومن الظلمات إلى النور كمنهج الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم.

إن الله الذي خلق الخلق هو الذي يعلم حاجة الناس وأين تكمن سعادتهم ونجاتهم ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ (٢) "نعم إن من اتبع هدى الله فأطاعه واتبع سنة رسوله هو الفائز في الدنيا والآخرة، إذ لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة، بل إنه يعيش في الدنيا عيشًا هنيئًا غير مهموم ولا مغموم ولا متعب نفسه، وجعل لمن لم يتبع هدايه وأعرض عن دينه أن يعيش عيشًا ضيقًا وفي تعب ونصب، ومع ما يصيبه في هذه الدنيا من المتاعب، فهو في الآخرة أشدَّ تعبًا وأعظم ضيقًا وأكثر نصبًا" (٣).

وقد وعد الله من أطاعه وأطاع رسوله وعمل الصالحات بأن يحياه حياة طيبة هنية في هذه الدنيا، وأن يجزيه على ذلك أجرًا عظيمًا في الآخرة قال تعالى ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٤) "فهذا وعد من الله تعالى لمن عمل صالحًا، وهو العمل المتابع لكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم مع تحقق الإيمان بأن يحياه الله حياة طيبة في

(١) انظر فتح القدير - للشوكاني - ج ٢ ص ٣٧٢، التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج - للزحيلي - ج ٩ ص ٢٩٠.

(٢) سورة طه آية ١٢٣

(٣) فتح القدير - الشوكاني - ج ٣ ص ٤٨٦

(٤) سورة النحل آية ٩٧

الدنيا وأن يجزيه بأحسن ما عمله في الدار الآخرة، ولا يهم أن تكون الحياة الطيبة في الدنيا ناعمة رغيدة ثرية بالمال، فقد تكون به وقد لا يكون معها، وفي الحياة أشياء كثيرة غير المال الكثير تطيب بها الحياة في حدود الكفاية: فيها الاتصال بالله والثقة به، والاطمئنان إلى رعايته وستره ورضاه. وفيها الصحة والهدوء، والرضى والبركة، وسكن البيوت، ومودات القلوب، وفيها الفرح بالعمل الصالح وآثاره في الضمير، وآثاره في الحياة .. وليس المال إلا عنصراً واحداً يكفي منه القليل حتى يتصل القلب بما هو أعظم وأزكى وأبقى عند الله" (١)

فأي سبيل إذن للحياة السعيدة وللارتقاء والتقدم أعظم من طاعة الله ورسوله، إن طاعة الله ورسوله هي الوسيلة الأعظم بلا شك لارتقاء الأمة وتقدمها، ولنيل عزتها وكرامتها، وإن ما آل إليه حال الأمة الإسلامية اليوم من الذلة والمهانة والضعف والخنوع إن ذلك كله إنما هو بسبب تركهم لطاعة الله ورسوله ومخالفتهم لما جاء في الكتاب والسنة مع العلم أن من أهم أسباب النصر في المعركة طاعة الله ورسوله، لأن في مخالفتها عند لقاء العدو الهزيمة والانتكاسة قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (٢) ، فالعودة إلى كتاب الله وسنة رسوله ففي اتباعهما الفوز والخير والبركة. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكنم بهما كتاب الله وسنتي" (٣)

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم - لابن كثير - ج ٢ ص ٥٨٥. في ظلال القرآن - سيد قطب - ج ٥ ص ١٤

(٢) سورة الأنفال الآيات ٤٥-٤٦

(٣) الموطأ للإمام مالك ج ٢ ص ٨٩٩ حسن لغيره. سلسلة الأحاديث الصحيحة - الألباني - ج ٤ ص ٣٦١.

المبحث الرابع

العلم الديني والديني، ودور العلماء في الارتقاء

العلم لغة: هو المعرفة والإدراك.

يقال: عَلِمَهُ عَلِمًا عَرَفَهُ، وَعَلِمَ الشَّيْءَ يَعْلَمُهُ عَلِمًا، عَرَفَهُ.

ورجل علامة أي (عالم) جدًّا والهاء للمبالغة ^(١).

والعلم اصطلاحًا:

هو إدراك الشيء بحقيقته ^(٢).

وهو كذلك نقل صورة المعلوم من الخارج وإثباتها في النفس ^(٣).

والعلم مقوم رئيس من مقومات ارتقاء الأمم فهو نور يستضيء به السائر في دياجير الظلام، وهو المرشد إلى الطريق السوي وإلى علو الشأن، فلا سبيل للعلواء والارتقاء، ولا طريق للعز والبناء إلا بالعلم -الديني والديني- لأن الأمة الجاهلة تبقى بين الركاب لا يمكنها أن تتقدم أو تتطور أو تنشئ حضارة، لأنها فاقدة لأهم مقوماتها وهو العلم، وفاقد الشيء لا يعطيه، وقد عزت الأمة الإسلامية لما كان أبنائها على رأس قائمة علماء عصرهم في جميع الميادين، لكن لما تأخرت الأمة في ميادين العلم أصبحت متأخرة عن ميادين قيادة الأمم.

الحث على طلب العلم وبيان فضله:

إن للعلم في القرآن منزلة عالية ومكانة رفيعة، فهو عنوان التقدم والتحضّر، والقوة والعزة، وبدونه لا يمكن لأمة أن تقوى أو ترتقى إلى العلياء.

لهذا حث القرآن على تعلم العلم النافع مما يتعلق بأمور الدين والدنيا فقال الله

(١) انظر القاموس المحيط - الفيروز أبادي - ج ٤ ص ١٥٣، مختار الصحاح - الرازي - ص ٤٥٢.

(٢) موارد الظمان لدرّوس الزمان - لعبد العزيز الحمد السلطان - ج ١ ص ٨١ - ط ٢٠ - ١٤١٢هـ.

(٣) الفوائد - لابن القيم - ص ٨٤.

سبحانه ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾^(١) ومن المعلوم عند كل من له عقل أنه لا استواء بين العلم والجهل، ولا بين العالم والجاهل^(٢) والعلم دليل الحجة والبرهان، وطلب العلم عبادة والبحث عنه جهاد وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة، ومن أنواع الصدقة أن تعلم جاهلاً أو تصنع لأحرق^(٣).

وإن أول ما أنزل الله في كتابه الامتتان بتعليم القراءة والكتابة لأنهما مفتاح العلوم والمعارف قال الله تعالى ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾^(٤)

"فهذه الآية تمهيد للتوسع في العلم، والاستعانة عليه بالكتابة لأن العلم صيد والكتابة قيده"^(٥). وفي الآيات تمجيد لحقيقة القراءة والعلم، وإيدان لرفع منار الفكر والعقل. وإن الشيء الوحيد الذي أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم أن يطلب منه الريادة هو العلم قال تعالى ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾^(٦) كما أن أول خاصية ميز الله تعالى بها آدم عليه السلام هي العلم قال تعالى ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾^(٧) ومن الآيات العظيمة الدالة على عظم قدر العلم قوله سبحانه ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾^(٨).

وفي الآية دلالة على أن الله يرفع الذين أوتوا العلم من أهل الإيمان على المؤمنين

(١) سورة الزمر آية ٩ .

(٢) فتح القدير - الشوكاني - ج ٤ ص ٥٦٢ .

(٣) الأخرق: ضد الرقيق. مختار الصحاح - أبي بكر الرازي - ص ١٧٤. والأخرق الذي يجهل الشيء ولم يحسن عمله. لسان العرب - ابن منظور - ج ٢ ص ١١٤٣ .

(٤) سورة العلق آية ١-٥ .

(٥) الحكم الجامعة لشيء العلوم النافعة - لعبد الله بن زيد آل محمود - ص ١٠٢ - ط ٣ - ١٤١١ هـ من مطبوعات المحاكم الشرعية والشؤون الدينية بقطر.

(٦) سورة طه آية ١١٤ .

(٧) سورة البقرة آية ٣١ .

(٨) سورة المجادلة آية ١١ .

الذين لم يؤتوا العلم بفضل علمهم درجات إذا عملوا بما أمروا به قال قتادة رحمه الله^(١) في تفسير الآية السابقة "إن بالعلم لأهله فضلاً وإن له على أهله حقاً ولعمري للحق عليك أيها العالم فضل، والله معطي كل ذي فضل فضله"^(٢).

هذه جملة من الآيات القرآنية التي تحض على طلب العلم وترغب فيه، وقد جاء في السنة النبوية أحاديث كثيرة في الترغيب في طلب العلم ومن هذه الأحاديث قوله صلى الله عليه وسلم "من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة"^(٣). وقوله صلى الله عليه وسلم "طلب العلم فريضة على كل مسلم"^(٤) ومنها ما رواه الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال "الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه وعالمًا أو متعلمًا"^(٥).

وقال ابن القيم رحمه الله في فضل العلم "العلم حياة القلوب، ونور البصائر، وشفاء الصدور، ورياض العقول، ولذة الأرواح ومؤنس المتوحشين. والعلم هو الميزان الذي توزن به الأقوال والأحوال والأعمال، وهو الحاكم الذي يحكم بين الشك واليقين والضلال والرشد، وبه تحصل معرفة الله تعالى وتحميده وتمجيده وتوحيده. وبه يفرق بين الحلال والحرام.

قال الإمام أحمد رحمه الله^(٦) "الناس إلى العلم أحوج منهم إلى الطعام والشراب

(١) قتادة: هو قتادة بن دعامة بن قنادة بن عزيز، حافظ العصر، قدوة المفسرين والمحدثين أبو الخطاب السدوسي البصري الضريير الأكمه، كان من أوعية العلمك، ومن يضرب به المثل في الحفظ مات سنة سبع عشرة ومائة.

تهذيب سير أعلام النبلاء-للذهبي- هذبه أحمد الحمص ج ١ ص ١٩٣ مؤسسة الرسالة ط ١- ١٩٣١م.

(٢) جامع البيان في تفسير القرآن-الطبري- ج ٢٨ ص ١٤.

(٣) صحيح البخاري- كتاب العلم- باب العلم قبل القول، م ١ ج ١ ص ٢٦، رواه مسلم ج ٢ ص ٤٧٣ باب فضل الاجتماع على قراءة القرآن على الذكر.

(٤) سنن ابن ماجه-المقدمة- باب فضل العلماء والحث على طلب العلم ج ١ ص ٨١ رقم ٢٤٤ صحيح.

صحيح الجامع الصغير وزيادته-الألباني- ج ٢ ص ٧٢٧.

(٥) سنن الترمذي ج ٤ ص ٥٦٠ باب ما جاء في هوان الدنيا على الله، سنن ابن ماجه ج ٢ ص ١٣٧٧ باب مثل

الدنيا دار إحياء الكتاب العربي. قال الترمذي حسن غريب، وقال العراقي حسن صحيح.

(٦) الإمام أحمد: أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد بن إدريس بن عبد الله بن حيان بن =

لأن الرجل يحتاج إلى الطعام والشراب مرة أو مرتين في اليوم، وحاجته إلى العلم بعدد أنفاسه (١).

والعلم لا يوصل إلى معرفة فضله وجلالة قدره إلا بالعلم ولا يضيع صاحب العلم الديني الصحيح الذي جاء به النبي صلى الله عليه وسلم، ولا يفتقر كاسب العلم ولا يجيب طالبه، ولا تنحط مراتبه ما دام مطبقاً لعلمه بالعمل، ولا يجهل شرف العلم إلا الجاهل لقصور فهمه عن عظيم منافعه وكرام موافقه، وحامله الصائن له من الأدناس عزيز عند الناس، إن قال فكلامه مرموق بعين التقدير وإن أمر فأمره مسموع. وهو وسيلة للفضائل، وهو نور زاهر لمن استضاء به وقوت هنيئ لمن تقوت به ترتاح به الأنفس إذ هو غذاؤها وتفرح به الأفئدة إذ هو قواها. أجل ما يبتغي دوماً ويكتسب، ويقتني من حلي الدنيا وينتخب، علم الشريعة علم النفع، قد رفعت لمن يزاوله بين الورى رتب، إن عاش عاش سعيداً سائداً أبداً لا يستظام، ولا يشنأ فيجيب، وإن يمت فثناء سائد أبداً، وبعده رحمة ترجى وترتقب" (٢) وهكذا يحث القرآن على طلب العلم ويبين فضل ذلك، كما يمتدح العلماء وأهل العلم، وهذا يدل على أثر العلم على الأمة، فهو أولاً الوسيلة التي يتعرف بها المسلمون على ربهم، وعلى دينهم فيعبدون الله على علم متبعين في ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته رضوان الله عليهم ثم إنه ثانياً: أساس من الأسس التي تقوم عليها المدنية والحضارة الإسلامية وهذا هو أساس التقدم والارتقاء.

تشريف الله لأهل العلم:

إن من أجل أساليب التشريف، ثناء القرآن الدائم على أهل العلم الصالح،

=عبد الله بن أنس بن عوف... ابن نزار بن معد بن عدنان الشيباني المروزي الأصل، ولد في بغداد سنة أربع سنين ومائة، كان إمام المحدثين، قيل كان يحفظ ألف حديث توفي صحوة نهار الجمعة لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول سنة إحدى وأربعين ومائتين ببغداد.

وفيات الأعيان وأبناء الزمان - لابن خلكان - ج ١ ص ٦٣.

(١) مدارج السالكين - لابن القيم - ج ٢ ص ٤٧٠.

(٢) موارد الظمان لدروس الزمان - للسلمان - ج ١ ص ٨١.

وبلوغه بهم ذروة شاهقة من التكريم، لنسبهم العلمي، وفضلهم في القيام بحقه حفظاً وضبطاً وانقياداً وعملاً، وقد تنوعت أساليب القرآن الكريم في ذلك تنوعاً كثيراً ومنها:

أ. ارتضاء شهادتهم على أعظم عقائد الدين: ففي شهادتهم على الوحدانية يقول تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَانِمًا بِالْقِسْطِ﴾^(١) وفي الآية بيان فضيلة لأهل العلم جليلة، ومنقبة نبيلة لقرنهم باسمه واسم ملائكته، والمراد بأولي العلم هنا علماء الكتاب والسنة وما يتوصل به إلى معرفتها إذ لا اعتداد بعلم لا مدخل له في العلم الذي اشتمل عليه الكتاب العزيز والسنة المطهرة^(٢). وفي شهادة أهل العلم على القرآن الكريم وأنه كتاب الله حقاً يقول تعالى ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾^(٣). "أي ألم يكن للمشركين علامة دالة على أن القرآن حق وأنه تنزيل رب العالمين، أن يعلمه علماء بني إسرائيل، والمراد الصالحون منهم، كعبد الله بن سلام وأضرابه ممن أسلموا عن معرفة للحق وشهدوا أن القرآن حق وصدق، ومطابق لصحيح كتبهم، وإنما صارت شهادة علماء أهل الكتاب حجة على المشركين لأنهم كانوا يرجعون إليهم ويصدقونهم"^(٤).

ب. حصر كمال الصفات الطيبة فيهم:

فهم أهل الفهم الكامل دون غيرهم قال تعالى ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ لِنُضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾^(٥) وهم أهل الخشية الكاملة دون سواهم من الناس قال سبحانه ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾^(٦) ومن تشريف الله لأهل العلم أنه يرفع درجاتهم في الدنيا والآخرة قال عز وجل ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ

(١) سورة آل عمران آية ١٨.

(٢) فتح القدير - للشوكاني - ج ١ ص ٤١٢.

(٣) سورة الشعراء آية ١٩٧.

(٤) فتح القدير - للشوكاني - بتصرف ج ٤ ص ١٤٦.

(٥) سورة العنكبوت آية ٤٣.

(٦) سورة فاطر آية ٢٨.

أَوْتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴿١﴾ فيرفع الله في ثوابهم في الآخرة، وفي الكرامة في الدنيا، فيرفع المؤمن على من ليس بمؤمن والعالم على من ليس بعالم" (٢). في هذين النوعين من التشريف، اللذين شرف الله بهما أهل العلم، دليل قاطع على فضلهم وعلو شأنهم ودرجتهم عند الله، ومما يؤكد ذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم "فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم" (٣) وكم هو فضل الرسول صلى الله عليه وسلم الذي هو خير البشر، على أدنى رجل من أمته؟ إنه فضل لا يقاس لعظمته. وهكذا يكون فضل العالم الذي يعبد الله على علم وهدى على العابد الذي يعبد الله على جهل بلا علم، وقال صلى الله عليه وسلم "إن الله وملائكته وأهل السموات والأرض حتى النملة في جحرها وحتى الحوت ليصلون على معلمي الناس الخير" (٤). وصلاة الله وملائكته وأهل السموات والأرض على أهل العلم ومعلمي الناس الخير دليل فضل آخر لأهل العلم كما أن صلاة النملة في جحرها والحوت في البحر على العلماء دليل اعتراف بفضلهم وإقرار بعلو منزلتهم.

ذم الذين يقولون ما لا يفعلون:

ذم الله في كتابه العزيز اليهود الذين كانوا يأمرون الناس بأعمال البر ولا يعملون بها ذمًا، ووبخهم على ذلك توبيخًا يتلى على طول الدهر إلى يوم القيامة فقال سبحانه وتعالى ﴿تَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ ثَلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (٥). وفي الآية "يقول الله لهم كيف يليق بكم يا معشر أهل الكتاب وأنتم تأمرون الناس بالبر وهو جماع الخير، أن تنسوا أنفسكم، فلا تأمرون بما تأمرون الناس به وأنتم مع

(١) سورة المجادلة آية ١١.

(٢) الجامع لأحكام القرآن - للقرطبي - ج ١٧ ص ٢٩٩.

(٣) سنن الترمذي - أبواب العلم - باب في فضل الفقه على العبادة - ج ٤ ص ١٥٣ رقم ٢٨٢ وقال حسن

صحيح، سنن ابن ماجه - المقدمة - باب فضل العلماء والحث على طلب العلم - ج ١ ص ٨١ رقم ٢٢٣.

(٤) سنن الترمذي - أبواب العلم - باب في فضل الفقه على العبادة - ج ٤ ص ١٥٤ رقم ٢٨٢٦ وقال الترمذي

حديث غريب.

(٥) سورة البقرة آية ٤٤.

ذلك تتلون الكتاب وتعلمون ما فيه على من قصر في أوامر الله؟ أفلا تعقلون ما أنتم صانعون بأنفسكم، فتنبهوا من رقدتكم، وتبصروا من عمايتكم، وهذا كما روى عبد الرزاق^(١) عن معمر عن قتادة قال "كان بنو إسرائيل يأمرون الناس بطاعة الله وبتقواه وبالبر ويخالفون فغيرهم الله عز وجل"^(٢) بذلك.

ووصف الله عز وجل مخالفة القول للفعل بالملت الكبير الذي لا يرضاه سبحانه قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ كَبِرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾^(٣) وهذا استفهام للتقريع والتوبيخ، أي لم تقولون من الخير وما لا تفعلونه، ثم ذمهم على ذلك فقال (كبر مقتًا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون) أي عظم ذلك في المقت، وهو البغض.. يقال الرجل مقيت وممقوت إذا لم يحبه الناس"^(٤).

ومما أخبر الله به عن شعيب عليه السلام وهو يدعو قومه إلى طاعة الله ويحذرهم من الشرك ومعصية الله أنه كان يقول لهم "لم أكن أهاكم عن أمر وأرتكبه، إنما أريد فيما أمركم به وأهاكم عنه إصلاحكم"^(٥) قال تعالى عنه ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنهَآكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أَنِيبُ﴾^(٦) ومما يدل على عظم جرم الذين يأمرون الناس بالخير ولا يأتونه، وينهونهم عن المنكر ويأتونه تلك العقوبة التي يعاقبها الله من يقعون في ذلك فعن أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول "يجاء

(١) عبد الرزاق: أبو بكر عبد الرزاق بن همام بن نافع الصنعائي، مولى حمير قال أبو سعد بن السمعاني قيل: ما رحل الناس إلى أحد بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل ما رحلوا إليه، ولد سنة ست وعشرون ومائة وتوفي في شوال سنة إحدى عشرة ومائتين باليمن رحمه الله.

وفيات الأعيان وأنباء الزمان - لابن خلكان - تحقيق د. إحسان عباس ج ٣ ص ٢١٦ دار صادر.

(٢) تفسير القرآن العظيم - ابن كثير - ج ١ ص ٨٥.

(٣) سورة الصف آية ٢.

(٤) تفسير القرآن العظيم - ابن كثير - ج ٤ ص ٤٥٦.

(٥) تفسير القرآن العظيم - ابن كثير - ج ٤ ص ٤٥٦.

(٦) سورة هود آية ٨٨.

بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار، فتندلق أفتاب بطنه، فيدور بها كما يدور الحمار في الرحا، فيجتمع إليه أهل النار فيقولون يا فلان مالك؟ ألم تك تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؟ فيقول: بلى، كنت أمر بالمعروف ولا آتية، وأنهى عن المنكر وآتية" (١).

فهذه العقوبة الأليمة التي تنم عن الخزي والعار الذي يقع فيه من يخالف قوله فعلة تدل على أن هذه فعلة شنيعة يجب على المسلم أن يحذر من الوقوع فيها.

ومما هو جدير بالذكر هنا التنبيه على أن مخالفة القول للفعل تفسد على الداعي دعوته، لأن الناس المدعويين لن يسمعوا له ولن يستجيبوا لدعوته. فالأصل في الداعية أن يكون قدوة حسنة للمدعويين من خلال عمله بما يدعو له واجتنابه لما ينهى عنه. فإن خالف في ذلك نزعت ثقة الناس فيه ونفروا من دعوته.

وهذا يلزم الداعي أن يكون عاملاً بما يدعو له، ومجتنباً لما ينهى عنه.

وينبغي التنبيه هنا إلى أن موافقة القول للفعل يساعد في ارتقاء الأمة ورفعته في حين أن الإكثار من القول دون الفعل به يؤدي إلى انحدار الأمة واندثارها.

فإذا ابتليت الأمة بأناس ثرثارين يكثرون الكلام دون عمل. فهذا نذير خطر عليها لأن مقدراتها ستذهب هدرًا دون استغلال لهذه الإمكانيات، وقد ابتليت الأمة بمثل هذه الفئة حقًا، إذ إن إمكانيات الأمة الإسلامية عظيمة وجليلة، فلو أنها استغلت استغلالاً جيداً لحققت كثيراً من آمال الأمة وطموحاتها، ولكن الذين يملكون زمام الأمور فيها يقولون ولا يفعلون. ويعدون ولا يوفون مما أهدر الطاقات وأذهب المقدرات دون فائدة أو نتيجة إيجابية تنفع الأمة.

اعتناء القرآن بالعلم المادي:

اعتنى القرآن بكل علم يدفع الجهل، سواء أكان في الأمور الدينية أم في الشؤون المادية، فالعلوم الطبيعية وعلم النفس وعلم التاريخ والجغرافيا والاجتماع وغيرها من

(١) صحيح البخاري- كتاب بدء الخلق- باب صفة النار وأنها مخلوقة- ٢م ج ٤ ص ١٤٩. صحيح مسلم-

كتاب الزهد والرقائق- باب عقوبة من يأمر بالمعروف ولا يفعله، وينهى عن المنكر ويفعله- ج ٤ ص ٢٢٩٠

العلوم هي التي قصدها القرآن بجانب العلوم الدينية.
وحض الله المسلمين على تعلم هذه العلوم ليكونوا أبصر بعظمة الله وقدرته المتجلية في خلقه، كما أن هناك إلى جانب هذه الحكمة حكماً أخرى هي ما يتبع هذه العلوم من منافع مادية آنية من استخدام حقائق العلم في شؤون الحياة.
ومن العلوم التي أرشدت الآيات القرآنية إلى تعلمها ما يلي:

أولاً: العلوم الطبيعية: إن الآيات التي وردت في القرآن بمعنى الحض على تعلم العلوم الطبيعية كثيرة منها قوله تعالى ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ﴾^(١). وقوله سبحانه ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيْضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ الْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾^(٢). وواضح من السياق في هذه الآيات أن المراد بالعلماء هنا العالمون بالآيات وأسرار الخلق التي أودعها الله على هذه الأرض، وموضوع هذه الآيات هو نفس موضوع العلم الطبيعي، فالعلم الطبيعي يبحث عن الأشياء الكونية وطبائعها، وخواصها والعلاقات التي بينها ثم عن حقيقتها إن أمكن، أي من آيات الله المودعة في هذه الأشياء.

ففي آية فاطر مثلاً لا يعرف سر نزول الماء من السماء إلا بعلم الطبيعة، ولا يعرف تركيبه وخواصه إلا بعلم الكيمياء، ولا يعرف الإنبات والإثمار فيها إلا بعلم النبات، ولا يعرف ما الجبال ولا طرائقها البيض والحمر والسود إلا بعلم طبقات الأرض، ولا يعرف اختلاف أجناس البشر والدواب والأنعام إلا بعلمي أصل الشعوب والحيوان ثم انظر إلى قوله تعالى ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ فقد حصر الله الخشية الكاملة منه سبحانه في العلماء الذين يتدارسون آياته الكونية، لأن العلماء إذا كانوا مؤمنين حملهم علمهم بأسرار الطبيعة على خشية الله خالقها^(٣).

(١) سورة الروم آية ٢٢.

(٢) سورة فاطر آية ٢٨.

(٣) لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم - لشكيب أرسلان - ص ٦٠٥.

ثانيًا: علم الحياة: نرى القرآن يوجه نظر الإنسان إلى نفسه وكيفية تكونه في الرحم وأطواره التي مر بها ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾^(١).

مما سبق من حض القرآن على العلم المادي نعلم أن الإسلام لم يقف يومًا في وجه التقدم العلمي. وأنه يقدر الجهود الفكرية في الإنسان إلى درجة يرفعه فيها إلى درجة عالية، وما من دين ذهب أبعد من الإسلام في تأكيد غلبة العقل، وبالتالي غلبة العلم على جميع مظاهر الحياة"^(٢).

شهادة بعض علماء الغرب في مدينة الإسلام:

شهد كثير من علماء الغرب بحضارة الإسلام، واعترف المنصفون منهم بما كان لهذه الحضارة الإسلامية من أثر على الحضارة الغربية الحديثة، ومن هؤلاء العلماء العلامة سيدلو في كتابه تاريخ العرب قال "كان المسلمون في القرون الوسطى متفردين في العلم والفلسفة والفنون، وقد نشروها أينما حلت أقدامهم، وتسربت عنهم إلى أوروبا، فكانوا هم سببًا لنهضتها وارتقائها"^(٣).

وقال العلامة (دريبر) المدرس في جامعة نيويورك في كتابه (المنازعة بين العلم والدين) "إن اشتغال المسلمين بالعلم يتصل بأول عهدهم باحتلال الاسكندرية سنة ٦٣٨ م أي بعد موت محمد بست سنين، ولم يمض عليهم بعد ذلك قرنان حتى استأنسوا بجميع الكتب العلمية اليونانية، وقدروها قدرها الصحيح، ولما آلت الخلافة إلى المأمون سنة ٨١٣ م صارت بغداد العاصمة العلمية العظمى في الأرض فجمع الخليفة إليها كتبًا لا تحصى وقرب إليه العلماء وبالغ في الحفاوة بهم"^(٤).

وقال (بريفولت) في كتابه بناء الانسانية "لقد كان العلم أهم ما جادت به الحضارة

(١) سورة الطارق آية ٥-٧.

(٢) الإسلام على مفترق الطرق - محمد أسد - ص ٦٩.

(٣) روح الدين الإسلامي - عفيف عبد الفتاح طبرة - ص ٢٧٨.

(٤) المرجع السابق ص ٢٧٨.

العربية على العالم الحديث ... ولم يكن العلم وحده هو الذي أعاد إلى أوروبا الحياة، بل مؤثرات أخرى كثيرة من مؤثرات الحضارة الإسلامية بعثت باكورة أشعتها إلى الحياة الأوروبية، وليس هناك ناحية واحدة من نواحي الازدهار الأوروبي إلا ويمكن إرجاع أصلها إلى مؤثرات الثقافة الإسلامية بصورة قاطعة" (١).

من خلال الاستعراض السابق لطبيعة العلم الذي يجب على المسلم أن يتعلمه، ومن خلال شهادة علماء الغرب على فضل المسلمين وعلمهم يتضح "أن العلم الذي يقبل المسلم عليه، ويستفتح أبوابه بقوة، ويرحل لطلبه من أقصى المشرق والمغرب، ليس علمًا معيّنًا محدود البداية والنهاية، فكل ما يوسع منادح (٢) النظر، ويزيح السدود أمام العقل النهم إلى المزيد من العرفان، وكل ما يتيح له السيادة في العالم، والتحكم في قواه، والإفادة من ذخائره المكنونة، ذلك كله ينبغي التطلع له والتضلع فيه، ويجب على المسلم أن يأخذ بسهم منه، وهذا الشمول دلت عليه الآيات والسنن" (٣).

ولهذا فإن العالم الإسلامي إذا أراد أن يرجع إلى ماضية العريق ومجده التليد، وإذا أراد أن يستأنف الحياة، وإذا كان يطمح إلى القيادة والريادة، وإذا كان يريد أن يتحقق وعد الله بالتمكين، فلا بد إذاً من الزعامة العلمية، وما هي بالأمر الهين إنها تحتاج إلى تفكير عميق، وحركة تدوين وتأليف واسعة، وقفزة هائلة في كافة المجالات العلمية، وإثما المهمة تنوء بالعصبة أولى القوة، فلا بد أن يتعاون الجميع على النهوض بها، ولا بد أن يتصدر هذه المهمة المخلصون من هذه الأمة في كافة المجالات والتخصصات، فيضعون منهاجاً تعليمياً يجمع بين محكمات الكتاب والسنة وحقائق الدين التي لا تتبدل، وبين العلوم العصرية النافعة، ويدونون العلوم العصرية للشباب المسلم على أساس منهج القرآن، وبروح الإسلام، وفيها كل ما يحتاج إليه النشئ الجديد مما ينظمون به حياتهم، ويحافظون به على كيانهم ويستغنون به عن غيرهم،

(١) هل نحن مسلمون - محمد قطب - ص ٦١-٦٢.

(٢) الندح: الأرض الواسعة، مندوحة أي سعة أو فسحة، معجم مقاييس اللغة - لابن فارس - ج ٥ ص ٤١٤ دار الجليل.

(٣) خلق المسلم - للغزالي - ص ٢٦٧.

ويستخرجون به كنوز أرضهم ، ويتنفعون بخيرات بلادهم، وبذلك ينهض العالم الإسلامي، ويؤدي رسالته، وينقذ العالم من الانهيار الذي يهدده، فليست القيادة بالهزل، إنما هي جد الجد فتحتاج إلى جد واجتهاد، وكفاح وجهاد واستعداد أي استعداد" (١) .

هذا ما يجب على الأمة الإسلامية أن تفعله لتتقدم وتحضر وتضاهي الأمم الأخرى فيما وصلت إليه من رقي وعلو، في الوقت الذي يرى فيه علماء الغرب أن التقدم التكنولوجي هو أساس تطورهم يقول ليزلي هويت "إن التكنولوجيا أساس التطور والتقدم، وإنما تعنى التحرك في اتجاه زيادة استخدام موارد الطبيعة أو زيادة الانتفاع بالطاقة الموجودة" ويقول كندرسية "إن تقدم المجتمعات البشرية يرتبط بتطور العقل البشري" (٢) .

فإن كان علماء الغرب يرون هذا وهم يعملون لتحقيقه، فإن الواجب على المسلمين أن يعتنوا بالعلوم الحديثة وأن يفرغوا لها الأوقات وينفقوا في سبيلها الأموال، خاصة إذا علمنا أن الإسلام يحضهم على ذلك ويأمرهم به.

فإذا فعلوا ذلك كان من اليسير عليهم أن ينافسوا غيرهم في هذه المجالات ويصلوا إلى ما يصبوا إليه من رقي وتحضر، إما إن لم يفعلوا فإنهم سيقفوا متأخرين ضمن دول العالم الثالث وأسرى القرارات والأحكام الخارجية التي تملها عليهم الدول المتحضرة المتقدمة.

دور العلماء في ارتقاء الأمم:

إن للعلماء أثرهم البالغ على الأمم سلبيًا أو إيجابًا، فهم قدوة للناس، يتأثرون بهم، ويتبعون خطواتهم، فإن كانوا علماء عاملين، مخلصين متبعين للحق، مجتنبين للباطل، فإنهم بذلك يصلحون في الأمة إصلاحًا عظيمًا ويوجهون الناس توجيهًا سليمًا، يأخذون بأيديهم إلى سبيل الهدى والرشاد إلى بر الأمان، أما إن كانوا

(١) ماذا خسر العالم بأخطا المسلمين - لأبي الحسن الندوي - ص ٢٤٠.

(٢) انظر: التغيير الاجتماعي مدخل النظرية الوظيفية لتحليل التغيير - د. فادية الجولاني - ص ٣١-٣٥ باختصار.

يقولون ما لا يفعلون وينافقون ويدهنون، ويتقربون إلى الحكام الظالمين، ابتغاء المصلحة والمنصب والمكانة الزائفة فإن هؤلاء يفسدون ولا يصلحون ويضلون ولا يهدون. يقول ابن القيم "علماء السوء جلسوا على باب الجنة يدعون إليها الناس بأقوالهم ويدعونهم إلى النار بأفعالهم، فكلما قالت أقوالهم للناس هلموا قالت أفعالهم لا تسمعوا منهم فلو كان ما دعوا إليه حقاً كانوا أول المستجيبين له فهم في الصورة أدلاء وفي الحقيقة قطاع طرق" (١).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "إن أناساً من أممي سيتفقهون في الدين ويقرءون القرآن ويقولون نأتي الأمراء فنصيب من دنياهم، ونعتز لهم بدينا، ولا يكون ذلك كما لا يجتبي من القتاد إلا الشوك" (٢).
وفي الحديث ذم العلماء طالبي الدنيا، ملازمي الأمراء لأنهم جعلوا العلم وسيلة إلى اكتسابها، وهذا الجنس كثير في الناس (٣).

وضرب الله مثلاً لعلماء السوء الذين آثروا الدنيا على الآخرة، واتبعوا الرياسات والشهوات وباعوا دينهم بدنيا غيرهم فقال سبحانه ﴿وَأَنْتُمْ عَلَيْهِمْ تَبَاءٌ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَاتَّبَعْنَا مِنْهَا لِسُلْبِ الشَّيْطَانِ فَكَانَ مِنَ الْعَاوِينَ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ... لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (٤).

تقص هاتان الآيتان قصة رجل من بني إسرائيل اسمه بلعم بن باعوراء وكان يحفظ بعض الكتب المترلة، وكان يعلم اسم الله الأكبر ويسكن مدينة الجبارين، فلما نزل موسى بالجبارين أتوه-أي بلعم- وقالوا له إن موسى رجل حديد ومعه جنود كثيرة وإنه إن يظهر علينا يهلكنا فادع الله أن يرد عنا موسى ومن معه، قال إني إن دعوت الله أن يرد موسى ومن معه ذهبت دنياي وأخرتي فأهدوا له هدية فدعا على موسى ومن معه فتحول لسانه بالدعاء على أصحابه، فقيل له في ذلك فقال لا أقدر على أكثر

(١) الفوائد- لابن القيم- ص ٦١.

(٢) سنن ابن ماجه- المقدمة- باب الانتفاع بالعلم والعمل به- ج ١ ص ٩٣ رقم ٢٥٥، ضعيف.

(٣) الدين الخالص- محمد صديق خان- ج ٣ ص ٢٧٣- دار التراث.

(٤) سورة الأعراف- الآيات ١٧٥-١٧٦.

مما تسمعون، واندلع لسانه على صدره فقال: قد ذهبت مني الدنيا والآخرة"^(١).

وقد ذم الله ذلك الرجل من وجوه "أحدها أنه ضل بعد العلم واختار الكفر على الإيمان عمداً لا جهلاً وثانيها: أنه فارق الإيمان مفارقة من لا يعود إليه أبداً فإنه انسلخ من الآيات بالجملة كما تنسلخ الحية من قشرها ولو بقي معه منها شيء لم ينسلخ منها. وثالثها: أن اختياره للأدنى لم يكن عن خاطر وحديث نفس ولكنه كان عن إخلاد إلى الأرض وميل بكليته إلى ما هناك وأصل الإخلاد اللزوم على الدوام كأنه قيل لزم الميل إلى الأرض، وعبر عن ميله إلى الدنيا بإخلاده إلى الأرض لأن الدنيا هي الأرض وما فيها وما يستخرج منها من الزينة والمتاع"^(٢).

ومما يدل على عظم جرم العلماء الذين يريدون بعلمهم الدنيا وإثمهم أنهم لا يجدون عرف الجنة قال صلى الله عليه وسلم "من تعلم علماً مما يتغي به وجه الله عز وجل لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا، لم يجد عرف الجنة يوم القيامة" يعني ريجها"^(٣).

وقال صلى الله عليه وسلم "من تعلم العلم لياهي به العلماء، أو ليماري به السفهاء، أو ليصرف به وجوه الناس إليه فهو في النار"^(٤).

هذه هي عاقبة علماء السوء الذين جعلوا العلم وسيلة للتقرب إلى الحكام والأمراء، والاستزادة من الدنيا وشهواتها.

أما علماء الآخرة الذين جعلوا علمهم مطية توصلهم إلى مرضاة الله ورضوانه فهم السعداء المقربون إلى الله ومن صفات علماء الآخرة أنهم يعلمون ان الدنيا حقيرة، وأن الآخرة شريفة، فهم يؤثرون الآخرة ولا تخالف أفعالهم أقوالهم، ويكون ميلهم إلى

(١) تفسير القرآن العظيم- ابن كثير - ج ٢ ص ٢٦٥، فتح القدير- للشوكاني- ج ٢ ص ٣٣٠.

(٢) الفوائد- لابن القيم- ص ١٠١-١٠٢.

(٣) سنن أبي داود- كتاب العلم- باب في طلب العلم لغير الله تعالى ج ٣ ص ٣٢٣ باب ١٢ رقم ٣٦٦٤- حديث صحيح، صحيح الجامع الصغير وزيادته- الألباني- ج ٢ ص ١٠٦٠، سنن ابن ماجه- المقدمة- باب الانتفاع بالعلم والعمل به ج ١ ص ٩٢ رقم ٢٥٢.

(٤) سنن ابن ماجه- المقدمة- باب الانتفاع بالعلم والعمل به ج ١ ص ٩٣ رقم ٢٥٣ حديث صحيح. المرجع السابق ج ٢ ص ١٠٦٠.

العلم النافع في الآخرة ويجتنبون العلوم التي يقل نفعها إثارة لما يعظم نفعه.
ومن صفاتهم أنهم يكونون منقبضين عن السلاطين، متحرزين عن مخالطتهم. قال
حذيفة رضي الله عنه "إياكم ومواقف الفتن قيل: ما هي؟ قال أبواب الأمراء، يدخل
أحدكم على الأمير فيصدقه بالكذب ويقول ما ليس فيه". وقال سعيد بن المسيب
رحمه الله ^(١) "إذا رأيتم العالم يغشى الأمراء فاحذروا منه فإنه لص". (وقال بعض
السلف "إنك لا تصيب من دنياهم شيئاً إلا أصابوا من دينك أفضل منه") ومن
صفات علماء الآخرة اتباعهم للصحابة وخيار التابعين وتوقي كل محدث. ^(٢)

وهؤلاء العلماء العاملون، علماء الآخرة هم الذين يأخذون بأيدي الناس إلى
النجاح والعلو وإلى السعادة والفلاح وهكذا نعلم أثر علماء السوء وعلماء الآخرة على
الأمة. فعلماء السوء يوقعونها في الهلاك والهاوية وعلماء الآخرة يعملون على انقاذها
ونجاعتها، ويؤكد هذا المعنى قول الرسول صلى الله عليه وسلم "صنفان من أممي إذا
صلحا صلحت الأمة وإذا فسد فسدت الأمة الأمراء والعلماء" ^(٣).

فساد العلماء من أهم العوامل التي تضعف الأمة وتؤدي إلى فسادها، في حين
أن صلاح العلماء يؤدي إلى صلاح المجتمع وتقدمه وعلوه، لما يقوم به العلماء
المصلحون من دور بارز في توجيه الأمة والأخذ بيدها إلى طريق الهدى والفوز والخير.
وقد سطر التاريخ الإسلامي أمثلة لعلماء صالحين كانت لهم مساهمة كبيرة في
نجاح الأمة وعزتها.

ومن هؤلاء العلماء ابن تيمية ^(٤) "شيخ الإسلام": هذا العالم العامل الذي جهر

(١) سعيد بن المسيب: هو سعيد بن خزن بن أبي وهب بن عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم بن يقظة،
الإمام العَلَم، أبو محمد القرشي المخزومي، عالم أهل المدينة وسيد التابعين في زمانه ولد لستين مضتاً من خلافة
عمر بن الخطاب رضي الله عنه وتوفي سنة ثلاث وتسعين للهجرة. سير أعلام النبلاء - للذهبي - ج ٤ ص
٢١٧.

(٢) مختصر منهاج القاصدين - لابن قدامة المقدسي - ص ٣٠ باختصار.

(٣) فيض القدير شرح الجامع الصغير - للمناوي - ج ٤ ص ٢٠٩ ضعفه السيوطي والعراقي.

(٤) ابن تيمية: هو تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم الخضر
النميري الحراني الدمشقي الحنبلي. الإمام العالم العلم العلامة الفقيه الحافظ، ولد في حران سنة ٦٦١هـ =

بكلمة الحق في وجوه السلاطين محرضاً لهم على قتال التتار، مما كان له أثر كبير في تكوين الجيوش التي خرجت لمقاتلة التتار، ومما يذكر في ذلك أنه ذهب إلى السلطان^(١) في مصر، لما جاء التتار إلى بلاد المسلمين وقد رأى أن سلطان مصر أبطأ في المحي إلى الشام، فقال له: إن كنتم أعرضتم عن الشام وتركتموه فإننا نجعل له من يحوطه و يحميه في زمن الخوف ويستغله في زمن الأمن، ثم تلا قول الله تعالى ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾^(٢). وكان مما قاله له أيضاً: إنه لو قدر أنكم لستم حكام الشام ولا ملوكه واستنصركم أهله لوجب عليكم النصر، فكيف وأنتم حكامه وملوكه، لا يسعكم إلا الخروج!! فخرج السلطان إلى الشام وخرج معه الناس.

وكان الشيخ يخرج مع الناس في المعارك، يثبت قلوبهم بالوعظ والتذكير، حتى إنه كان يقول لهم: إنكم منصورون فيقولون له: قل - إن شاء الله - فيقول - إن شاء الله - تحقيقاً، لا تعليقاً. وهكذا كان، فقد انتصر المسلمون بعون الله على التتار. ومن هؤلاء العلماء كذلك "العز بن عبد السلام"^(٣) المعروف بسلطان العلماء؛ وللعز ابن عبد السلام مواقف عظيمة في الجهر بكلمة الحق في وجوه السلاطين ومن ذلك موقفه مع سلطان مصر، إذ خرج هذا السلطان في يوم العيد في موكب مهيب، وحاشيته يحيطون به،

=وتحول به أبوه إلى دمشق فنبغ واشتهر. سافر إلى مصر فغضب عليه جماعة من أهلها فسجن مدة ونقل إلى الإسكندرية. ثم أطلق فسافر إلى دمشق سنة ٧١٢هـ واعتقل بها سنة ٧٢٠ وأطلق، ثم أعيد، ومات معتقلاً بقلعة دمشق بالقاعة ٧٢٨ هـ. كان ذكياً كثير المحفوظ فصار إماماً في التفسير وما يتعلق به عارفاً بالفقه، وعالمًا في الأصول والفروع والنحو واللغة وغير ذلك من العلوم النقلية والعقلية. أما الحديث فكان حامل رايته حافظاً له مميّزاً بين صحيحه وسقيمه وعارفاً برجاله متضلّعاً من ذلك. له مصنّفات كثيرة ومن أهمها الفتاوى، والسياسة الشرعية ومنهاج السنة وغيرها كثير. [البداية والنهاية ج ١٤ ص ١٣٥ دار ابن كثير، الأعلام للزركلي ج ١ ص ١٤٤ دار العلم للملايين].

(١) السلطان هو: الملك الناصر محمد بن قلاوون.

(٢) سورة محمد آية ٣٨.

(٣) العز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن الحسن السلمي الدمشقي عز الدين الملقب بسلطان العلماء، شافعي بلغ رتبة الاجتهاد، ولد سنة ٥٧٧ هـ ونشأ بدمشق، تولى الخطابة والتدريس بزاوية الغزالي ثم الخطابة بالجامع الأموي، ولما سلم الصالح إسناعيل قلعة صفد للفرنج أنكر عليه ابن عبد السلام لم يدع له في الخطبة=

والأمراء يقبلون الأرض بين يديه والعز - رحمه الله - يرى ذلك فنادى السلطان قائلاً: يا أيوب! ما حجتك عند الله إذا قال لك: ألم أبوء لك ملك مصر تبيح الخمر؟ فقال أو يحدث هذا؟ فقال: نعم، في مكان كذا وكذا حانة يباع فيها الخمر فقال السلطان: يا سيدي هذا أنا ما عملته، هذا من عهد أبي، فهز العز بن عبد السلام رأسه وقال أنت من الذين يقولون: إنا وجدنا آباءنا على أمة؟! فأصدر السلطان أمراً بإبطال الحانة ومنع بيع الخمر. وانتشر الخير بين الناس. ورجع العز إلى مجلس درسه، فجاءه أحد تلاميذه فسأله قائلاً: يا سيدي كيف الحال؟ فقال يا بني رأيت في تلك العظمة، فأردت أن أهينه لئلا تكبر نفسه فتؤذيه، فقال يا سيدي! أما خفته؟ فقال: والله يا بني لقد استحضرت عظمة الله فصار السلطان أمامي كالقط^(١).

هذان مثالان من أمثلة كثيرة وجريئة لعلماء أجلاء وقفوا في وجه الباطل وجهروا بكلمة الحق في وجوه الحكام فكان لهم أثرهم البارز في توجيه الأمة إلى الحق وإلى الطريق المستقيم مما أدى إلى رفعة الأمة وارتقائها وانتصارها على أعدائها.

=فغضب عليه وجبسه، ثم أطلقه فخرج إلى مصر. وتوفي بالقاهرة سنة ٦٦٠هـ من كتبه التفسير الكبير، والإمام في أدلة الأحكام، وقواعد الشريعة وغيرها. [الإعلام ج ٤ ص ٢١ دارالعلم للملادين] (١) حتى لا تغرق السفينة - سلمان العودة - ص ٩٠-٩١.

المبحث الخامس: الجهاد في سبيل الله

الجهاد لغة: بذل الوسع والطاقة والجهاد.

يقال جاهد في سبيل الله جهادًا واجتهد في الأمر بذل وسعه وطاقته في طلبه ليلبغ بمجهوده ويصل إلى نهايته^(١).

والجهاد والمجاهدة، استفراغ الوسع في مدافعة العدو^(٢).

والجهاد شرعًا: هو بذل المسلم طاقته وجهده في نصرته الإسلام ابتغاء مرضاة الله، ولهذا قيّد الجهاد في الإسلام بأنه في سبيل الله ليدل على هذا المعنى الضروري لتحقيق الجهاد شرعًا^(٣).

إن الجهاد في سبيل الله من أبرز مقومات الارتقاء، لأنه لا يتصور أن ترتقي أمة من الأمم أو أن يمكن لها دون جهاد وقاتل في سبيل ذلك.

وقد أرشدنا الرسول صلى الله عليه وسلم إلى أن الأمة التي تترك الجهاد، لا بد لها أن تذلل وهتان، فقال صلى الله عليه وسلم " إذا تبايعتم بالعينة^(٤) وأخذتم أذناب البقر ورضيتم بالزرع وتركتم الجهاد سلط الله عليكم ذلًا لا يترعه حتى ترجعوا إلى دينكم^(٥). فلا مناص إذن للأمة التي تريد أن ترتقي وأن تعز من أن تجاهد في سبيل الله وأن تلقى بفلذات أكبادها في سبيل الله لتحقيق كرامتها وعزتها.

وقت فرض الجهاد والمراحل التي مرّ بها:

لما بعث الله نبيه وأمره بدعوة الخلق إلى دينه - لم يأذن له في قتل أحد على

(١) المصباح المنير - أحمد الفيومي - ج ١ ص ١٢٢.

(٢) المفردات في غريب القرآن - للراغب الأصفهاني - ص ١٠١.

(٣) أصول الدعوة - د. عبد الكريم زيدان - ص ٢٦٢.

(٤) بيع العينة أن يبيع السلعة بثمن معلوم، ثم يشتريها من المشتري بأقل من الثمن. غريب الحديث - أبو الفرج

ابن الجوزي - ج ٢ ص ١٤١.

(٥) سنن أبي داود - كتاب البيوع - باب في النهي عن بيع العينة ج ٣ ص ٢٧٤ رقم ٣٤٦٢ صحيح - سلسلة

الأحاديث الصحيحة - الألباني - ج ١ ص ٤٢ ..

ذلك ولا قتاله، حتى هاجر إلى المدينة، فأذن له وللمسلمين بقوله سبحانه ﴿أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهَدَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾^(١).

أذن الله لصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم في القتال فحذف المأذون فيه لدلالة يقاتلون عليه (بأنهم ظلموا) بسبب كونهم مظلومين وهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان مشركو مكة يؤذونهم أذى شديداً وكانوا يأتون رسول الله صلى الله عليه وسلم من بين مضروب ومشحوج يتظلمون إليه فيقول لهم اصبروا فإني لم أؤمر بقتال حتى هاجر فأنزلت هذه الآية وهي أول آية أذن فيها بالقتال بعدما نهي عنه في نيف وسبعين آية (وإن الله على نصرهم لقدير) على نصر المؤمنين قادر، وهي بشارة للمؤمنين بالنصرة (الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله) أي بغير موجب سوى التوحيد الذي ينبغي أن يكون موجب التمكين لا موجب الإخراج (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً) أي لولا إظهاره وتسليطه المسلمين على الكافرين بالمجاهدة لاستولى المشركون على أهل الملل المختلفة في أزمتهم وعلى متعبداهم فهدموها ولم يتركوا للنصارى بيعة ولا لرهباهم صوامع ولا لليهود صلوات ولا للمسلمين مساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً (ولينصرن الله من ينصره) أي ينصر دينه وأولياؤه (إن الله لقوي) على نصر أولياؤه (عزيز) على الانتقام من أعدائه^(٢).

ثم إنه بعد ذلك أوجب عليهم القتال بقوله تعالى ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٣).

(١) سورة الحج الآيتان ٣٩-٤٠.

(٢) انظر الكشف- للزمخشري- ج٣ ص٣٥، تفسير مدارك التنزيل وحقائق التأويل- النسفي- ج٢ ص١٠٧٧.

(٣) سورة البقرة آية ٢١٦.

"فهذه أول آية فرض فيها القتال وكان ذلك في السنة الثانية من الهجرة،
 و(كتب عليكم القتال) بمعنى فرض عليكم القتال (وهو كره لكم) أي شاق عليكم،
 وذلك أن الله تعالى لما أمرهم بالجهاد كرهوا الخروج وإنما كانت كراهيتهم له لأنه
 كان في الخروج عليهم مشقة لا أنهم كرهوا فرض الله تعالى .
 وعدَّ بعض العلماء هذه الآية من المشكلات، إذ كيف يكره المؤمنون ما
 يكلفهم الله إياه وفيه سعادتهم، وحمله جمهور المفسرين على الكره الطبيعي والمشقة،
 وهذا لا ينافي الرضى به والرغبة في القيام بأعبائه من حيث أنه مما أمر الله به وجعل فيه
 المصلحة لحفظ دينه.

(وعسى أن تكرهوا شيئاً) يعني الجهاد (وهو خير لكم) لأن فيه فتحاً وغنيمة
 وشهادة فيه إظهار الإسلام (وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم) وهو القعود عن
 الجهاد لأنه يسلط عليكم عدوكم (والله يعلم) أن الجهاد خير لكم (وأنتم لا تعلمون)
 أن ذلك خير حين أحببتم القعود عن الجهاد"^(١) .

"وأكد الإيجاب وعظّم أمر الجهاد في عامة السور المدنية، وذم التاركين له،
 ووصفهم بالنفاق ومرض القلوب"^(٢) فقال سبحانه ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ
 وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا
 وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى
 يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾^(٣) .

يقول ابن القيم: "فلما استقر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة وأيده الله
 بنصره وعباده المؤمنين وألف بين قلوبهم بعد العداوة والإحن التي كانت بينهم فمنعه
 أنصار الله وكتيبة الإسلام من الأسود والأحمر، وبدلوا نفوسهم دونه وقدموا محبته على
 محبة الآباء والأبناء والأزواج وكان أولى بهم من أنفسهم، رمتهم العرب واليهود عن

(١) انظر: تفسير بحر العلوم - للسمرقندي - ج ١ ص ٢٠١، المنار تفسير القرآن الحكيم - محمد رشيد رضا - ج ٢

ص ٣١٢، التفسير الكاشف ج ٢ ص ٣٢٣ .

(٢) السياسة الشرعية - ابن تيمية - ص ١١٩ .

(٣) سورة التوبة آية ٢٤ .

قوس واحد، وشروا لهم عن ساق العداوة والمخاربة، وصاحوا بهم من كل جانب والله سبحانه يأمرهم بالصبر والعفو والصفح حتى قويت الشوكة واشتد الجناح، فأذن لهم حينئذ في القتال ولم يفرضه عليهم فقال تعالى ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾^(١).

ثم فرض عليهم القتال بعد ذلك لمن قاتلهم دون من لم يقاتلهم فقال تعالى ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾^(٢) ثم فرض عليهم قتال المشركين كافة وكان محرماً ثم مآذوناً به ثم مأموراً به لمن بدأهم بالقتال ثم مأموراً به لجميع المشركين^(٣).

وهذا الذي ذكره ابن القيم - وذهب إليه العلماء - دليل على التدرج في فرض الجهاد، فبعد أن كان ممنوعاً ومحرماً في مكة قبل الهجرة أذن فيه في بداية الهجرة إلى المدينة، وكان وقتها دفاعياً فيقاتلون من قاتلهم دون من لم يقاتلهم، ثم أمروا بقتال المشركين كافة وأن يبدأوا بالجهاد لنشر دين الله وإعلاء كلمة الحق، ليتحقق الارتقاء والعلو للأمة الإسلامية.

حكم الجهاد:

وقد كان حكم الجهاد في تلك الفترة التي انتهى إليها الأمر في الجهاد، أنه فرض كفاية إذا قام به بعض المسلمين وكانوا كافين لمواجهة أعدائهم سقطت الفريضة عن الباقيين، وإذا لم يقم به أحد أتم الجميع.

إلا أن الجهاد يصبح فرض عين في بعض الحالات، وحينئذ يجب الخروج على المسلمين خفافاً وثقالاً وركبائاً، عبيداً وأحراراً، من كان له أب من غير إذنه حتى يظهر دين الله وتحمى البيضة وتحفظ الحوزة ويجزي الله العدو^(٤)، وهذه الحالات

(١) سورة الحج آية ٣٩.

(٢) سورة البقرة آية ١٩٠.

(٣) زاد المعاد - لابن القيم - ج ٣ ص ٧١.

(٤) أحكام القرآن - لابن العربي المالكي - ج ٢ ص ٥١٧.

(١) هي:

١. أن يحضر المكلف صف القتال، ويوجد في المعركة لقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا﴾^(٢). وقوله سبحانه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمْ الْأَدْبَارَ﴾^(٣).

٢. إذا نزل العدو ببلد إسلامي، فإنه يجب على كل قادر أن يحمل السلاح ويقاتل، ولا يحتاج الأمر حينئذ أن يستأذن أحد أحدًا، وذلك لأن الدفاع عن النفس والعرض واجب، ولا يجوز لمسلم أن يسلم نفسه لعدوه وعدو دينه وهو يقدر أن يجاربه ويقاتله. قال تعالى ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾^(٤).

٣. إذا عين الإمام قومًا للقتال فإن القتال يتعين عليهم بذلك ويصير فرض عين على كل منهم وذلك لقول الرسول صلى الله عليه وسلم "لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية وإذا استنفرتم فانفروا"^(٥).

وهذا الذي ذكرناه دليل واضح على أن الجهاد فرض عين على المسلمين جميعًا في عصرنا الحاضر وذلك لاستيلاء الأعداء على مواطن كثيرة من العالم الإسلامي وعلى رأسها فلسطين التي تضم بين جنباتها المسجد الأقصى الذي برك الله حوله، والذي هو مسرى رسول الله صلى الله عليه وسلم كما أن هناك مواطن عديدة يقتل فيها المسلمون ويشردوا من ديارهم وتنتهك فيها أعراضهم وتسلب أموالهم، وهذا يفرض على باقي المسلمين أن يناصروهم ويدافعوا عنهم.

(١) انظر في هذه الحالات الجهاد والفدائية في الإسلام - حسن أيوب - ص ١٩٠، فقه السنة - سيد سابق -

٢م ج ٢ ص ٦٢٢ - ٦٢٣ بتصرف.

(٢) سورة الأنفال آية ٤٥.

(٣) سورة الأنفال آية ١٥.

(٤) سورة البقرة آية ١٩٠.

(٥) صحيح البخاري - كتاب الجهاد والسير - باب لا هجرة بعد الفتح - ٢م ج ٤ ص ٩٤، صحيح مسلم -

كتاب الإمارة - باب المبايعه بعد فتح مكة على الإسلام والجهاد والخير وبيان معنى ألا هجرة بعد الفتح - ج ٣

ص ١٤٨٨ رقم ١٨٦٤.

الأمر بالجهاد وفضله:

لما كان الجهاد من أعظم القربات التي يتقرب بها المسلم لربه، فقد عظمت به الوصية، وأمر الله به في مواطن عديدة من كتابه ومن ذلك قوله سبحانه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ ائْتَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنَّا قُلْنَا إِلَى الْأَرْضِ أَرْضِينَا بِالحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ (١).

نزلت هذه الآية بعد غزوة تبوك وهي خطاب للمؤمنين عامة، تربية لهم بما لعله وقع في منافقهم وضعفائهم، يا أيها الذين آمنوا ما الذي عرض لكم مما يخل بالإيمان أو بكماله من التثاقل والتباطؤ عن النهوض بما طلب منكم وإخلاصكم إلى الراحة واللذة حين قال لكم الرسول صلى الله عليه وسلم ائفروا في سبيل الله لقتال الروم الذين تجهزوا لقتالكم والقضاء على دينكم الحق، الذي هو سبيل سعادتكم؟ فآية صدق الإيمان بذل النفس والمال في سبيل الله، كما قال تعالى ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ (٢).

ثم أخبر سبحانه أن متاع هذه الدنيا التي يتثاقل الناس بسببها لا يساوي شيئاً مذكوراً إذا قيس بما أعدده الله في الآخرة من النعيم المقيم والرضوان من المولى عز وجل - وأتبع هذه الآية بقوله سبحانه ﴿إِلَّا تَتَفَرَّوْا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٣).

أي إن لم تخرجوا إلى ما دعاكم الرسول صلى الله عليه وسلم للخروج إليه يعذبكم عذاباً أليماً في الدنيا يهلككم به، كقحط وغلبة عدو، ويستبدل بكم قوماً غيركم يطيعونه ويطيعون رسوله، لأنه قد وعد بنصره وإظهار دينه كله ﴿وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ (٤)، وقد جرت سنته بأن الأمم التي لا تدافع عن نفسها ولا تحمي

(١) سورة التوبة آية ٣٨ .

(٢) سورة الحجرات آية ١٥ .

(٣) سورة التوبة آية ٣٩ .

(٤) سورة الحج آية ٤٧ .

ذمارها لا بقاء لها، وتكون طعاماً للاكلين وغذاء شهياً للمستعمرين.

ثم أمر الله بالجهاد أمراً جازماً قاطعاً فقال عز وجل ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا
وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾^(١).

"فهذا أمر جزم من الله سبحانه للمؤمنين بالنفير والجهاد، والمراد انفروا سواء

كنتم على الصفة التي يخف عليكم الجهاد أو على الصفة التي يثقل، وهذا الوصف يدخل تحته أقسام كثيرة والمفسرون ذكروها وهي: انفروا سواء كنتم خفافاً في النفور لنشاطكم وثقالاً عنه لمشقة عليكم، أو خفافاً لقلّة عيالكم وثقالاً لكثرتها، أو خفافاً من السلاح وثقالاً منه، أو ركبناً ومشاة أو شباباً وشيوخاً، أو مهازيل وسماناً، أو صحاحاً مراضاً. والصحيح أن كل ما ذكر داخل فيه لأن الوصف المذكور وصف كلي يدخل فيه كل الجزئيات (وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله) فيه قولان: الأول: أن هذا يدل على أن الجهاد إنما يجب على من له المال والنفس، فدل على أن من لم يكن له نفس سليمة صالحة للجهاد، ولا مال يتقوى به على تحصيل آلات الجهاد لا يجب عليه الجهاد. الثاني: أن الجهاد يجب بالنفس إذا انفرد وقوى عليه، وبالمال إذا ضعف عن الجهاد بنفسه فيلزم على هذا القول أن من عجز عن القتال بنفسه - أن ينب عنه نفراً بنفقة من عنده فيكون مجاهداً بماله لما تعذر عليه بنفسه، وقد ذهب إلى هذا كثير من العلماء"^(٢).

وحذر الله من تقلب حب الدنيا وشهواتها وفتنها على حب الله ورسوله والجهاد في سبيله، وتوعد من يفعل ذلك بالعقاب الشديد والأليم قال تعالى ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾^(٣)

(١) سورة التوبة آية ٤١.

(٢) انظر التفسير الكبير - الرازي - ٨م ج ١٦ ص ٧٠-٧١ بتصرف، في رجاب التفسير - كشك - ج ٢

ص ١٦٠٦ باختصار.

(٣) سورة التوبة آية ٢٤

"وهذا دليل على وجوب تحمل جميع المضار الدنيوية ليقى الدين سليماً، أما إن كانت رعاية المصالح الدنيوية أولى من طاعة الله وطاعة رسوله ومن المجاهدة في سبيله، فليتربص هؤلاء القوم بما يجوبون حتى يأتي الله بأمره، أي بعقوبة عاجلة أو آجلة تصيهم" (١).

وكما أمر الله بقتال المشركين فقد أمر بقتال أهل الكتاب حتى يدخلوا في الإسلام أو يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون أذلاء قال تعالى ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ (٢).

"وهذه الآية الكريمة أول الأمر بقتال أهل الكتاب بعد ما تمهدت أمور المشركين ودخل الناس في دين الله أفواجاً واستقامت جزيرة العرب، أمر الله رسوله بقتال أهل الكتاب من اليهود والنصارى وكان ذلك في سنة تسع للهجرة، وهؤلاء يعرض عليهم الإسلام أو الجزية أو الحرب، فإن أبوا الإسلام قوتلوا حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون أي عن قهر لهم وغلبة وهم ذليلون حقيرون مهانون" (٣).

هذا عن الأمر بالجهاد، أما عن فضائله فعظيمة وجليلة، وردت فيها آيات كثيرة في كتاب الله، إذ جعل سبحانه جزاء المجاهدين في سبيله الجنة، ووعدهم بذلك وعداً صادقاً لا يتخلف قال تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (٤).

"فأحبر سبحانه أنه اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم، وأعاضهم عليها الجنة، وإن هذا العقد والوعد قد أودعه أفضل كتبه المترلة من السماء وهي التوراة

(١) انظر التفسير الكبير-الرازي- ٨م ج ١٦ ص ١٩.

(٢) سورة التوبة آية ٢٩.

(٣) تفسير القرآن العظيم-ابن كثير- ج ٢ ص ٣٤٧.

(٤) سورة التوبة آية ١١١.

والإنجيل والقرآن، ثم أكد ذلك بإعلامهم أنه لا أحد أوفى بعهده منه تبارك وتعالى، وأمرهم أن يستبشروا ببيعهم الذي عاقدوه عليه ثم أعلمهم أن ذلك هو الفوز العظيم، فليتأمل العاقد مع ربه عقد هذا التبائع ما أعظم خطره وأجله، فإن الله عز وجل هو المشتري والتمن جنات النعيم والفوز برضاه والتمتع برؤيته هناك، والذي جرى على يده هذا العقد أشرف رسله وأكرمهم عليه من الملائكة والبشر، وإن سلعة هذا شأنها لقد هيئت لأمر عظيم وخطب جسيم، فمهر المحبة والجنة بذل النفس والمال للمالكهما الذي اشتراها من المؤمنين، فما للجبان المعرض المفلس وسوم هذه السلعة، بالله ما هزلت فيستامها المفلسون ولا كسدت فيبيعها بالنسيئة^(١) المعسرون، لقد أقيمت للعرض في سوق من يريد فلم يرض ربحاً لها بتمن دون بذل النفوس^(٢).

والجهاد في سبيل الله هو التجارة الراجحة التي لا كساد فيها ولا خسارة، بل ربحها خير ربح وأعظمه ألا وهو مغفرة الذنوب ودخول الجنات والنصر القريب من الله. قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَذِلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٣).

"فجعل الله الإيمان بالله ورسوله والجهاد في سبيله بمنزلة التجارة لأنهم يربحون في هذا العمل كما يربحون في التجارة وذلك بدخولهم الجنة ونجاتهم من النار، وقوله تعالى (تؤمنون وتجاهدون) خير بمعنى الأمر أي آمنوا وجاهدوا وذلك للإيذان بوجوب الامتثال فكأنه قد وقع فأخبر بوقوعه، وجعل الله سبحانه الإيمان بالله ورسوله والجهاد في سبيله خيراً من الأموال والأولاد أو هو خير على الإطلاق، وإن كانوا لا يعلمون

(١) النسأ: التأخير . غريب الحديث- ابن الجوزي- ج ٢ ص ٤٠٤ . أحكام القرآن - ابن العربي- ج ٢ ص

٥٠٤

(٢) زاد المعاد - لابن القيم الجوزية - ج ١ ص ٥٩ .

(٣) سورة الصف آية ١٠-١٣ .

بأنه خير لهم إذ الجهلة لا يعتد بأفعالهم حتى توصف بالخيرية.

ورتب الآيات على الإيمان بالله ورسوله والجهاد في سبيله أحوراً وفضائل عظيمة لمن تحققت فيهم هذه الصفات وهي: مغفرة الذنوب، ودخول الجنات الطاهرة الزكية والنصر والفتح القريب وهذا الأخير مما يحبه المؤمنون ويرجونه. ثم حتم الآيات بقوله سبحانه (وبشر المؤمنين) أي بشرهم بالنصر في الدنيا والفتح، وبالجنة في الآخرة^(١).

والجهاد فيه حياة للأمة، حياة كريمة مطمئنة بإحياء أمرهم وقوة شوكتهم قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾^(٢). نقل ابن القيم عن الواحدي قوله "والأكثر على أن معنى قوله (لما يحييكم) هو الجهاد وهو قول ابن اسحاق واختيار أكثر أهل المعاني"، قال الفراء "إذا دعاكم إلى إحياء أمركم بجهاد عدوكم يريد أن أمرهم إنما يقوى بالحرب والجهاد، فلو تركوا الجهاد ضعف أمرهم واجترأ عليهم عدوهم"، قلت -ابن القيم- الجهاد من أعظم ما يحييهم به في الدنيا وفي البرزخ وفي الآخرة، أما في الدنيا فإن قوتهم وقهرهم لعدوهم بالجهاد، وأما في البرزخ فقد قال تعالى ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرَزَّقُونَ﴾^(٣) وأما في الآخرة فإن حظ المجاهدين والشهداء من حياتها ونعيمها أعظم من حظ غيرهم^(٤).

ويكفي أن نعلم في هذا المقام أن الله فضل المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً درجات منه ومغفرة ورحمة، وهذا دليل التفاضل وعدم الاستواء بين الفريقين. قال تعالى ﴿فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾^(٥).

(١) انظر روح المعاني - للألوسي - ج ١٠ ص ٩٠، وفتح القدير - للشوكاني - ج ٥ ص ٢٧٦ بتصرف.

(٢) سورة الأنفال آية ٢٤.

(٣) سورة آل عمران آية ١٦٩.

(٤) الفوائد - ابن القيم - ص ٨٨.

(٥) سورة النساء آية ٩٥.

هذه جملة من الآيات التي تحدثت عن الجهاد وفضائله الكثيرة العديدة في كتاب الله، أما السنة فإنها زاخرة كذلك بالأحاديث الصحيحة التي عظمت أمر الجهاد وجعلت له المترلة العظيمة ومن هذا الأحاديث قول رسول الله صلى الله عليه وسلم "رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد"^(١). وقوله صلى الله عليه وسلم "إن في الجنة مائة درجة أعدتها الله للمجاهدين في سبيل الله ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض"^(٢). وقوله صلى الله عليه وسلم "لغدوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها"^(٣).

ويقول ابن تيمية رحمه الله في فضل الجهاد "والأمر بالجهاد وذكر فضائله في الكتاب والسنة أكثر من أن يُحصَر، ولهذا كان أفضل ما تطوع به الإنسان، وكان باتفاق العلماء أفضل من الحج والعمرة تطوعاً، ومن الصلاة التطوع، والصوم التطوع... وهذا باب واسع لم يرد في ثواب الأعمال وفضلها، مثل ما ورد فيه، فهو ظاهر عند الاعتبار فإن نفع الجهاد عام لفاعله ولغيره في الدين والدنيا، ومشمول على جميع أنواع العبادات الباطنة والظاهرة، فإنه مشتمل من محبة الله تعالى، والإخلاص له، والتوكل عليه وتسليم النفس والمال له، والصبر والزهد، وذكر الله وسائر أنواع الأعمال، على ما لا يشتمل عليه عمل آخر. والقائم به من الشخص والأمة بين إحدى الحسينين دائماً إما النصر والظفر وإما الشهادة والجنة"^(٤).

وبحديثنا عن فضائل الجهاد نتبين أثره في ارتقاء الأمة، فهو سبيل الحياة الكريمة

(١) سنن الترمذي - أبواب الإيمان - باب ما جاء في حرمة الصلاة - ج ٤ ص ١٢٥ رقم ٢٧٤٩ وقال حسن

صحيح. سنن ابن ماجه - كتاب الفتن - باب كف اللسان في الفتنة - ج ٢ ص ١٣١٤ رقم ٣٩٧٣ - بنحوه.

(٢) صحيح البخاري - كتاب الجهاد والسير - باب درجات المجاهدين في سبيل الله يقال هذه سبيلي وهذا

سبيلي م ٢ ج ٤ ص ٢١، سنن النسائي - كتاب الجهاد - باب درجة المجاهدين في سبيل الله م ٣ ج ٦ ص ٢٠

- بنحوه.

(٣) صحيح البخاري - كتاب فضل الجهاد والسير - باب الغدوة والروحة في سبيل الله، وقاب قوس أحدكم

من الجنة م ٢ ج ٤ ص ٢٢، سنن النسائي - كتاب الجهاد - باب الغدوة في سبيل الله، وباب الروحة في سبيل

الله م ٣ ج ٦ ص ١٥.

(٤) السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية - لابن تيمية - ص ١٢١.

الطيبة المطمئنة الذي تعز فيها الأمة وتقوى وتملك زمام أمرها، وتكون صاحبة الرأي والقرار في بلادها، وتسيطر على ثرواتها وإمكاناتها، مما يسر لها نشر دينها والحفاظ على أوطانها وتصبح مرهوبة الجانب لدى أعدائها، بخلاف الأمة الضعيفة الذليلة التي يتحكم أعداؤها في مصيرها ويأكلون ثرواتها وخيراتهما، كما هو حال الأمة الإسلامية اليوم وما آل إليه أمرها بسبب تركها لجهادها.

الجهاد تمحيص وابتلاء:

إن من سنن الله الجارية في هذا الكون أن يتلي الله عباده المؤمنين ويختبرهم، وذلك تمحيصًا وتنقية لصفهم، ليثبت الله الصادقين المؤمنين ويتساقط الكاذبون المنافقون قال تعالى ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةٍ^(١) وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾^(٢) وقال سبحانه ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾^(٣).

وهذا خطاب من الله للمؤمنين "أحسبتم أن تدخلوا الجنة ولم تبتلوا بالقتال والشدائد إن هذا لا يمكن أن يحصل لكم حتى تبتلوا ويرى الله منكم المجاهدين في سبيله والصابرين على مقاومة الأعداء"^(٤).

وأكد الله على ذلك تأكيدًا جازمًا فقال سبحانه ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾^(٥) وقال سبحانه ﴿ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَآتَصَّرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِنَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ﴾^(٦). فالله قادر على الانتصار من

(١) وليجة: هي كل ما يتخذه الإنسان مُعتمداً عليه وليس من أهله، ومن قولهم فلان وليجة في القوم إذا لحق بهم وليس منهم. المفردات في غريب القرآن - للأصفهاني - ص ٥٣٢.

(٢) سورة التوبة آية ١٦.

(٣) سورة آل عمران آية ١٤٢.

(٤) تفسير القرآن العظيم - ابن كثير - ج ١ ص ٤٠٨.

(٥) سورة محمد آية ٣١.

(٦) سورة محمد آية ٤.

الكافرين بالانتقام منهم وإهلاكهم وتعذيبهم بما شاء من أنواع العذاب، لكنه أمر المسلمين بحربهم ومقاتلتهم، ليختبر بعضهم ببعض فيعلم المجاهدين في سبيله والصابرين على ابتلائه، ويجزل ثوابهم ويعذب الكفار بأيديهم" (١).

الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله:

إن من أهم خصائص الجهاد أنه في سبيل الله، فالمسلم لا يقاتل لمغنم دنيوي أو لهدف مادي، أو لإعلاء راية باطلة جاهلية، وإنما يقاتل في سبيل إعلاء كلمة الله ورفع رايته وتحكيم شرعه قال تعالى ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ (٢).

هذا هو جهاد المؤمنين إنه في سبيل الله وحده بخلاف قتال الكافرين فهو في سبيل الطاغوت - أي الشيطان - .

وعلق الله الخيرية على الجهاد في سبيله سبحانه دون غيره من السبل فقال عز وجل ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٣) (وقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياء أي ذلك في سبيل الله؟ فقال: من قاتل لتكون كلمة الله العليا فهو في سبيل الله) (٤).

وهذا تأكيد قاطع على أن القتال تحت أي راية غير راية الله فهو في سبيل الشيطان فمن قاتل تحت راية الاشتراكية أو القومية أو الوطنية أو العلمانية أو العصبية فقتل فقتله جاهلية وقاتله في غير سبيل الحق، وهذا ما فعله كثير من أبناء المسلمين

(١) فتح القدير - الشوكاني - ج ٥ ص ٣٩ بتصرف.

(٢) سورة النساء آية ٧٦.

(٣) سورة التوبة آية ٤١.

(٤) صحيح البخاري - كتاب فضل الجهاد والسير - باب فضل من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا - ج ٢ م ٤ ص ٢٦، وصحيح مسلم - كتاب الإمارة - باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله ج ٣ ص

الذين تربوا على الأفكار الدخيلة، فرفعوا شعارات جاهلية، وقاتلوا تحت راياتها، باذلين دماءهم في سبيل نصرتها، مما كان نتيجة الهزيمة تلو الهزيمة، والانتكاسة تلو الانتكاسة، فهزموا في عام ١٩٤٨ م، وبعدها عام ١٩٥٦ م ثم في ١٩٦٧ م، هذه الحروب التي خاضها العرب في حربهم لليهود، والتي هزموا فيها جميعاً بلا استثناء، بسبب رفعهم ✓ لهذه الشعارات الضالة المنحرفة، متجاهلين منهج الله سبحانه وهاجرين تشريعه ودينه، في الوقت الذي لو لجأوا فيه إلى الله واستقاموا على دينه لأعزهم ونصرهم وجعل كلمتهم هي العليا وكلمة الذين كفروا هي السفلى، لأنه مما يجدر ذكره أن القتال في سبيل الله ونصرة دينه من أهم عوامل ارتقاء الأمة وعلوها لأن الله وعد بنصرة دينه فقال عز وجل (ولينصرن الله من ينصره) ^(١) ونصرة الله تعني نصرته دينه ومن أعظم وسائل نصرته الدين الجهاد في سبيل الله، وإذا نصر الله قوماً أعزهم وجعل كلمتهم هي العليا، وهذا هو أساس الارتقاء.

أما القتال في سبيل الطاغوت فإنه سبب الذلة والمهانة لأنه محادة لله ومحاربة للدين ومن حاد الله وحاربه فهو المخذول المهزوم قال سبحانه ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذْلِينَ﴾ ^(٢).

إعداد العدة:

لما كان الجهاد من فروض الإسلام فقد عظمت به الوصية، وأمر الله تعالى بأخذ العدة اللازمة له، لأن الجهاد لا يتم إلا بها، وفي الأمر بإعداد القوة يقول تعالى ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ ^(٣).

(١) سورة الحج آية ٤٠.

(٢) سورة المجادلة آية ٢٠.

(٣) سورة الأنفال آية ٦٠.

"فكل ما به قوة وحاجة في القتال يجب تحصيله وإعداده، وهذا يختلف باختلاف الأزمان والأحوال، ولا شك أن من وسائل القوة المهمة في زماننا تعلم وإتقان مختلف العلوم والفنون والصناعات اللازمة لإعداد القتال، وتعلم هذه الأمور من الفروض الكفائية في الأمة، لأن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، ومن المستحب لكل مسلم أن يتعلم ما يستطيعه من أمور القتال، كالرمي والطعن واستعمال السلاح مبتغياً بذلك وجه الله ويعلمه للآخرين"^(١).

يقول صاحب المنار "ومن المعلوم بالبدهاة أن إعداد المستطاع من القوة يختلف امتثال الأمر الرباني به باختلاف درجات الاستطاعة في كل زمان ومكان بحسبه، وقد روى مسلم في صحيحه عن عقبة بن عامر أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد تلا هذه الآية على المنبر يقول "ألا إن القوة الرمي" قالها ثلاثاً"^(٢) وهذا كما قال بعض المفسرين من قبيل حديث "الحج عرفة"^(٣) بمعنى أن كلاً منهما أعظم الأركان في بابه، وذلك، لأن رمي العدو عن بعد بما يقتله أسلم من مصاولته على القرب بسيف أو رمح أو حربة، وإطلاق الرمي في الحديث يشمل كل ما يرمى به العدو من سهم أو قذيفة منجنيق أو طائرة أو بندقية أو مدفع وغير ذلك، وإن لم يكن هذا معروفاً في عصره صلى الله عليه وسلم، فإن اللفظ يشمل المراد منه يقتضيه، ولو كان قيده بالسهم المعروفة في ذلك العصر فكيف وهو لم يقيده... فالواجب على المسلمين في هذا العصر بنص القرآن صنع المدافع بأنواعها، والبنادق والدبابات والطائرات والمناطيد^(٤) وإنشاء السفن الحربية بأنواعها ومنها الغواصات التي تغوص في البحر،

(١) أصول الدعوة-د. عبد الكريم زيدان-ص ٢٦٣.

(٢) صحيح مسلم-كتاب الإمارة-باب فضل الرمي والحث عليه، وذم من علمه ثم نسيه-ج ٣ ص ١٥٢٢ رقم ١٩١٧.

(٣) سنن أبي داود-كتاب المناسك-باب من لم يدرك عرفه-ج ٢ ص ١٩٦ رقم ١٩٤٩ حديث صحيح. صحيح الجامع الصغير وزيادته-الألباني ج ١ ص ٦٠٦.

(٤) المناطيد: جمع منطاد: وهو بالون عجيب يشبه السيجار هيكله من المعدن المغطى بالقماش ويرتفع في الهواء بواسطة ملئه بالأيديروجين أو الهيليوم كما أن له محركات يسير بواسطتها في الهواء.

موسوعة الطالب الذكي-فدية عبد الوهاب عثمان ص ٣٦٤ مكتبة القرآن.

ويجب عليهم تعلم الفنون والصناعات التي يتوقف عليها صنع هذه الأشياء وغيرها من قوى الحرب بدليل "ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب" وقد ورد أن الصحابة استعملوا المنجنيق^(١) مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة خيبر وغيرها، كل الصناعات التي عليها مدار المعيشة من فروع الكفاية كصناعات آلات القتال^(٢).

وهذا الذي ذكره صاحب المنار جيد، إذ لا يمكن أن يقتصر الإعداد في زماننا الذي تقدمت فيه العلوم وآلات الحرب على ما كان عليه الأمر في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم بل يجب تعلم صناعة آلات الحرب الحديثة والتدرب على استعمالها..

وإعداد القوة يشكل قوة رادعة ترهب الأعداء فلا يقدموا على مهاجمتنا، كما قال تعالى (ترهبون به عدو الله وعدوكم) فالإعداد فيه إرهاب للآخرين، ولهذا نرى التسابق المحموم بين الدول على التزود بالأسلحة الرادعة خاصة النووية والبيولوجية-الجرثومية- منها، مما يسمى بالردع النووي، والذي تحاول أن تهيمن عليه الدول العظمى دون غيرها من دول العالم الثالث والتي تصنف من ضمنها الدول العربية والإسلامية.

وهذا أمر يلزم الدول الإسلامية بإعداد القوة وإنتاج الأسلحة التقليدية وغير التقليدية ليشكل ذلك قوة رادعة لدول الكفر التي تهيمن على مقدراتها وخيراتها.

من الشبهات حول الجهاد:

أثار أعداء الإسلام الشبهات حول الجهاد الإسلامي، فذهب فريق منهم إلى القول بأن الإسلام انتشر بحد السيف، وأن الجهاد الإسلامي فرض لسفك الدماء وقتل الشعوب، حتى إنه كلما قرع سمع الناس صوت كلمة "الجهاد" تمثلت أمام أعينهم صورة مواكب من الهمج المحتشدة، مصلثة السيوف، متقدة صدورها بنار التعصب والغضب، متطائراً من عيونهم شرار القتل والنهب، عالية أصواتها بهتاف "الله أكبر" فما يرون كافراً حتى يمسكوا بخصقه، ويجعلوه بين أمرين، إما أن يُسلم فينجو بنفسه، وإما

(١) المنجنيق: بكسر الميم، آلة تُرمى بها الحجارة. القاموس المحيط - الفيروز أبادي - ج ٣ ص ٢٢٥.

(٢) تفسير المنار - محمد رشيد رضا - ج ٥ ص ٥٤ باختصار.

أن يضرب عنقه"^(١) .

فقامت طائفة أخرى بالرد على هذه الشبهة، فأثارت شبهة ثانية أخطر من سابقتها، فقالت "إن الجهاد في سبيل الله هو دفاعي لا هجومي وإنما شرع لرد العدوان، بمعنى أنه لا يجوز للدولة الإسلامية أن تهاجم دولة غير إسلامية إلا إذا هاجمتها هذه الأخيرة.

والواقع أن هاتين الشبهتين قد جانبتا الصواب، وإنما المراد منهما الإساءة إلى الجهاد الإسلامي، وتنفير المسلمين منه، إما بإظهاره بصورة الهجومي الذي لا يعرف الرحمة، أو بإظهاره بصورة الضعيف المستكين المدافع عن نفسه. والحق في هذا الأمر أن يقال إن الجهاد فرض لأسباب ومنها:

(١) رد العدوان عن بلاد المسلمين ودفع الذين يهاجمونها.

(٢) القتال لنصرة ضعفاء المسلمين الذين يتعرضون لظلم الكفرة.

(٣) أن يسبأ المسلمون قتال الكفرة إذا رفضوا الإسلام ومنعوا المسلمين من تولي الحكم والسلطان لإقامة شرع الله وتطبيقه في الأرض، وهذا هو الذي يجادل فيه البعض ويعتبره من قبيل القتال الذي يبدأ به المسلمون غيرهم بلا مبرر"^(٢) ، إلا أنه لم يكن من قصد المسلمين قط أن يكرهوا الناس على اعتناق عقيدة الإسلام وإنما يقصدون إلى فتح الباب أمام الذين يريدون الدخول في هذه العقيدة، فإذا وقف حاكم أو سلطان لصد الناس عن الدخول في الدين، أو منع وصول دعوة الحق إلى الناس وجب عند ذلك محاربة ومجاهدة هؤلاء الذين يصدون عن دين الله ويقفون عقبة في سبيل تقدمه، ليتسنى للمسلمين أن يوصلوا دعوتهم للعالمين، وليكون الناس عند ذلك أحراراً في اختيار العقيدة التي يريدونها إذن لم يكن من أهداف المسلمين قتل غيرهم، وليس المقصود من الجهاد هو سفك دماء الناس بلا مبرر ولا سبب، وإلا لما أجاز الإسلام أخذ الجزية من أهل الكتاب ومن الجوس قال تعالى ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ

(١) انظر: الجهاد - للمودودي - ص ١-٢.

(٢) انظر: أصول الدعوة - د. عبد الكرم زيدان - ص ٢٦٥.

بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿١﴾ .

"والمراد قاتلوا الذين لا يصدقون بتوحيد الله ولا يؤمنون بالبعث بعد الموت ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله في الكتاب والسنة ولا يخضعون لدين الحق ولا يقرون بشهادة لا إله إلا الله حتى يعطوا الجزية عن قهر وذل وهم صاغرون ذليلون^(١) .
فقد كان المسلمون يعرضون على أعدائهم ثلاثة عروض الإسلام أو الجزية أو الحرب، فإن أسلموا فهم إخوانهم، وإن أبوا الإسلام ووافقوا على دفع الجزية قبلت منهم، أما إن رفضوا الدخول في الإسلام ودفع الجزية، فإن القتال يكون هو الفاصل والخيار الوحيد عند ذلك.

"والحقيقة أن بدء المسلمين لغيرهم بالقتال إذا رفضوا الإسلام أو الجزية، إنما هو لمصلحة عموم المشركين الذين يخضعون لسلطان الكفر، لأن المسلمين يريدون بهذا القتال رفع هذا الحكم الكافر وإزالة شرائعه الباطلة، ورفع الحواجز عن عموم الناس لرؤية الإسلام وشرائعه، فمن شاء آمن ومن شاء بقي على كفره بشرط الولاء للدولة الإسلامية، وهذا كله من مصلحة المشركين الدنيوية والأخروية، أما الدنيوية فتظهر في تمتعهم بعدل الإسلام، والمحافظة على أموالهم وحقوقهم، وأما الأخروية فتتهيئة سبل رؤيتهم الإسلام واحتمال دخولهم فيه عن رضى واختيار لا عن جبر وإكراه وفي هذا سعادتهم وفوزهم في الآخرة"^(٢) .

(١) سورة التوبة آية ٢٩ .

(٢) انظر: بحر العلوم - للسمرقندي - ج ٢ ص ٤٤ بتصرف .

(٣) أصول الدعوة - د. عبد الكريم زيدان - ص ٢٦٦ .

المبحث السادس: الصبر والشكر

المطلب الأول: الصبر

الصبر لغة: هو الحيس أي حبس النفس عند الجزع، يقال صبر فلان عند المصيبة يصبر صبراً، وصبرته أي حبسته ^(١) قال تعالى ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ ^(٢). والصبر شرعاً: هو "الأتمنى حالة سوى ما رزقك الله، والرضا بما قضى الله من أمر دنياك وآخرتك" ^(٣).

وذكر في تعريفه أنه "قوة خلقية من قوى الإرادة، تمكن الإنسان من ضبط نفسه لتحمل المتاعب والمشقات والآلام وضبطها عن الاندفاع بعوامل الضجر والجزع، والسأم والملل والعجلة والرعونة، والغضب والطيش والخوف والطمع والأهواء والشهوات والغرائز" ^(٤).

الأمر بالصبر:

ذكر الله الصبر في القرآن في أكثر من ثمانين موضعاً بأساليب وصيغ مختلفة، وهذا يدل على عظم اهتمام القرآن بالصبر، فهو نصف الإيمان ^(٥) ومن أعظم أخلاق الإسلام.

وورد في كثير من هذه الآيات الأمر بالصبر والترغيب فيه ومن ذلك قوله سبحانه ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ ^(٦) وفي الآية

(١) لسان العرب- لابن منظور- ج ٤ ص ٤٣٨ مادة صبر

(٢) سورة الكهف آية ٣٨.

(٣) الجامع لأحكام القرآن- للقرطبي- ج ١ ص ٣٧٢

(٤) الأخلاق الإسلامية وأسسها- عبد الرحمن حنكة الميداني- ج ٢ ص ٣٠٥

(٥) روى في أثر عن ابن مسعود- المعجم الكبير للطبراني- تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي ج ٩ ص ١٠٧

رقم ٨٥٤.

(٦) سورة البقرة آية ٤٥.

أمر بجس الأنفس عن الشهوات وقصرها على الطاعات وعلى دفع ما يرد عليها من المكروهات (١).

ووجه سبحانه خطاباً لرسوله صلى الله عليه وسلم وهو أعظم الصابرين أمره فيه بالصبر اقتداءً بمن سبقه من الأنبياء والمرسلين فقال سبحانه ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾ (٢) وهنا يقول الله تعالى لنبى محمد صلى الله عليه وسلم مثبِّتاً له على المضي لما كلف به من أعباء الرسالة، وثقل أحمال النبوة، وأمراً له بالافتداء بأولى العزم من قبله من الرسل الذين صبروا على عظيم ما لقوا فيه من أقوامهم من المكاره، ونالهم فيه منهم من الأذى والشدائد (فاصبر) على ما أصابك في الله من أذى مكذبيك من قومك الذين أرسلناك إليهم بالإنذار كما صبر أولو العزم على القيام بأمر الله، والانتهاز إلى طاعته من رسله الذين لم ينههم عن النفوذ لأمره، ما نالهم فيه من شدة (٣).

وفي سورة هود بعد أن قص الله على رسوله صلى الله عليه وسلم قصص سبعة من الرسل مع أقوامهم وما عانوه في سبيل دعوة التوحيد والإصلاح، وبعد أن أمره الله ومن معه بالاستقامة على أمره وحذرهم من الطغيان والركون إلى الظالمين، وأعقب ذلك بالأمر بإقامة الصلاة طرقي النهار وزلفاً من الليل، جاء الأمر بالصبر، لأنه العدة اللازمة لتنفيذ ما سبق من أوامر، واجتناب ما ذكر من نواه (٤) قال تعالى ﴿وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٥). أي اصبر على مشاق ما أمرت به في تضاعيف الأوامر السابقة (٦).

وفي الأمر بالصبر واحتمال الأذى والعنت ابتغاء مرضاة الله وتقرباً إليه يقول

(١) انظر فتح القدير - الشوكاني - ج ١ ص ١٠١

(٢) سورة الأحقاف آية ٣٥

(٣) جامع البيان من تأويل آي القرآن - للطبري - ج ١٤ ص ٢٠٣.

(٤) الصبر في القرآن - للقرضاوي - ص ٣٠.

(٥) سورة هود آية ١١٥.

(٦) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم - لأبي السعود - ج ٢ ص ٢٤٦.

سبحانه: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ صَبِرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ
وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾^(١).

فبين الله لرسوله منهج الدعوة إلى سبيل ربه من الحكمة والموعظة الحسنة والجدال والتي هي أحسن، ثم يشير إلى دستور المعاملة مع المتصددين للدعوة والدعاة بالعدوان، وهو معاقبة المعتدي بمثل اعتدائه دون التفكير في أكثر من المثل، وإيثار الصبر والصفح عند المقدرة، فهو أليق بأصحاب الدعوة، ثم يعقب على ذلك أمراً بالصبر الذي لا يعين عليه ولا يوفق إليه إلا الله بقوله سبحانه (واصبر وما صبرك إلا بالله) أي واصبر على ما أصابك من أذى في سبيل الدعوة وما صبرك إلا بعون الله وحسن توفيقه ومشيتته، وقد أشار الله لهذا المعنى في غير هذا الموضع فقال سبحانه (وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم) ومعنى ذلك أن خصلة الصبر لا يلقاها إلا من كان له عند الله الحظ الأكبر والنصيب الأوفر بفضل الله عليه وتيسير ذلك له وهذا تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم عما ناله من أذى قومه وتثبيت له صلى الله عليه وسلم^(٢).

الابتلاء تمحيص للمؤمنين:

"الصبر ضرورة يحتاج إليها المسلم في دينه ودنياه، ولا بد أن يبني عليها أعماله وآماله وإلا كان هازلاً.. يجب أن يوطن نفسه على احتمال المكارِه دون ضجر وانتظار النتائج مهما بعدت، ومواجهة الأعباء مهما ثقلت، بقلب لم تعلق به ريبة وعقل لا تطيش به كربة، يجب أن يظل موفور الثقة بادي الثبات"^(٣).

وإن من سنة الله في عباده أن يبتليهم بأنواع الابتلاءات والمحن ليختبر إيمانهم وصدقهم، فالابتلاء لا بد منه ولا بد من الصبر لاجتياز الامتحان بنجاح، لأن طريق

(١) سورة النمل آيات ١٢٦-١٢٨.

(٢) انظر الصبر في القرآن- للقرضاوي- ص ٣١ والتفسير المنير - د. وهبة الزحيلي - ج ١٤ ص ٢٧٢، أضواء

البيان في إيضاح القرآن بالقرآن - للشنقيطي - ج ٣ ص ٣٥٤.

(٣) خلق المسلم - للغزالي - ص ١٢٨.

الإيمان ليست مفروشة بالأزهار والرياحين، ومن ظن ذلك فقد جهل طبيعة الإيمان بالرسالات وطبيعة الرسالات، ولعل هذا الحسبان أو الوهم داخل نفوس بعض المؤمنين في العهد المكي بعد أن أصابهم من العذاب ما أصابهم^(١) فتزل قوله تعالى ﴿لَمْ أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾^(٢).

وفي الآيات دلالة على أنه لا يكفي من الناس أن يقولوا إنا مؤمنون فقط ولا يمتحنون بما تبين به حقيقة إيمانهم من شدائد التكليف كمفارقة الأوطان ومجاهدة الأعداء وسائر الطاعات الشاقة وهجر الشهوات، وبالفقر والقحط، وأنواع المصائب في الأنفس والأموال ومخابرة الكفار على أذاهم وكيدهم، بل إنه سبحانه سيختبر مؤمني هذه الأمة كما اختبر الذين من قبلهم الذين ابتلاهم بأنواع الفتن فمنهم من وضع المنشار على رأسه حتى فرق فرقتين ما صرفه ذلك عن دينه، ومنهم من مشط بأمشاط الحديد ما صرفه ذلك عن دينه، وهذا الابتلاء والاختيار ليظهر الصادق من الكاذب في قوله وادعائه الإيمان^(٣).

ويستمر البلاء بالمؤمنين فتمسهم البأساء والضراء ويزلزلوا حتى يصل بهم الأمر إلى استعجال نصر الله بعدما طال انتظاره وهم في قلب المحنة قال تعالى ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرُ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾^(٤) وذلك أن النفس لا تزكو وتصلح حتى تمحص بالبلاء كالذهب الذي لا يخلص جيده من رديئه حتى يفتن في كبر^(٥) الامتحان إذ كانت النفس جاهلة ظالمة

(١) الصبر في القرآن - للقرضاوي - ص ٢١.

(٢) سورة العنكبوت آية ١-٣.

(٣) انظر مدارك التنزيل وحقائق التأويل - النسفي - ج ٢ ص ٦٧١-٦٧٢، وفتح القدير - للشوكاني - ج ٤ ص

٢٣٨.

(٤) سورة البقرة آية ٢١٤.

(٥) الكبير: هو كبر الحداد، وهو زق أو جلد غليظ ذو حافات، والجمع أكيار وكيرة. لسان العرب - ابن =

وهي منشأ كل شر يحصل للعبد فلا يحصل له شر إلا منها" (١)
 يقول صاحب الظلال في الآية "هكذا خاطب الله الجماعة المسلمة الأولى
 وهكذا وجهها إلى تجارب الجماعات المؤمنة قبلها وإلى سنته سبحانه في تربية عباده
 المختارين، الذين يكل إليهم رايته، وينوط بهم أمانته في الأرض ومنهجه وشريعته، وهو
 خطاب مطرد لكل من يختار لهذا الدور العظيم.

وإنها لتجربة عميقة جلييلة مرهوبة، إن هذا السؤال من الرسول صلى الله عليه
 وسلم والذين آمنوا معه، من الرسول الموصول بالله والمؤمنين الذين آمنوا بالله. إن
 سؤالهم "متى نصر الله" ليصور مدى المحنة التي تنزل مثل هذه القلوب الموصولة، ولن
 تكون إلا محنة فوق الوصف، تلقي ظلالها على مثل هاتيك القلوب، فتبعث منها ذلك
 السؤال الكروب "متى نصر الله" وعندما تثبت القلوب على مثل هذه المحنة المزلزلة ..
 عندئذ تتم كلمة الله، ويحيى النصر من الله "ألا إن نصر الله قريب" إنه مدخر لمن
 يستحقونه، ولن يستحقه إلا الذين يثبتون حتى النهاية، والذين يشتون على البأساء
 والضراء، الذين يصمدون للزلزلة الذين لا يحنون رؤوسهم للعاصفة، الذين يستيقنون
 أن لا نصر إلا نصر الله وعندما يشاء الله" (٢).

وفي معنى الآية السابقة يقول سبحانه ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ
 اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمِ الصَّابِرِينَ﴾ (٣). وكان نزول هذه الآية في أعقاب
 غزوة أحد، التي مس المسلمين فيها من القرع ما مسهم، وفقدوا سبعين شهيداً من
 أبطالهم (٤)، لتكون تسليية لهم وربطاً على قلوبهم.

وقد بين الله ما ينتظر المؤمنين من ألوان البلاء مؤكداً وقوعها بلام القسم ونون
 التوكيد فقال عز وجل ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ

=منظور- ج ٥ ص ١٥٨.

(١) الفوائد- لابن القيم- ص ٢١٠.

(٢) في ظلال القرآن- سيد قطب- ج ١ م ٢ ص ٣١٧.

(٣) سورة آل عمران آية ١٤٢.

(٤) انظر فتح الباري شرح صحيح البخاري- لابن حجر العسقلاني- ج ٧ ص ٤٣٣.

وَالْأَنْفُسِ وَالشَّمَرَاتِ وَبَشَّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ» (١) .

والمراد لئمتحنكم ونختبرنكم بشيء من الخوف والجوع ونكر شيء للتقليل: أي بشيء قليل من الخوف من العدو والفرع في القتال، ومن الجوع بالمجاعات التي تحصل عند الجذب والقحط ونقص من الأموال بسبب الاشتغال بقتال الكفار، وبما يصيب هذه الأموال من الجوائح، ونقص الأنفس بالقتل والموت في الجهاد، أما نقص الثمرات فبقلة النبات وانقطاع البركات وبما يصيبها من آفات. وأتبع هذه الأنواع من الابتلاءات بقوله سبحانه (وبشر الصابرين) فلهم البشارة والثواب الجزيل على الصبر. هؤلاء الصابرون الذين إذا أصابتهم مصيبة أو ابتلوا ببلية قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون، هذه الكلمات التي جعلها الله ملجأ لذوي المصائب وعصمة للممتحنين لما جمعت من المعاني المباركة. وهؤلاء عليهم صلوات من ربهم ورحمة وهم المهتدون، وفي الأثر عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال "نعم العدلان ونعم العلاوة، وأراد بالعدلين الصلاة والرحمة وبالعلاوة الاهتداء" والصلاة من الله هي الثناء والمدح أما الرحمة فهي النعم التي أنزلها به عاجلاً ثم آجلاً والمهتدون: إلى الجنة والفائزون بالثواب" (٢) .

ومما يؤكد أن البلاء واقع بالمسلم لا محالة قول الله تعالى ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ (٣) .

وهذا تأكيد على أنه لا بد للمؤمن أن يبتلى في شيء من ماله أو نفسه أو ولده أو أهله ويبتلى المؤمن على قدر دينه، فإن كان في دينه صلابة زيد له في البلاء (٤) .

وفي الآية عدة ملاحظات جديرة بالانتباه والتسجيل:

(١) سورة البقرة آيتان ١٥٥-١٥٧ .

(٢) انظر الجامع لأحكام القرآن-للقرطبي- ج ٢ ص ١٧٧ ، ومفاتيح الغيب-الرازي- ج ٢ ص ١٧٢، وفتح القدير-الشوكاني- ج ١ ص ٢٠٢ .

(٣) سورة آل عمران آية ١٨٦ .

(٤) تفسير القرآن العظيم-ابن كثير- ج ١ ص ٤٣٥ .

الأولى: أن الله تعالى وصف الأذى المسموع من أهل الكتاب والمشركين بالكثرة (أذى كثيراً) وهذا يدل على أن حرباً كلامية ستعلن على أهل الإيمان، لتشويه دعوتهم، وتلوّث سمعتهم والتشكيك في سيرتهم.

الثانية: أن الآية قرنت هنا بين الصبر والتقوى، فلم تكتف من المؤمنين بالصبر وحده حتى يجمعوا عليه تقوى الله تعالى.

الثالثة: أن الآية قرنت كذلك بين الذين أتوا الكتاب - من اليهود والنصارى - وبين الذين أشركوا من الوثنيين العرب ومن على شاكلتهم، هذا مع اختلاف الفريقين في الدين والوجهة، وفي هذا إشارة إلى أن عداوتهم لأهل الإسلام وحدث بينهم على ما بينهم من اختلاف^(١).

من خلال ما عرضنا من الآيات وما ذكره العلماء في تفسيرها من أقوال نعلم يقيناً أن البلاء لا بد واقع بالمؤمن، وأن الصبر لا بد منه على هذا البلاء، لأن الجزع وعدم الصبر يؤدي بصاحبه إلى الهلاك، فقدر الله كائن سواء صبر المسلم أم جزع، فمن صبر نال الأجر العظيم والثواب الجزيل، ومن جزع ولم يصبر أصابه قدر الله دون أن ينال عليه أجراً أو أن يأخذ عليه مثوبة. قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه لأشعث عبد القيس^(٢): إنك إن صبرت جرى عليك القلم وأنت مأجور، وإن جزعت جرى عليك القلم وأنت مأزور^(٣).

فضل الصبر:

إن من حسن التوفيق وأمارات السعادة الصبر على الملمات والرفق عند النوازل، وبهذا جاء الكتاب قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا

(١) الصبر في القرآن - القرضاوي - ص ٢٤ باختصار.

(٢) أشعث بن قيس بن معدي كرب بن معاوية بن ثعلبة بن عدي بن ربيعة بن الحارث بن معاوية بن ثور الكندي، وفد إلى النبي صلى الله عليه وسلم سنة عشر من الهجرة في وفد كندة وكانوا ستين راكب فأسلموا. وكان الأشعث ممن ارتد بعد النبي صلى الله عليه وسلم ثم رجع إلى الإسلام بعد أخذه أسيراً إلى أبي بكر رضي الله عنه، توفي سنة ثنتين وأربعين. أسد الغابة في معرفة الصحابة - لابن الأثير - ج ١ ص ٩٧-٩٨ بتصرف.

(٣) أدب الدنيا والدين - للماوردي - ص ٢٧٦.

وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ»^(١).

أي اصبروا على ما افترض الله عليكم، وصابروا عدوكم، ورابطوا في الجهاد وفي انتظار الصلوات^(٢). وما من قرينة إلا وأجرها بتقدير وحساب إلا الصبر قال تعالى «إِنَّمَا يُؤَقِّي الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ»^(٣). فلا يكال لهم ولا يوزن، إنما يُعرف لهم عرفاً، وهو تمثيل للتكثير قال ابن عباس رضي الله عنهما "لا يهتدي إليه حساب الحساب ولا يعرف" وما ذاك إلا لفضيلة الصبر ومحلّه عند الله وأنه معين على كل الأمور^(٤).

ووعده الله الصابرين بنصرته ومعيته وجمع لهم بين أمور لم يجمعها لغيرهم فقال سبحانه «أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ»^(٥). قال ابن عباس رضي الله عنهما "أخبر الله أن المؤمن إذا سلم لأمر الله تعالى ورجع واسترجع عند مصيبتة كتب الله تعالى له ثلاث خصال: الصلاة من الله، والرحمة وتحقيق سبيل الهدى"^(٦).

وأخبر الرسول صلى الله عليه وسلم بفضل الصبر فقال "ما أعطى أحد عطاء خيراً وأوسع من الصبر"^(٧).

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه في فضله "لو أن الصبر والشكر بعيران ما باليت أيهما ركبت" وقال علي رضي الله عنه "الصبر مطية لا تكبو"^(١) والقناعة سيف لا ينبو"^(٢).

(١) سورة آل عمران آية ٢٠٠.

(٢) المرجع السابق ص ٢٧٤ بتصرف.

(٣) سورة الزمر آية ١٠.

(٤) انظر الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل - للزمخشري - ج ٣ ص ٣٩١، وتفسير

القرآن العظيم - ابن كثير - ج ٤ ص ٤٩، وتيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان - السعدي - ج ٤ ص ٣١٣.

(٥) سورة البقرة آية ١٥٧

(٦) التفسير الكبير - الرازي - ج ٢ م ٤ ص ١٥٥.

(٧) صحيح البخاري - كتاب الزكاة - باب الاستغفار عن المسألة - م ٢ ج ٢ ص ٣٧١، صحيح مسلم - كتاب

الزكاة - باب التعفف والصبر - ج ٢ ص ٧٢٩ رقم ١٠٥٣.

من خلال النصوص السابقة نعلم يقيناً فضل الصبر وعظمته مما يوجب على المسلمين الاعتصام والاستعانة به عند الملمات والمصائب فهو خير ملجأ يأوي إليه المسلم قال تعالى ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾^(٣).

الصبر وأثره في ارتقاء الأمة:

للصبر أثره البالغ في ارتقاء الأمة وعلوها، وقد سطر ذلك رب العزة في كتابه الكريم في مواطن عديدة، فجعل الإمامة والقيادة للصابرين قال تعالى ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْتَدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾^(٤).
وفي الآية إجماع للقلة المؤمنة يومذاك بمكة، وللأمة المسلمة في كل زمان ومكان أن تصبر كما صبر المختارون من بني إسرائيل. كما أن في الآية الكريمة تقرير لطريق الإمامة والقيادة وهو الصبر واليقين^(٥).

وقال تعالى في حق الفئة المؤمنة من بني إسرائيل ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾^(٦).

فأورث الله القوم المستضعفين من بني إسرائيل بقتل فرعون أبنائهم واستحياء نسائهم وتعذيبهم وامتھانهم بالخدمة لفرعون وقومه، أورثهم أرض مصر والشام التي بارك الله فيها بالخصب والنماء وسعة الأرزاق والخيرات ووفرة الأثمار فملكها بنو

(١) تكبو: كَبَا كَبُورًا وَكُبُورًا أَنْكَبَّ عَلَى وَجْهِهِ. القاموس المحيط - الفيروز أبادي - ج ٤ ص ٣٨٤.

(٢) أدب الدنيا والدين - الماوردي - ص ٢٧٤.

(٣) سورة البقرة آية ٤٥.

(٤) سورة السجدة آية ٢٣ - ٢٤.

(٥) في ظلال القرآن - سيد قطب - م ٦ ج ٢١ ص ٥٢١.

(٦) سورة الأعراف آية ١٣٧.

إسرائيل بعد الفراعنة والعمالقة وتصرفوا فيها شرقاً وغرباً كيف شاءوا، وذلك تحقيقاً لوعد الله الذي وعدهم بقوله ﴿وَتُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أُمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ وَنَمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾^(١). فأنعم الله على بني إسرائيل بأن جعلهم أئمة يقتدى بهم في الخير، وجعلهم ملوكاً وارثين لملك فرعون بعد غرقه^(٢). وقد ذكر الله السبب في منحهم هذا الإرث العظيم فقال (بما صبروا)^(٣).

والمتدبر لكتاب الله تعالى يجد أن الوعد بالنصر مقرون في كثير من المواطن بالصبر ومن ذلك قوله تعالى ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾^(٤). وقال تعالى ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾^(٥) وجاء بعدها قوله سبحانه ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾^(٦).

وهكذا يقرر القرآن الكريم أنه مهما يطل الأمد ومهما يتأخر النصر والتمكين، مهما تتعقد الأمور ومهما تتقلب الأسباب، فإن وعد الله لا محالة آت لأنه وعد من يملك التحقيق. كما جعل الله سبحانه الصبر عاملاً من العوامل الرئيسة في النصر فقال عز وجل ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾^(٧) فذكر الصبر من بين أسباب النصر الخمسة المذكورة في هذه

(١) سورة القصص آية ٥ - ٦.

(٢) انظر التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج - د. وهبة الزحيلي - ج ٩ ص ٧٢، فتح البيان في مقاصد القرآن - لأبي الطيب صديق بن حسن القنوجي - ج ٤ ص ٤٤٤. زاد المسير في علم التفسير - لأبي الفرج الجوزي - ج ٦ ص ٢٠١.

(٣) الأخلاق الإسلامية وأسسها - عبد الرحمن الميداني - ج ٢ ص ٣٢٩.

(٤) سورة هود آية ٤٩.

(٥) سورة غافر آية ٥١.

(٦) سورة غافر آية ٥٥.

(٧) سورة الأنفال الآيتان ٤٥ - ٤٦.

الآية.

وهذا فهو السلاح الذي تسلح به المسلمون الأوائل في غزواتهم مع المشركين في بدر وأحد والأحزاب وغيرها من الغزوات، كما كان له دور بارز في انتصار المسلمين في المعارك الطويلة التي خاضوها مع أعدائهم على مدى التاريخ الإسلامي في القادسية واليرموك وعين جالوت وحطين وغيرها من الحروب في القديم والحديث.

وهكذا تدل الآيات القرآنية على أثر الصبر في ارتقاء الأمم ونصرها "إذ لا يمكن أن يؤدي عمل أكله في الدنيا إلا بالصبر، فمن صبر ظفر، ومن عدم الصبر لم يظفر بشيء، لولا صبر المزارع على بذره ما حصد، ولولا صبر الغارس على غرسه ما جنى، ولولا صبر الطالب على درسه ما تخرج، ولولا صبر المقاتل في ساح الوغى ما انتصر، وهكذا كل الناجحين في الدنيا إنما حققوا آمالهم بالصبر استمروا المر، واستعدبوا العذاب، واستهانوا بالصعاب، ومشوا على الشوك وحفروا الصخور بالأظافر، ولم يباليوا بالأحجار تقف في طريقهم، لقد عرف عشاق المجد، وخطاب المعالي، وطلاب السيادة أن الرفعة في الدنيا كالقوز في الآخرة، لا تنال إلا بركوب متن المشقات، وتجرع غصص الآلام، والصبر عن كثير مما يجب، وعلى كثير مما يكره، وبدون هذا لا يتم عمل، ولا يتحقق أمل^(١).

المطلب الثاني: الشكر:

الشكر لغة: هو تصور النعمة وإظهارها، ويزاد الكفر وهو نسيان النعمة وسترها^(٢).
الشكر اصطلاحاً: "الثناء على الإنسان بمعروف يوليئك"^(٣). كما أنه "استعمال نعم الله في محابه"^(٤).

(١) الصبر في القرآن-القرضاوي- ص ٢٠

(٢) مفردات غريب القرآن-للراغب الأصفهاني- ص ٧٦٥ بتصرف.

(٣) الجامع لأحكام القرآن-القرطبي- ج ١ ص ٣٩٧.

(٤) مختصر منهاج القاصدين-ابن قدامة المقدسي- ص ٣٠٢.

أنعم الله على عباده بنعم كثيرة لا تحصى، وتفضل عليهم بفضائل لا تعد، وأمر عباده بأن يقابلوا هذه النعم بالشكر، ليؤدوا حق الله فيها، ويعترفوا بعظيم فضل الله عليهم بها.

وقد ذكر الله الشكر في مواضع كثيرة من كتابه بصيغ متعددة منها أربع عشرة مرة بصيغة (لعلكم تشكرون)^(١)، وذكر هذه الصيغة بعد تعداد النعم في أكثر الأحيان ليحرض الناس على الشكر والاعتراف بالفضل لله وحده، ومن هذه الآيات قوله سبحانه ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾^(٢) وقوله عز وجل ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حَبْلًا ثَلْبُسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاحِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾^(٣) وقوله تعالى ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾^(٤).

أي أخرجكم من بطون أمهاتكم أطفالاً لا علم لكم بشيء، وجعل لكم هذه الأشياء من سمع وبصر وأفئدة لتحصلوا بها العلم الذي كان مسلوباً عنكم عند إخراجكم من بطون أمهاتكم، وتعملوا بموجب ذلك العلم من شكر المنعم وعبادته والقيام بحقوقه، لكي تصرفوا كل آلة فيما خلقت له، فعند ذلك تعرفون مقدار ما أنعم الله به عليكم فتشكرونه^(٥).

والشكر غاية أمر الله وإرساله الرسول صلى الله عليه وسلم قال تعالى ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي

(١) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن - محمد عبد الباقي - ص ٣٨٥-٣٨٦.

(٢) سورة الأنفال آية ٢٦.

(٣) سورة النحل آية ١٤.

(٤) سورة النحل آية ٧٨.

(٥) فتح القدير - الشوكاني - ج ٣ ص ٢٢٨ بتصرف.

وَلَا تَكْفُرُونَ^(١) وهذا أمر من الله لخلقه بالشكر على النعم التي أنعم بها عليهم بالعمل بها وتوجيهها إلى ما وجدت لأجله وبطاعته سبحانه والثناء عليه بالقلب واللسان والاعتراف له بالإحسان إليهم، ولا يكفروا هذه المنن التي أولاهموها بمعصية الله وبصرفها في غير ما يبيحه أو وجدت لأجله بحسب الشرع والسنن الإلهية وهذا تحذير لهذه الأمة حتى لا تقع فيما وقعت فيه الأمم السابقة إذ كفرت بنعم الله تعالى فلم تستعمل العقل والحواس فيما خلقت لأجله، وحولت الدين عن قطبه الذي يدور عليه وهو الإخلاص وعطلت ما أعطاها من مواهب ومشاعر فلم تستعملها فيما خلقت له، وهكذا انحرفوا بكل شيء عن أصله فسلبهم الله ما كان وهبهم تأدياً لهم ولغيرهم^(٢).

إلا أن الناس ورغم هذه الأوامر الكثيرة بالشكر لم يصلوا إلى درجة الشاكرين إلا قليلاً منهم قال تعالى ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾^(٣).

وهذا تحريض لآل داود على شكر الله بطاعته سبحانه شكراً له على نعمه التي أنعمها عليهم في الدين والدنيا وقد طلب الله من آل داود شكره لأنه قليل من عباده الشكور الذي يطيعه شكراً لنعمته فيصرف ما أنعم به عليه فيما يرضيه سبحانه، وإذا كان في الناس كثير من الشاكرين لله، فإن قليلاً منهم من يستحق وصف الشكور، فتلك منزلة عالية في مقام الإحسان^(٤).

ولهذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه، فقليل له أتفعل هذا وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فقال صلى الله عليه وسلم "أفلا أكون عبداً شكوراً"^(٥).

(١) سورة البقرة الآيات ١٥١-١٥٢.

(٢) انظر تفسير المراغي ج ١ ص ٢٠، وتفسير القرآن الحكيم (المنار) - محمد رشيد رضا - ج ٢ ص ٣٢، وتفسير الخازن ج ١ ص ٢٧.

(٣) سورة سبأ آية ١٣.

(٤) انظر تفسير المراغي ج ٨ ص ٦٧. والتفسير القرآني للقرآن - عبد الكريم الخطيب - ج ٦ ص ٧٩٠.

(٥) صحيح البخاري - كتاب التهجد بالليل - باب قيام النبي صلى الله عليه وسلم حتى ترم قدماه ج ١ ص ٢.

٢٨٣، سنن الترمذي - أبواب الصلاة - باب ما جاء في الاجتهاد وفي الصلاة - ج ١ ص ٢٥٧ رقم ٤١٠.

وكان صلى الله عليه وسلم يوصي معاذاً رضي الله عنه قائلاً له "والله إني لأحبك فلا تنس أن تقول دبر كل صلاة: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك" (١).

الشكر يزيد النعم:

إن الشكر حافظ للنعمة، وهو عامل على زيادتها ونمائها قال تعالى ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ (٢).

فإذا شكر العباد الله على نعمه بعبادته وتوحيده وطاعته وطاعة رسوله زادهم نعمة على نعمة وضاعف لهم فيما آتاهم لأن الشكر قيد الموجود وصيد المفقود، أما إن كفروا بجد نعم الله ومعصيته فإنه يسلبهم تلك النعم ويعذبهم بسلبها منهم، ومنافع الشكر ومضار الكفران لا تعود إلا إلى صاحب الشكر وصاحب الكفران، أما المعبود والمشكور فإنه متعال عن أن ينتفع بالشكر أو يستضر بالكفران" (٣).

يقول صاحب الظلال: "نقف نحن أمام هذه الحقيقة تطمئن إليها قلوبنا أول وهلة لأنها وعد من الله صادق، فلا بد أن يتحقق على أية حال .. فإذا أردنا أن نرى مصداقها في الحياة، ونبحث عن أسبابه المدركة لنا، فإننا لا نبعد كثيراً في تلمس الأسباب، إن شكر النعمة دليل على استقامة المقاييس في النفس البشرية. فإن الخير يشكر لأن الشكر هو جزاؤه الطبيعي في الفطرة المستقيمة، هذه واحدة.. والأخرى أن النفس التي تشكر الله على نعمته تراقبه في التصرف بهذه النعمة، بلا بطر وبلا استعلاء على الخلق، وبلا استخدام للنعمة في الأذى والشر والدنس والفساد وهذه وتلك مما يسزكي النفس، ويدفعها للعمل الصالح، وللتصرف الصالح في النعمة بما ينميها ويبارك

(١) سنن أبي داود - كتاب الصلاة - باب في الاستغفار - ج ٢ ص ٨٦ رقم ١٥٢٢. صحيح . جامع الأصول -

تخريج عبد القادر الأرناؤوط - ج ٤ ص ٢٠٩، مسند الإمام أحمد ج ٢ ص ٢٩٤.

(٢) سورة إبراهيم آية ٧.

(٣) انظر أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير - لأبي بكر الجزائري - ج ٣ ص ٤٣ وتفسير القرآن الكريم المسمى

بالسراج المنير - للخطيب الشريبي - ج ٢ ص ١٧٠.

فيها، ويرضى الناس عنها وعن صاحبها فيكونون له عوناً، ويصلح روابط المجتمع فتتمو فيه الثروات في أمان، إلى آخر الأسباب الطبيعية الظاهرة لنا في الحياة، وإن كان وعد الله بذاته يكفي لاطمئنان المؤمن أدرك الأسباب أو لم يدركها، فهو حق واقع لأنه وعد الله. والكفر بنعمة الله قد يكون بعدم شكرها، أو بإنكار أن الله واهبها ونسبتها إلى العلم والخبرة والكد الشخصي والسعي! كأن هذه الطاقات ليست نعمة من نعم الله! وقد يكون بسوء استخدامها بالبطر والكبر على الناس واستغلالها للشهوات والفساد وكله كفر بنعمة الله^(١).

وقد أثر عن النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين ما يبين قوة الصلة بين الشكر وزيادة النعم وعن علي رضي الله عنه أنه قال لرجل من همذان "إن النعمة موصولة بالشكر، والشكر يتعلق بالمزيد، وهما مقرونان في قرن، فلن ينقطع المزيد من الله حتى ينقطع الشكر من العبد". وقال عمر بن عبد العزيز^(٢) "قيدوا نعم الله بشكر الله" وكان يقال الشكر قيد النعم.^(٣)

وهكذا يثبت أن الشكر مقوم عظيم من مقومات الارتقاء، لأنه يزيد الرزق والخير والبركة والنماء، وهذه قوام نشأة الأمم وحضارتها، فلا يمكن لأمة أن تقوى وتكون لها سيادة وقيادة في الأمم دون أن تتوفر لها هذه العوامل الأساسية، التي تمثل ركيزة من ركائز الاقتصاد، والنمو الاقتصادي في الأمة هو الذي يشكل صمام الأمان فيها، وما نحن اليوم نرى التنافس والتسابق الاقتصادي لزيادة دخل الفرد في المجتمعات المتحضرة، إذ كم من حكومة سقطت بسبب الضعف الاقتصادي فيها، وكم من ثورة قامت بسبب الجوع والفقر وما يسمى "بثورات الخبز".

(١) في ظلال القرآن - سيد قطب - م ٥ ج ١٣ ص ١٣٩ .

(٢) عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي بن كلاب، والإمام الحافظ العلامة المجتهد الزاهد العابد، السيد أمير المؤمنين حقاً، الخليفة الزاهد الراشد، كان من أئمة الاجتهاد، وكان أوهاً منياً قانتاً لله حنيفاً زاهداً مع الخلافة قتل بالسم فحصلت له الشهادة والسعادة، ومات سنة إحدى ومائة. تهذيب سير أعلام النبلاء - للذهبي - ج ١ ص ١٧٨ .

(٣) عدة الصابرين - ابن القيم - ص ١١٨ .

والذي يضمن لها هذا النمو الاقتصادي ويحافظ بل يزيد من المستوى المعيشي في المجتمع "الشكر" الذي يحفظ النعم ويجلبها للمجتمع والأمة.

كفر النعمة سبب في زواها:

كما أن الشكر سبب في زيادة الخير وكثرة البركة، فإن كفر النعمة وجحدها سبب في زواها وفنائها قال تعالى (..ولئن كفرتم إن عذابي لشديد) أي إن جحدم نعمتي وعصيتموني وعصيتم رسولي لأسلبها منكم وأعذبكم بسلبها من أيديكم^(١) . وقد ضرب الله مثلا على ذلك قصة سبأ، هؤلاء القوم الذين أنعم الله عليهم بنعم كثيرة وخيرات مديدة، حتى كانت المرأة تمر داخل الجنة والمكتل^(٢) على رأسها فيمتلئ دون أن تقطف ثمرة واحدة، فلم يشكروا الله على نعمه بل كفروا وجحدوا، فكان عاقبة كفرهم أن نزع الله تلك النعم من أيديهم، وأبدلهم بها أشجارا لا خير فيها ولا فائدة ترجى منها قال تعالى في وصف حالهم ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرْمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِي أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثَلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾^(٣) . لقد كانت مساكن أهل سبأ آية من آيات الله الدالة على كمال قدرته وبديع صنعه، وهذه الآية تتمثل في الجنتين اللتين كانتا عن يمين واديهم وشماله قد أحاطتا به من جهتيه، ومساكنهم في الوادي، فقال لهم نبيهم كلوا من ثمار الجنتين واشكروا الله على ما رزقكم من هذه النعم واعملوا بطاعته واجتنبوا معاصيه، وأتبع ذلك بقوله بلدة طيبة ورب غفور، فبلدتكم التي فيها رزقكم بلدة طيبة وربكم الذي رزقكم وطلب شكركم رب غفور لمن شكره، إلا إنهم ورغم هذه النعمة التي أنعم بها عليهم أعرضوا عن شكر الله سبحانه وكفروا به وكذبوا أنبياءهم وقالوا ما نعرف الله علينا نعمة،

(١) أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير- أبو بكر الرازي- ج ٣ ص ٤٣.

(٢) المكتل: الزبيل الذي يحمل فيه التمر والعنب إلى الجرين، لسان العرب- ابن منظور- ج ١١ ص ٥٨٣.

(٣) سورة سبأ آية ١٥-١٧.

فأرسل الله عليهم سيل العرم وهو المطر الشديد أو هو اسم الوادي، أو الجرذ الذي نقب السد عليهم، لما طغوا سلط الله عليهم الجرذ^(١) وهو "الخلد" فنقبه من أسفل فغرقهم وأهلك جنتيهم اللتين كانتا مشتملتين على تلك الفواكه الطيبة والأنواع الحسنة، وأبدلهم الله بهما جنتين لا خير فيهما ولا فائدة لهم فيما هو نابت فيهما من أراك أو شجر مر له شوك، ومن أثل ومن سدر قليل، ووصف السدر بالقلة لأن منه نوعاً يطيب أكله، وقد جازاهم الله ذلك الجزاء بكفرهم بنعمته وعدم شكرهم لها^(٢).

هذا مثل ضربة الله لقوم من الأقوام السالفة منّ وتفضل عليهم بفضائل كثيرة فلما كفروا بنعمته ولم يشكروها أهلكتهم الله وأبدلهم بما لا خير لهم فيه، ومن الأمثلة على ذلك في كتاب الله كذلك قصة أصحاب الجنة التي ذكرها الله في سورة القلم، والتي تأمر فيها الأخوة وأجمعوا أمرهم على حرمان الفقراء والمساكين حقهم من تلك الجنة فأهلكها الله وجعلها رماداً لا خير فيها قال تعالى ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ وَلَا يَسْتَثْنُونَ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾^(٣).

هذه هي عاقبة الكفر بنعمة الله وعدم شكرها إنه زوال النعمة وذهابها، وهذا سبيل للانحدار والانحطاط، لأن الأمة التي يزول عنها الخير والنعمة ترتكس وتنتكس، فقوم سبأ كانوا في قوة ومنعة وحضارة، فلما أهلك الله جنتيهم وأصابهم ما أصابهم انقلبوا أمة ضعيفة مهينة لا أثر لها ولا اعتبار بين الأمم.

(١) الجرذ: الذكر من الفأر، وقيل الذكر الكبير من الفأر، والجمع جُرذان. لسان العرب-ابن منظور- ج٣ ص ٤٨٠.

(٢) انظر تفسير مدارك التنزيل وحقائق التأويل- النسفي - ج ٣ ص ٣٢٢، فتح القدير- الشوكاني- ج ٤ ص ٣٩٧.

(٣) سورة القلم الآيات ١٧-٢٠.

المبحث السابع

التوكل على الله والأخذ بالأسباب

التوكل لغة: التوكل على الله الذي يعلم أن الله كافل رزقه وأمره فيركن إليه وحده، ولا يتوكل على غيره. يقال: وَكَلَّ بِاللَّهِ، وَتَوَكَّلَ عَلَيْهِ، وَاتَّكَلَّ اسْتَسَلَّمَ إِلَيْهِ، وَتَوَكَّلَ بِالْأَمْرِ إِذَا ضَمِنَ الْقِيَامَ بِهِ، وَوَكَلْتَ أَمْرِي إِلَى فُلَانٍ أَي أَلْجَأْتَهُ إِلَيْهِ وَاعْتَمَدْتَ فِيهِ عَلَيْهِ. ^(١)

حقيقة التوكل: وسر التوكل وحقيقته هو اعتماد القلب على الله وحده، فلا يضره مباشرة الأسباب مع خلو الاعتماد عليها والركون إليها، كما لا ينفعه قوله توكلت على الله مع اعتماده على غيره وركونه إليه وثقته به، فتوكل اللسان شيء وتوكل القلب شيء، كما أن توبة اللسان مع إصرار القلب شيء، وتوبة القلب وإن لم ينطق اللسان شيء، فقول العبد توكلت على الله مع اعتماد قلبه على غيره مثل قوله تبت إلى الله وهو مصر على معصيته مرتكب لها ^(٢).

وحالة المسلم في توكله على الله كحال الطفل مع أمه فإنه لا يعرف غيرها ولا يفرغ إلى سواها، ولا يعتمد إلا إياها، وإن نابه أمر كان أول خاطر يخطر على قلبه، وأول سابق إلى لسانه، يا أمه، فلا يهتف إلا باسمها ^(٣).

فضيلة التوكل والحض عليه:

التوكل مركب السائر لا يتأتى له السير إلا به، ومتى نزل عنه انقطع لوقته وتاه في دياجير ظلام هذه الحياة، ومن دلائل فضيلة التوكل ما يلي:

أ. أنه لازم من لوازم الإيمان ومقتضياته قال تعالى ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ^(٤) فجعل التوكل شرطاً في الإيمان، فدل على انتفاء الإيمان عند انتفاء

(١) لسان العرب - لابن منظور - ج ١١ ص ٧٣٤

(٢) الفوائد - ابن القيم - ص ٨٧.

(٣) مختصر منهاج القاصدين - ابن قدامة المقدسي - ص ٣٥٩ بتصرف يسير.

(٤) سورة المائدة آية ٢٣.

التوكل" (١) ، فعلى الله وحده يتوكل المؤمن، وهذه هي خاصية الإيمان وعلامته وهذا هو منطلق الإيمان ومقتضاه (٢) ، وحق المؤمنين أن لا يتوكلوا على غير الله قال تعالى ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (٣) فذكر اسم الإيمان ههنا دون سائر أسمائهم دليل على استدعاء الإيمان للتوكل، وإن قوة التوكل وضعفه بحسب قوة الإيمان وضعفه، وكلما قوي إيمان العبد كان توكله أقوى، وإذا ضعف الإيمان ضعف التوكل، وإذا كان التوكل ضعيفاً فهو دليل على ضعف الإيمان ولا بد (٤) .

ب. الجمع بين التوكل والعبادة قال تعالى على لسان شعيب ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ (٥) أي عليه توكلت في الدعوة للإصلاح -وهي عبادة من العبادات- أو في جميع أموري لا على غيره فإنه سبحانه القادر المتمكن من كل شيء وغيره سبحانه عاجز في حد ذاته بل معدوم ساقط عن درجة الاعتبار" (٦) . وقال عز وجل ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ (٧) فإذا كان أمر كل شيء يرجع إليه فاعبده بإخلاص الدين له وحده وادع إلى طاعته واتباع أمره بالحكمة والموعظة الحسنة، وتوكل عليه فيما لا يدخل في مكنتك واستطاعتك مما ليس لك سبيل إلى الحصول عليه، إذ لا يدخل تحت كسبك ولا تناله يدك، والتوكل لا يجدي نفعاً بغير العبادة والأخذ بالأسباب المستطاعة، وبدون ذلك يكون من التمني الكاذب، والعبادة لا تكمل إلا بالتوكل إذ به يكمل التوحيد والإخلاص له تعالى، وخلاصة

(١) طريق المحررتين وباب السعادي - لابن القيم - ص ٤٦١ .

(٢) في ظلال القرآن - سيد قطب - م ٢ ج ٦ ص ٦٩٦ .

(٣) سورة التوبة آية ٥١ .

(٤) طريق المحررتين وباب السعادي - ابن القيم - ص ٤٦٢ .

(٥) سورة هود آية ٨٨ .

(٦) روح المعاني - الأوسي - ج ٤ ص ١٢١ بتصرف .

(٧) سورة هود آية ١٢٣ .

ذلك: أن امثل -يا محمد- ما أمرت به وداوم على التبليغ والدعوة والتوكل عليه في سائر أمورك ولا تبال بالذين لا يؤمنون ولا يضيق صدرك بهم" (١).

ج. الجمع بين التوكل والتقوى: قال عز من قائل ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ... وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ (٢). فبعد أن أمر بتقوى الله اتبع ذلك بالأمر بالتوكل عليه سبحانه والاعتماد عليه وتفويض الأمور إليه، وإتباع الأمر بالتوكل بعد الأمر بالتقوى يؤكد فضيلة التوكل وأثره في تحقق التقوى.

د. جمع القرآن بين التوكل والهداية وذلك في مثل قوله سبحانه ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ (٣) وهذا أمر بالتوكل على الله وقلة المبالاة بأعداء الدين، وعلل التوكل بكونه صلى الله عليه وسلم على الحق المبين الأبلج الذي لا يتعلق به الشك والظن، أو الفاصل بين الحق والباطل أو بين المحق والمبطل، وفي ذلك بيان أن صاحب الحق حقيق بالوثوق بحفظ الله ونصرته وتأييده وأن مثله لا يخذل (٤).

والتوكل على الله منهاج الرسل عليهم السلام إليه يلجأون وبه يلوذون قال تعالى ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا﴾ (٥).

وهذه كلمة المطمئن إلى موقفه وطريقه المالى يديه من وليه وناصره، المؤمن بأن الله الذي يهدي السبيل لا بد أن ينصر وأن يعين، وماذا يهم حتى ولو لم يتم في الحياة الدنيا نصر إذا كان العبد قد ضمن هداية السبيل؟

والقلب الذي يحس أن يد الله سبحانه تقود خطاه، وتهديه السبيل، هو قلب موصول بالله لا يخطئ الشعور بوجوده سبحانه وألوهيته القاهرة المسيطرة وهو شعور لا مجال معه للتردد في المضي في الطريق أيًا كانت العقبات في الطريق، وأيًا كانت

(١) تفسير المراغي ج ٤ ص ١٠١.

(٢) سورة الأحزاب الآيات ١-٣.

(٣) سورة النمل آية ٧٩.

(٤) انظر الكشاف - الزمخشري - ج ٣ ص ١٥٩، روح المعاني - الألوسي - ج ٧ ص ١٩.

(٥) سورة إبراهيم آية ١٢.

قوى الطاغوت التي تتربص في هذا الطريق، ومن ثم هذا الربط في رد الرسل -صلوات الله وسلامه عليهم- بين شعورهم بهداية الله لهم وبين توكلهم عليه في مواجهة التهديد السافر من الطواغيت ثم إصرارهم على المضي في طريقهم في وجه هذا التهديد^(١).
 ومن فضائل التوكل أن المتوكلين يدخلون الجنة بلا حساب ففي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم ذكر أنه يدخل الجنة من أمته سبعون ألفاً لا حساب عليهم، ثم قال "هم الذين لا يكتوون ولا يسترقون، ولا يتطيرون، وعلى رهم يتوكلون"^(٢).
 هذه جملة من فضائل التوكل والتي تدل على عظمتها وأهميتها، وعلى صلته بالإيمان والتقوى والهداية، وأثره في الفلاح والنجاة، كما أن فيها حض على التوكل وترغيب في العمل فيه.

الأخذ بالأسباب لا يناقض التوكل:

الأخذ بالأسباب من مقتضيات التوكل، وبالتالي فإنه لا يناقض التوكل ولا يتنافى معه، بل إن عدم الأخذ بالأسباب والإعراض عنها قدح في الشرع، يقول شارح الطحاوية "ومما ينبغي أن يعلم ما قاله طائفة من العلماء، وهو أن الالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد، ومحو الأسباب أن تكون أسباباً نقص في العقل والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح في الشرع"^(٣).

ولا تتم حقيقة التوحيد إلا بمباشرة الأسباب التي نصبها الله مقتضيات لمسبباتها قدرًا وشرعًا، وإن تعطلها يقده في نفس التوكل، كما يقده في الأمر والحكمة ويضعفه من حيث يظن معطلها أن تركها أقوى في التوكل، فإن تركها عجزًا ينافي التوكل الذي حقيقته اعتماد القلب على الله في حصول ما ينفع العبد في دينه ودنياه،

(١) في ظلال القرآن - سيد قطب - ٥م ج ١٣ ص ١٤٣

(٢) صحيح البخاري - كتاب الطب - باب من اكتوى أو كوى غيره، وفضل من لم يكتو ٣م ج ٧ ص ١٦٥، صحيح مسلم - كتاب الإيمان - باب فضل الدليل على دول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب ج ١ ص ١٩٨ رقم ٢١٨.

(٣) شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي ص ٥٢٠.

ودفع ما يضره في دينه ودنياه، ولا بد مع هذا الاعتماد من مباشرة الأسباب، وإلا كان معطلا للحكمة والشرع فلا يجعل العبد عاجزه توكلًا ولا توكله عاجزاً^(١). وعلى هذا فإن الاتكال على الله وحده ليس بمانع من اتخاذ الأسباب، فالمؤمن يتخذ الأسباب من باب الإيمان بالله وطاعته فيما يأمر به من اتخاذها، ولكنه لا يجعل الأسباب هي التي تنشئ النتائج فيتكل عليها، إن الذي ينشئ النتائج كما ينشئ الأسباب - هو قدر الله - ولا علاقة بين السبب والنتيجة في شعور المؤمن، اتخاذ السبب عبادة بالطاعة وتحقق النتيجة قدر من الله مستقل عن السبب لا يقدر عليه إلا الله... وبذلك يتحرر شعور المؤمن من التبعيد للأسباب والتعلق بها، وفي الوقت ذاته هو يستوفيهما بقدر طاقته لينال ثواب طاعة الله في استيفائها^(٢).

ومما يدخل في باب الأخذ بالأسباب السعي في طلب الرزق، فقد حث الله سبحانه على المشي في مناكب الأرض وأطرافها طلباً للرزق والكسب قال تعالى ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾^(٣) كما أمر بالانتشار في الأرض للتجارة والتصرف فيما يحتاج إليه البشر في أمر معاشهم قال عز وجل ﴿إِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾^(٤) ويفهم من هذا أن الشارع سبحانه أمر بالسعي لطلب الرزق ورغب في ذلك، ويزيد هذا وضوحاً حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم "لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصاً وتروح بطاناً"^(٥) أي تذهب أول النهار ضامرة البطون من الجوع، وترجع آخر النهار ممتلئة البطون، وهذا يدل على طلب الرزق وبالأخص قوله صلى الله عليه وسلم "تغدو وتروح" فالتوكل

(١) زاد المعاد - ابن القيم - ج ٤ ص ١٥.

(٢) في ظلال القرآن - سيد قطب - ج ٣ ص ١٤٧٦.

(٣) سورة الملك آية ١٥.

(٤) سورة الجمعة آية ١٠.

(٥) سنن ابن ماجه - كتاب الزهد - باب التوكل واليقين ج ٢ ص ١٣٩٤ رقم ٤١٦٤، صحيح - صحيح

الجامع الصغير وزيادته ج ٢ ص ٩٣٢

بعد الحركة في أمر المعاش، كتوكل الزارع بعد إلقاء الحب في الأرض.

كل هذا يدل على أهمية السعي في الأرض وأنه لا ينافي التوكل، ولا يخرج طالب الرزق عن مقامات التوكل إذا لم تكن طمأنينة نفسه إلى كفايته وقوته وجاهه وبضاعته، فإن ذلك ربما يهلكه الله تعالى جميعه في لحظة، بل يكون نظره إلى الكفيل الحق يحفظ جميع ذلك وتيسير أسبابه له، بل يرى كسبه وبضاعته وكفايته بالإضافة إلى قدرة الله تعالى.

وكان السلف رحمهم الله يقولون "اتجروا واكتسبوا فإنكم في زمان إذا احتاج أحدكم كان أول ما يأكله دينه".

ولما بويح أبو بكر رضي الله عنه بالخلافة أصبح أخذ الأثواب تحت حضنه والذراع بيده، ودخل السوق ينادي حتى كره المسلمون ذلك، وقالوا كيف تفعل ذلك وقد أقمت لخلافة النبوة فقال لا تشغلوني عن عيالي فإني إن أضعتهم كنت لما سواهم أضيع حتى فرضوا له قوت أقل المسلمين، فلما رضوا بذلك رأى مساعدتهم، وتطبيب قلوبهم، واستغراق الوقت بمصالح المسلمين أولى. ويستحيل أن يقال لم يكن الصديق في مقام التوكل، فمن أولى بهذا المقام منه^(١).

من كل ما سبق يتضح أن الأخذ بالأسباب ومن جعلتها السعي في طلب الرزق لا يتنافى مع التوكل، بل هو جزء منه، ولا تتم حقيقة التوكل إلا به، وهذا يدفعنا للأخذ بالأسباب المادية عند إرادة أي عمل نريد القيام به، وهذا ما كان يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ إنه عندما أراد الهجرة إلى المدينة أخذ بالأسباب فاتخذ دليلاً يسهل له وصاحبه أبا بكر رضي الله عنه على الطريق إلى المدينة، وكان الصديق قد أعدّ راحلتين ليركبا عليهما في طريقهما إلى المدينة، وخرج الرسول صلى الله عليه وسلم خفية من الباب الخلفي لبيت أبي بكر رضي الله عنه، وسلك طريقاً مضاداً للطريق الذي يسلكه أهل مكة في سفرهم إلى المدينة، ثم لجأ وصاحبه إلى غار ثور لثلاث ليالٍ

(١) انظر تنوير الأذهان من تفسير روح البيان - للبروسوري - ٤م ج ٢ ص ٣٤٢، وإحياء علوم الدين - للغزالي -

إليهما المشركون. وكان عبد الله بن أبي بكر يتسمع الأخبار في مكة وينقلها إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وصاحبه رضي الله عنه كما كان عامر بن فهيرة^(١) يتبع آثار عبد الله بأغنام معه ليخفي آثاره فلا يستدل بها المشركون على مكان الرسول صلى الله عليه وسلم وصاحبه. كل هذه الأعمال التي قام بها رسول الله صلى الله عليه وسلم من باب الأخذ بالأسباب الذي لا يتناقض مع التوكل، بل هي جزء منه^(٢).

التوكل على الله وأثره في الارتقاء:

الإنسان وهو في صراعه مع الحياة تتناهب المخاوف، وتعتره الصعاب وتزل به الآلام النفسية، فلا يجد للحياة طعمًا، ولا يستطيع مع هذا القلق أن يقوم بدوره الرئيس في إسعاد نفسه ونفع غيره، فتتعطل قواه المادية والأدبية ويصبح شيئًا تافهًا لا قيمة له ولا غناء فيه.

والحياة لا تطيب للإنسان ولا يسعد بها، ولا يستطيع أن يقوم بدوره الكامل فيها، إلا إذا استمتع بسكينة النفس، وطمأنينة القلب وراحة البال وعافية البدن وسبيل ذلك أن يثق بالله، ويحسن الظن به، ويتوكل عليه، ويرد أمره كله إليه، ومن ثم كان التوكل على الله ضرورة لا يستغني عنها العالم ولا العامل ولا الرجل ولا المرأة ولا الحاكم ولا المحكوم ولا الصغير ولا الكبير لحاجة هؤلاء إلى يد قوية حانية تعينهم إذا أقدموا من جانب وتمسح آلامهم إذا أخفقوا من جانب آخر"^(٣).

ومما يزيد من طمأنينة قلب المتوكل وثقته بالله علمه بأن الله حسبه وكافيه في جميع أموره ومعطيه حتى يقول حسي قال تعالى ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ

(١) عامر بن فهيرة مولى أبي بكر رضي الله عنه يكنى أبا عمرو، كان من السابقين إلى الإسلام، أسلم قبل أن يدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم دار الأرقم، أسلم وهو مملوك، وكان حسن الإسلام، وعُدب في الله، اشتراه أبو بكر فأعتقه، قتل يوم بئر معونة سنة أربع من الهجرة وهو ابن أربعين سنة. أسد الغابة في معرفة الصحابة - ابن الأثير - ج ٣ ص ٩٠

(٢) انظر الرحيق المختوم للمباركفوري ص ١٥٩-١٦١.

(٣) إسلامنا - لسيد سابق - ص ٤٨.

حَسْبُهُ ﴿١﴾

وقد أرشدنا الرسول صلى الله عليه وسلم إلى أن التوكل سبب في زيادة الرزق والخير، هذا الرزق الذي يشغل بال الكثيرين في عصرنا الحاضر وذلك في قوله صلى الله عليه وسلم "ولو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصًا^(٢) وتروح بطانًا^(٣)" وأي ضماناة أعظم من هذه الضماناة للمتوكل على الله بأن يرزقه الله من فضله ويعطيه من نعمه.

وهكذا يكون التوكل سببًا في رفعة الأمة وعلوها بما يبيته في المجتمع من الأمن، وفي النفوس من الطمأنينة، وفي البلاد من الأرزاق والخيرات والنعم والتي هي من أعظم مقومات ارتقاء الأمة وبناء حضارتها، إذ لا يمكن لحضارة أن تنشأ في أجواء من الخوف والرعب أو في أمة فقيرة معدمة.

(١) سورة الطلاق آية ٣ .

(٢) خماصًا: الخماص جمع الخميمص البطن وهو الضامر.

(٣) سبق تخريجه ص ٩٧

المبحث الثامن: الاستغفار:

إن من طبيعة الإنسان أنه خطاء، مقترف للذنوب والمعاصي، الأمر الذي يجعله مستحقاً لعقاب الله وعذابه.

إلا أن من رحمة الله بعباده أن فتح لهم باباً للتوبة والرجوع وذلك بالاستغفار، هذا الاستغفار الذي يكفر الله به الذنوب والخطايا ويرفع به الدرجات.

وقد جاءت آيات كثيرة في كتاب الله تأمر بالاستغفار والإنابة ومنها قوله سبحانه **﴿وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾** ^(١) وقوله **﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾** ^(٢). كما أن من كرم الله وجوده أنه يغفر لمن تاب إليه وأتاب قال عز وجل **﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾** ^(٣)

وهذا إخبار من الله تعالى لعباده عن كرمه وجوده بأن كل من تاب إليه تاب عليه من أي ذنب كان قال ابن عباس رضي الله عنهما في هذه الآية "أخبر الله عباده بعفوه وحلمه وكرمه وسعة رحمته ومغفرته، فمن أذنب ذنباً صغيراً كان أو كبيراً (ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً) ولو كانت ذنوبه أعظم من السموات والأرض والجبال" ^(٤) والاستغفار من الذنوب والإنابة إلى الله في كل حين من صفات المتقين أصحاب الجنة قال عز وجل **﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾** .. إلى قوله **﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾** ^(٥) فإذا صدر منهم ذنب أتبعوه بالتوبة والاستغفار، وطلب المغفرة منه سبحانه، مع عدم الاستمرار على المعصية ومع العزم على عدم معاودة الذنب والإقلاع عنه بالتوبة منه، وفي الآية ترغيب لطلب المغفرة من الله سبحانه وتنشيط للمذنبين أن يقفوا في مواقف

(١) سورة النساء آية ١٠٦.

(٢) سورة النصر آية ٣.

(٣) سورة النساء آية ١١٠.

(٤) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٥٥٣ بتصرف.

(٥) سورة آل عمران آية ١٣٣-١٣٥.

الخشوع والتذلل^(١) .

ومما يؤكد على أهمية الاستغفار ووجوبه على المسلم أن أمر الله به بعد أمره بالتوحيد وقرن بينهما دون فاصل يفصلهما قال عز وجل ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلِّبَكُمْ وَمَتَّوِّكُمْ﴾^(٢) .

فلما ذكر الله تعالى حال المؤمنين وحال الكافرين قال: إذا علمت أن الأمر كما ذكر من سعادة المؤمنين وشقاوة وعذاب الكافرين فاستمسك بما أنت عليه من العلم بوحدانية الله وعلى التواضع وهضم النفس باستغفار ذنبك والتوجه بالدعاء والاستغفار لذنوب من على دينك من المؤمنين والمؤمنات^(٣) .

هذه الآيات الجليلة يرغب القرآن في الاستغفار ويحض عليه لما له من أثر عظيم في تكفير الذنوب ومحو السيئات، مما يزيد المسلم قرباً من الله ورضوانه وهذا يؤدي بدوره إلى زيادة الخير وارتقاء الأمة.

الاستغفار يزيد الرزق:

للاستغفار أثر بالغ في زيادة الخيرات والنعم وفي جلب الفضائل والمنن، وقد أوصى به الأنبياء أقوامهم وأمروهم به وأعلموهم أنه سبيل جلب الرزق قال تعالى على لسان نوح عليه السلام وهو يدعو قومه للاستغفار ويرغبهم فيه ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾^(٤) . فدعاهم إلى أن يسألوا الله غفران ذنوبهم ويتوبوا إليه من كفرهم، وأن يوحدوه ويخلصوا له العبادة، فإن فعلوا ذلك غفر لهم ذنوبهم وتاب عليهم فهو سبحانه غفار لذنوب من أناب إليه وتاب من ذنوبه. روى حذيفة بن اليمان رضي الله عنه^(٥) عن

(١) تفسير القرآن العظيم - ابن كثير - ج ١ ص ٤٠٧، وفتح القدير - الشوكاني - ج ١ ص ٤٨٢.

(٢) سورة محمد آية ١٩.

(٣) انظر الكشاف - الزمخشري - ج ٣ ص ٥٣٥، روح المعاني - الألوسي - ج ٢٦ ص ٥٦، تفسير المراغي ج ٩ ص ٦.

(٤) سورة نوح الآيات ١٠-١٢.

(٥) حذيفة بن اليمان: هو حذيفة بن حَسَلٍ ويُقال حُسَيْلُ بن جابر بن عمرو بن ربيعة بن جرزة بن الحارث بن مازن بن قُطَيْعَةَ بن عيس بن بغيض بن ريث بن غطفان، أبو عبد الله العبسي، وحذيفة صاحب سر رسول الله =

النبى صلى الله عليه وسلم قال "الاستغفار ممحاة للذنوب"^(١). وبلاستغفار يرسل الله ماء السماء مدرارا متتابعًا ذا غيث كثير السيالان والانصباب روى الشعبي^(٢) قال: خرج عمر ابن الخطاب رضى الله عنه يستسقي فما زاد على الاستغفار ثم رجع فقال يا أمير المؤمنين ما رأيك استسقيت فقال "لقد طلبت المطر بمجاديح"^(٣) السماء التي يستزل بها المطر ثم قرأ (استغفروا ربكم إنه كان غفارا..).

وبلاستغفار كذلك يعطي الله المستغفرين الأموال والأولاد ويكثرها عندهم، ويزيد فيما عندهم منها، ويجعل لهم جنات فيرزقهم بساتين ويجعل لهم أنهارا يسقون منها جناتهم ومزارعهم. قال قتادة "علم نبي الله نوح عليه السلام أنهم أهل حرص على الدنيا فقال "هلموا إلى طاعة الله فإن في طاعة الله درك الدنيا والآخرة".

وشكا رجل إلى الحسن البصري رحمه الله الجدوبة فقال له استغفر الله، وشكا آخر الفقر فقال له استغفر الله، وقال له آخر: ادع الله أن يرزقني ولدًا فقال له استغفر الله، وشكا إليه آخر جفاف بستانه، فقال له استغفر الله، فقلنا له في ذلك فقال: ما قلت من عندي شيئًا^(٤)، إن الله تعالى يقول في سورة نوح (استغفروا ربكم إنه كان غفارا يرسل

=صلى الله عليه وسلم في المنافقين، لم يعلمهم أحد إلا حذيفة، وكان يسأل النبي صلى الله عليه وسلم عن الشر ليتجنبه، وأرسله النبي ليلة الأحزاب سرية ليأتيه بخبر الكفار، كان موته بعد مقتل عثمان بأربعين ليلة سنة ست وثلاثين. أسد الغابة في معرفة الصحابة - ابن الأثير - ج ١ ص ٤٦٨-٤٦٩

(١) فيض القدير شرح الجامع الصغير - المناوي - ج ٣ ص ١٧٧. ضعفه المناوي

(٢) الشعبي هو: عامر بن شراحيل بن عبد بن ذي كبار، وكان علامة عصره، قال ابن عيينة: علماء الناس ثلاثة ابن عباس في زمانه والشعبي في زمانه الثوري في زمانه، ولد في إمرة عمر بن الخطاب لست سنين خلت فيها وقيل غير ذلك. حدث عن سعد بن أبي وقاص وسعيد بن زيد وأبي موسى الأشعري وغيرهم كثير مات سنة خمس ومائة عن سبع وسبعين سنة. سير أعلام النبلاء للذهبي ج ٤ ص ٢٩٤.

(٣) المجاديح : واحدها مجدح ، والياء زائدة للإشباع ، والقياس أن يكون واحدها مجداح ، فأما مجدح فجعته مجاد . أَلجَدَح : نَجْم من النجوم . وقيل هو الدبران . وقيل هو ثلاثة كواكب كالأنافي ؛ تشبيهاً بالمجدح الذي له ثلاث شُعَب ، وهو عند العرب من الأنواء الدالة على المطر ، فجعل الاستغفار مُسبِّهاً بالأنواء ، مُحاطَبَةً لهم بما يعرفونه ، ولا قولاً بالأنواء . وجاء بلفظ الجمع لأنه أراد الأنواء جميعها التي يزعمون أن من شأنها المطر . النهاية في غريب الحديث - ابن الأثير - ج: ١ ص: ٢٤٣

(٤) انظر جامع البيان في تفسير القرآن - الطبري - ج ١٢ ص ٥٨-٥٩ ، الجامع لأحكام القرآن - القرطبي - ج ١٨ ص ٣٠١-٣٠٢.

السماء عليكم مدرارا...).

وعلى لسان هود عليه السلام قال تعالى ﴿وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾^(١) أي أسأله أن يغفر لكم ما كان من الشرك والكفر والإجرام والظلم، ثم توبوا إليه من الكفر وانسلخوا منه واندموا على سالفه منييين مصلحين لما أفسدتم مستدركين ما قصرتم... يمتعكم متاعاً حسناً، والمتاع كل ما ينتفع به في المعيشة وحاجة البيوت، والإمتاع ما يتمتع به تمتعاً طويلاً ممتداً، والمعنى: إن تستغفروا ربكم عند كل ذنب وتوبوا إليه من كل إعراض عن هدايته وتنكب عن سنته يمتعكم في دنياكم متاعاً حسناً مرضياً ممتداً، ووصف المتاع بالحسن لطيب عيش المؤمن برجائه في الله عز وجل وفي ثوابه، وفرحه بالتقرب إليه بمفترضاته، والسرور بمواعيده (ويؤت كل ذي فضل فضله) أي كل ذي إحسان بقوله وبفعله أو بقوته أو بماله أو غير ذلك مما يمكن أن يتقرب به^(٢).

وقال عز وجل على لسان هود ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾^(٣).

فيكثر الله النعم بالاستغفار لأن مادة حصول النعم هي الأمطار، ويزيد المستغفرين قوة إلى قوتهم، وهذه إشارة إلى كمال حال القوي التي بها يمكن الانتفاع بتلك النعمة وهذه كلمة جامعة في البشارة بتحصيل السعادات، وأن الزيادة على هذه النعم ممتعة في صريح العقل.

وقد قال المفسرون أن قوم هود عليه السلام كانوا مخصوصين في الدنيا بنوعين من الكمال أحدهما: أن بساتينهم ومزارعهم كانت غاية الطيب والبهجة. والثاني: أنهم كانوا في غاية القوة والبطش، ولذلك قالوا من أشد منا قوة، ولما كان القوم مفتخرين على سائر الخلق بهذين الأمرين وعدهم هود عليه السلام أنهم لو تركوا عبادة الأصنام واشتغلوا بالاستغفار والتوبة فإن الله تعالى يقوى حالهم في هذين المظلويين ويزدهم فيها درجات

(١) سورة هود آية ٣.

(٢) انظر: المحرر الوجيز - ابن عطية - ج: ٧ ص: ٢٣٥-٢٣٦، المنار - محمد رشيد رضا - ج: ١٢ ص: ٧.

(٣) سورة هود آية ٥٢.

كثيرة" (١).

"وهكذا يُطمح الله في الرزق الميسور من الأسباب التي يعرفها الناس ويرجون منها وهي المطر الغزير، الذي تنبت به الزروع، وتسيل به الأنهار، كما وعدهم برزقهم الآخر من الذرية التي يحبونها وهي البنين والأموال التي يطلبونها ويعزونها.

وقد ربط القرآن بين الاستغفار وهذه الأرزاق، وهذا الذي يقرره القرآن قاعدة صحيحة تقوم على أسبابها من وعد الله ومن سنة الحياة، كما أن الواقع العملي يشهد بتحققها على مدار القرون، والحديث في هذه القاعدة عن الأمم لا عن الأفراد، وما من أمة قام فيها شرع الله، واتجهت اتجاهًا حقيقيًا لله بالعمل الصالح والاستغفار المنبئ عن خشية الله... إلا فاضت فيها الخيرات ومكن الله لها في الأرض واستخلفها فيها بالعمران وبالصلاح سواء" (٢).

وهذا يوجب على الأمة الإسلامية اليوم أن تكثر من الاستغفار والإنابة إلى الله ليحقق الله لها ما ترجوه من زيادة في الرزق والمال الذي يقوي اقتصادها، هذا السلاح الذي تتحكم من خلاله الدول الغنية في الدول الفقيرة، وتوجهها الوجهة التي تريدها، بما تمن به عليها من القروض الربوية التي تبتز بها مقدرات وخيرات هذه الدول، والتي تبقى مدينة إلى الدول الغنية التي لا تستطيع تسديد الفوائد الربوية عوضًا عن الديون الأساسية. والاستغفار يزيد من قوة الأمة التي تكثر منه، والأمة الإسلامية مطالبة اليوم بذلك ليزيدها الله قوة وعزة، في الوقت الذي تعيش فيه مهينة ذليلة ضعيفة ببعدها عن دينها وعقيدتها ورفعها لرايات جاهلية من قومية ووطنية وعلمانية واشتراكية وغيرها. مما جعلها ألعوبة في أيدي الدول الكبرى الكافرة الظالمة.

✓ فالاستغفار هو المخرج والمنقذ لها من هذا الترددي الذي تحياه ومن الذل الذي تتمرغ فيه. وهذا يسير على من يسره الله عليه إلا أن الاستغفار يتبعه العمل الصالح الذي تتحقق به العبودية لله سبحانه وتعالى.

(١) انظر التفسير الكبير الرازي ج: ٩ ص: ١١ ط ٣.

(٢) في ظلال القرآن - سيد قطب - ٤م ج: ١٢ ص ٥٧٨ باختصار.

المبحث التاسع

نصرة دين الله بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والعمل لإقامة الخلافة الإسلامية

أوجب الله على المسلمين نصره دينه والعمل على إعلاء كلمته ورفع رايته، ووعدهم على ذلك إن قاموا به بالنصر والتأييد، والتمكين في الأرض، ووعد الله حق لا يتخلف قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾^(١). ونصير الله إنما يكون بنصره في النفوس وفي واقع الحياة، أما نصره في النفوس بأن تتجرد لله، وأن لا تشرك به شيئاً، شركاً ظاهراً أو خفياً، وألا تستبقي فيها معه أحداً ولا شيئاً، وأن يكون الله أحب إليها من ذاتها ومن كل ما تحب وتهوى، وأن تحكمه في رغباتها ونزواتها وحرركاتها وسكناتها وسرها وعلانيتها ونشاطها كله وخلجاتها. وأما نصر الله في واقع الحياة فنصر دينه ورسوله وطريقه، وذلك من خلال نصره شريعته وتحكيمها في الحياة كلها بدون استثناء.

فإذا تحقق هذا الشرط، تحقق الوعد الذي وعد الله به من النصر والتأييد والتثبيت فينصرهم على عدوهم ويفتح لهم، ويثبت أقدامهم في مواطن الحرب وعلى محجة الإسلام^(٢).

وقال تعالى في وعده بنصرة من ينصره ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾^(٣) أي لينصرن الله من ينصر دينه أو من ينصر أوليائه، ولقد أنجز الله تعالى وعده للرسول صلى الله عليه وسلم ولصحابته رضوان الله عليهم حيث سلط المهاجرين

(١) سورة محمد آية ٧

(٢) انظر الكشاف - الزمخشري - ج ٣ ص ٤٥٤، التفسير الكبير - الرازي - ج ٢٨ ص ٤٨، في ظلال القرآن -

سيد قطب - ج ٧ م ٢٦ ص ٤٥١.

(٣) سورة الحج آية ٤٠

والأنصار على صناديد^(١) العرب وأكاسرة العجم وقياصرة الروم وأورثهم أرضهم وديارهم، فهو قوي على ما يريد من مراداته التي من جملتها نصرهم وعزيز لا يمانعه شيء ولا يدافعه^(٢). هذا وعد الله بنصرة من ينصرونه وينصرون دينه. ومن أساليب نصره دين الله الهامة في المجتمع الدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

فضل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والحض عليهما:

إن من أعظم الأمور التي يتقرب بها إلى الله الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لأنه أساس الدين، وبه تحرس حرمة الله، ويحمى شرعه، ويعز الحق والدين، ويذل الباطل والكفر.

لذا جاءت النصوص الشرعية الكثيرة في الكتاب والسنة تبين فضله وعظمته عند الله تعالى قال سبحانه ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾^(٣) وفي الآية بيان علة تلك الخيرية وكونهم خير الأمم المخرجة للناس في جميع الأعصار، لأنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالله إيماناً صادقاً يظهر أثره في نفوسهم، فيزعهم عن الشر ويصرفهم إلى الخير، وغيرهم من الأمم قد غلب عليهم الشر والفساد، فلا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر ولا يؤمنون إيماناً صحيحاً.

وهذا الوصف يصدق على الذين خوطبوا به أولاً، وهم النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه الذين كانوا معه وقت التزليل، فهم الذين كانوا أعداء فألف بين قلوبهم واعتصموا بحبل الله جميعاً، وكانوا يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ولا يخاف ضعيفهم قويهم ولا يهاب صغيرهم كبيرهم، وملك الإيمان قلوبهم ومشاعرهم، فكانوا مسخرين لأغراضه في جميع أحوالهم.

(١) صناديد: الصناديد الملك الضخم الشريف، وقيل السيد الشجاع، والصناديد: السادات وهم الأجواد،

والحكماء، وحماة العسكر، والواحد صناديد. لسان العرب - ابن منظور - ج ٣ ص ٢٦٠

(٢) انظر روح المعاني - الألوسي - ج: ١٧ ص: ١٦٤، محاسن التأويل - القاسمي - ج ١٢٤ ص ٤٣٤٦.

(٣) سورة آل عمران آية ١١٠

وما فتئت هذه الأمة خير الأمم حتى تركت الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وما زال الشر يزداد والأمر يتفاقم حتى سلبت هذه الأمة أفضل ما لها من مزية في دينها ودنياها بعد الإيمان وهي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

✓ والخلاصة أن هذه الخيرية لا تثبت لهذه الأمة إلا إذا حافظت على هذه الأصول الثلاثة، فإذا تركتها لم تكن لها هذه المزية، ومن ثم أكد الأمر بهذه الفريضة في آيات هذه السورة بما لم يعرف له نظير في الكتب السابقة. وقدم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على الإيمان بالله في الذكر مع أن الإيمان مقدم على كل الطاعات، ، لأتهما سياج الإيمان وحفاظه فكان تقديمهما في الذكر موافقاً للمعهود عند الناس في جعل سياج كل شيء مقدماً عليه" (١).

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب على الأمة الإسلامية حملها الله مسئولية القيام بهذه المهمة الجسيمة قال تعالى: "وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ" (٢) فخطب الله سبحانه وتعالى الأمة الإسلامية بأسلوب الأمر الصريح فقال (ولتكن منكم) أيها المسلمون أمة لها كيان ونظام أمة مؤتلفة الأعضاء موحدة الجهات، لا ترهب أحداً ولا تخاف شيئاً، ديدنها قول الحق ودفع الظلم، ولو كان عند سلطان جائر ولا تخشى في الله لومة لائم، لها رئاسة وقانون كل ذلك أشارت إليه كلمة واحدة وهي (أمة) إذ هناك فرق بين قولك جماعة وأمة. فعلى المسلمين جميعاً واجب، وهو تكوين تلك الأمة لتكون بهذا الوضع، وعلى الأمة المكونة واجب أن تقوم بمهمة الدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والذب عن حياض الدين، ورفع منارة الحق والعدل، فالمسلمون جميعاً مكلفون بتكوين جماعة خاصة للدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

✓ والآية اشتملت على التكليف بثلاثة أشياء أولها الدعوة إلى الخير ثم الأمر بالمعروف ثم النهي عن المنكر، ولأجل العطف يجب كون هذه الثلاثة متغايرة فنقول: أما الدعوة إلى الخير فأفضلها الدعوة إلى إثبات ذات الله وصفاته وتقدسيه عن مشاهمة الممكنات...

(١) انظر تفسير المراغي ج ٢ ص ٢٩-٣٠ ، تفسير لباب التأويل في معاني التنزيل - الخازن - ج ١ ص ٢٦٤.

(٢) سورة آل عمران آية ١٠٤

والدعوة إلى الخير جنس تحته نوعان أحدهما الترغيب في فعل ما ينبغي وهو المعروف،
والثاني الترغيب في ترك ما لا ينبغي وهو النهي عن المنكر^(١).

ومما يدل على وجوب الدعوة إلى الله وتبليغ دينه قوله سبحانه ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ
بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾^(٢) وقد حرص الرسول صلى الله عليه وسلم على تبليغ
الدعوة في مكة وفي المدينة، ففي مكة عرض دعوته على القاصي والداني من أبنائها
وكان يركز في البداية بصفة خاصة على الأشد قرباً، والأكثر ليناً، كزوجته خديجة رضي
الله عنها وأصحابه أبي بكر وعثمان وعلي رضي الله عنهم، وتحمل كثيراً من الأذى حيث
كذبه كفار مكة واتهموه بالسحر وحاولوا إغراءه بالمال والملك، وقد صبر لكل ذلك حتى
هاجر المسلمون إلى المدينة، وفي المدينة تأسست الدولة الإسلامية تحت قيادة النبي صلى الله
عليه وسلم وتحولت كافة الجهود لتبليغ الدعوة الإسلامية إلى كافة الآفاق مع التدرج في
التبليغ من السعيد إلى الأبعد وهكذا حتى وصل خبرها إلى كل مكان بعد صلح
الحديبية^(٣).

"والدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لها مراتب، فالمرتبة الأولى:
هي دعوة هذه الأمة سائر الأمم إلى الخير وأن يشاركوهم فيما هم عليه من النور والهدى،
والمرتبة الثانية في الدعوة والأمر والنهي: هي دعوة المسلمين بعضهم بعضاً إلى الخير
وتأمرهم فيما بينهم بالمعروف وتناهيهم عن المنكر، والعموم فيها ظاهر أيضاً، وله
طريقان؛ أحدهما: الدعوة العامة الكلية ... بيان طرق الخير وتطبيق ذلك على أحوال
الناس، وضرب الأمثال المؤثرة في النفوس التي يأخذ كل سامع منها بحسب حاله. والطريق
الثاني: الدعوة الجزئية الخاصة: وهي ما تكون بين الأفراد بعضهم مع بعض ويستوي فيه
العالم والجاهل، وهذا ما يكون بين المتعارفين من الدلالة على الخير والحث عليه عند
عروضه والنهي عن الشر والتحذير منه، وكل ذلك من التواصي بالحق والتواصي

(١) انظر تفسير الخازن المسمى لباب التأويل في معاني التنزيل ج ١ ص ٢٦٤ دار الفكر. روح المعاني ج ٢ ص ٢٠ دار

الفكر. التفسير الكبير ج ٤ ص ١٨٢ دار الفكر.

(٢) سورة المائدة آية ٦٧.

(٣) الدعوة الإسلامية أصولها وأسسها ص ٢٣٣.

بالصبر وكل واحد يأخذ من الفريضة العامة بقدره"^(١) .

الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة:

يجب على الداعي أن يسلك أفضل السبل لإيصال دعوته إلى الناس، ليجد منهم آذاناً صاغية وقلوباً متفتحة، فيستجيبوا لدعوته ويتصححوا بنصيحته، وقد أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يدعو الناس بالحكمة والموعظة الحسنة قال تعالى ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾^(٢) . وهذا خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ولأمته من بعده بأن يدعو إلى سبيل الله أي شريعته التي شرعها لخلقه وهو الإسلام بالحكمة وهي الوحي الذي أوحاه الله إليه وبالكتاب الذي أنزله عليه وبالمقالة المحكمة الصحيحة، والدليل الموضح للحق، والمزيج للشبهة، والموعظة الحسنة وهي العبر الجميلة اللطيفة، والوقائع المخيفة التي جعلها الله حجة عليهم في كتابه وذكرهم بها في تنزيله، وأن يجادلهم بالتي هي أحسن، وذلك بمخاصمة معانديهم بالخصومة التي هي أحسن من غيرها من الرفق واللين وحسن الخطاب من غير عنف وبالصفح عما نالوا من عرضه فإن ذلك أبلغ في تسكين لهم"^(٣) .

ومن الحكمة استعمال الألفاظ اللينة في الدعوة، ولهذا أوصى الله موسى وهارون عندما أرسلهما إلى فرعون أن يقولوا له قولاً ليناً قال تعالى ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيْنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾^(٤) "وذلك لما في الإلانة من التأثير في الإجابة، فإن التخشين بادئ بدء يكون من أعظم أسباب النفور والتصلب في الكفر، والقول اللين هو الذي لا خشونة فيه"^(٥) ، وقد من الله على رسوله صلى الله عليه وسلم بأن جعل الرحمة في قلبه على قومه، فألان في الدعوة فاستجابوا له ولو أنه كان فظاً شديداً لنفروا منه ولم يتبعوا دعوته قال سبحانه

(١) تفسير المنار - محمد رشيد رضا - ج ٢ ص ٢٣-٢٤ بتصرف يسير.

(٢) سورة النحل آية ١٢٥.

(٣) انظر جامع البيان في تفسير القرآن - الطبري - ج ٧ ص ١٣١ ، تفسير المراغي ج ٥ ص ١٦١ ، تفسير القاسمي

محاسن التأويل - لقاسمي - ج ٦ ص ١٧٧.

(٤) سورة طه آية ٤٤.

(٥) فتح القدير - الشوكاني - ج ٣ ص ٤٥٦ بتصرف.

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾^(١) .
وهكذا يكون للحكمة والموعظة الحسنة الأثر البالغ في نجاح الدعوة ونشر الدين والقضاء على الرذائل والفساد في المجتمع مما يساعد في ارتقاء الأمة وعلوها ونجاحها من الهلاك والبوار الذي تسببه المفاسد والانحرافات.

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سبيل النجاة:

من الوسائل الهامة للنجاة من الهلاك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لأن انتشار الفساد والمعاصي تؤدي إلى هلاك الأمة وعذابها قال تعالى ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾^(٢) .

وقد قص الله علينا في كتابه العزيز من القصص ما يدل على ذلك ومن هذه القصص قصة أصحاب السبت والتي قال الله فيها ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعذِرَةٌ إلی رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعِقَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾^(٣) .

تحكي هاتان الآيتان قصة أصحاب قرية من بني إسرائيل، خالف فريق من أهلها أوامر الله واعتدوا على حرمت الله، فانبرى فريق آخر من أهلها إلى الإنكار عليهم وتذكيرهم بآيات الله، ووقف فريق ثالث على الحياد، فلم يقموا في المنكر، ويتسوا من استجابة المعتدين فتركوا نهيهم، وقالوا للناهين المذكرين (لم تعظون قوماً الله مهلكهم) أي مستأصلهم أو معذبهم عذاباً شديداً دون استئصال، وقيل مهلكهم مخزيهم في الدنيا ومعذبهم في الآخرة، لعدم اقلاعهم عما كانوا عليه من الفسق والطغيان. فقال الواعظون للآثمين، نعظهم وعظ عذر نعتذر به إلى ربكم عن السكوت على المنكر وقد أمرنا بالتناهي عنه، ورجاء في انتفاعهم بالموعظة وحملها - أي الموعظة - لهم على اتقاء الاعتداء

(١) سورة آل عمران آية ١٥٩

(٢) سورة الأنفال آية ٢٥.

(٣) الأعراف الآيتان ١٦٤-١٦٥.

الذي اقترفوه ^(١) .

وهذا دليل على عدم يأس هؤلاء من رجوع العادين إلى الحق كما يأس الفريق الأول فلما نسى العادون ما ذكرهم ووعظهم به إخواتهم المتقون بأن تركوه وأعرضوا عنه إعراضاً كلياً ولم يخطر ببالهم شيء مما وعظوه به، عند ذلك أنجى الله الذين ينهون عن العمل الذي تسوء عاقبته، فأنجاهم من العقاب الذي استحقه فاعلوا السوء بظلمهم، وأخذ الذين ظلموا بالاعتداء ومخالفة الأمر بعذاب شديد من البأس وهو الشدة أو البؤس وهو المكروه أو الفقر، بسبب فسقهم وتماديهم في الفسق الذي هو الخروج عن الطاعة وهو الظلم والعدوان. فالآية ناطقة بهلاك الظالمين الفاسقين ونجاة الصالحين الذين نهوهم عن عمل السوء وارتكاب المنكر، وسكتت عن الفرقة التي أنكرت على الواعظين وعظهم وإنكارهم فليل إنهما لم تنج لأنهما لم تنه عن المنكر، بل أنكرت على الذين نهوا وقيل بل نجت لأنهما كانت منكراً للمنكر مستقبحة له، ولذلك لم تفعله، وإنما لم تنه عنه ليأسها من فائدة النهي وجزمها بأن القوم قد استحقوا عقاب الله بإصرارهم فلا يفيدهم الوعظ ^(٢) .

إن في هذه القصة التي قصها الله علينا في كتابه دلالة واضحة على أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عامل من أهم عوامل النجاة والخلص، وأن الوقوع في المنكر والفاحشة والإقرار بهما والرضى عنهما يجلب سخط الله وعقابه، ومما يدل على ذلك ما رواه الترمذي عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ^(٣) "والذي نفسي بيده لتأمرنَّ بالمعروف ولتنهونَّ عن المنكر، أوليوشكن الله أن يعث عليكم عقاباً منه، ثم تدعون فلا يستجاب لكم" ^(٣) .

وفي هذا دعوة للمسلمين عامة بأن يأمروا بالمعروف وأن ينهوا عن المنكر لترتقى أمتهم ويعلو شأنهم وترتفع رايتهم ويتطهر مجتمعهم من الأرجاس والمنكرات التي تجلب الهلاك والدمار.

(١) الدر المنثور - السيوطي - ج ٣ ص ١٤٩ .

(٢) انظر تفسير إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم - أبي السعود - ج ٢ ص ٣١١ . تفسير المنار - محمد رشيد رضا - ج ٩ ص ٣١٨ .

(٣) سنن الترمذي - أبواب الفتن - باب ما جاء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ج ٣ ص ٣١٦ رقم ٢٢٥٩ ، قال الترمذي حسن، مسند الإمام أحمد ج ٥ ص ٣٨٨ .

وفي قصة أصحاب السبت السابقة الذكر دلالة على أن المسلم مطالب بالدعوة والتبليغ ليعذر بذلك عند الله وليس عليه تبعة إجابة الدعوة، ولهذا كان رد الناهين عن المنكر بقولهم (معذرة إلى ربكم ولعلمهم يتقون) وقد مرّ تفسير هذه الآية آنفاً. ومما يؤكد ذلك أن الله تعالى حصر مهمة الرسول صلى الله عليه وسلم بالبلاغ فقال ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾^(١) أما ما وراء البلاغ فأمره إلى الله وحده.

وقد أخبرنا الرسول صلى الله عليه وسلم "أن من الأنبياء من يأتي يوم القيامة ومعه الرهيط"^(٢)، والني ومعه الرجل والرجلان، والني وليس معه أحد"^(٣). فإن كان هذا حال بعض الأنبياء فكيف بحال من هم دونهم، لا شك أنه لا حرج عليهم لو لم يستجب لهم أحد من الناس، بل إن لهم الأجر العظيم على دعوتهم وتبليغهم ونصحهم.

الدعوة إلى الله سبيل الرسول والمؤمنين:

إن الغاية التي بعث الله لأجلها رسوله صلى الله عليه وسلم هي إخراج الناس من الظلمات إلى النور، وتعبيدهم لله وحده دون عبادة الطواغيت، وهذه الغاية العظيمة تحتاج إلى جهود كبيرة وعمل متواصل في الدعوة والتذكير قال تعالى ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا مَّوْبُشِّرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ يَازِّنُهُ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾^(٤). فرسول الله صلى الله عليه وسلم مرسل من ربه داعياً إلى الإسلام وإلى الخير والفضيلة وهذا هو سبيله وطريقته صلى الله عليه وسلم ومن سار على دربه واتبع منهجه

(١) سورة المائدة آية ٩٩.

(٢) الرهيط: بضم الراء تصغير الرهط وهي الجماعة دون العشرة. صحيح مسلم. بشرح النووي - النووي - ج ١ ص ٩٣.

(٣) صحيح البخاري - كتاب الطب - باب من اكتوى أو كوى غيره وفضل من لم يكتو ٣٠ ج ٧ ص ١٦٥، صحيح مسلم - كتاب الإيمان - باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب ج ١ ص ١٩٩ رقم ٢٢٠.

(٤) سورة الأحزاب آية ٤٥-٤٦.

قال تعالى ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾^(١).

فهذه السبيل التي هي الدعوة إلى دين الله وإلى الإيمان والتوحيد سبيله صلى الله عليه وسلم يدعو إلى ذلك على حجة واضحة غير عمياء هو ومن اتبعه من المؤمنين الذين يدعون لما يدعو له على هدى من الله ونور، يعرفون طريقهم جيداً ويسرون فيها على بصر وإدراك ومعرفة لا يخطون ولا يتحسسون، فهو اليقين البصير المستنير^(٢).

وقد ميز الله المؤمنين عن المنافقين، فوصف المؤمنين بأنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر في حين وصف المنافقين بأنهم يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف، وهذه ميزة جليلة تميز المؤمنين وتفصل بينهم وبين المخالفين لهم.

قال تعالى في وصف المنافقين ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ...﴾ الآية^(٣) وقال سبحانه في وصف المؤمنين ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ...﴾ الآية^(٤).

فالمنافقون والمنافقات يأمر بعضهم بعضاً بالمنكر كالكذب والخيانة وإخلاف الوعد ونقض العهد، وينهون عن المعروف كالجهاد وبذل المال في سبيل الله للقتال، أما المؤمنون فإنهم يأثمرون فيما بينهم بالمعروف ويتناهون عن المنكر، وهاتان الصفتان من أحص صفات المؤمنين التي يمتازون بها على المنافقين وعلى غيرهم من الكفار.

وبهذا فإن الله وصف المؤمنين بصفات تضاد مثلها في المنافقين ومنها:

١. أنهم يأمرون بالمعروف والمنافقون يأمرون بالمنكر.
٢. أنهم ينهون عن المنكر والمنافقون ينهون عن المعروف.

(١) سورة يوسف آية ١٠٨.

(٢) انظر الكشاف - الزمخشري - ج ٢ ص ٢٧٧. السراج المنير - الشريبي - ج ٢ ص ١٤٢. في ظلال القرآن - سيد

قطب - ج ٥ ص ١٣ ص ٥٥-٥٦.

(٣) سورة التوبة آية ٦٧.

(٤) سورة التوبة آية ٧١.

وهاتان الخصلتان هما سياج الفضائل ومنع فشو الرذائل^(١) التي تحطم القيم الاجتماعية... ومن الآيات التي وصف الله فيها المؤمنين بهذه الصفة العظيمة قوله سبحانه ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْأَمْرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٢) فذكر من جملة أوصافهم أنهم قائلون بأمر الناس بما هو معروف في الشريعة، وقائمون بالإنكار على من فعل منكراً ينكره الشرع^(٣).

فإن كان هذا هو سبيل المؤمنين أنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، فإنه سبيل عظيم مبارك، لأنه يقوم على إصلاح المجتمع وتطهيره من الرذائل والمنكرات والخبائث التي تنتشر فيه مما يجعله مجتمعاً نظيفاً شريفاً نقيماً، يسعد فيه المسلمون ويعيشون فيه حياة كريمة مطمئنة، وهو مجتمع يحفظه الله ويمده بعونه ورعايته.

أما ما يقوم به المنافقون من نهي عن المعروف وأمر بالمنكر ونشر للرذائل والحرمان فإن هذا دليل على انحراف فطرتهم وطبائعهم لأنهم يأمرون بما يجب عليهم أن ينهوا عنه وينهون عما يجب عليهم أن يأمروا به، وهذا الذي يفعلونه إنما يؤدي بالمجتمع إلى الهاوية والهلاك بسبب ما ينتشر فيه من رذائل ومنكرات كموالاة الكافرين ومناصرتهم وكالتبرج والاختلاط والزنا واللواط والخيانة والسرقة وشرب الخمر وغيرها من المنكرات التي يروج لها المنافقون ومن يقف خلفهم من اليهود والنصارى.

أثر الدعوة في الارتقاء:

إن الحاجة إلى الدعوة شديدة، لأن العقول البشرية لا تستطيع وحدها أن تدرك مصالحها الحقيقية التي تكفل السعادة في الدنيا والآخرة، كما أنها لا تهدي وحدها إلى أن تميز الخير من الشر، والمعروف من المنكر، وليس من طبيعتها أن تقف على حقائق الأمور مهما وصلت إلى الغاية القصوى من الإدراك، فكثيراً ما يبدو لها الشر في لباس الخير فتقع

(١) انظر تفسير المراغي ج ٤ ص ١٦٠. تفسير المنار - محمد رشيد رضا - ج ١٠ ص ٤٦٧.

(٢) سورة التوبة آية ١١٢.

(٣) انظر فتح القدير - الشوكاني - ج ٢ ص ٥٠٧.

فيه وكثيراً ما ظهر لها الخير في صورة الشر فأعرضت عنه.

من أجل هذا أرسل الله عز وجل الرسل الكرام إلى البشر ليخرجوهم من الظلمات إلى النور، ومن الأوهام إلى الحقائق، حتى لا يكون لأحد منهم حجة على الله تعالى، قال عز من قائل ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾^(١) وكان محمد صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء والمرسلين فبلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة.

وهكذا انتشر الإسلام في الشرق والغرب وأصبحت له القوة والمنعة والعزة والكرامة وارتقت الأمة الإسلامية وأصبحت ذات حضارة عظيمة امتدت من مشارق الأرض حتى مغاربها، وكانت لها السيادة والريادة، ولكن للأسف الشديد يوم تخلى المسلمون عن تعاليم دينهم أصبحوا في ذلة ومهانة وخسران، بسبب تعلقهم بزخارف الدنيا وتعلقهم بأسباب النعيم الزائل، وتركهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر^(٢).

وهذا الحال الذي وصل إليه المسلمون يلزمهم أن يقوموا بما أوجبه الله عليهم من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى الله، حتى ينجو من عذاب الله الذي توعده به المتقاعسين عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، هذا من جانب، وليرتقوا بآمتهم ويتقدموا بها إلى مواطن الكرامة والعزة من خلال أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر الذي هو سبب الارتقاء والتقدم والتمكين في الأرض من جانب آخر.

العمل لإقامة الخلافة الإسلامية:

الخلافة تعني الإمامة العظمى ورأسه الدولة الإسلامية، فالخليفة أو الإمام الأعظم هو رئيس الدولة الإسلامية الأعلى، ولما كانت الدولة الإسلامية قائمة على الإسلام الذي يسيطر على الأفراد والجماعات، ويوجههم في حياتهم وجهات معينة، وكان للخليفة في رأي الفقهاء

(١) سورة النساء آية ١٨٥.

(٢) ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة - مصلح بيومي - ص ١٤-١٦ بتصرف.

وظيفتان:

الأولى: إقامة الدين الإسلامي وتنفيذ أحكامه، والثانية: القيام بسياسة الدولة التي رسمها الإسلام، ويمكن القول إن وظيفة الخليفة هي إقامة الإسلام. وتعتبر الخلافة فرض من فروض الكفايات كالجهاد والقضاء، فإذا قام بها من هو أهل لها سقطت الفريضة عن الكافة، وإن لم يقيم بها أحد خرج من الناس فريقان أحدهما: أصل الاختيار حتى يختاروا إماماً للأمة، والثاني أصل الإمامة حتى ينتصب أحدهم للإمامة، وليس على من عدا هذين الفريقين من الأمة في تأخير الإمامة حرج ولا مأثم^(١).

"ومعنى هذا أن الوجوب يقع على من يسمون أهل الحل والعقد من الأمة، فهم الذين يجب عليهم أن يقوموا بهذا الواجب نيابة عنها، وهم الذين يتحملون الإثم أولاً إذا قصرُوا في أدائه، والمراد بهم العلماء وقادة الرأي والرؤساء الذين يمثلون مصالح الأمة، فهؤلاء يجب عليهم أن يعملوا لإقامة الخلافة بشروطها وتمكينها من أداء المقاصد المطلوبة منها للحفاظ على الدين وحماية أوطان المسلمين وتنفيذ الواجبات التي يريدتها الإسلام.

إلا أن هذا لا يعفي باقي الأمة من المسؤولية في إقامة الخلافة، لأن المسلمين جميعاً مخاطبون بالشرع وعليهم إقامته، ومن أول واجباتهم أن يأمرُوا بالمعروف وينهوا عن المنكر، وليس أحدهم مأموراً بأن ينظر فقط إلى نفسه وما في يده من الأمر، وإنما عليه أن يعمل على إقامة الدين على نفسه وعلى غيره^(٢).

الأدلة على فرضية الخلافة:

١. الخلافة أو الإمامة سنة فعلية استنتها الرسول صلى الله عليه وسلم للمسلمين وعليهم أن يقيموا هذه السنة ويعملوا بما لقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾^(٣).
٢. أجمع المسلمون وأصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم خاصة، وهم أدرى الناس

(١) الأحكام السلطانية والولايات الدينية - الماوردى - ص ٦.

(٢) انظر: الإسلام والخلافة في العصر الحديث - د. محمد ضياء الدين الرئيس - ص ٤٣١-٣٤٢. الإسلام وأوضاعنا

السياسية - عبد القادر عودة - ص ١٢١-١٣٢.

(٣) سورة النساء آية ٥٩.

باتجاهات الإسلام على أن يقيموا على رأس الدولة من يخلف الرسول صلى الله عليه وسلم، حتى إن أول ما قاموا به بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم هو اختيار أبي بكر خليفة للمسلمين حتى قبل دفن الرسول صلى الله عليه وسلم .

٣. إن الكثير من الواجبات الشرعية يتوقف على إقامة خليفة أو إمام، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب شرعاً، كما أن في نصب الإمام دفع ضرر وإزالة الضرر تجب شرعاً، وفيه أيضاً جلب منافع للأمة، وهو واجب أيضاً، ذلك أن مقصود الشارع فيما شرع من المعاملات والمناكحات والجهاد والحدود وشعائر الشرع وغيرها إنما هو مصالح عائدة على الخلق، وهذه المصالح لا تتم إلا بإمام يرجعون إليه فيما يختلفون فيه.

٤. إن نصوص القرآن والسنة أوجبت إقامة إمام للجماعة الإسلامية ومن ذلك قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾^(١) . والمقصود بأولي الأمر هم أئمة الدولة الذين يتولون الأمر فيها، واحد بعد الآخر، والذين قال فيهم الرسول صلى الله عليه وسلم "من خلع يداً من طاعة لقي الله يوم القيامة لا حجة له، ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية"^(٢) . وهذا يدل على وجوب الخليفة الذي يباعد للخلافة"^(٣) .

٥. إن الله جعل المسلمين أمة واحدة على اختلاف لغاتهم وأجناسهم وشعوبهم ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾^(٤) وقال سبحانه ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾^(٥) ومقتضى هذه النصوص أن يكونوا أمة واحدة، ووحدة سياسية واحدة وأن يكونوا من أنفسهم دولة واحدة.

يقول ابن تيمية رحمه الله في وجوب اتخاذ خليفة: "يجب أن يعرف أن ولاية أمر الناس

(١) سورة النساء آية ٥٩ .

(٢) صحيح مسلم - كتاب الإمارة - باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن وفي كل حال، وتحريم الخروج على الطاعة ومفارقة الجماعة ج ٣ ص ١٤٧٨ رقم ١٨٥١ .

(٣) المحلى - لابن حزم - ٦م ج ٩ ص ٣٥٩ .

(٤) سورة المؤمنین آية ٥٢ .

(٥) سورة الأنبياء آية ٩٢ .

من أعظم واجبات الدين، بل لا قيام للدين إلا بها، فإن بني آدم لا تتم مصلحتهم إلا بالاجتماع لحاجة بعضهم إلى بعض، ولا بد لهم عند الاجتماع من رأس، حتى قال النبي صلى الله عليه وسلم "إذا خرج ثلاثة في سفر، فليؤمروا أحدهم"^(١). وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو أن النبي صلى الله عليه وسلم قال "لا يحل لثلاثة يكونون بفلاة من الأرض إلا أمروا عليهم أحدهم"^(٢) فأوجب صلى الله عليه وسلم تأمير الواحد في الاجتماع، ولأن الله تعالى أوجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولا يتم ذلك إلا بقوة وإمارة، وكذلك سائر ما أوجبه من الجهاد والعدل وإقامة الحجج والجمع والأعياد ونصر المظلوم، وإقامة الحدود ولا تتم إلا بالقوة والإمارة، ولهذا روى "أنما السلطان ظل الله في الأرض"^(٣) والتجربة تبين ذلك، ولهذا كان السلف يقولون "لو كان لنا دعوة مجابة لدعونا بها للسلطان".

فالواجب اتخاذ الإمارة ديناً وقربة يتقرب بها إلى الله، فإن التقرب إليه بها، بطاعته وطاعة رسوله من أفضل القربات^(٤).

إن فيما ذكره العلماء من أدلة على وجوب العمل لإعادة الخلافة الإسلامية ليؤكد على مدى ثقل التبعة التي يتحملها كل مسلم في هذا الجانب في العصر الحاضر، وإعادة الخلافة بعد الإطاحة بما مسئولية جسيمة، وهي تحتاج إلى جهود مضنية في سبيل إعادتها، فأعداء الإسلام الذين خططوا ليل نهار للإطاحة بالخلافة لن يسمحوا لها بالعودة إلى الحياة مرة أخرى، لأنهم على يقين بأن عودة الخلافة تعني قرب نهايتهم هذا ما يفكر فيه أعداء الإسلام جلياً، ولهذا فإنهم يقفون حجر عثرة في وجه كل خطوة في هذا السبيل.

ومن الأمثلة على ذلك ما حدث للسودان بعد الانقلاب الأخير والذي كان من أهدافه تطبيق الشريعة الإسلامية بدلا من القوانين الوضعية كخطوة أولى في سبيل إعادة الخلافة.

(١) سنن أبي داود - كتاب الجهاد - باب في القوم يسافرون ومُرون أحدهم - ج ٣ ص ٣٦ رقم ٢٦٠٨. حديث صحيح، صحيح الجامع الصغير وزياداته - الألباني - ج ١ ص ١٤٨.

(٢) مسند الإمام أحمد ج ٢ ص ١٧٧ حديث صحيح. مسند الإمام أحمد - شرح وفهرسة أحمد شاكر - ج ١٠ ص ١٣٣ رقم ٦٦٤٧.

(٣) السنن الكبرى - البيهقي - كتاب قتال أهل البغي - باب فضل الإمام العادل - ج ٨ ص ٢٨١ - ج ٨ ص ١٦٢ رقم ١٦٤٢٧.

(٤) السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية - لتقي الدين بن تيمية - ص ١٦١.

فوقفت دول الكفر جميعاً في وجه الحكومة الجديدة وفرضوا عليها القيود الصارمة وساعدهم في ذلك حلفاؤهم من الحكام العرب الذين كانوا أدوات في أيدي الكافرين المعتدين الذين يحاربون شرع الله سبحانه.

نعم إن أعداء الإسلام يحاربون كل محاولة لإعادة الخلافة إلا أن هذا لا يعفي المسلمين جميعاً من العمل على إعادتها، وإنما يجب عليهم أن يعملوا جاهدين في سبيل تحقيق هذا الهدف العظيم السامي الذي فيه نصره للحق والدين، وإعلاء لكلمة الله سبحانه، مع العلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم بشر بعودة الخلافة إلى سابق عهدها، وأن ذلك سيكون رغم كيد الكائدين، ومكر الماكرين، ومحاربة المحرمين، وأن كل جهودهم ستذهب أدراج الرياح بلا قيمة ولا فائدة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة فتكون ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها، ثم يكون ملكاً عاصياً فيكون ما شاء الله أن يكون ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها، ثم يكون ملكاً جبرياً فيكون ما شاء الله أن يكون ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة ثم سكت"^(١).

هكذا يبشر الرسول صلى الله عليه وسلم بأن الخلافة ستعود، وأن كلمة الله ستعلو رغم الحرب الشرسة التي يشنها الأعداء على الإسلام.

وهذا يعطي دفعه قوية للمسلمين للعمل بجد واجتهاد، ويدفعهم بقوة للعمل والبذل لإعادة الخلافة وإخراج المسلمين من فترة الحكم الجبري التي يعيشون فيها اليوم هذه الفترة التي يتسلط فيها حكام طغاة بغاة على مقدرات الأمة، ويحكمونها بالحديد والنار ويدفعونها بقوة إلى الهاوية والانحدار.

وبالتالي فإن إعادة الخلافة هو المخرج الأساس لما تحياه الأمة الإسلامية من الضعف والذلة ومن الانحدار والمهانة، وهي العامل الرئيس لارتقاء الأمة الإسلامية من خلال إقامة حكم الله ونصرة دينه ونشره في أقطار الأرض ولهذا يجب أن تتكاتف الجهود وتتوحد القوى في سبيل تحقيق هذا الهدف الغالي الذي طالما انتظره المسلمون ببالغ الصبر.

(١) مسند الإمام أحمد ج ٤ ص ٣٧٢ صحيح. سلسلة الأحاديث الصحيحة - الألباني - المستقبل للإسلام - ج ١ ص ٨

المبحث العاشر: الإصلاح والعدل

ويشتمل على مطلبين: المطلب الأول: الإصلاح

المطلب الثاني: العدل

المطلب الأول: الإصلاح الاجتماعي:

الأمر بالإصلاح وأهميته:

حض الإسلام على الإصلاح بين الناس وحث على التقريب بين القلوب وتنقيتها من الأحقاد والضغائن ومن عوامل التفكك والتفرق.

وإن من حكمة الله البالغة أن طبيعة الإنسان اجتماعي يحتاج إلى غيره في القيام بالمهام المنوطة به وفي القيام بما يحتاج إليه في هذه الحياة، ولا يمكن لإنسان أن يعيش معزولاً مستغنياً عن غيره من الخلق قال سبحانه ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَةٌ مِنَّا لِيَجْمَعُونَ﴾^(١). أي ليكون بعضهم مسخراً لبعض في الأعمال . وما به قوام المعاش حتى يصلوا إلى منافعهم هذا بماله وهذا بأعماله^(٢).

ولتحقيق هذه الغاية الهامة أمر الله بالتعاون بين الناس، التعاون على البر والتقوى وليس على الإثم والعدوان، لأن هذا هو الذي يحقق التقارب والتآلف بين الناس قال تعالى ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾^(٣).

وليصبح التعاون أمراً واقعياً يسعى إليه أفراد المجتمع جميعاً لا بد من أن يكونوا متوادين متحابين، قلوبهم متقاربة وأجسادهم مترابطة كالبنيان المرصوص.

(١) سورة الزخرف آية ٣٢.

(٢) انظر تفسير مدارك التنزيل وحقائق التأويل-النسفي- ج ٣ ص ١٦٠٠. محاسن التأويل-للحاسمي- ج ١٤ ص ٣٣٧.

(٣) سورة المائدة آية ٢.

وعلى ذلك إذا أردنا أن نكون مجتمعاً قوياً متماسكاً صالحاً فاضلاً وجب أن نبدأ بالإصلاح، إصلاح الفرد والأسرة والطوائف، أن نبدأ بهذا الإصلاح الشامل الذي يؤدي إلى وحدة الأمة وقوتها، وثباتها في وجه أعدائها الذين يتربصون بها الدوائر ويحكون لها المؤامرات ليل نهار.

ولأهمية الإصلاح وضرورته جعل له الإسلام المكانة العالية الرفيعة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة فقالوا بلى يا رسول الله: قال إصلاح ذات البين، قال: وفساد ذات البين هي الخالقة"^(١).

ونهى القرآن الكريم عن اتخاذ الأيمان ذريعة لترك الإصلاح بين الناس، وطلب إلى من حلف يمينا أن لا يصلح بين المتخاصمين أن يكفر عن يمينه ويقوم بهذا الواجب قال تعالى ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ﴾^(٢).

أخرج عبد بن حميد وابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في هذه الآية "هو أن يحلف الرجل أن لا يكلم قرابته أو لا يتصدق ويكون بين رجلين مغاضبة فيحلف لا يصلح بينهما ويقول: قد حلفت، قال يكفر عن يمينه"^(٣).

ونفى الإسلام الخيرية عن كثير مما يتناجى به الناس ويتسارون به إلا في ثلاث ومنها الإصلاح بين الناس قال تعالى ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾^(٤).

كما لم يبيح الإسلام الكذب إلا في حالات ثلاث ومنها الإصلاح بين

(١) سنن أبي داود - كتاب الأدب - باب إصلاح ذات البين ج ٤ ص ٢٨٠. سنن الترمذي - كتاب صفة

القيامة - باب ٢٠ - ج ٤ ص ٦٦٣ رقم ٢٦٢٧ حسنه الترمذي.

(٢) سورة البقرة آية ٢٢٤.

(٣) فتح القدير - الشوكاني - ج ٥ ص ٢٩٣.

(٤) سورة النساء آية ١١٤.

المتخاصمين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس فينمي خيراً ويقول خيراً"^(١).

وبالإجمال فإن الصلح فيه خير كثير وقد وصف الله الصلح بذلك في قوله سبحانه (والصلح خير)^(٢)، فهو خير ولا يأتي إلا بما هو خير، وهذا يدلنا على أثر الإصلاح في ارتقاء الأمة وعلو شأنها.

أنواع الإصلاح:

ذكرنا فيما مضى أن صلاح الأمة يقتضي صلاح الأفراد والأسر والطوائف فإذا صلح هؤلاء صلحت الأمة وهذه الأنواع تحتاج إلى بعض التفصيل على الوجه التالي:

إصلاح الأفراد:

صلاح الأفراد هو أساس صلاح الأمة، لأن الأمة تتكون من أفراد فإذا كانوا متحابين متآلفين كانت الأمة قوية متماسكة، وإذا كانوا مختلفين متنازعين كانت الأمة ضعيفة مهينة، وفي الأمر بالإصلاح بين أفراد المجتمع يقول تعالى ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾^(٣).

فأخبر الله أن المؤمنين الذين يوحدونه سبحانه ويعملون بطاعته ويقرون بنبوة نبيه ويعملون بما جاء به أخوة يلزمهم نصره بعضهم بعضاً فقال سبحانه (فأصلحوا بين أخويكم) إذا رجعوا جميعاً إلى الحق وما أمر الله به، قال الزجاج^(٤): سموا المؤمنين إذا كانوا متفقين في دينهم بأنهم أخوة لاتفاقهم في الدين ورجوعهم إلى أصل النسب لأنهم لأدم وحواء فإذا اختلفت أديانهم اختلفوا في النسب وذكر الإصلاح بين الأخوة

(١) صحيح البخاري- كتاب الصلح- باب ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس- م ١٣ ج ٣ ص ٦٨٤. صحيح

مسلم- كتاب البر والصلة والآداب- باب تحريم الكذب وبيان ما يباح منه- ج ٤ ص ٢٠١ رقم ٢٦٠٥.

(٢) سورة النساء آية ١٢٨.

(٣) سورة الحجرات آية ١٠.

(٤) هو أبو إسحاق إبراهيم الزجاج، نحوي تعلم على المبرد ثم علم القاسم بن عبيد الله بن سلمان توفي سنة

٩٢٣ م من مؤلفاته "شرح أبيات كتاب سيويه" وكتاب "معاني القرآن". المنجد في الأعلام ص ٢٥٠.

والأفراد بعد ذكر الإصلاح بين الطوائف تميمًا للإرشاد وذلك لأنه لما قال ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾^(١) كان يمكن لظان أن يظن أو لمتوهم أن يتوهم أن ذلك عند اختلاف قوم، فأما إذا كان الاقتتال بين اثنين فلا تعم المفسدة فلا يؤمر بالإصلاح. وكذلك الأمر بالإصلاح هناك عند الاقتتال، وأما إذا كان دون الاقتتال كالتشاتم والتسافه فلا يجب الإصلاح فقال (بين أخويكم) وإن لم تكن الفتنة عامة وإن لم يكن الأمر عظيمًا كالقتال بل لو كان بين رجلين من المسلمين أدنى اختلاف فاسعوا في الإصلاح^(٢).

إصلاح الأسرة:

أمر الله بالإصلاح بين الأسر المختلفة المتنازعة في المجتمع الإسلامي لأن صلاح الأسر سبيل إلى صلاح المجتمع، ومن هنا كان حرص القرآن عظيمًا على الإصلاح بين أسر المسلمين.

وتناول القرآن الحديث في إصلاح الأسرة في عدة مواطن فقال تعالى ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾^(٣).

وهذا خطاب لولاة المسلمين وقضاةهم إذا خافوا شقاقًا أي عداً وخلافًا بين الزوجين بأن يبعثوا من أهله رجلاً يصلح للحكومة والإصلاح بينهما، ويبعثوا من أهلها رجلاً كذلك، وإنما كان بعث الحكامين من أهلها لأن الأقارب أعرف بيوطن الأحوال وأطلب للصالح ونفوس الزوجين أسكن إليهم فيبرزان ما في ضمائرهما من الحب والبغض وإرادة الصلح والفرقة، فيجتمع وينظرا في أمرهما ويفعل ما فيه المصلحة إن رأيا التوفيق وفقاً وإن رأيا التفريق فرقاً، وأوقع الله بطيب نفسيهما وحسن

(١) سورة الحجرات آية ٩.

(٢) انظر التفسير الكبير-الرازي- ج ٢٨ ص ١١٠-١١١. زاد المسير-لأبي الفرج الجوزي- ج ٧ ص ٤٦٤.

البيان في تفسير القرآن ج ٩ ص ٣٤٦.

(٣) سورة النساء آية ٣٥.

سعيهما الوفاق والألفة بين الزوجين وما شرعه الله إنما جاء وفق الحكمة والمصلحة لأنه من حكيم خبير. قال ابن عباس رضي الله عنهما "أمر الله عز وجل أن يبعثوا رجلاً صالحاً من أهل الرجل ورجلاً مثله من أهل المرأة فينظران أيهما المسيء، فإن كان الرجل هو المسيء حجبا عنه امرأته وقصروه على النفقة وإن كانت المرأة هي المسيئة قصروها على زوجها ومنعوها النفقة فإن اجتمع رأيهما على أن يفرقا أو يجمعا فأمرهما جائز" (١).

وأكد القرآن على أن الإصلاح بين الزوجين خير من الفراق بينهما، حتى لو أدى ذلك لأن تنازل الزوجة عن بعض حقها لزوجها، لأن الصلح أساس في بقاء الروابط الأسرية وتقويتها، أما الفراق والطلاق فيؤدي إلى تفكك الأسرة وتفرقتها قال تعالى ﴿وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ (٢).

والظاهر من الآية أن صلحهما على ترك بعض حقها للزوج وقبول الزوج ذلك خير من المفارقة بالكلية كما أمسك النبي صلى الله عليه وسلم سودة بنت زمعة على أن تركت يومها لعائشة رضي الله عنها ولم يفارقها بل تركها من جملة نسائه. وفعله ذلك لتأسى به أمته في مشروعية ذلك وجوازه (٣).

هذا الحرص العظيم الذي يوليه الإسلام للأسرة وتماسكها دليل واضح على أهمية ترابطها وتماسكها، لأن ذلك يؤدي إلى قوة الأمة وعظمتها، وتجدر الإشارة هنا إلى أن التفكك الأسري المنتشر في البلاد الغربية من مبشرات انهيار تلك المجتمعات المفككة المشتتة، وهم في تلك البلاد يحسدون المسلمين على ما بينهم من ترابط أسري وتوافق بين أفراد الأسرة الواحدة.

(١) انظر تفسير القرآن العظيم- ابن كثير- ج ١ ص ٤٩٣، الأساس في التفسير - سعيد حوى- ج ٢ ص ١٠٥٤.

روائع البيان تفسير آيات الأحكام-الصابوني- ج ١ ص ٤٣٧.

(٢) سورة النساء آية ١٢٨.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم - ابن كثير- ج ١ ص ٥٦٣.

الإصلاح بين الطوائف:

الإصلاح بين الطوائف المتخاصمة أمر حتم ولو لم يتم إلا بالعنف، محافظة على الكيان العام للجماعة وإبقاء لعلاقات المودة والإخاء قائمة قال تعالى ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنَّ فَاءَ ت فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾^(١).

فأمر الله المؤمنين بالإصلاح بين المتخاصمين المتقاتلين منهم وذلك بعرض خصوصيتهم على كتاب الله والرضا بما فيه لهما وعليهما وهذا هو الإصلاح بالعدل، فإن بغت إحدى الطائفتين وطلبت ما ليس لها ولم ترجع إلى الصلح وجب مقاتلة هذه الفئة حتى ترجع إلى طاعة الله في الصلح الذي أمر الله به.

وفي الآية إشارة إلى ندرة وقوع القتال بين طوائف المسلمين... وذلك لأن كونهما طائفتين مؤمنتين يقتضي أن لا يقع القتال منهما"^(٢).

وعظّم الإسلام أمر الصلح بين طوائف المسلمين وجعله مقدماً على الأموال والغنائم وما سواهما من متاع الدنيا، فالصلح خير من كل متاع يعود بالنفع على فرد أو أفراد من الأمة، لأنه طريق للعزة والقوة والمنعة قال تعالى ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ - قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾^(٣).

"جاء في سبب نزول الآية عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه^(٤) قال: خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فشهدت معه بدرًا فالتقى الناس فهزم الله تعالى

(١) سورة الحجرات آية ٩.

(٢) تفسير جامع البيان في تفسير القرآن - الطبري - ج ١١ ص ٨٠، والتفسير الكبير - الرازي - ج ٢٨ ص ١١.

(٣) سورة الأنفال آية ١.

(٤) عبادة بن الصامت بن قيس بن أصرم بن فهر بن قيس بن ثعلبة بن غنم بن سالم بن عوف بن عمرو بن عوف بن الخزرج الأنصاري الخزرجي أبو الوليد، كان أحد النقباء بالعقبة، وشهد بدرًا، والمشاهد كلها بعد-

العدو فانطلقت طائفة في آثارهم يهزمون ويقتلون، وأقبلت طائفة على العسكر يحوزونه ويجمعونه، وأحدقت طائفة برسول الله صلى الله عليه وسلم لا يصيب العدو منه غرة حتى إذا كان الليل وفاء الناس بعضهم إلى بعض قال الذين جمعوا الغنائم نحن حويناهما فليس لأحد فيها نصيب وقال الذين خرجوا في طلب العدو لستم بأحق به منا نحن منعنا عنه العدو وهزمناهم وقال الذين أحدقوا برسول الله صلى الله عليه وسلم خفنا أن يصيب العدو منه غرة فاشتغلنا به فترلت^(١) (يسألونك عن الأنفال... الآية).

أي أصلحوا نفس ما بينكم وهي الحال والصلة التي بينكم تربط بعضكم ببعض وهي رابطة الإسلام وإصلاحها يكون بالوفاق والتعاون والمواساة وترك الأثرة والتفرق والإيثار أيضاً^(٢).

وفي هذا دلالة واضحة على وجوب الإصلاح بين طوائف المسلمين ليقبوا متوادين متآلفين، مما يزيد المجتمع قوة وارتقاءً.

الإصلاح مهمة الأنبياء:

من المهام العظيمة التي يقوم بها الأنبياء الإصلاح بين الناس، الإصلاح بين المتحاربين والمتخاصمين، وإصلاح النفوس بتصحيح العقائد والديانات. ومن الأمثلة على ذلك أن من أول ما قام به رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد هجرته إلى المدينة أن أصلح بل أخى بين الأوس والخزرج وقضى على الشقاق والعداء الذي كان سائداً بين هاتين القبيلتين العظيمتين، والذي دام عقوداً طويلة حتى كانت تنشب الحروب بينهم لأتفه الأسباب. وأحال هذا الشقاق والعداء إلى إحاء ومودة ومحبة مما زاد من قسوتهم وتآلفهم قال تعالى ﴿وَأذْكُرُوا اللَّهَ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ

=بدر، مات سنة أربع وثلاثين، وقيل إنه عاش إلى سنة خمس وأربعين. الإصابة في تمييز الصحابة- ابن حجر-

ج ٢ ص ٢٦٩.

(١) تفسير القرآن العظيم - ابن كثير - ج ٢ ص ٢٨٣.

(٢) المنار - محمد رشيد رضا - ج ٩ ص ٤٨٩.

كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا» (١) .

"فأمر الله المسلمين بأن يذكروا نعمة الله عليهم وبين لهم من هذه النعمة أنهم كانوا أعداء مختلفين يقتل بعضهم بعضاً وينهب بعضهم بعضاً فأصبحوا بسبب هذه النعمة إخواناً، أخرج ابن إسحاق قال "كانت الحرب بين الأوس والخزرج عشرين ومائة سنة حتى قام الإسلام فأطفأ الله ذلك وألف بين قلوبهم" (٢) .

أما إصلاح النفوس فهي مهمة جميع الرسل عليهم السلام وقد عبر عنها شعيب عليه السلام بقوله «إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ» (٣) "فأعلنها عليه الصلاة والسلام أنه لا يريد إلا أن يصلحهم بمواعظه ونصائحه وأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر، وذلك مدة استطاعته للإصلاح وما دام متمكناً منه لا يألوا في ذلك جهداً، وهو في أداء ما كلف به من تبليغهم الرسالة متوكل على الله وحده لا على حوله وقوته" (٤) .

وهذا ما كان يقوم به الرسل جميعاً من الدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإصلاح الأمة وإنقاذها من الضلال والانحراف والفساد الذي يعم أنحاء المجتمعات.

وكان من دعاء الصالحين أن يصلح الله ذريتهم وأن يجعلهم راسخين في الصلاح متمكين منه متبعين للحق ومقتفين آثار المرسلين والصالحين . قال تعالى عن دعائهم «... وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ» (٥) .

(١) سورة آل عمران آية .

(٢) فتح القدير-الشوكاني- ج ١ ص ٤٦٤-٤٦٦ .

(٣) سورة هود آية ٨٨

(٤) انظر الكشاف-الزمخشري- ج ٢ ص ٢٨٧، وروح المعاني-الألوسي- ج ٤ ص ١٢٠ ، تفسير المراغي ج ٤ ص ٧٤ .

(٥) سورة الأحقاف آية ١٥ .

وهذا ما يجب أن يكون عليه حال العلماء والدعاة في جميع العصور أن يعملوا على إصلاح ذات البين والتقريب بين القلوب والعمل على هداية الناس وإرشادهم وإصلاحهم، ليرتقي المجتمع وتعم الطمأنينة وينتشر الخير والأمن في المجتمع. وهكذا نتبين أثر الإصلاح في ارتقاء الأمة فهو سبب الوحدة والقوة والتماسك والترابط، والعزة والمنعة، هذه النتائج المترتبة على الإصلاح عوامل رئيسية في ارتقاء الأمة وعلو شأنها وبناء حضارتها، إذ لا يمكن لأمة أن ترتقي وتعلو أو تعز وتقوى دون الوحدة والتماسك، ولا يتحقق ذلك إلا بالإصلاح.

والواقع أن من أهم أسباب ضعف المسلمين في العصر الحاضر الاختلافات التي تمزق وحدتهم والمنازعات التي تشتت صفهم، وهم في أمس الحاجة إلى من يعمل على تسوية الخلافات التي بينهم وعلى إزالة التراعات التي تشتتهم وتفرقهم ليصبحوا أمة قوية متماسكة عزيزة مرهوبة الجانب.

المطلب الثاني: العدل:

يحرص الإسلام أشد الحرص على المحافظة على حقوق الناس ودمائهم وأعراضهم وأموالهم، كما يعنى أشد العناية بصيانة حرياتهم، وكراماتهم ويتخذ لذلك جميع الوسائل التي تحفظ هذه الحقوق وتصونها جميعاً.

ومن هذه الوسائل إقامة الحق والعدل بين الناس، وذلك أن إقامة الحق والعدل هي التي تشيع الطمأنينة، وتنتشر العدل وتشد علاقات الأفراد بعضهم ببعض، وتقوي الثقة بين الحاكم والمحكوم، وتنمي الثروة، وتزيد في الرخاء، وتدعم الأوضاع فلا تستعرض لخلخلة أو اضطراب، ويمضي كل من الحاكم والمحكوم إلى غايته في العمل والإنتاج وخدمة البلاد، دون أن يقف في طريقه ما يعطل نشاطه أو يعوقه عن النهوض^(١).

(١) عناصر القوة في الإسلام - سيد سابق - ص ١٤٧.

الدعوة إلى العدل:

جاءت الآيات داعية إلى العدل، ومحذرة من الظلم ومحرمة له، والله سبحانه من أسمائه العدل، وما أنزل كتبه، ولا أرسل رسله، ولا كلف الناس بالشرائع إلا لأجل إقامة العدل قال تعالى ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾^(١).

فرسالة الرسل واحدة، جاء بها الرسل جميعاً ومعهم الكتاب والميزان، فكل الرسائل جاءت لتقر في الأرض وفي حياة الناس ميزاناً ثابتاً ترجع إليه البشرية لتقوم الأعمال والأحداث والأشياء والرجال، وتقيم عليه حياتها في مأمن من اضطراب الأهواء واختلاف الأمزجة وتصادم المصالح والمنافع ميزاناً لا يحاي أحدًا لأنه يزن بالحق الإلهي للجميع، ولا يحيف على أحد لأن الله رب الجميع.

هذا الميزان الذي أنزله الله في الرسالة هو الضمان الوحيد للبشرية من العواصف والزلازل والاضطرابات والخلخلة التي تحقق بها في معترك الأهواء ومضطرب العواصف ومصطخب المنافسة وحب الذات.

فلا بد من ميزان ثابت يثوب إليه البشر، فيجدون عنده الحق والعدل والنصفة بلا محاباة (ليقوم الناس بالقسط) فبغير هذا الميزان الإلهي الثابت في منهج الله وشريعته لا يهتدي الناس إلى العدل، وإن اهتموا إليه لم يثبت في أيديهم ميزانه وهي تضطرب في مهب الجهالات والأهواء"^(٢).

وبالعدل قامت السموات والأرض قال تعالى ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾^(٣). وإقامة العدل إحدى وظائف رسول الله صلى الله عليه وسلم قال تعالى ﴿وَقُلْ ءَأَمْسَتْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا

(١) سورة الحديد آية ٢٥.

(٢) في ظلال القرآن- سيد قطب-م-٧ ج ٢٧ ص ٧٤٠ بتصرف يسير.

(٣) سورة الرحمن آية ٧-٨-٩.

وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَالْإِنْسَانُ أَعْمَى (١) وهكذا أمر القرآن الكريم بالعدل أمراً عاماً، دون تخصيص بنوع دون نوع، ولا بطائفة دون طائفة، لأن العدل نظام الله وشرعه والناس عبادة وخلقه، يستوون أبيضهم وأسودهم، شريفهم ووضيعهم، ذكرهم وأنثاهم، فلا يخص بعضهم بأمر أو نهي " (٢).

وإن من أعلى مقامات العدل التي أمر بها الإسلام أن يشهد الإنسان بالعدل ولو على نفسه أو والديه أو أقاربه، بلا محاباة ولا جور قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلُونَا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ (٣).

"وهذه الآية تتصل بما قبلها من الآيات السابقة خاصة بما فيها من الأمر العام بالقسط بعد الأمر بالقسط في اليتامي والنساء، فهناك خص اليتامي والنساء في سياق الاستفتاء فيهن، والآن حقهن أكد وظلمهن معهود، وههنا عم الأمر بالقسط لأن العدل حفاظ النظام وقوام أمر الاجتماع، وبما فيه من الشهادة لله بالحق ولو على "النفس"، فيشهد بالحق ولو عاد ضررها عليه، وإذا سئل عن الأمر فيقول الحق فيه ولو عادت مضرت عليه، أو "الوالدين والأقربين" فيشهد على والديه وقرابته ولا يراعيهم فيها بل يشهد بالحق وإن عاد ضررها عليهم، مع عدم محاباة أحد في ذلك لغناه، أو الشفقة عليه لفقره فالله يتولاهما، بل هو أولى بهما منك وأعلم بما فيه صلاحهما، ولا يحل للمسلم أن يتبع الهوى في حكمه، فيحملة الهوى والعصية وبغض الناس إليه على ترك العدل في أموره وشئونه، بل يلزم العدل على أي حال كان.

وكانت محاباة الأقربين معهودة في الجاهلية لأن أمرهم قائم على العصية، فالواحد منهم كان ينصر قومه وأهل عصبته لأنه يعتز بهم، كما يظلم النساء واليتامي

(١) سورة الشورى آية ١٥

(٢) انظر الإسلام عقيدة وشرعية - محمود شلتوت - ص ٤٤٦. وتنوير الأذهان من تفسير روح البيان - للشيخ

إسماعيل حقي البروسوي - ج ٣ ص ٤٨١.

(٣) سورة النساء آية ١٣٥.

لضعفهن وعدم الاعتزاز بهن، فحظر الله محاباة المرء نفسه أو أهله هنا وإعطائهم ما ليس لهم من الحق، يقابل حظر ظلم النساء واليتامى هناك - في الآيات السابقة لهذه الآية - وهضم ما لهن من الحق" (١).

وقول الله تعالى (كونوا قوامين بالقسط) "أبلغ ما يمكن أن يقال في تأكيد أمر العدل والعناية به، فالأمر بالعدل والقسط مطلقاً يكون بعبارات مختلفة بعضها أكد من بعض، تقول: اعدلوا أو اقسطوا، وتقول: كونوا عادلين أو مقسطين، وهذه أبلغ لأنها أمر بتحصيل الثقة لا مجرد الإتيان بالقسط الذي يصدق بمرّة، وتقول أقيموا القسط، وأبلغ من هذا وذاك: كونوا قوامين بالقسط" (٢).

فاستعمل القرآن أبلغ الألفاظ في الأمر بالعدل ليؤكد على عناية الإسلام به وعظيم اهتمامه بتحقيقه، لأثره البالغ في نشأة الأمة والحفاظ على كيانها قوية متماسكة.

مجالات العدل:

أوجب الإسلام العدل في مجالات كثيرة، فما من مجال من مجالات الحياة. تحتاج الأمة فيه إلى العدل إلا أمر القرآن به في تلك المجالات، ومن مجالات العدل ما يلي:

أولاً: العدل في الحكم والقضاء:

العدل واجب على القاضي حتى يأخذ كل ذي حق حقه وإلا اختل النظام وسفكت الدماء، وانتهكت الأعراض، وأهدرت الأموال، وضاع المظلوم دون أن يجد من ينصفه قال تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ (٣).

(١) انظر تفسير القرآن العظيم - ابن كثير - ج ١ ص ٥٦٥، وتفسير المنار - محمد رشيد رضا - ج ٥ ص ٣٧١.

(٢) تفسير المنار - محمد رشيد رضا - ج ٥ ص ٣٧١.

(٣) سورة النساء آية ٥٨.

"وهذا أمر للحكام بين الناس أن يحكموا بالعدل لا بالجور وهو فصل الحكومة على ما في كتاب الله سبحانه وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، لا الحكم بالرأي المجرد، فإن ذلك ليس من الحق في شيء إلا إذا لم يوجد دليل تلك الحكومة في كتاب الله ولا في سنة رسوله، فلا بأس باجتهد الرأي من الحاكم الذي يعلم بحكم الله سبحانه، وبما هو أقرب إلى الحق عند عدم وجود النص"^(١).

وقد خاطب الله داود عليه السلام موجهًا إياه للحكم بين الناس بالعدل فقال تعالى ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾^(٢) "وإذا كان هذا الخطاب موجهًا إلى داود عليه السلام فهو في الواقع موجه إلى ولاة الأمور في هذه الأمة، لأن الله لم يذكر لنا ذلك إلا ليبين لنا المثل الأعلى في الحكم، وأن داود وهو نبي معصوم يخاطبه الله بقوله (ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله) فإذا كان النبي وهو معصوم يخشى عليه من اتباع الهوى والوقوع في الضلال فأولى بأن يخشى على غيره من غير المعصومين... والعدل في الحكم يمكن للحاكم، ويبقى عليه، فإذا تحول عن العدل إلى الظلم والجور فقد أذن الله بذهابه وزوال ملكه، ويتحقق العدل في الحكم بإيصال كل حق إلى مستحقه، والحكم بمقتضى ما شرع الله من أحكام، وتجنب الهوى بالقسمة بين الناس بالسوية"^(٣). قال تعالى ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾^(٤).

ثانيًا: العدل مع الأعداء:

"العدل يجب أن يكون بين الناس جميعًا، من غير تفرقة بين قوى وضعيف، ولا بين أبيض وأسود ولا بين عربي وعجمي ولا بين مسلم وغير مسلم ولا بين حاكم ومحكوم فالعدالة لا تفرق بين الألوان ولا الأديان ولا تعترف بالفوارق والفواصل بين

(١) انظر فتح القدير-الشوكاني- ج ١ ص ٦٠٦، التبيان في تفسير القرآن-للطوسي- ج ٢ ص ٢٣٤.

(٢) سورة ص آية ٢٦.

(٣) عناصر القوة في الإسلام-سيد سابق- ص ٢١.

(٤) سورة المائدة آية ٤٩.

الناس" (١).

قال عز وجل ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ (٢).

"فأمر الله المؤمنين بالشهادة بالقسط وهي أن تكون بالعدل بدون محاباة مشهود له ولا مشهود عليه، لا لقربته وولائه ولا لماله وجاهه ولا لفقره ومسكنته، فالشهادة هنا عبارة عن إظهار الحق للحاكم ليحكم به أو إظهار الحاكم للحق ليحكم به، أو الإقرار بالحق لصاحبه، ثم نهامهم عن ترك العدل لبغض أحد وعداوته فقال (ولا يجرمَنَّكم شَنَاٰن قَوْم على ألا تعدلوا) أي لا يحملنكم بغضكم للمشركين على أن تتركوا العدل فتعدوا عليهم بأن تنتصروا منهم وتشفوا بما في قلوبكم من الضغائن بارتكاب ما لا يحل لكم من مثلة أو قذف أو قتل أولاد أو نساء أو نقض عهد أو ما أشبه ذلك، فلا عذر لكم في ترك العدل وعدم إثارة على الجور والمحاباة بل عليكم جعله فوق الأهواء وحفظ الأنفس، وفوق المحبة والعداوة مهما كان سببها، ولم يكتف بالتحذير من عدم العدل مهما كان سببه والنية فيه، بل أكد أمره بقوله (اعدلوا هو أقرب للتقوى) ففرض الله العدل فرضاً لا هوادة فيه فهو أقرب لتقوى الله أي لاتقاء عقابه وسخطه باتقاء معصيته وهي الجور الذي هو من أكبر المعاصي لما يتولد منه من المفاسد، وفي هذا تنبيه عظيم على أن وجوب العدل مع الكفار الذين هم أعداء الله إذا كان بهذه الصفة من القوة فما الظن بوجوبه مع المؤمنين الذين هم أولياؤه وأحباؤه" (٣).

"وهذا هو العدل المطلق الذي لا يميل ميزانه الحب والبغض، ولا تغير قواعده المودة والشأن، العدل الذي لا يتأثر بالقرابة بين الأفراد، ولا التباغض بين الأقوام، فيتمتع به أفراد الأمة الإسلامية جميعاً، لا يفرق بينهم حسب ولا نسب، ولا مال ولا جاه، كما تتمتع به الأقوام الأخرى ولو كان بينها وبين المسلمين شَنَاٰن، وتلك قيمة

(١) المرجع السابق ص ١٦١.

(٢) سورة المائدة آية ٨.

(٣) انظر الكشاف-الزمخشري- ج ١ ص ٥٩٨، تفسير المنار-محمد رشيد رضا- ج ٦ ص ٢٢٦.

العدل لا يبلغها أي قانون دولي إلى هذه اللحظة ولا أي قانون داخلي بل لا يقارنها كذلك!

والذين يمارون في هذا عليهم أن يراجعوا عدالة الأقوياء والضعفاء بين الأمم، وعدالة المتحاربين بعضهم بالقياس إلى بعض، ثم عليهم أن يراجعوا عدالة البيض للحممر والسود في الولايات المتحدة، وعدالة البيض للملونين في جنوب افريقية، وعدالة الشيوعيين والوثنيين والصليبيين للمسلمين في روسيا والصين ويوغسلافيا والهند والحبشة، وفي الإشارة ما يعني، فهي أحوال معاصرة يعلمها كل إنسان، والمهم في عدالة الإسلام أنها لم تكن مجرد نظريات، بل أخذت طريقها إلى واقع الحياة فحفظ الواقع التاريخي منها أمثلة متواترة^(١).

ومن الأمثلة على ذلك " أن أحد أعيان الفرس وكان ذمياً، كانت له ضيعة تلاصق ملكاً لأمير، كان والياً لعمر بن الخطاب رضي الله عنه، فرأى هذا الأمير أن يغتصب من هذا الدهقان^(٢) ضيعة، فشكا إليه ذلك، فزجره وأهانته، فأشارت عليه زوجته أن يستعدي عليه عمر، ففعل، وارتحل إلى المدينة، وسأل عن بيت عمر وأرشد إليه، فإذا عمر جالس على عباة ممزقة، فشكا إليه الدهقان ما لقيه من عامله، فطلب عمر صحيفة، وكتب فيها بعض الشيء، وأراد خيطاً ليلفها به فلم يقدر عليه، فمزق قطعة من عباة ولف بها الصحيفة وناولها الرجل فأخذها، وارتحل إلى بلده، وأبدي أسفه إلى زوجته، لأنه ذهب إلى رجل لا يقدر على خيط يشد به صحيفته! فكيف يستطيع أن يلزم الأمير أمره؟ فقالت زوجته: وما عليك! احمل الصحيفة إليه، فحملها فلما فضها الأمير وقرأها تصبب عرقاً، وقال للدهقان: ماذا فعلت؟ خذ الضيعة.. وهنا يحدث الدهقان فيقول: قرأت الصحيفة فإذا فيها "أنصف فلاناً الدهقان من نفسك وإلا أقبل والسلام"^(٣).

(١) العدالة الاجتماعية في الإسلام - سيد قطب - ص ٨١.

(٢) الدهقان: بكسر الدال المهملة ويجوز ضمها بعدها هاء ساكنة ثم قاف، هو كبير القرية بالفارسية. عون

المعبود شرح سنن أبي داود - ٥م ج ١٠ ص ١٣٦.

(٣) عناصر القوة في الإسلام - سيد سابق - ص ١٥٤.

وبهذا يتأكد لكل باحث عن الحق أن العدل في الإسلام ليس مجرد كلمات تقال بالألسنة أو تكتب على الورق دون أن تتحقق على أرض الواقع، وإنما هو ممارسة واقعية مع المسلمين وغير المسلمين من اليهود والنصارى وغيرهم.

ثالثاً: العدل بين الزوجات:

أباح القرآن تعدد الزوجات وقصره على أربع وحض على العدل بينهن في الطعام والمسكن والكسوة والمبيت وسائر ما هو مادي من غير تفرقة بين غنية وفقيرة وعظيمة وحقيرة، فمن خاف أن لا يعدل بينهن فليقتصر على واحدة خشية الجور والظلم قال تعالى ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا﴾^(١). أما ما ذكره الله سبحانه من عدم الاستطاعة في العدل بين النساء فإنما يراد به العدل القلبي أي في المحبة والميل قال تعالى ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾^(٢) قال ابن كثير أي لن تستطيعوا أيها الناس أن تساووا بين النساء من جميع الوجوه فإنه وإن وقع القسم الصوري ليلة وليلة فلا بد من التفاوت في المحبة والشهوة والجماع كما قال ابن عباس^(٣) وغيره.

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم "يقسم بين نسائه فيعدل ثم يقول "اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تلمني فيما تملك ولا أملك"^(٤).

وحذر الرسول صلى الله عليه وسلم من عدم العدل بين الزوجات فقال "من كانت له امرأتان فمال إلى إحدهما جاء يوم القيامة وأحد شقيه ساقط"^(٥).

(١) سورة النساء آية ٣.

(٢) سورة النساء آية ١٢٩.

(٣) تفسير القرآن العظيم - ابن كثير - ج ١ ص ٥٦٤.

(٤) سنن أبي داود - كتاب النكاح - باب في القسم بين النساء - ج ٢ ص ٢٤٢ رقم ٢١٣٤، سنن النسائي - كتاب عشرة النساء - باب ميل الرجل إلى بعض نسائه دون بعض - م ٤ ج ٧ ص ٦٣، سنن الترمذي - كتاب أبواب النكاح - باب ما جاء في التسوية بين الزوجات - ج ٢ ص ٣٠٤ رقم ١١٤٩، مسند الإمام أحمد ج ٣ ص ١٤٤. حديث صحيح. جامع الأصول - تخريج عبد القادر الأرناؤوط - ج ١١ ص ١٤.

(٥) سنن أبي داود - كتاب النكاح - باب في القسم بين النساء - ج ٢ ص ٢٤٢ رقم ٢١٣٣، سنن النسائي -

العدل والارتقاء:

إن أهم دعائم السعادة التي يسعى إليها البشر أن يطمئن الناس على حقوقهم وأن يستقر العدل فيما بينهم وإنا لا نكاد نعرف شيئاً أبعث للشقاء والفتن وأنفى للهدوء والاطمئنان بين الأفراد والجماعات، من سلب الحقوق واغتياال الأقوياء حقوق الضعفاء وتسلط الجبارين على الآمنين المسلمين، وليس من ريب في أن هذه الظواهر - التي ينحرف بها أهلها عن سنن الله ونظامه في كونه - أشد ما يقطع الصلات ويغرس الأحقاد ويثير أعاصير الكيد والانتقام، ويهدد المجتمع بالأخطار التي تحمل الناس ما لا طاقة لهم باحتماله من آثار الخصومات والضغائن والأحقاد^(١).

ولهذا كان لا بد من وجود ميزان ترجع إليه البشرية لتقييم به الحق والعدل فيما بينها، "وقد جاءت الرسائل الإلهية لتقرر في الأرض وفي حياة الناس ميزاناً ثابتاً ترجع إليه البشرية، لتقوم الأعمال والأحداث والأشياء والرجال، وتقيم عليه حياتها في مأمن من اضطراب الأهواء واختلاف الأمزجة، وتصادم المصالح والمنافع، ميزاناً لا يجابي أحداً لأنه يزن بالحق الإلهي للجميع، ولا يحيف على أحد لأن الله رب الجميع. هذا الميزان الذي أنزله الله في الرسالة هو الضمان الوحيد للبشرية من العواصف والزلازل والاضطرابات والخلخلة التي تحيق بها في معترك الأهواء ومضطرب العواطف، ومصطخب المنافسة وحب الذات. فلا بد من ميزان ثابت يثوب إليه البشر، فيجدون عنده الحق والعدل والنصفة بلا محاباة "ليقوم الناس بالقسط" فبغير هذا الميزان الإلهي الثابت في منهج الله وشريعته، لا يهتدي الناس إلى العدل، وإن اهتدوا إليه لم يثبت في أيديهم ميزانه، وهي تضطرب في مهب الجهالات والأهواء^(٢).

= كتاب عشرة النساء - باب ميل الرجل إلى بعض نسائه دون بعض - م ٤ ج ٧ ص ٦٣، سنن ابن ماجه - كتاب النكاح - باب القسمة بين النساء - ج ١ ص ٦٣٣ رقم ١٩٦٩. حديث صحيح. صحيح الجامع الصغير وزيادته - الألباني - ج ٢ ص ١١١٠.

(١) الإسلام عقيدة وشرعة - محمود شلتوت - ص ٤٤٤.

(٢) في ظلال القرآن - سيد قطب - م ٧ ج ٢٧ ص ٧٣٩.

وعلى ذلك فالعدل أساس ارتقاء الأمة لما يبعثه فيها من الطمأنينة والراحة، مما يساعد على زيادة الإنتاج والعطاء، وكثرة الخيرات والنعم، فالأمة التي تعيش مطمئنة آمنة أمة معطاءة منتجة، أما الأمة التي تعيش في جو من الخوف والرعب وعدم الطمأنينة فهي أمة مقيدة بقيود الخوف والظلم مما يجعلها أمة متأخرة كما هو حال كثير من البلاد التي تحكم بالحديد والنار في العصر الحاضر.

الفصل الثاني

نماذج للأمم أخذت بعوامل الارتقاء فأعزها الله

ويشتمل على أربعة مباحث وهي:

المبحث الأول: قوم يونس عليه السلام.

المبحث الثاني: بنو إسرائيل بقيادة يوشع بن نون.

المبحث الثالث: طالوت ومن بعده داود وسليمان عليهما
السلام.

المبحث الرابع: الأمة الإسلامية.

الفصل الثاني

نماذج للأمم أخذت بعوامل الارتقاء فأعزها الله

إن الأمم ترتقي بإيمانها بالله وتقواها له، واتباعها للحق وتطبيقها لشرع الله، فإذا اتبعت الأمم هذا الصراط المستقيم أعزها الله وأكرمها وجعل لها السيادة والقيادة. وهذه أمثلة على بعض الأمم التي ارتقت بطاعتها للحق فأعزها الله وأمدّها بجنده ونصره وسخر لها نواميس الكون لتكون جنوداً من جنودها.

البحث الأول: قوم يونس عليه السلام:

بعث الله يونس بن متى عليه السلام إلى أهل قرية نينوى وهي قرية من أرض الموصل فدعاهم إلى الله فأبوا عليه وتمادوا على كفرهم فخرج من بين أظهرهم مغاضباً ووعدهم بالعذاب بعد ثلاث فلما تحققوا منه ذلك، وأتتهم نذر العذاب وطلائع الهلاك، وعلموا أن النبي لا يكذب، تابوا إلى الله وخرجوا إلى الصحراء بأطفالهم وأنعامهم ومواشيهم وفرقوا بين الأمهات وأولادها ثم تضرعوا إلى الله عز وجل وجأروا إليه ورغت الإبل^(١) وفصلاها، وخارت^(٢) البقر وأولادها، وثغت^(٣) الغنم وسخالها، فرغ الله عنهم العذاب^(٤) قال تعالى ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ ءَازَابَ الّٰخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾^(٥).

(١) رغت: الرغاء صوت ذوات الحُفّ، والرُغاء: صوت الإبل، رغا البعير والناقة ترغو رغاء صوتت فَضَّحَتْ.

لسان العرب ج ١٤ ص ٣٢٩

(٢) خارت: الحُوَارُ صوت الثور وما اشتد من صوت البقرة والعجل. المصدر السابق ج ٤ ص ٢٦١.

(٣) ثغت: الثغاء صوت الشاء والمعز وما شاكلها كالضياء. المصدر السابق ج ١٤ ص ١١٣.

(٤) قصص الأنبياء - لابن كثير - ص ٢٥٧ بتصرف.

(٥) سورة يونس آية ٩٨.

أي فهلا كان أهل قرية من قرى أقوام أولئك الرسل آمنت بدعوتهم وإقامة الحجّة عليهم، فنفعها إيمانها قبل وقوع العذاب الذي أنذروا به، إلا قوم يونس لما آمنوا قبل وقوع العذاب بهم بالفعل (كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا) أي صرفنا عنهم عذاب الذل والهوان في الدنيا (ومتعناهم إلى حين) أي ومتعناهم بمنافعها إلى زمن معلوم هو عمرهم الطبيعي الذي يعيشه كل منهم بحسب سنته تعالى في استعداد بُنيته ومعيشتة" (١).

وكان يونس عليه السلام قد توجه إلى البحر فركب مع قوم في سفينة مشحونة، وفي وسط اللجة ناوأها الرياح والأمواج، وكان هذا إيذاناً عند القوم بأن من بين الركاب راكباً مغضوباً عليه لأنه ارتكب خطيئة، وأنه لا بد أن يلقي في الماء لتنجو السفينة من الغرق، فاقترعوا على رجل يلقونه من بينهم يتخففون منه فوقعت القرعة على يونس فأبوا أن يلقيه ثم أعادوها فوقعت عليه أيضاً فأبوا ثم أعادوها فوقعت عليه أيضاً قال تعالى (فساهم فكان من المدحضين) (٢) أي المغلوبين بالقرعة فقام يونس عليه السلام ثم ألقى نفسه في البحر وقد أرسل الله سبحانه من البحر حوتاً يشق البحار حتى جاء فالتقم يونس عليه السلام حين ألقى نفسه من السفينة فأوحى الله إلى ذلك الحوت أن لا تأكل له لحماً ولا تهشم له عظماً، فإن يونس ليس لك رزقاً وإنما بطنك تكون له سجناً، وعندما أحس بالضيق في بطن الحوت سبح الله واستغفره وذكر أنه كان من الظالمين قال تعالى ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (٣).

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال "لما أراد الله حبس يونس في بطن الحوت أوحى الله إلى الحوت أن خذه ولا تخدش له لحماً ولا تكسر له عظماً فلما انتهى به إلى أسفل البحر سمع يونس حساً فقال في نفسه ما هذا؟ فأوحى الله إليه وهو في بطن الحوت أن هذا تسبيح دواب البحر قال وسبح وهو في

(١) تفسير المنار - محمد رشيد رضا - ج ١١ ص ١٨٤.

(٢) سورة الصافات آية ١٤١.

(٣) سورة الأنبياء آية ٨٧.

بطن الحوت فسمعت الملائكة تسيحه فقالوا يا ربنا إنا نسمع صوتًا ضعيفًا بأرض غريبة قال ذلك عبدي يونس عصاني فحبسته في بطن الحوت قالوا العبد الصالح الذي كان يصعد منه في كل يوم وليلة عمل صالح؟ قال نعم قال فشفعوا له عند ذلك فلفظه الحوت قال تعالى ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾^(١) وقد خرج من بطن الحوت سقيمًا عاريًا على الشاطئ (وأبنتنا عليه شجرة من يقطين) وهو القرع يظله بورقه العريض ويمنع عنه الذباب الذي يقال أنه لا يقرب هذه الشجرة وكان هذا من تدبير الله ولطفه، فلما استكمل عافيته رده الله إلى قومه الذين تركهم مغاضبًا، وكانوا قد خافوا ما أنذرهم به من العذاب بعد خروجه فآمنوا واستغفروا وطلبوا العفو من الله فسمع لهم ولم يترل بهم عذاب المكذبين ﴿فَأْمِنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾^(٢) أي متعناهم بالحياة الدنيا إلى حين قدره الله لهم بانقضاء آجالهم وذلك بالعيش الهنيء والمقام الأمين^(٣).

مسن خلال عرضنا لهذه القصة وما جرى فيها من أحداث مثيرة نخرج بنتيجة عظيمة وعبرة جليلة يجب على الشعوب والأمم أن تستفيد منها وأن تعيها ألا وهي أن معية الله ونصرته مع من آمن به وأطاعه ومع من استغفره وأناب إليه. كما أن سخطه وعذابه وعقابه نازل بمن كفر به وخالف أوامره.

فالإيمان والتوبة كان لهما الأثر العظيم في رفع العذاب عن قوم يونس عليه السلام وفي تمتيع الله لهم في الخيرات والنعم. في حين أن الأمم التي كفرت بالله ولم تؤمن به، وعصت ولم تتب أهلكتها الله وجعلها عبرة لمن يعتبر.

يقول صاحب الظلال بعد تفسيره للآيات التي تحدثت عن الأقوام الغابرة والتي ختمها الله بقصة يونس "وهذه اللمحة بسياقها هنا تبين عاقبة الذين آمنوا بجانب ما

(١) سورة الصافات ١٤٣-١٤٤

(٢) سورة الصافات آية ١٤٨

(٣) انظر تفسير القرآن العظيم - ابن كثير - ج ٣ ص ١٨٧، تفسير محاسن التأويل - القاسمي - ج ١٣ ص ١٣١، تفسير المنار - محمد رشيد رضا - ج ١١ ص ٤٨٢، التفسير الكاشف - محمد جواد مغنية - ج ٤ ص ١٩٤، تفسير إرشاد العقل السليم - أبو السعود - ج ٤ ص ٤٢١، في ظلال القرآن - سيد قطب - م ٧ ح ٢٣ ص ٦٩.

تبيينه القصص السابقة من عاقبة للذين لا يؤمنون فيختار قوم محمد إحدى العاقبتين كما يشاءون"^(١).

وقد اختار أصحاب محمد طريق الإيمان والتوحيد فكانوا من الناجين الفائزين كما سنبينه في هذا الفصل^(٢).

المبحث الثاني: بنو إسرائيل بقيادة يوشع بن نون^(٣):

إن من سنة الله أنه لا يهلك قومًا بذنوبهم حتى يبين لهم حجته عليهم، ليعلموا أنه لم يظلمهم وإنما يظلمون أنفسهم، وعلى هذه السنة العادلة أمر الله تعالى بني إسرائيل بدخول الأرض المقدسة، بعد أن أراهم عجائب تأييده لرسوله إليهم، فأبوا واستكبروا فأخذهم الله تعالى بذنوبهم وأنشأ من بعدهم قومًا آخرين جعلهم هم الأئمة الوارثين، جعلهم كذلك بمهمهم وأعمالهم الموافقة لسنته وشريعته المترلة عليهم فهذا بيان حكمة عصيائهم لموسى بعدما جاءهم بالبينات وحكمة حرمان الله تعالى لذلك الجيل منهم من الأرض المقدسة، وقد فتح الله على من جاء بعد هذا الجيل ونصرهم وجعل لهم الرياسة والكرامة لاتباعهم للحق واستجابتهم لأمر الله^(٤).

قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى ﴿ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾^(٥) قال فتأهوا أربعين سنة فهلك موسى وهارون في التيه وكل من جاوز الأربعين سنة، فلما مضت الأربعون سنة ناهضهم يوشع بن نون وهو الذي قام بالأمر بعد موسى وهو الذي افتتحها وهو الذي قيل له اليوم يوم الجمعة فهموا بافتتاحها ودنت الشمس للغروب فخشي إن

(١) في ظلال القرآن-سيد قطب- ج٢٣ ص ٢٩٩٩ .

(٢) انظر ص ١٥١

(٣) يوشع بن نون بن أفرايم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل عليهم السلام، وهو متفق على نسبه عند أهل الكتاب، وهو فتى موسى عليه السلام المذكور في قوله تعالى (فلما جاوزا قال لفتاه) [البداية والنهاية ج ١ ص ٢٩٧ دار الكتب العلمية]

(٤) تفسير المنار - محمد رشيد رضا - ج ٦ ص ٣٣٨ .

(٥) سورة المائدة آية ٢٦ .

دخلت ليلة السبت أن يسبتوا فدعا الله فرد الشمس عليه وزاد في النهار ساعة فهزم الجبارين ودخل مدينتهم. وفي رواية أنه قال للشمس "أيتها الشمس إنك مأمورة وأنا مأمور بجرمتي عليك إلا وقفت ساعة من نهار ، فحبسها الله تعالى حتى افتتح المدينة، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إن نبياً من الأنبياء قاتل أهل مدينة حتى إذا كاد أن يفتحها خشي أن تغرب الشمس فقال أيتها الشمس إنك مأمورة وأنا مأمور بجرمتي عليك إلا وقفت ساعة من النهار، وقال فحبسها الله تعالى حتى افتتح المدينة" قال كعب الأحبار صدق الله ورسوله هكذا والله في كتاب الله يعني التوراة، ثم قال يا أبا هريرة أحدثكم النبي صلى الله عليه وسلم أي نبي كان قال هو يوشع بن نون، قال أفحدثكم أي قرية قال هي أريحا^(١) .

فلما دخل يوشع القرية وجد فيها من الأهوال ما لم ير مثله قط فقربوه إلى النار فلم تأت فقال فيكم الغلول فدعا رؤوس الأسباط وهم اثنا عشر رجلاً فبايعهم والتصقت يد رجل منهم بيده فقال: الغلول عندك فأخرجه، فأخرج رأس بقرة من ذهب لها عينان من ياقوت وأسنان من لؤلؤ فوضعه مع القربان فأنت النار فأكلته^(٢) .

قال صاحب المنتظم في تاريخ الأمم والملوك: ذكر أن الله تعالى جعل يوشع بن نون نبياً زمن موسى عليه السلام فلما توفي موسى عليه السلام ابتعثه الله تعالى، فأقام لبني إسرائيل أحكام التوراة، وهو الذي قسم الشام بين بني إسرائيل، وهو الذي أخرج الله له نهر الأردن وأمره الله تعالى بالمسير إلى أريحا لحرب من فيها من الجبارين، وهي التي امتنع بنو إسرائيل من دخولها فعوقبوا، ومات موسى وهارون في التيه، ومات الكل سوى يوشع بن نون وكالب بن يوفنا.

إن الدرس العظيم القاسي الذي علمه الله لبني إسرائيل بأن كتب عليهم التيه في سيناء أربعين عاماً حتى مات الجيل الأول منهم، ونشأ جيل جديد غيرهم، هذا الدرس الذي لقنهم الله إياه بسبب مخالفتهم لأمر الله وعدم طاعتهم لنيبهم موسى عليه

(١) تفسير الدر المنثور بالتفسير بالمأثور-السيوطي-ج ١ ص ٢٩٩.

(٢) انظر الكامل في التاريخ-لابن الأثير-ج ١ ص ١١٤، تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٤٠، تفسير الدر المنثور في

التفسير بالمأثور-السيوطي-ج ١ ص ٢٩٨، تفسير المنار-محمد رشيد رضا-ج ٦ ص ٢٧٩.

السلام بدخول الأرض المقدسة، وقولهم له (اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون) فيه عبرة وعظة للأمة الإسلامية بأن تحذر مما وقع فيه من سبقهم من المخالفة والعصيان، كما أن في نصرة الله للنجيل الجديد من بني إسرائيل الذين تربوا على الإيمان والحق، وفتح الله لهم البلاد، وتسخير كل شيء لهم حتى غير لهم بعض نواميس الكون، فأخرَّ الشمس عن الغروب استحابة لدعوة يوشع بن نون عليه السلام.

إن في هذا درسًا عظيمًا آخر في نصرة الله للمؤمنين وإن كانوا قلة على أعدائهم وإن كانوا كثرة، وأعظم أجسادًا وهيبة وعدة.

"وقد وعى المسلمون في الماضي هذا الدرس فحين واجهوا الشدة وهم قلة أمام نفير قريش في غزوة بدر قالوا لنبيهم صلى الله عليه وسلم: إذن لا نقول لك يا رسول الله ما قاله بنو إسرائيل لنبيهم " اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون" ولكن نقول " اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون"^(١).

نعم وعى المسلمون الأوائل هذا الدرس فعملوا بمقتضاه فنصرهم الله وأعزهم فكانوا سادة الأمم وقادة الشعوب وحقق الله على أيديهم ما لم يتحقق على أيدي أي شعب من الشعوب واليوم ما أحوج المسلمين لتعلم هذا الدرس، وهم يعيشون حالة من الذل والمهانة وتكالب الأعداء عليهم لم يتعرضوا لها من قبل، وبالتالي فهم في أشد الحاجة إلى طاعة الله والافتداء برسوله صلى الله عليه وسلم، واتباعه فيما جاء به من الهدى والحق ليكونوا بذلك أهلاً لنصرة الله وتأييده، ولقلا ييقوا تائهيين مشتتين في دياجير الظلام التي تحيط بهم من كل جانب.

المبحث الثالث: طالوت ومن بعده داود وسليمان عليهما السلام

لما خالف بنو إسرائيل أمر الله وأحدثوا الأحداث سلط الله عليهم أعداءهم فقتلوا منهم مقتلة عظيمة، وأسروا خلقًا كثيرًا، وأخذوا منهم بلادًا كثيرة، عندئذ طلب بنو إسرائيل من نبيهم أن يقيم لهم ملكًا يقاتلون معه أعداءهم فقال لهم النبي^(٢)

(١) في ظلال القرآن - سيد قطب - م ٢م ج ٦ ص ٦٩٨ .

(٢) النبي الذي كان مبعوثًا لبني إسرائيل في ذلك الوقت هو شمویل بن بال بن علقمة، وقال السدي هو =

هل عسيتم إن أقام الله لكم ملكاً ألا تقاتلوا وتفوا بما التزمتم من القتال معه ﴿قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أَخْرَجَنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا﴾^(١) بأن أخذت منا السبلاد وسبيت الأولاد. فدعا النبي الله أن يبعث لهم ملكاً، فأتى بعضاً وقرن فيه دهن القدس، وقيل إن صاحبكم الذي يكون ملكاً يكون طوله طول هذه العصا، ففاسوا أنفسهم بها فلم يكونوا مثلها، وكان طالوت رجلاً سقاء يستقي على حمار له، فضل الحمار فانطلق يطلبه في الطريق، فلما رأوه دعوه ففاسوه بها فكان مثلها، وقال له أنت ملك بني إسرائيل الذي أمرني الله تعالى أن أملكك عليهم، وقال لهم نبينهم ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾^(٢) قال القوم: نحن من سبط المملكة وليس هو من سبط المملكة، وقد كانت المملكة من سبط يهوذا بن يعقوب، وطالوت ليس من هذا السبط، وإنما كان من سبط بنيامين بن يعقوب، ولم يؤت سعة من المال فتبعه لذلك فقال النبي ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾^(٣) فقالوا: فإن كنت صادقاً فائتنا بآية أن هذا ملك قال ﴿إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آءَالُ مُوسَىٰ وَعَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ﴾^(٤) والسكينة طست من ذهب يغسل فيه قلوب الأنبياء، أعطاه الله موسى، وفيها وضع الألواح، وكانت الألواح من در وياقوت وزبرجد، وأما البقية فإنها عصا موسى ورضاضة^(٥) الألواح، فأصبح التابوت وما فيه في دار طالوت فسلموا له الملك، قال ابن عباس رضي الله عنهما "جاءت الملائكة بالتابوت تحمله بين السماء والأرض، وهم ينظرون إليه حتى وضعته عند طالوت فخرجوا مع طالوت لقتال جالوت، وكان

=شمعون. الجامع لأحكام القرآن - القرطبي - ج ٣ ص ٢٤٣

(١) سورة البقرة آية ٢٤٦.

(٢) سورة البقرة آية ٢٤٧.

(٣) سورة البقرة آية ٢٤٧.

(٤) سورة البقرة آية ٢٤٨.

(٥) رضاضة: الرضُّ الدقُّ والجَرشُ، ورضرضه كسره، والحجارة ترضرض تنكسر. القاموس المحيط - الفيروز

أبادي ج ٢ ص ٣٤٣-٣٤٤. ورضاضة الألواح: ما بقي مكسراً منها.

جالوت من جبابرة الكنعانيين، وكان ملكه بجهات فلسطين وكان من الشدة وطول
القامة بمكان عظيم، فلما خرجوا قال لهم طالوت ﴿إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ
مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنْ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرَبُوا مِنْهُ إِلَّا
قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾^(١) وهو نهر فلسطين - نهر الأردن - فشرَبوا منه هيبة من جالوت فعبر معه
منهم أربعة آلاف ورجع ستة وسبعون ألفاً، فمن شرب منه عطش ومن لم يشرب منه
إلا غرقة روى، فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه فنظروا إلى جالوت رجعوا أيضاً،
(وقالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده) فرجع عنه أيضاً ثلاثة آلاف وستمائة
وبضعة وثمانون، وخلص في ثلثمائة وتسعة عشر عدة أهل بدر^(٢).

"وكان من بين الذين ثبتوا مع طالوت سبعة إخوة من سبط يهوذا بن يعقوب
ابن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام وهم إخوة داود عليه السلام، فلما حضرت
الحرب قال داود في نفسه لأذهبن إلى رؤية الحرب وكان يرعى الغنم، فلما خرج مر
على حجر فقال له الحجر يا داود خذي في تقتل جالوت، ثم ناداه حجر آخر ثم آخر
ثم آخر فأخذها وجعلها في مخلاته وسار، فخرج جالوت من صفوف عسكره يطلب
المبارزة، فلم يخرج إليه أحد، ثم قال جالوت يا بني إسرائيل لو كنتم على حق لخرج
إلي بعضكم فقال داود لإخوته، أما منكم أحد يخرج إلى هذا الأقف^(٣) فقالوا له
اسكت فذهب داود إلى ناحية من الصف ليس فيها أحد من إخوته، ونادى طالوت
في عسكره "من قتل جالوت فله شطر ملكي وأزوجه ابنتي، فجاء داود فقال أنا أبرز
إليه وأقتله، فازدراه طالوت حين رآه لصغر سنه وقصره فرده، وكان داود أزرق
العينين قصيراً، ثم نادى ثانية وثالثة فخرج داود فأعطاه طالوت درعه وسيفه فلما

(١) سورة البقرة آية ٢٤٩.

(٢) انظر تاريخ الرسل والملوك - للطبري - ج ١ ص ٤٦٨-٤٦٩. المختصر في أخبار البشر - لأبي الفداء عماد

الدين - ج ١ ص ٤٤. تفسير لباب التأويل في معاني التنزيل - الخازن - ج ١ ص ٢٥٤-٢٥٥.

(٣) الأقف هو الذي لم يختن يقال رجل أقف بين القلف، وهو الذي لم يختن وقلف الخائن غرلة الصبي، وهي
القلفة إذا قطعها. الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري ج ٤ ص ١٤١٨، معجم مقاييس اللغة - لابن

فارس - ج ٥ ص ٢٣.

خرج في الدرع جرها لأن طالوت كان أطول الناس فرجع داود إلى طالوت وقال إني لم أعود القتال في الدرع فرد الدرع إليه، فقال له طالوت: فهل جربت نفسك؟ قال نعم وقع ذئب في غنمي فضربته بالسيف فقطعته نصفين فقال له طالوت: إن الذئب ضعيف فهل جربت نفسك في غير هذا؟ قال نعم دخل أسد غنمي فضربته ثم أخذت بلحييه فشققتهما فقال له هذا أشد، ثم قال له ما اسمك قال داود بن إيشا فعرفه فرأى أنه أجلد اخوته فأخذ قذافته -مقلعه- وخرج فلما رآه جالوت وكان على رأسه بيضة فيها ثلاثمائة رطل قال خرجت إلي لتقتلني بالقذافة كما تقتل الكلاب؟ فقال له داود وهل أنت إلا مثل الكلاب، قال جالوت لأطعمن لحمك اليوم للطير والسباع، ثم تدانوا وقصد جالوت أن يأخذ داود بيده استخفافاً به، فأدخل داود يده إلى الحجارة، فزوى أهما إلتأمت فصارت حجراً واحداً، فأخذه فوضعه في المقلاع وسمى الله وأداره ورماه فأصاب به رأس جالوت فقتله وحز رأسه وجعله في مخلاته، وقيل إنه رماه بالحجر فوقع بين عينيه وخرج من قفاه فأصاب جماعة من عسكره فقتلهم، واختلط الناس وحمل أصحاب طالوت فانهزم القوم عن آخرهم وكانوا فيما حكاه عكرمة تسعين ألفاً فذلك قوله تعالى (فهزموهم بإذن الله وقتل داود وجالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء) قال السدي آتاه الله ملك طالوت ونبوة شعون -وهو نبي بني إسرائيل زمن طالوت- والذي علمه هو صنعة الدروع ومنطق الطير وغير ذلك من أنواع ما علمه الله^(١).

"واستمر طالوت ملكاً على بني إسرائيل حتى قتل في غزوة قاتل فيها الفلسطينيين وكان ذلك في سنة خمس وتسعين وأربعمائة لوفاة موسى عليه السلام. ولما قتل طالوت افتقرت الأسباط، فملك على أحد عشر سبطاً (إيش بوشت) ابن طالوت، واستمر إيش بوشت ملكاً على الأسباط المذكورين في ثلاث سنين، وانفرد عن إيش بوشت سبط يهوذا فقط وملك عليهم داود عليه السلام، وكان مقام

(١) انظر تفسير النكت والعيون -للماوردي- ج ١ ص ٣٢١ ط ١. الجامع لأحكام القرآن -للقرطبي- ج ٣ ص ١٦٩ ط ١. تفسير بحر العلوم -السمرقندي- ج ١ ص ٢٢٠ ط ١.

داود بحبرون - الخليل - فلما استوثق له الملك، ودخلت جميع الأسباط تحت طاعته انتقل إلى القدس، وأنزل الله عليه الزبور وعلمه صنعة الحديد وألانه له، وأمر الجبال والطير أن يسبحن معه إذا سبح، ولم يعط الله - فيما يذكرون - أحداً من خلقه مثل صوته، فكان إذا قرأ الزبور ترنو له الوحوش حتى يؤخذ بأعناقها، وإثما لمصيخة^(١) تسمع لصوته، قال الحسن البصري وقتادة والأعمش "كان الله قد ألان له الحديد حتى كان يفتله بيده لا يحتاج إلى نار ولا مطرقة، وقد وهبه الله من الصوت العظيم ما لم يعطه أحداً بحيث أنه كان إذا ترنم بقراءة كتابه يقف الطير في الهواء يرجع بترجيعه ويسبح بتسبيحه وكذلك الجبال تجيبه وتسبح معه كلما سبح بكرة وعشياً صلى الله عليه وسلم"^(٢).

وكان داود عليه السلام شديد الاجتهاد دائب العبادة، كثير البكاء، وكان كما وصفه الله عز وجل لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم ﴿اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخِطَابِ﴾^(٣). قال قتادة "أعطي قوة في العبادة وفقهاً في الإسلام، وقد ذكر أن داود عليه السلام كان يقوم الليل ويصوم نصف الدهر وثبت في الصحيحين "أحب الصلاة إلى الله صلاة داود، وأحب الصيام إلى الله صيام داود، كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه، وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً ولا يفطر إذا لاقى"^(٤).

(١) أصاخ: الصخ الضرب بالحديد على الحديد، والصاخة صيحة تصخ الأذن، أي تصم لشدة ما ومنه سميت

القيامة الصاخة وصخ لحديثه أصاخ له. تاج العروس من جواهر القاموس - الزبيدي - ج ٢ ص ٢٦٦.

(٢) انظر تاريخ الطبري ج ١ ص ٤٨٧. البداية والنهاية ج ١ ص ١٠-١١.

(٣) سورة ص آية ١٧-٢٠.

(٤) صحيح البخاري - كتاب التهجد من الليل - باب من نام عند السحر م ١ ج ٢ ص ٢٨٣. صحيح مسلم -

كتاب الصيام - باب النهي من صيام الدهر لمن تضرر به أو فوت به عقال أو لم يفطر العيدين والتشريق وبيان

فضل صوم يوم وإفطار يوم ج ٢ ص ٨١٢ رقم ١١٥٩.

انتقال الملك إلى سليمان:

وبعد وفاة داود ورثه سليمان عليهما السلام ورثه في الملك قال تعالى ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلِمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾^(١) أي ورثه النبوة والملك وليس المراد ورثه في المال.

وقد أتى الله سليمان عليه السلام ملكاً عظيماً وسلطاناً جسيماً لا يمتنع منه شيء في بر ولا بحر، ومن دلائل عظمة ملكه عليه السلام أنه غزا جزيرة من جزائر البحر، فخرج إلى تلك القرية تحمله الريح على ظهر الماء، حتى نزل بها بجنوده من الجن والإنس فقتل ملكها واستفاء ما فيها، ومن دلائل عظمة ملكه عليه السلام أنه طلب إلى من حوله أن يأتوه بعرش بلقيس، فجاءه به أحدهم قبل أن يترد إليه طرفه قال تعالى في بيان هذه القصة ﴿قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ قَالَ عَفْرَيْتُ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رآه مُسْتَقَرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾^(٢) قال ابن عباس يعني طائعين مؤمنين. وغرض سليمان في إحضار عرشها ليربها قدرة الله تعالى وإظهار معجزة دالة على نبوته، وقيل أراد أن ينكره ويغيره قبل مجيئها ليختبر بذلك عقلها، قال قتادة لأنه عجبته صنعته لما وصفه المهدد فأحب أن يراه (قال عفريت من الجن أنا آتيتك به قبل أن تقوم من مقامك) أي مجلس قضائك الذي تقضي فيه (وإني عليه لقوي أمين) قوي أمين على ما فيه من الجواهر وغيرها.

فقال سليمان أريد أسرع من هذا (قال الذي عنده علم من الكتاب) قال أكثر المفسرين هو آصف بن برخيا، وكان صديقه وقيل ابن خالة سليمان عليه السلام، وكان يعلم اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب وإذا سئل به أعطى. قال ابن

(١) سورة النمل آية ١٦.

(٢) سورة النمل الآيات ٣٨-٤٠.

عباس رضي الله عنهما "إن آصف قال لسليمان حين صلى مد عينيك حتى ينتهي طرفك، فمد سليمان عينيه فنظر نحو اليمين فدعا آصف فبعث الله الملائكة فحملوا السرير من تحت الأرض يحدون به خدًا حتى انخرقت الأرض بالسرير بين يدي سليمان، وقال الكلبي^(١) خر آصف ساجدًا ودعا باسم الله الأعظم فغار العرش تحت الأرض حتى نبع عند كرسي سليمان وكانت المسافة مقدار شهرين - في ذلك الزمان - (فلما رآه) يعني رأى سليمان العرش (مستقرًا عنده) محمولًا إليه من مأرب إلى الشام في مقدار ارتداد الطرف (قال هذا من فضل ربي ليلوني أشكر أم أكفر) فلا أشكرها، (ومن شكر فإنما يشكر لنفسه) أي يعود نفع شكره إليه وهو أن يستوجب به تمام النعمة ودوامها لأن الشكر قيد النعمة الموجودة وصيد النعمة المفقودة، (ومن كفر فإن ربي غني كريم) غني عن شكره لا يضره ذلك الكفران، كريم بالافضال عليه لا يقطع نعمة عنه بسبب إعراضه عن الشكر وكفران النعمة"^(٢).

ومن دلائل عظمة ملكه عليه السلام أن سخر الله له الجن والإنس والطير والرياح عن ابن إسحاق قال "إذا أراد الغزو أمر بعسكره فضرب له بخشب ثم نصب له على الخشب ثم حمل عليه الناس والدواب وآلة الحرب كلها، حتى إذا حمل معه ما يريد أمر العاصف من الرياح فدخلت تحت ذلك الخشب، فاحتملته حتى إذا استقلت به أمر الرخاء فمرّ به شهرًا في روحته، وشهرًا في غدوته إلى حيث أراد قال تعالى ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾^(٣) أي حيث أراد^(٤).

وهذه الدراسة للأحداث التي كانت في زمن طالوت ومن بعده داود وسليمان عليهما السلام وفي انتصار جيش طالوت على جيش جالوت، وقتل داود لجالوت

(١) الكلبي: هشام الكلبي مؤرخ وعالم بالأنساب من آثاره كتاب الأنساب الكبير أو جمهرة الأنساب" وكتاب الأصنام، ونسب فحول الخيل في الجاهلية والإسلام. المنجد في الأعلام ص ٤٦٦.

(٢) انظر تفسير لباب التأويل في معاني التنزيل - الخازن - ٣م ج ٥ ص ١٤٨ ط ٢. تفسير معالم التنزيل - البغوي - ٣م ج ٥ ص ١٤٨.

(٣) سورة ص آية ٣٦

(٤) تاريخ الطبري ج ١ ص ٤٨٧.

لإشارة واضحة على أن معية الله وتأييده كانت مع جيش طالوت، ولم يكن ذلك ليحدث إلا بسبب طاعة طالوت ومن معه لأوامر الله واستسلامهم له واتباعهم لدينه، وإيمانهم بالله وتقواهم له سبحانه، إن هذه الصفات هي التي تجعل نصر الله حليفاً لمن اتصف بها والتزم طريقها.

فانتصار جيش طالوت الذي لم يزد عدده على ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً - عدد من قاتل في بدر - على جيش جالوت الذي يعد بالآلاف، إن هذا الانتصار لم يكن ليحصل لولا تدخل العناية الإلهية، التي ظهرت آثارها في بداية المعركة عندما صرغ داود عليه السلام جالوت، رغم ضعف سلاحه وعتاده، إذ لم يكن يحمل معه سوى مقلاعه البسيط وبعض الحجارة التي حملها معه في طريقه إلى المعركة بينما كان جالوت مدججاً بالسلاح إن انتصار طالوت وجنوده في هذه المعركة الغير متكافئة لدليل على أن النصر لا يكون بعدد ولا عدة، وإنما هو من عند الله لمن يستحقون معيته سبحانه، فعودة الفئة الأكبر من جيش طالوت وعدم ثباتهم وتساقطهم على الطريق لم يكن له أثر في تغيير مجرى المعركة، لأن الكثرة المخالفة لأمر الله لا تزيد الجيش إلا ضعفاً وتحاذلاً عن القتال.

وبعد هذا الانتصار العظيم الذي حققه الله لبيبي إسرائيل فتح لهم باب المجد والعزة فسادوا البلاد وملكوا العباد وأصبح لهم السلطان والجاه بعدما كانوا أذلاء صاغرين، وازداد ذلك الملك اتساعاً في زمن داود وبعده سليمان عليهما السلام كما هو واضح فيما ذكرنا من قبل.

المبحث الرابع: الأمة الإسلامية:

كان العرب قبل الإسلام يعيشون في كفر وضلال، وانحراف وطغيان في كثير من مجالات الحياة العقائدية والأخلاقية وغيرها.

ففي المجال العقائدي كان العرب يعبدون الأصنام والأوثان، وكان لكل طائفة منهم إله خاص بها، يقول الكلبي في كتابه الأصنام "كان لكل دار في مكة صنم

يعبدونه فإذا أراد أحدهم السفر كان آخر ما يفعل أن يتمسح به، وكذلك عندما يحضر من السفر، وقد تنصب بعض القبائل صنماً أمام الحرم أو في جوف الكعبة وفنائها.. وقد بلغ ذلك نحو ثلاثمائة وستين حجراً^(١).

وروى البخاري عن أبي رجاء العطاردي^(٢) قال: كنا نعبد الحجر، فإذا وجدنا حجراً خيراً منه ألقيناه وأخذنا الآخر.. فإذا لم نجد حجراً جمعنا جثوة^(٣) من تراب ثم جئنا بالشاة فحلينا عليه وطفنا به^(٤).

وسادت بين العرب أوهام وأباطيل ترتبط بالعبادة كالتطير والضرب على الرمل وزجر الطير والكهانة والعرافة والسحر.

هذا في الجانب العقائدي أما في الجانب الأخلاقي فقد انتشرت بينهم أخلاق منحرفة عديدة منها شرب الخمر ولعب الميسر والإغارة على القبائل واستلاب عابر السبيل والزنا والفجور قالت عائشة رضي الله عنها "إن النكاح كان في الجاهلية على أربعة أنحاء.. فنكاح كنيان الناس اليوم يخطب الرجل إلى الرجل وليته أو بنته فيصدقها ثم ينكحها - والنكاح الآخر يقول الرجل للمرأة إذا طهرت من طمثها أي حيضها - أرسلني إلى فلان فاستبضعي منه ويعتزلها زوجها فلا يمسه أبداً حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذي تستبضع منه فإذا تبين أصابها زوجها إذا أحب وإنما يفعل ذلك رغبة في نجابة الولد فهذا نكاح الاستبضاع - ونكاح آخر يجتمع الرهط ما دون العشرة فيدخلون على المرأة كلهم يصيبها فإذا حملت ووضع ومروا عليها ليال بعد أن تضع أرسلت إليهم فلم يستطع أحد منهم أن يمتنع حتى يجتمعوا عندها: تقول لهم: قد

(١) قيم حضارية ج ١ ص ٢٤٨.

(٢) أبو رجاء العطاردي: الإمام الكبير شيخ الإسلام، عمران بن ملحان التميمي البصري، من كبار المخضرمين أدرك الجاهلية، وأسلم بعد فتح مكة، ولم ير النبي صلى الله عليه وسلم، كان عبداً كثير الصلاة وتلاوة القرآن، مات سنة خمس ومائة وله أزيد من مئة وعشرين سنة. سير أعلام النبلاء - الذهبي - ج ٤ ص ٢٥٣-٢٥٧ باختصار.

(٣) الجثوة: الحُثُّ مجتمع من الأرض مرتفع كالأكمة، والجث الجيم والثاء يدل على تجمع الشيء. معجم مقاييس اللغة - ابن فارس - ج ١ ص ٤٢٥.

(٤) صحيح البخاري - كتاب المغازي - باب وفد بني حنيفة وحديث ثمامة بن أثال - م ٢ ج ٥ ص ٤٧٢.

عرفتم الذي كان من أمركم وقد ولدت وهو ابنك يا فلان تسمى من أحببت باسمه فلا يستطيع أن يمتنع من إلحاق الولد به. ونكاح البغايا: كن ينصبن على أبوابهن رايات تكون علماً فمن أرادهن دخل عليهن فإذا حملت إحداهن ووضعت حملها جمعوا لها القافة - أي المتخصصين في معرفة الأنساب - فألحقوا الولد بالذي يرون - ويدعى ابنه فلا يمتنع" (١).

وهذا كان سائداً في بعض قبائل الجزيرة العربية وليس في كلها.

ومن الأخلاق السيئة التي كانت سائدة في الجاهلية ونهى عنها القرآن نكاح زوجة الأب، والجمع بين الأختين.

يقول ابن السائب الكلبي (٢): كانت العرب في جاهليتها تحرم أشياء نزل القرآن بتحريمها كانوا لا ينكحون الأمهات ولا البنات ولا الخالات ولا العمات وكان أقبح ما يصنعون أن يجمع الرجل بين الأختين أو يخلف على امرأة أبيه (٣).

وفي النهي عن هذين الخلقين يقول تعالى ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ (٤).

فقد كانت هذه العادة سائدة بين العرب، وكان الرجل يخلف أباه على امرأته وكانت هذه السيرة في الأنصار لازمة، وكانت في قريش مباحة.

يروى أنه لما توفي أبو قيس وكان من صالحى الأنصار خطب ابنه قيس امرأة أبيه فقالت إني أعدك ولدًا، ولكني آتي رسول الله صلى الله عليه وسلم أستأمره، فأنته فأخبرته فأنزل الله هذه الآية. (إلا ما قد سلف) أي تقدم ومضى (٥).

ويقول تعالى في سياق بيان المحرمات من النساء ﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا

(١) صحيح البخاري - كتاب النكاح - باب من قال لا نكاح إلا بولي - م ٣ - ج ٧ ص ٢١.

(٢) ابن السائب الكلبي: نسابة، رواية لغوي عالم بأخبار العرب وهو من أهل الكوفة - توفي سنة ٧٦٣ م - المنجد - ص ٤٦٦ - ٤٦٧.

(٣) الملل والنحل - للشهرستاني - ج ٣ ص ٣١٧.

(٤) سورة النساء آية ٢٢.

(٥) الجامع لأحكام القرآن - القرطبي - م ٣ - ج ٥ ص ١٠٤.

مَا قَدْ سَلَفَ»^(١) ومعناه وحرّم عليكم أن تجتمعوا بين الأختين عندكم بنكاح فأن في موضع رفع كأنه قيل والجمع بين الأختين إلا ما قد سلف لكن ما قد مضى منكم فإن الله كان غفوراً لذنوب عباده إذا تابوا إليه رحيماً بهم فيما كلفهم من الفرائض^(٢).
هذه صورة مختصرة لحالة العرب في الجاهلية في بعض نواحي حياتهم، وفي هذه الأحواء بعث الرسول صلى الله عليه وسلم يدعو الناس إلى عقيدة التوحيد وترك عبادة الأصنام والأنداد، كما دعا إلى الأخلاق الحميدة الفاضلة الكريمة وإلى نبذ الأخلاق الدنيئة الهابطة.

«وفهم أئمة الكفر في مكة أن دعوة التوحيد والحق التي يدعو إليها محمد صلى الله عليه وسلم إنما هي سهم موجه إلى كبد الجاهلية، فقامت قيامتها ودافعت عن تراثها دفاعها الأخير وقاتلت في سبيل الاحتفاظ به قتال المستميت وأجلبت على الداعي صلى الله عليه وسلم بخيلها ورجلها وجاءت بجدها^(٣) وحديدها^(٤) وتعرض الرسول صلى الله عليه وسلم لأصناف الإيذاء والتعذيب، إلا أن ذلك لم يثنه عن هدفه ولم يلوّه عن غايته، بل ثبت ثبوت الراسيات. عن عروة^(٥) قال: سألت عبد الله بن عمرو قلت: حدثني بأشد شيء صنعه المشركون برسول الله صلى الله عليه وسلم قال «أقبل عقبة بن أبي معيط والنبي صلى الله عليه وسلم يصلي عند الكعبة، فلوى ثوبه في عنقه فخنقه خنقاً شديداً، فأقبل أبو بكر فأخذ بمنكبه، فدفعه عن رسول الله صلى الله

(١) سورة النساء آية ٢٣

(٢) جامع البيان في تفسير القرآن - الطبري - ٣م - ج ٤ ص ٢٢٤.

(٣) حدها: حدّ السكين وأحدّها وحَدَّدها مسحها بحجر أو مبرد فَخَدَّه. والحدُّ من كل شيء جدّته ومنك بأسك. القاموس المحيط - الفيروز أبادي - ج ١ ص ٢٩٦.

(٤) ماذا خسّر العالم باخطا المسلمين - الندوي - ص ١٢١.

(٥) عروة بن الزبير: ابن حوارى رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن عمته صفية الزبير بن العوام بن خويلد ابن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب القرشي الأسدي وأمه أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنه وهي ذات السنطاقين. الإمام عالم المدينة أبو عبد الله القرشي الأسدي المدني الفقيه أحد الفقهاء السبعة، مات سنة ثلاث وتسعين. تهذيب سير أعلام النبلاء - الذهبي - هذبه أحمد الحمصي ج ١ ص ١٥٦.

عليه وسلم ثم قال "أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله" (١).

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "لقد أوذيت في الله وما يؤذى أحد، وأخفت في الله وما يخاف أحد ولقد أتت على ثلاثون من بين يوم وليلة وما لي ولبلال ما يأكله ذو كبد إلا ما يوارى ابط بلال" (٢).

وتعرض الصحابة رضوان الله عليهم للإيذاء والتنكيل حتى سقط بعضهم شهيداً تحت سياط الجلاد كسمية وياسر فأمرهم الرسول صلى الله عليه وسلم بالخروج إلى الحبشة، فخرج قوم وستر القوم الباقون إسلامهم، وشقت الدعوة الإسلامية طريقها رغم ما لقي دعاها من الصعاب والمعوقات، فلم يردهم ذلك إلا إيماناً وتسليماً ولسان حالهم يقول: «وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا» (٣).

واستمر الحال على ذلك ثلاثة عشر عاماً هاجر بعدها الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، التي تعهد أهلها بحمايته صلى الله عليه وسلم والدفاع عنه، وهناك كانت نواة الدولة الإسلامية الناشئة، التي حفظها الله ورعاها وكتب لها البقاء والقوة، إذ نصر الله المؤمنين في حروبهم للمشركين في مواطن كثيرة، مما كان من شأنه أن يقوى جانب الحق ويضعف جانب الباطل، فانتصر أهل الإيمان وذهل أهل الطغيان.

ففي غزوة بدر الكبرى تجمعت حشود المشركين بآلتها العسكرية للقضاء على دعوة الحق واستئصال شأفته، في مقابل أعداد يسيرة من المسلمين لا يملكون من العتاد والعدة إلا قليلاً، وتدخلت الإرادة الإلهية لحسم الموقف، فأمد الله المؤمنين بملائكة تقاتل معهم في مواجهة صلف المشركين وكبرياتهم قال تعالى «وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ

(١) صحيح البخاري - كتاب فضائل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم - باب ما لقي النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه من المشركين بمكة - ٢م - ج ٥ ص ٣١٤.

(٢) سنن الترمذي - كتاب أبواب صفة القيامة - باب ٥ - ج ٤ ص ٥٩ رقم ٢٥٩٠ وقال حسن صحيح، سنن ابن ماجه - المقدمة - باب فضل سنان وأبي ذر والمقداد ج ١ ص ٥٤ رقم ١٥١. ومعنى قوله "وما لي ولبلال ما يأكله ذو كبد إلا ما يوارى ابط بلال" أي "ما كان لنا من الطعام إلا شيء قليل بقدر ما يأخذه بلال تحت ابطه" تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذي - المباركفوري - ج ٧ ص ١٧٠.

(٣) سورة الأحزاب آية ٢٢.

بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمَدِّدَ كُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ^(١) . "ويوم بدر هو يوم الفرقان الذي أعز الله فيه الإسلام وأهله، ودفع فيه الشرك وخرّب محله وحزبه، هذا مع قلة عدد المسلمين يومئذ، فإنهم كانوا ثلاثمائة عشر رجلاً فيهم فارسان وسبعون بعيراً، والباقيون مشاة ليس معهم من العدد جميع ما يحتاجون إليه، وكان العدو يومئذ ما بين التسعمائة إلى الألف في سوابغ الحديد والبيض والعدة الكاملة والخيول المسومة والحلي الزائدة، فأعز الله رسوله وأظهر وحيه وتربّله، وبيض وجه النبي صلى الله عليه وسلم وقبيله وأخزى الشيطان وجيله"^(٢) .

وتوالى انتصارات المؤمنين بعد بدر في الأحزاب وما بعدها، وأمد الله جند الحق بملائكة تقاتل معهم وتدفع عنهم كيد الجرمين قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا^(٣) .

"فأرسل الله على الأحزاب جنوداً من الريح وهي ريح باردة في ليلة شاتية فألقت قدورهم وقوضت خيامهم فلم يقر لها قرار، كما أرسل جنوداً من الملائكة التي قلعت الأوتاد وقطعت أطناب الفساطيط^(٤)، وأطفأت النيران وأكفأت القدور، وألقت في قلوب المشركين الرعب والخوف، وجالت الخيل بعضها في بعض، وكثر تكبير الملائكة في جوانب العسكر حتى كان سيد كل قوم يقول لقومه، يا بني فلان هلم إليّ، فإذا اجتمعوا قال لهم النجاء النجاء (وكان الله بما تعملون بصيراً) إشارة إلى أن الله علم التجاءكم -أيها المؤمنون- إليه ورجاءكم فضله فنصركم على الأعداء عند

(١) سورة آل عمران الآيتان ١٢٣-١٢٤.

(٢) تفسير القرآن العظيم - ابن كثير - ج ١ ص ٤٠٠.

(٣) سورة الأحزاب آية ٩.

(٤) أطناب الفساطيط: هي الحبال التي تشد بها بيوت الشعر إلى الأرض. لسان العرب - ابن منظور - ج ١ ص

الاستعداد" (١).

و كما نصر الله المؤمنين في بدر والأحزاب وأيدهم بملائكة تقاتل معهم، فإنه نصرهم وأمدهم بجنده في غزوة حنين كذلك قال تعالى ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ (٢).

"في بداية الآية الأولى يذكر الله المؤمنين بنصره لهم على أعدائهم في مواطن كثيرة، إذ كان عددهم وعتادهم قليلا لا يرجى معه النصر بحسب الأسباب والعادة، ثم يذكرهم بابتلائه إياهم بالتولي والهزيمة يوم حنين وهذا من حكمة الله إذ أذاق المسلمين أولا مرارة الهزيمة والكسرة مع كثرة عددهم وعددهم، وقوة شوكتهم ليظأ من رؤوس بالفتح لم تدخل بلده وحرمه كما دخله رسول الله صلى الله عليه وسلم واضعاً رأسه منحنيًا على فرسه حتى إن ذقنه تكاد تمس سرجه تواضعًا لربه وخضوعًا لعظمته واستكانة لعزته، وليبين سبحانه لمن قال: لن نغلب اليوم من قلة أن النصر إنما هو من عند الله، وأنه من ينصره الله فلا غالب له، ومن يخذله فلا ناصر له غيره، فإن نصر الله تعالى للمؤمنين في تلك المواطن الكثيرة لم يكن بقوة عصبية أحد منهم ولا بقوة المال وما يأتي به من الزاد والعتاد فقلوه سبحانه (ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئًا) أي نصركم الله في مواطن كثيرة ما كنتم تطمعون فيها بالنصر بمحض استعدادكم وقوتكم لقلة عددكم وعتادكم، ومفركم أيضًا في يوم حنين هذا اليوم الذي أعجبتكم فيه كثرتكم إذ كنتم اثني عشر ألفًا وكان الكافرون أربعة آلاف فقط فقال قائلكم معبرًا عن رأي الكثيرين الذين غرهم الكثرة: لن نغلب اليوم من قلة، (فلم تغن عنكم شيئًا) فلم تكن تلك الكثرة التي أعجبتكم وغرتكم كافية لانتصاركم بل لم تدفع عنكم من عار الغلب والهزيمة (وضاقت عليكم الأرض

(١) انظر التفسير الكبير - الرازي - ج ٢٥ ص ١٧٢. تفسير فتح القدير - الشوكاني - ج ٤ ص ٣٢٩. زاد المعاد -

ابن القيم - ج ٣ ص ٢٤٠.

(٢) سورة التوبة الآيات ٢٥-٢٦.

بما رحبت) فضاقت عليكم الأرض برحبها وسعتها فلم تجدوا لكم فيها مذهباً ولا ملتحداً (ثم وليتم مدبرين) وليتم ظهوركم لعدوكم مدبرين لا تلوون على شيء (ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين) أي أنزل طمأنينته وثباته على رسوله وعلى المؤمنين الذين معه، والمعنى أن الله تعالى أفرغ من سماء عزته وقدرته سكينته اللدنية على رسوله بعد أن عرض له ما عرض من الأسف والحزن على أصحابه عند وقوع الهزيمة لهم على أنه ثبت كالطود الراسي نفساً، ولم يردد إلا شجاعة وإقداماً وبأساً، وعلى المؤمنين الذين ثبتوا معه وأحاطوا ببغلته (وأنزل جنوداً لم تروها) وهم الملائكة. روى البيهقي عن مصعب بن شيبه عن أبيه قال خرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين والله ما أخرجني إسلام ولا معرفة به ولكنني أبيت أن تظهر هوازن على قريش فقلت وأنا واقف معه يا رسول الله إني أرى خيلاً بلقا فقال: "يا شيبه إنه لا يراها إلا كافر" فضرب بيده على صدري ثم قال "اللهم اهد شيبه" ثم ضربها الثانية ثم قال "اللهم اهد شيبه" ثم ضربها الثالثة ثم قال "اللهم اهد شيبه" قال فو الله ما رفع يده عن صدري في الثالثة حتى ما كان أحد من خلق الله أحب إليّ منه^(١). (وعذب الذين كفروا) بالقتل والأسر والسبي وذلك منتهى الغلب والخزي (وذلك جزاء الكافرين) في الدنيا بكفرهم ما داموا مستحيين الكفر على الإيمان . ويعادون أهله ويقاتلون عليه^(٢) .

إن هذه الأمثلة التي ذكرناها والتي تدل على تأييد الله للمؤمنين الصادقين وإمدادهم بالقوة وبالملائكة التي تقاتل معهم، هي دليل جلي على أن معية الله مع المؤمنين الذين يتبعون الحق ويسيروا على منهج الله ويقفون أثر رسول الله صلى الله عليه وسلم قال تعالى ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾^(٣) . وقد

(١) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد-الهيثمي- كتاب المغازي والسير- باب غزوة حنين ج٦ ص ١٨٣-١٨٤ ضعفه الهيثمي.

(٢) انظر تفسير القرآن العظيم-ابن كثير- ج٢ ص٢٤٦. زاد المعاد-ابن القيم- ج٣ ص ٤١٢. تفسير المنار- محمد رشيد رضا- ج١٠ ص٢١٧-٢٢١.

(٣) سورة الحج آية ٤٠.

استمر هذا التأييد الرباني للأمة الإسلامية بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم في خلافة أبي بكر وعمر وعثمان ومن جاء بعدهم حتى ملك المسلمون مشارق الأرض ومغاربها. كل ذلك تحقق لما كان المسلمون يقاتلون عن عقيدة ثابتة راسخة ابتغاء مرضاة الله ولنصرة دينه وإعلاء كلمته وهكذا تحقق وعد الله للمؤمنين بالتمكين ووراثة الأرض والاستخلاف فيها قال تعالى ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ (١).

يقول أبو العالية في سبب نزول هذه الآية "مكث النبي صلى الله عليه وسلم عشر سنين خائفًا يدعو إلى الله سرًا وعلانية قال: ثم أمر بالهجرة إلى المدينة قال: فمكث بها هو وأصحابه خائفين يصبحون في السلاح ويمسون فيه، فقال رجل: ما يأتي علينا يوم نأمن فيه ونضع عنا السلاح فقال النبي صلى الله عليه وسلم "لا تغربون" (٢) إلا يسيرًا حتى يجلس الرجل منكم في الملاء العظيم محتبًا (٣) فيه ليس فيه حديدة فأنزل الله هذه الآية (٤).

وفي الآية وعد من الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم بأنه سيجعل أمته خلفاء الأرض أي أئمة الناس والولادة عليهم، وبهم تصلح البلاد وتخضع لهم العباد، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنًا وحكمًا فيهم وقد فعله تبارك وتعالى وله الحمد والمنة. فإنه صلى الله عليه وسلم لم يمت حتى فتح الله عليه مكة وخيبر والبحرين وسائر جزيرة العرب وأرض اليمن بكاملها، وأخذ الجزيرة من مجوس هجر ومن بعض أطراف

(١) سورة النور آية ٥٥

(٢) تغربون: تبقسون. تاج العروس - للزبيدي - ج ٣ ص ٤٣٨.

(٣) محتبًا: وهو جمع الرجل ظهره وساقه بعمامته، وقد يجتبي بيديه. لسان العرب - ابن منظور - ج ١٤

ص ١٦١.

(٤) جامع البيان ج ١٨ ص ٢٤٣ دار الكتب العلمية.

الشام وهاداه هرقل ملك الروم وصاحب مصر والإسكندرية وهو المقوقس^(١)، وملوك عمان والنجاشي ملك الحبشة الذي تملك بعد أصحابه^(٢) رحمه الله وأكرمه، ثم لما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم واختار الله له ما عنده من الكرامة قام بالأمر بعده خليفته أبو بكر الصديق فلم شعث ما وها بعد موته صلى الله عليه وسلم وأخذ جزيرة العرب ومهداها وبعث جيوش الإسلام إلى بلاد فارس صحبة خالد بن الوليد رضي الله عنه ففتحوا طرفاً منها وقتلوا خلقاً من أهلها، وجيشاً آخر صحبة أبي عبيدة رضي الله عنه^(٣) ومن اتبعه من الأمراء إلى أرض الشام، وثالثاً صحبه عمرو بن العاص إلى بلاد مصر، ففتح الله للجيش الشامي في أيامه بصرى ودمشق ومخاليفهما من بلاد حوران وما والاها وتوفاه الله عز وجل واختار له ما عنده من الكرامة، ومن على أهل الإسلام بأن أهم الصديق أن يستخلف عمر الفاروق فقام بأمر الخلافة خير قيام، وفتح الله في خلافته البلاد الشامية بكاملها ومصر إلى آخرها وأكثر بلاد فارس، وهزم الله كسرى وتقهقر إلى أقصى مملكته، كما أذل الله قيصر فخرج من بلاد الشام وفر إلى القسطنطينية ذليلاً مهيناً، ولما كانت خلافة عثمان رضي الله عنه ازدادت الدولة الإسلامية اتساعاً حتى بلغت أقصى الشرق والغرب، ووصل المسلمون إلى الأندلس غرباً وإلى أقصى بلاد الصين شرقاً^(٤).

وهكذا كان نصر الله للأمة الإسلامية، وإعزازه لها يوم كانت سائرة في طريق

(١) المقوقس:

(٢) أصحابه: النجاشي ملك الحبشة، أسلم في عهد النبي صلى الله عليه وسلم وأحسن إلى المسلمين الذين هاجروا إلى أرضه. توفي ببلاده قبل فتح مكة وصلى عليه النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة. وأصحابه اسمه والنجاشي لقبه. أسد الغابة في معرفة الصحابة-ابن كثير- ج ١ ص ٩٩.

(٣) أبو عبيدة: عامر بن عبد الله بن الجراح بن هلال بن أهيب ويقال وهيب بن ضبة بن الحارث بن فهر القرشي أبو عبيدة بن الجراح، مشهور بكنيته وبالنسبة إلى جده، وكان إسلامه قبل دخول النبي صلى الله عليه وسلم دار الأرقم، وهو أحد العشرة السابقين إلى الإسلام، هاجر المحررتين إلى الحبشة وإلى المدينة، وشهد بدرًا وما بعدها، وهو أمين الأمة رضي الله عنه. مات في طاعون عمواس بالشام سنة ثمان عشرة. الإصابة في تمييز الصحابة-ابن حجر- ج ٢ ص ٢٥.

(٤) تفسير القرآن العظيم-ابن كثير- ج ٣ ص ٢٩٠ باختصار وتصرف.

الهدى رافعة راية الحق والعدل مطبقة شريعة الله سبحانه مجاهدة في سبيل إعلاء كلمة الله عز وجل. نعم أعزها الله ونصرها ومكن لها في الأرض يوم أن كانت كذلك، لكن لما تخلى المسلمون عن هذا السبيل واتبعوا طرق الغواية، ونادوا بشعارات باطلة وتحاكموا إلى الطاغوت، وقاتلوا في سبيل الاشتراكية والقومية والوطنية عند ذلك أذلم الله وأهانهم، فهزموا أمام أذل الخلق وأضعفهم وهم اليهود، وأصبحوا مطية للأمم الأخرى التي نهبت خيراتهم وقسمت دولهم إلى دويلات ضعيفة متناحرة.

وإن الأمة الإسلامية اليوم لن تصلح إلا بما صلح به أولها، فإن أرادت أن تستعيد مجدها وكرامتها فعليها بالعودة الصادقة إلى الكتاب والسنة وإلى منهج الله فهو سر العزة والتمكين وهو رمز السيادة والقيادة.

أما إن استمروا على هذا النهج فإنهم سيقفون على ما هم عليه من تأخر وتراجع ومن ذلة ومهانة.

من خلال دراستنا لأحوال هذه الأمم الماضية وحال الأمة الإسلامية في الماضي والحاضر نلمس جلياً ما لطاعة الله واتباع منهجه، وما للعمل الصالح من أثر عظيم في بناء الأمم وقيام حضاراتها، ولما تتقلب فيه الأمم من خير وسعادة وعزة وكرامة.

إن هذه الأمثلة الحية لتعطي دافعية قوية للأمم عامة لأن تسلك هذا الطريق، طسريق الإسلام العظيم وأن تطبقه تطبيقاً عملياً، من خلال تحاكمها لشريعته وقيامها بأمره وابتعادها عن منهياته ومحذوراتها، فهذا هو سبيل السعادة الحقيقية التي تطمئن فيها القلوب وترتاح فيها النفوس، بعيداً عن الظلم والعدوان وعن الخيانة والكذب وعن الفساد والانحلال وعن الرشوة والمحسوبية، هذه المفاسد التي تتمرغ فيها الدول المتحضرة اليوم، والتي لا تعرف إلا المادة والشهوات حتى طغت على تلك المجتمعات فأفسدتها وحطمت القيم والأخلاق فيها فلم يعد الناس يشعرون بسعادة أو طمأنينة، رغم الغنى والرفاهية التي يعيشون فيها وبالتالي فهم يعيشون في شقاء وعناء شديدين وفي تعاسة دائمة لا تنتهي.

الفصل الثالث

حقيقة الانحدار وأسبابه في ضوء القرآن الكريم

تمهيد: تعريف الانحدار

أسباب الانحدار في ضوء القرآن الكريم وفيه خمسة مباحث وهي:

المبحث الأول: الكفر بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم ويشتمل على مطلبين:

المطلب الأول: تعريف الكفر وأسبابه وأقسامه.

المطلب الثاني: أمثلة على أثر الكفر في الهلاك.

المبحث الثاني: الظلم ويشتمل على مطلبين:

المطلب الأول: تعريف الظلم والنهي عنه.

المطلب الثاني: خطر الظلم على الأمة، وأمثلة على خطره.

المبحث الثالث: الفساد في الأرض ويشتمل على مطلبين:

المطلب الأول: تعريف الفساد وأسباب انتشاره، وعلاج الإسلام للفساد.

المطلب الثاني: أنواع الفساد.

أولاً: الفساد السياسي، الحكم بغير ما أنزل الله، موالة الكافرين، الاستبداد

السياسي.

ثانياً: الفساد الاقتصادي: الربا، التطفيف في الميزان.

ثالثاً: الفساد الاجتماعي: التنازع والتفكك وعدم التعاون.

المبحث الرابع: الانحطاط الأخلاقي.

المطلب الأول: أسباب انتشاره.

أولاً: ضعف التقوى والوازع الديني.

ثانياً: الاختلاط والتبرج.

المطلب الثاني: من مظاهر الانحطاط الأخلاقي انتشار الزنا وشرب الخمر

والسرقة والحيانة.

المطلب الثالث: خطر الانحطاط الأخلاقي على الأمة في الماضي والحاضر.

المبحث الخامس: البغي والاستكبار في الأرض ويشتمل على مطلبين:

المطلب الأول: تعريفهما والتحذير منهما.

المطلب الثاني: بعض أمثلة البغي والاستكبار وأثارهما على الأمم.

الفصل الثالث

حقيقة الانحدار وأسبابه في ضوء القرآن الكريم

تمهيد:

تعريف الانحدار:

الانحدار: من الحَدَرَ: وهو الخط من علو إلى أسفل. والهبوط.

يقال حَدَرَهُ يَحْدُرُهُ حَدْرًا وَحُدُورًا فَانْحَدَرَ حَطَهُ.

ويقال: وَقَعْنَا فِي حَدُورٍ مُتَّكِرَةٍ وَهِيَ الْهَبُوطُ.

وكل شيء أرسلته إلى أسفل فقد حَدَرْتَهُ حَدْرًا وَحُدُورًا. ومنه سميت القراءة

السريعة الحَدْرَ لأن صاحبها يجدرها حدرًا^(١).

الانحدار اصطلاحًا: انحطاط الأمة وتأخرها بعملها بعوامل الانحدار التي حذر منها

الشرع.

أسباب الانحدار في القرآن الكريم:

المبحث الأول: الكفر بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: تعريف الكفر وأسبابه وأقسامه

تعريف الكفر:

الكفر لغة: الستر والتغطية والجهود. يقال كفره كفرًا وكفرانًا، وسمى الكافر بهذا

الإسم لأنه يستر نعم الله عليه ويحجدها.

ويسمى الليل المظلم الكافر، لأنه يستر كل شيء ويظلمه.

والزراع يسمى الكافر لأنه يغطي البذر بالتراب، والكفار الزراع.

(١) انظر تاج العروس من جواهر القاموس - الزبيدي - ج ٣ ص ١٣٨. لسان العرب - ابن منظور - ج ٤ ص ١٧٢.

مختار الصحاح - الرازي - ص ١٠٨.

ويقال كفر عليه يكفره غطاه، وكل شيء غطي شيئاً فقد كفره^(١).

الكفر اصطلاحاً: هو الجحد بالله وبما قال، وترك التصديق به وله، وهو التكذيب وعدم التصديق بشيء من كتب الله تعالى المعلومة، أو بأحد من رسله عليهم السلام، أو بشيء مما جاءوا به، إذا كان ذلك الأمر المكذب به قد وصل إلينا بطريق يقيني قاطع وهو معلوم من الدين بالضرورة^(٢).

أنواع الكفر^(٣):

ينقسم الكفر إلى قسمين: القسم الأول كفر يخرج من الملة وهو خمسة أنواع: النوع الأول: كفر تكذيب ودليله قوله تعالى ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾^(٤) وهذا تقرير بمشوى الكافرين في النار لأن همزة الإنكار إذا دخلت على النفي صار إيجاباً يعني ألا يثوون فيها وقد افتروا مثل هذا التكذيب على الله وكذبوا بالحق مثل هذا التكذيب، وأعلمهم أنه لا أحد أظلم منهم وهذا في ضمنه وعيد شديد، ثم بين الوعيد بالتقدير على أمر جهنم والمثوى موضع الإقامة^(٥).

النوع الثاني: كفر الإباء والاستكبار قال تعالى ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾^(٦).

إن الله تعالى لما استثنى إبليس من الساجدين كان يجوز أن يظن أنه كان معذوراً في ترك السجود فبين تعالى أنه لم يسجد مع القدرة وزوال العذر بقوله (أبى)

(١) انظر: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية - لاسماعيل الجوهري - ج ٢ ص ٨٠٧-٨٠٨. القاموس المحيط -

للفيروز أبادي - ج ٢ ص ١٢٨. مختار الصحاح للرازي ص ١٢٦.

(٢) انظر الإيمان - لابن تيمية - ص ٢٧٧. ايثار الحق على الخلق - لابن المرتضى - ص ٤١٥. أصول الدين

- للبيضاوي - ص ٢٤٨.

(٣) انظر في هذه الأنواع مجموعة التوحيد - لابن تيمية - ص ١٠. الإيمان - لابن تيمية - ص ٢٧٨.

(٤) سورة العنكبوت آية ٦٨.

(٥) انظر المحرر الوجيز في تفسير الكلام العزيز - لابن عطية - ج ١١ ص ٤١٨. تفسير مدارك الترتيل وحقائق

التأويل - النسفي - ج ٣ ص ٢٦٤.

(٦) سورة البقرة آية ٣٤.

لأن الإباء هو الامتناع مع الاختيار، أما من لم يكن قادراً على الفعل لا يقال له إنه أبي، ثم قد كان يجوز أن يكون كذلك ولا ينضم إليه الكبر فيبين تعالى أن ذلك الإباء كان على وجه الاستكبار بقوله (واستكبر) ثم كان يجوز أن يوجد الإباء والاستكبار مع عدم الكفر فيبين تعالى أنه كفر بقوله (وكان من الكافرين)^(١).

النوع الثالث: كفر الشك وهو كفر الظن قال تعالى ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُودْتُ إِلَىٰ رَبِّي لِأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾^(٢) فصاحب الجنة دخلها وهو ظالم لنفسه صار لها بعجه وكفره، وقال ما أظن أن تفتي هذه الجنة أبداً وذلك لطول أمله وتماديه في غفلته واغتراره بإمهال الله له. ثم قال (وما أظن الساعة قائمة) كائنة فيما سيأتي، ولكن رددت بالبعث عند قيامها لأجدن خيراً من هذه الجنة مرجعاً وعاقبة ومدار هذا الطمع واليمين الفاجرة اعتقاد أن الله تعالى إنما أولاه ما أولاه في الدنيا لاستحقاقه لذلك ولكرامته على الله سبحانه ولم يدر أن هذا استدراج^(٣) وأن ظنه مبني على كفر وضلال.

النوع الرابع: كفر الإعراض: قال تعالى ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُّعْرِضُونَ﴾^(٤). أي ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما على وجه العبث والباطل وإنما بالحق وأجل مسمى أي إلى مدة معينة مضروبة لا تزيد ولا تنقص، وهذا يقتضي إنزال وحي وإرسال رسل لتحديد للإنسان المسار الذي ينسجم به مع حكمة خلق الخلق ومع مقتضى العبودية لله العزيز ومن ثم قال (والذين كفروا عما أُنذروا معرضون) فهم معرضون عن هول ذلك اليوم العظيم لا يؤمنون به ولا يهتمون بالاستعداد له^(٥).

(١) تفسير مفاتيح الغيب - الرازي - ج ٢ ص ٢٥٥.

(٢) سورة الكهف الآيات ٣٥-٣٦.

(٣) تفسير إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم - أبي السعود - ج ٥ ص ٢٢٢ بتصرف.

(٤) سورة الأحقاف آية ٣.

(٥) تفسير القرآن العظيم - ابن كثير - ج ٤ ص ١٥٣ بتصرف. الأساس في التفسير - سعيد حوى -

النوع الخامس: كفر النفاق قال تعالى ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾^(١) فهم قد عرفوا الإيمان ولكنهم اختاروا العودة إلى الكفر، وما يعرف الإيمان ثم يعود إلى الكفر قلب فيه فقه، أو تذوق، أو حياة... وإلا فمن يحيا في نور الإيمان الوضيء، ويتفياً ظلال الإيمان الندية ثم يعود إلى الكفر الكالح الميت الخاوي المجدب الكفور؟ إنه لا يفعل ذلك إلا المطموس القلب الذي لا يفقه ولا يحس بهذا الفارق العظيم"^(٢).

القسم الثاني: الكفر الأصغر الذي لا يخرج من الملة:

ومن هذا النوع ما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم "والله لا يؤمن والله لا يؤمن من لا يأمن جاره بوائقه"^(٣) قال العلماء: فإذا لم يؤمن فقد كفر ولا يجوز غير ذلك، إلا أنه كفر من جهة العمل، لأنه لا يضيع ما فرض عليه ويرتكب الكبائر إلا من قلة خوفه، وقلة تعظيمه لله ووعيده، فقد ترك من الإيمان التعظيم الذي صدر عنه الخوف والورع عن الخوف، فأقسم النبي صلى الله عليه وسلم أنه لا يؤمن إذا لم يأمن جاره بوائقه.

وقال صلى الله عليه وسلم "سباب المسلم فسوق وقتاله كفر"^(٤) وقال صلى الله عليه وسلم "إذا قال المسلم لأخيه يا كافر ولم يكن كذلك باء بالكفر"^(٥).
فقد سماه النبي صلى الله عليه وسلم بقتاله أخاه كافراً ويقول له يا كافر كافراً،

(١) سورة المنافقون آية ٣.

(٢) في ظلال القرآن - سيد قطب - م ٨ ج ٢٨ ص ١٠٧.

(٣) صحيح البخاري - كتب الأدب - باب ما ينهى من السباب واللعن م ٣ ج ٣ ص ٢٣٤. صحيح مسلم -

كتاب الإيمان - باب بيان تحريم إيذاء الجار ج ١ ص ٦٨ رقم ٤٦.

(٤) صحيح البخاري - كتب الأدب - باب ما ينهى من السباب واللعن م ٣ ج ٣ ص ٢٤٠. صحيح مسلم -

كتاب الإيمان - باب بيان قول النبي صلى الله عليه وسلم سباب المسلم فسوق وقتاله كفر - ج ١ ص ٨١ رقم

٦٤.

(٥) صحيح البخاري - كتب الأدب - باب من كفر أخاه بغير تأويل فهو كما قال م ٣ ج ٣ ص ٢٥٤. صحيح

مسلم - كتاب الإيمان - باب بيان حال إيمان من قال لأخيه المسلم يا كافر ج ١ ص ٧٩ رقم ٦٠.

وهذا فيه إشارة واضحة إلى ما يوليه الإسلام من عناية كبيرة بتماسك الأمة وقوتها. إذ اعتبر هذه الأعمال التي تساعد في تفرق الأمم واختلافها وتنازعها من خلال الاعتداء على الجيران وإيذائهم وقتال الآخرين والتنازع معهم وإتقاد المسلمين بالتهمة الباطلة كالكفر مثلاً، هذه الأفعال والأقوال التي تفسد المجتمع وتشتت شمله اعتبرها الإسلام كفرةً لما لها من دور خطير في إضعاف شوكة المسلمين وإهلاكهم وانحدارهم.

ومن الكفر الأصغر كفر النعمة قال تعالى ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾^(١).

هذا مثل ضربه الله للقرى التي تكفر بنعمة الله وما يحل بها جراء كفرها بالنعمة التي أنعم الله بها عليها، وذلك بأن يلبسها ويذيقها الجوع بعد أن كان يأتيها رزقها رغداً من كل مكان وكذلك يبدلها الخوف بالأمن بسبب كفرها بالله ونعمة، وبسبب صنيعهم وبغيهم وتكذيبهم الرسول صلى الله عليه وسلم المرسل إليهم من ربه^(٢).

أسباب الكفر (المخرج من الملة):

بداية الكفر في البشرية كان من خلال الغلو في الصالحين، عن عبد الله بن عباس قال في قوله تعالى ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾^(٣).

هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم: أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً وسموها بأسمائهم ففعلوا، ولم تعبد حتى إذا هلك أولئك ونسي العلم عبدت^(٤).

وقد انتشر الشرك والكفر بعد ذلك حتى عم كثيراً من البلاد، فلما جاء

(١) سورة النحل آية ١١٢.

(٢) تفسير القرآن العظيم - ابن كثير - ج ٢ ص ٥٨٩. فتح القدير - الشوكاني - ج ٣ ص ٢٤٩ بتصرف.

(٣) سورة نوح آية ٢٣.

(٤) صحيح البخاري - كتاب التفسير - سورة (إنا أرسلنا) نوح ٢٠ ج ٢ ص ٦٨١.

الإسلام حارب الشرك والكفر حربًا شعواء مما أدى إلى انحساره بشكل كبير. وقد ذكر العلماء أسبابًا تؤدي إلى الكفر ومنها:

١. الطعن في ألوهية الله سبحانه: كإنكار الخالق سبحانه أو إنكار الكمال فيه، أو وصفه بما هو متره عنه سبحانه، كوصفه بأنه ثالث ثلاثة، أو أنه جسد من الأجساد أو يحل فيها، أو أنه غير قادر على الخلق، أو أنه غير محيط بكل شيء علمًا، أو أنه غير متصرف في هذا الكون وفي تدبير أموره، أو أنه غير عادل في أحكامه أو في قضائه، أو إذا استباح الإنسان عبادة مخلوق ما من المخلوقات ونحو ذلك. ويدخل في المنكرين للحقائق التي تتصل بأمر الألوهية أصناف من الناس وفرق كثيرة منهم: الملحدون والزنادقة والوثنيون والمجوس، وأصحاب الملل التي تعدد الله أو تجسده.

٢. إنكار إرسال الرسل عليهم السلام أو تكذيبهم فيما ينقلون عن الله تعالى، أو إنكار أي نبي منهم ممن ثبتت نبوته بدليل قاطع، أو إنكار عموم رسالة محمد صلى الله عليه وسلم، أو إنكار أنه خاتم النبيين والمرسلين وأنه لا نبي بعده. ويدخل في المنكرين للحقائق الاعتقادية التي تتصل بأمر النبوات: البراهمة^(١) الذين ينكرون أصل النبوات، واليهود الذين ينكرون نبوة عيسى ومحمد، والنصارى الذين ينكرون نبوة محمد أو عموم رسالته للناس جميعًا، ونحو هؤلاء طوائف.

٣. إنكار الملائكة والجن وإنكار الكتب السماوية إجمالًا، وإنكار القرآن ولو آية من آياته الكريمات أو إنكار أنه كلام الله وزعم أنه كلام محمد صلى الله عليه وسلم أو غيره من الخلق ملكًا كان أو بشرًا، لأن جميع آيات القرآن كما أخبر عليه السلام من كلام الله، فمن أنكر شيئًا من ذلك فقد كذب الرسول صلى الله عليه وسلم.

(١) البراهمة: هم قبيلة بالهند فيهم أشراف أهل الهند، ويقولون إنهم من ولد برهمي ملك من ملوكهم قديم، ولهم علامة ينفردون بها، وهي خيوط ملونة بحمرة وصفرة يتقلدونها تقلد السيوف، وهم يقولون بالتوحيد على نحو قولنا إلا إنهم أنكروا النبوات. الفصل في الملل والأهواء والنحل - لابن حزم - ج ١ ص ١٣٧.

٤. إنكار يوم القيامة والدار الآخرة، والبعث والجنة والنار والميزان والحساب وما إلى ذلك مما ثبت بدليل قاطع.

٥. نفي استحقاق الخالق لأن يعبد بأي نوع من أنواع العبادة، أو إثبات هذا الاستحقاق لأي مخلوق من مخلوقات الله سبحانه وتعالى، فكل تصرف أو قول أو اعتقاد يتضمن أحد هذين الأمرين يدخل صاحبه في الكفر والردة، والعبادة التي لا تستحق إلا لله هي الخضوع والتذلل والطاعة والانقياد ومما يدخل فيها الحب والخشية والاستعانة والدعاء والتوكل والرجاء والركوع والسجود والصوم والذبح والطواف والخشوع وغيرها. وبناء على ذلك فإن من ينفي بقول أو اعتقاد أو عمل استحقاق الله لهذه المعاني يكفر، فيكفر من قال أو اعتقد أن الله سبحانه لا يخشى ولا يدعي أو لا يستعان به أو لا يركع له أو لا يرجى أو يسخر ممن عبد الله أو يستخف بمن يدعو الله أو يستعين به أو يرجوه بسبب دعائه لله واستعانته به أو الصلاة له أو الصوم أو الطواف أو أي فعل أو قول يعده الشرع عبادة، لأن استهزائه واستخفافه لذلك أو لبعضه يدل بصورة قاطعة على عدم اعتقاده باستحقاق الباري لهذه العبادات. ويكفر من يثبت لغير الله شيئاً من العبادات سابقة الذكر، فيكفر من يدعي استحقاقه لعبادة من العبادات أو أمر الناس بممارستها له ومن أجله، ويكفر من يصدقه ويرضى بقوله أو يمارس بعض تلك العبادات له.

٦. ويكفر من حكم بغير ما أنزل الله إن اعتقد أن الحكم بما أنزل الله غير واجب وأنه مخير فيه، أو استهان به مع تيقنه أنه حكم الله، ويكفر كذلك من ادعى أن له الحق في تشريع ما لم يأذن به الله، بسبب ما أوتي من السلطان والحكم فيدعي أن له الحق في تحليل الحرام وتحريم الحلال، ومن ذلك وضع القوانين والأحكام التي تبيح الزنا والربا وكشف العورات، أو تغيير ما جعل الله لها من العقوبات المحددة في كتاب الله أو في سنة رسوله صلى الله عليه وسلم قال تعالى ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ

بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ»^(١). يقول ابن تيمية رحمه الله في هذه الآية "لا ريب أن من لم يعتقد وجوب الحكم بما أنزل الله على رسوله فهو كافر، فإنه ما من أمة إلا وهي تأمر بالعدل، وقد يكون العدل في دينها ما رآه أكابرهم، بل كثير منهم من ينتسبون إلى الإسلام، يحكمون بعاداتهم التي لم يزلها الله كسواليف البادية ويرون أن هذا هو الذي ينبغي الحكم به دون الكتاب والسنة وهذا هو الكفر"^(٢).

٧. ويكفر من أنكر حكماً من الأحكام الشرعية الثابتة في القرآن والسنة وإنكار أركان الإسلام الخمسة كلها أو بعضها، ويكفر من أنكر تحريم المحرمات المعلومة من الدين بالضرورة كحرم السرقة والزنا وشرب الخمر وعقوق الوالدين، لكن يعذر من جحد شيئاً ليس مشتهراً في الدين ولا يعلمه إلا خاصة العلماء، كما يكفر من حرم شيئاً معلوماً من الدين بالضرورة أن الله أباحه: كاعتقاد أن النكاح بصفته المشروعة في الإسلام حرام وكاعتقاد حرمه أكل لحوم الحيوانات التي علم من الدين بالضرورة أن الله أباح تذكيته.

٨. الرضى بالكفر وعدم الرضى بالإسلام كفر، ومن مظاهر ذلك: أولاً: الاستهزاء بشيء من دين الإسلام ويدخل في ذلك الاستهزاء بالله ورسوله وكتابه أو بالمؤمنين بسبب إيمانهم ونحو ذلك قال تعالى ﴿قُلْ أِبَاللَّهِ وَعَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ لَا تَعْتَدِرُوا قَدْحَكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾^(٣). ثانياً: ظهور الكراهية والغضب عند ذكر الله ورسوله أو تلاوة كتابه قال تعالى ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾^(٤)

هذه باختصار أسباب الكفر التي إن فعل الإنسان شيئاً منها أو اعتقده أو قاله كفر وخرج من الدين إن كان دخل فيه.^(٥)

(١) سورة المائدة آية ٤٤.

(٢) منهاج السنة النبوية مجموعة التوحيد - ابن تيمية - ص ١٩٢.

(٣) سورة التوبة آية ٦٥-٦٦.

(٤) سورة محمد آية ٩.

(٥) انظر في أسباب الكفر شرح العقيدة الطحاوية - لابن أبي العز الحنفي - ص ٢٠١ وما بعدها باختصار.

المطلب الثاني: أمثلة على أثر الكفر في الهلاك:

إن الأمثلة على أثر الكفر في هلاك الأمم والشعوب كثيرة متعددة، وقد قص القرآن قصص كثير من تلك الأمم التي أهلكتها الله بكفرها، ومنها قوم نوح وعاد وثمود وغيرها من الأمم.

والباحث في هذا المطلب يود التحدث عن مصائر هذه الأقوام الثلاثة وما آل إليه حالها بسبب مخالفتها لرسول ربها وكفرها بآيات الله المتزلة إليها، ليكون في ذلك عبرة وعظة لمن تدبر حالها وعلم مصيرها ونبدأ بقوم نوح عليه السلام.

أولاً: هلاك قوم نوح عليه السلام:

بعث الله نوحاً عليه السلام إلى قوم يعبدون الأوثان من دون الله سبحانه فدعاهم إلى نبد ما يعبدون منها، وإلى توحيد الله سبحانه، ولبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم ليلاً ونهاراً، سراً وعلانية، فلم يزداهم دعاؤه إلا بعداً ونفوراً قال تعالى على لسان نوح عليه السلام ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَاراً فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَاراً وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَعْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَاراً﴾^(١).

فكان دعاء نوح لقومه دعاء دائماً بالليل والنهار من غير تقصير إلا إنهم لم يزدادوا بدعائه لهم إلا بعداً عنه. قال مقاتل^(٢): يعني تباعدًا عن الإيمان. وأسند الزيادة إلى الدعاء لكونه سببها، وكان كلما دعاهم إلى الإيمان بالله والطاعة له يجعلون

=الإسلام عقيدة وشرعية - محمود شلتوت - ص ٣٢. الإيمان أركانه حقيقته نواقضه - محمد نعيم ياسين - ص

١٣١-١٥٦ باختصار. العقائد الإسلامية وأسسها - عبد الرحمن حبنكة الميداني - ص ٧٢٠-٧٢١.

(١) سورة نوح الآيات ٥-٧.

(٢) مقاتل بن سليمان بن بشر، أبو الحسن البلخي، قدم بغداد وحدث بها عن عطية العون وسعيد المقبري والضحاك بن مزاحم وغيرهم، كان على علم بال تفسير، قال ابن المبارك ما أحسن تفسيره لو كان فقهه ومات مقاتل بن سليمان سنة خمسين ومائة من الهجرة وقيل بعد ذلك. انظر تاريخ بغداد - للبيهقي -

ج ١٣ ص ١٦٠. ميزان الاعتدال للذهبي ج ٣ ص ١٩٦.

أصابعهم في آذانهم لئلا يسمعوا له ويستغشون ثيابهم أي يغطوا بها وجوههم لئلا يروه وزيادة في عدم السماع منه. وأصروا على كفرهم وعنادهم واستكبروا عن قبول الحق استكباراً شديداً^(١).

ورغم هذا الصدود عن دعوته، استمر نوح في تذكيرهم واستعمل في دعوته أساليب متعددة من الجهر والإسرار، فلم يستجيبوا له، بل آذوه إيذاء شديداً ونكلوا به تنكيلاً عظيماً.

قال ابن إسحاق "إن قوم نوح كانوا يبطشون به فيخنقونه حتى يغشى عليه فإذا أفاق قال: اللهم اغفر لي ولقومي فإنهم لا يعلمون حتى إذا تمادوا في معصيتهم وعظمت منهم الخطيئة وتطاول عليه وعليهم الشأن اشتد عليه البلاء وانتظر النجل بعد النجل^(٢)، فلا يأتي قرن إلا كان أخبث من الذي كان قبله... وكان يضرب ويلف ويلقي في بيته يرون أنه قد مات فإذا أفاق اغتسل وخرج إليهم يدعوهم إلى الله، فلما طال ذلك عليه ورأى الأولاد شرّاً من الآباء قال: رب قد ترى ما يفعل بي عبادك فإن تك لك فيهم حاجة فاهداهم وإن يك غير ذلك فصبرني إلى أن تحكم فيهم"^(٣). فأوحى الله إليه ﴿أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ﴾^(٤) فلما يئس من إيمانهم دعا عليهم فقال ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَيَّ الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾^(٥) "أي نازل دار، يعني لا تدع منهم أحداً إلا أهلكته"^(٦).

فلما شكوا إلى الله واستنصره عليهم أوحى الله إليه أن يصنع السفينة وأن يحمل فيها من كل زوجين اثنين وأهله قال تعالى ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوْحَيْنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ

(١) فتح القدير - الشوكاني - ج ٥ ص ٣٦٨.

(٢) النجل: النسل. المختار الصحاح ص ٣٢٢.

(٣) الكامل في التاريخ ج ١ ص ٥٥.

(٤) سورة هود آية ٣٦.

(٥) سورة نوح آية ٢٦.

(٦) مجمع البيان في تفسير القرآن - للطبرسي - ج ٢٩ ص ٧٣.

سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ»^(١) .

وهذا بيان من الله أنه إذا جاء أمره وحل بأسه أن يحمل فيها من كل زوجين اثنين من الحيوانات وسائر ما فيه روح، ومن المأكولات وغيرها لبقاء نسلها وأن يحمل معه أهل بيته من ولده ونسائهم إلا من سبق عليه القول منهم أي إلا من كان كافرًا فإنه نفذت فيه الدعوة التي لا ترد ووجب عليه البأس الذي لا يرد، وأمر أن لا يراجعه فيهم إذا حل بهم ما يعاينه من العذاب العظيم الذي قد حتمه عليهم الفعال لما يريد^(٢) .

وبعد أن أدخل نوح عليه السلام من أمر بإدخالهم في السفينة واطمأن ومن معه في الفلك جاء الماء كما أمر الله تعالى ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾^(٣) عند ذلك ارتفع الماء وطمى، وغطى نوح السفينة عليه وعلى من معه وأخذت السفينة تسير بهم في موج كالجبال، ونادى نوح ابنه وكان مع الكافرين ﴿يَابُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ قَالَ سَاوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾^(٤) .

وعلا الماء وارتفع وبلغ رؤوس الجبال، فغرق كل من على وجه البسيطة إلا نوح ومن كان معه^(٥) عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "لو رحم الله أحدًا من قوم نوح لرحم أم الصبي"^(٦)، ثم قال "كان نوح مكث في قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا يدعوهم إلى الله عز وجل حتى كان آخر زمانه غرس شجرة فعظمت وزهبت كل مذهب ثم قطعها، ثم جعل يعمل سفينة فيمرون به

(١) سورة المؤمنون آية ٢٦ .

(٢) انظر جامع البيان في تفسير القرآن - الطبري - ج ٩ ص ١٣ .

(٣) سورة القمر الآيتان ١١-١٢ .

(٤) سورة هود آية ٤٣ .

(٥) الكامل في التاريخ - ابن الأثير - ج ١ ص ٣١ .

(٦) المستدرک علی الصحیحین - النيسابوري - كتاب التفسير - تفسير سورة هود ج ٢ ص ٣٧٢ رقم ٣٣١٠

فيسألونه، فيقول: أعمل سفينة فيسخرن منه ويقولون: تعمل سفينة في البر فكيف تجري؟ فيقول: سوف تعلمون، فلما فرغ منها وفار التنور وكثر الماء في السكك خشيت أم الصبي عليه، وكانت تحبه حباً شديداً - فخرجت إلى الجبل حتى بلغت ثلثه، فلما بلغها الماء خرجت حتى بلغت ثلثي الجبل، فلما بلغها الماء خرجت حتى استوت على الجبل فلما بلغ الماء رقبتها رفعته بيدها، حتى ذهب به الماء، فلو رحم الله منهم أحداً لرحم أم الصبي" (١).

هذا هو مصير قوم نوح عليه السلام، أما السفينة التي كان فيها ومن معه فقد استقرت على الجودي - وهو جبل بقردي (٢) بأرض الوصل - كما قال تعالى ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (٣) وهكذا أهلك الله الكافرين، وأنجى المؤمنين الموحدين، وهذه سنة الله في عباده ينصر رسله والذين آمنوا، ويجعل العاقبة لهم والدائرة على أعدائهم.

ثانياً: هلاك عاد الأولى:

إن قوم عاد من ذراري نوح عليه السلام والذين نجوا معه في السفينة، وقيل كان عددهم ثلاثة عشر.. وما من شك أن أبناء هؤلاء المؤمنين الناجين في السفينة كانوا على دين نوح عليه السلام وهو الإسلام، كانوا يعبدون الله وحده، ما لهم من إله غيره، وكانوا يعتقدون أنه رب العالمين فلما طال عليهم الأمد وتفرقوا في الأرض، ولعب معهم الشيطان لعبة الغواية وقادهم من شهواتهم وفي أولها شهوة الملك، وشهوات المتاع وفق الهوى لا وفق شريعة الله، عاد قوم هود يستنكرون أن يدعوهم

(١) المستدرک علی الصحیحین - النیسابوری - کتاب التفسیر - تفسیر سورة هود ج ٢ ص ٣٧٢ رقم ٣٣١٠

وصححه النیسابوری . التاريخ الكبير - الذهبي - ج ١ ص ١٨٠ .

(٢) قردی: قرية قريبة من جبل الجودي، وبقرها قرية الثمانين قرب جزيرة ابن عمر وعندها رست سفينة نوح

عليه السلام. معجم البلدان - البغدادي - ج ٤ ص ٣٢٢

(٣) سورة هود آية ٤٤ .

نبيهم إلى عبادة الله وحده من جديد" (١). فعبدوا الأصنام وكانوا أول من عبدها بعد الطوفان، فأرسل الله إليهم أخاهم هوداً فدعاهم إلى الله وإلى إفراذه بالعبادة والإخلاص له فكذبوه وخالفوه وتنقصوه قال تعالى ﴿وَأَلِيَّ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٢). فقال له قومه كما أخبر الله عنهم إنا لنراك في سفاهة غريبة أو تامة راسخة تحيط بك من كل جانب بأنك لم تثبت على دين آبائك وأجدادك بل قمت تدعو إلى دين جديد تحقر فيه الأولياء والصالحين من قومك الذين اتخذت الأمة لهم الصور والتماثيل لتخليد ذكركم والتقرب إلى الله تعالى بشفاعتهم. فقال لهم هود ليس بي أدنى شيء من ضروب السفاهة وشوائبها ولكني رسول من رب العالمين جئتكم بالحق من الله الذي خلق كل شيء فهو رب كل شيء ومليكه، ثم ذكرهم بما من الله به عليهم من البسطة في الخلق إذ جعلهم أطول أبناء جنسهم وأسدى عليهم النعم والخير لكنهم تمردوا وطغوا وأنكروا على هود ما كان يدعوهم إليه ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (٣) فقال لهم هود عليه السلام ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانظُرُوا إِلَيَّ مَعَكُمْ مِنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾ (٤). وهذا تهديد ووعد من هود عليه السلام لقومه، ومن ثم جاءهم العذاب والهلاك بأن أرسل الله عليهم الريح العقيم ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم" (٥).

(١) في ظلال القرآن - سيد قطب - ٣م ج ٨ ص ٥٤٦.

(٢) سورة الأعراف آية ٦٥-٦٧.

(٣) سورة الأعراف آية ٧٠.

(٤) سورة الأعراف آية ٧١.

(٥) انظر جامع البيان في تفسير القرآن - الطبري - ج ٥ ص ١٥٥. تفسير القرآن العظيم - ابن كثير - ج ٢ ص

٢٢٦. تفسير المنار - محمد رشيد رضا - ج ٨ ص ٤٩٧.

قال محمد بن إسحاق: لما أبت عاد إلا كفرًا أمسك الله عنهم القطر ثلاث سنين فيما يزعمون حتى جهدهم ذلك قال وكان الناس إذا جهدهم أمر في ذلك الزمان طلبوا من الله الفرج فيه إنما يطلبونه بجرمة ومكان بيته وكان معروفًا عند أهل ذلك الزمان وبه العماليق مقيمون... قال فبعث عاد وفدًا قريبًا من سبعين رجلًا إلى الحرم ليستسقوا لهم عند الحرم... فدعوا لقومهم ودعا لهم رنجل يقال له "قيل بن عتر" فأنشأ الله سحابات ثلاثًا بيضاء وسوداء وحمراء ثم ناداه مناد من السماء اختر لنفسك أو لقومك من هذا السحاب فقال: اخترت هذه السحابة السوداء فإنها أكثر السحاب ماء فناداه مناد اخترت رمادًا رمدًا لا تبقي من عاد أحدًا.

فسخر الله عليهم الريح سبع ليالٍ وثمانية أيام حسومًا، والحسوم الدائمة فلم تدع من عاد أحدًا إلا هلك قال تعالى ﴿وَأَمَّا عَادُ فَاهْلَكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعِجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ﴾^(١).

فأهلكهم الله بريح صرصر وهي الشديدة العصف مع شدة بردها عاتية، يقال عتت على خزانها في الهبوب فتجاوزت في الشدة والعصف مقدارها المعروف في الهبوب والبرد. قال ابن عباس عن عاد: أهلكوا بريح مهلكة باردة عتت عليهم بغير رحمة ولا بركة دائمة لا تفتت.

وعن علي رضي الله عنه قال: "لم تنزل قطرة من ماء إلا بكيل على يدي ملك فلما كان يوم نوح أذن للماء دون الخزان فطغى الماء على الجبال فخرج فذلك قول الله ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾^(٢) ولم ينزل من الريح شيء إلا بكيل على يدي ملك إلا يوم عاد فإنه أذن لها دون الخزان فخرجت"^(٣).

وقد وصف الله قوم عاد وما حل بهم فشبههم بأعجاز النحل التي لا رؤوس لها وذلك أن الريح كانت تجيء إلى أحدهم فتحمله فترفعه في الهواء، ثم تنكسه على أم

(١) سورة الحاقة آية ٧.

(٢) سورة الحاقة آية ١١.

(٣) تفسير جامع البيان في تفسير القرآن - ابن جرير الطبري - ج ٢٩ ص ٣٢.

رأسه فتشدخه فيبقى جثة بلا رأس" (١) .

أما هود عليه السلام فإنه اعتزل ومن معه من المؤمنين في حظيرة ما يصيبه ومن معه إلا ما تلين عليه الجلود وتلذ الأنفس" (٢) .

ثالثاً: هلاك ثمود:

كانت ثمود تسكن بالحجر بين الحجاز والشام وكانوا بعد عاد قد كثروا وكفروا وعتوا فبعث الله إليهم صالح بن عبيد بن أسف، يدعوهم إلى توحيد الله تعالى وإفراده بالعبادة والإكثار من الأعمال الصالحة، ويحذرهم من مخالفته والعدول عن طاعته فإن عاقبة ذلك وخيمة، ﴿قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ (٣) .

ولم يزل صالح يدعوهم فلم يتبعه منهم إلا القليل، ولما طال عليه وعليهم الأمد سألوه أن يأتيهم بآية، قالوا له أخرج لنا من هذه الصخرة ناقة جوفاء (٤) عشراء، فإن فعلت ذلك صدقناك فأخذ عليهم الميثاق بذلك وقال لهم "أرأيتم إن أحببتكم إلى ما سألتكم على الوجه الذي طلبتم أتؤمنون بما جئتمكم به وتصدقوني فيما أرسلت به قالوا نعم، فأتى الصخرة وصلى ودعا ربه فإذا هي تتمخض كما تتمخض الحامل ثم انفجرت وخرج من وسطها ناقة عشراء كما طلبوا وهم ينظرون، فلما عاينوها كذلك رأوا أمراً عظيماً ومنظراً هائلاً وقدرة باهرة ودليلاً قاطعاً وبرهاناً ساطعاً، فأمن به سيد القوم ورهط منهم، وعند ذلك قال لهم صالح عليه السلام ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا

(١) البداية والنهاية - ابن كثير - ج ١ ص ١٢٨ .

(٢) تفسير القرآن العظيم - ابن كثير - ج ٢ ص ٢٢٦ .

(٣) سورة هود آية ٦٢ .

(٤) جوفاء: الجوف خلاء الجوف، كالقصبه الجوفاء، والجوفان جمع الأجوف. لسان العرب - ابن منظور - ج

تَأْكُلُ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ^(١) .

وأقامت الناقة وفصيلها بعدما وضعت بين أظهرهم مدة تشرب من بئرها يوماً وتدعه لهم يوماً، وكانوا يشربون لبنها يوم شربها يحتلبونها فيملكون ما شاءوا من أوعيتهم وأوانيتهم وكانت تسرح في بعض تلك الأودية ترد من فجج - طريق - وتصدر من غيره ليسعها لأنها كانت تتضلع من الماء، فلما طال عليهم الأمد واشتد تكذيبهم لصالح عليه السلام عزموا على قتلها ليستأثروا بالماء كل يوم، فأوحى الله إلى صالح أن قومك سيعقرون الناقة فقال لهم ذلك، فقالوا ما كنا لنفعل فقال "إن لم تفعلوا أنتم ذلك أوشك أن يولد فيكم من يفعله، وقال لهم صفة عاقرها أحمر أزرق العينين أشقر، فجعلوا الشرط مع القوابل وأمروهم بتفقد الأطفال فمن كان على الصفة قتل، وكان في المدينة شيخان عزيزان وكان لهذا ابن ولهذا بنت، فتصاهروا فولد بين الزوجين قدار، على الصفة المذكورة، فهم الشرط بقتله، فمنع منه جداه حتى كبر، فكان الذي عقرها بالسيف في عراقبيها، فخرت ساقطة إلى الأرض ثم طعنها في لبتها فنحرها. وهرب فصيلها عند ذلك. فصعد على جبل يقال له القارة، فرغا ثلاثاً فقال صالح هذا ميعاد ثلاثة أيام للعذاب قال تعالى على لسان صالح ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعَدُّ غَيْرُ مَكْدُوبٍ﴾^(٢) وكان في المدينة تسعة رهط وهم رؤساء قومهم، فعزموا على قتل صالح ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ وَمَكْرُوهَا وَمَكْرًا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾^(٣) فحلف كل واحد من هؤلاء بالله العظيم على موافقة الآخرين على قتل صالح عليه السلام ليلاً، وأهله كذلك وأي الذين آمنوا معه، ثم توافقوا على إنكار التهمة بالقتل، بأن يقولون لمن يطالب بثأره، ما حضرنا مكان هلاك الأهل مع تفرقهم في الأماكن الكثيرة فضلاً عن مكان صالح فضلاً عن مباشرة القتل، وإنا لصادقون فيما نلحف عليه وفيما ذكرنا.

(١) سورة الأعراف آية ٧٣.

(٢) سورة هود آية ٦٥.

(٣) سورة النمل ٤٩.

ولكن الله لا يصلح عمل المفسدين، بل يرد كيدهم إلى نحورهم، فهم مكروا بصالح ومن معه بهذه الحيلة التي توافقوا عليها، ولكن الله مكر بهم بأن جعل هذه الحيلة من أسباب هلاكهم وهم لا يشعرون. فكان عاقبة مكرهم أن دمرهم الله وقومهم أجمعين.

وكان صالح عليه السلام قد أذرهم بالعذاب بعد ثلاثة أيام من قتل الناقة كما مر في قوله تعالى (قال تمتعوا في داركم ثلاثة أيام). وكان اليوم الأول من هذه الأيام يوم الخميس فأصبحت ثمود في هذا اليوم ووجوههم مصفرة، ثم أصبحوا في اليوم الثاني ووجوههم محمرة، ثم أصبحوا في اليوم الثالث ووجوههم مسودة، فلما كان صبيحة اليوم الرابع تخطوا وتأهبوا وقعدوا ينتظرون ماذا يحل بهم من العذاب والنكال والنقمة... فلما أشرقت الشمس جاءتهم صيحة من السماء من فوقهم ورجفة شديدة من تحتهم فدمرهم الله تدميراً بظلمهم وكفرهم فقتل بيوتهم خاوية خالية ساقطة لم تعمر من بعدهم. قال تعالى ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأَهْلَكُوا بِطَاغِيَةٍ﴾^(١) وهي الصيحة الطاغية التي جاوزت مقادير الصباح وطغت عليها^(٢).

هذه بعض الأمثلة مما قصه الله علينا من أنباء الأمم الغابرة وما حل بها جراء كفرها وجحودها وهذه سنة الله في خلقه بأن يهلك الكافرين الذين لا يستجيبون لدعوة رسلهم، بل يجاربونهم ويجادونهم ويمكرون بهم.

هذا الجزاء الذي حل بأولئك إنما هو جزاءً وفاقاً، إنه موافق لحالهم وعنادهم، وهو العلاج الناجع لهم، لتطهر الأرض من نجسهم ورجسهم ولئلا يبقوا جداراً مانعاً في وجه دعوة الله يصدون الناس عن اتباعها ويمنعون الرسل والأنبياء من إيصالها لأهلها.

(١) سورة الحاقة آية ٧.

(٢) انظر في هذا الموضوع جامع البيان في تفسير القرآن - الطبري ج ٢٩ ص ٣٢. المحرر الوجيز - لابن عطية - ج ٩ ص ١٧٨. محاسن التأويل - للقاسمي - ج ١٣ ص ٤٦٧٥. تفسير القرآن العظيم - ابن كثير - ج ٢ ص ٢٢٨. تاريخ الأمم والشعوب - للطبري - ج ١ ص ١٥٩. الكامل في التاريخ ابن الأثير - ج ١ ص ٦٩. البداية والنهاية - ابن كثير - ج ١ ص ١٣٤.

وهذا العقاب القاسي الذي صبه الله على رؤوس الكافرين دون رحمة بهم حتى لم يرحم أم الصبي ولا حتى الصبي الذي كان معها من قوم نوح - هذا العذاب الذي حل بتلك الأقوام، يمكن أن يتكرر مع غيرهم في هذه العصور، فالله سبحانه لا يجابي أحداً من الخلق، فالأمة التي تكفر وتنحرف عن طريق الإيمان أمة مستحقة لعقاب الله وعذابه، لكن الله يمهّل ولا يهمل، وإنه سبحانه يستدرج الأمم الكافرة لتزداد طغياناً وكفراً ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ (١).

فلا تغتر الأمم الكافرة اليوم بامهال الله لها، لأن عقابه وعذابه قريب منهم وإنما يملئ لهم ليزدادوا كفراً على كفرهم، وعناداً على عنادهم، حتى إذا جاء أمر الله أخذهم أخذ عزيز مقتدر فأهلكهم وأذلهم وجعل الدائرة تدور عليهم.

وبالتالي فإن في قصص الغابرين عبرة وعظة لمن اتعظ واعتبر، ليرجع الخلق إلى ربهم ويؤمنوا به ليجنبوا أنفسهم عقاب الله وعذابه الذي لا محالة سيزل بالكافرين، وإن فيما نراه من زلازل وأعاصير وبراكين وغيرها، إن فيها إنذارات ربانية بحلول العقاب والهلاك بالكافرين.

المبحث الثاني: الظلم

ويشتمل على مطلبين

المطلب الأول: تعريف الظلم والنهي عنه

تعريف الظلم: يحمل على عدة معان وهي:

أ. وضع الشيء في غير موضعه. يقال: "من أشبه أباه فما ظلم" أي ما وضع الشبه في غير موضعه.

ب. الجور ومجاوزة الحد.

ج. الميل عن القصد.

والمصدر الحقيقي الظلم بالفتح ظلم يظلم بالفتح فهو ظالم وظلوم^(١).

النهي عن الظلم:

يحرص الإسلام على إقامة مجتمع نظيف خال من المفاسد والانحرافات، تسوده الطمأنينة والمحبة والإخاء، ليبقى مجتمعاً قوياً متماسكاً، ولتحقيق هذا لهدف السامي فهم الإسلام عن الظلم الذي يؤدي إلى بث وزيادة الأحقاد والضغائن مما ينتج عنه تفكك المجتمع وضعفه بسبب هيمنة الأقوياء على الضعفاء، والاعتداء على حقوقهم بلا مراعاة لهذه الحقوق.

وقد حذر القرآن من الظلم في آيات عديدة، وتوعد الظالمين بالعذاب الشديد، والعقاب الأكيد فقال سبحانه ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ مُهْطِعِينَ مُقْنَعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْنَدْتُهُمْ هَوَاءً﴾^(٢).

قال ابن عباس رضي الله عنهما " هذا وعيد للظالم وتعزية للمظلوم " وهذا الوعيد للظالمين إنما هو بتأخير جزائهم ليوم تشخص فيه أبصار الخلائق لظهور الأحوال

(١) انظر القاموس المحيط- الفيروز أبادي- ج ٤ ص ١٤٦. لسان العرب- ابن منظور- ج ٣ ص ٢٧٥٦. الصحاح

- الجوهري- ج ٥ ص ١٩٧٨.

(٢) سورة إبراهيم آية ٤٢-٤٣.

التي تكون يوم القيامة، فلا تغمض تلك الأبصار بل إنهم ينظرون من غير أن تطرف أجفانهم، وهم رافعوا رؤوسهم، لا ترجع إليهم أبصارهم فهي شاخصة، والمعنى أن نظرهم إلى شيء واحد (وأفتدكم هواء) أي إن قلوبهم قد خرجت من مواضعها فصارت في الحناجر^(١).

هذه صورة من صور الظالمين يوم القيامة، وفي مشهد آخر يقول الله عنهم ﴿وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأُوا العَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾^(٢) والمراد أنهم يطلبون الرجوع إلى الدنيا لعظم ما يشاهدون من العذاب، ثم ذكر حالهم عند عرض النار عليهم وحالهم حال الخاشعين الحقيرين المهانين بسبب ما لحقهم من الذل، وهم ينظرون من طرف خفي، يحركون أجفانهم بضعف وخفية بالمسارعة، كما ترى الذي يتيقن أن يقتل فإنه ينظر إلى السيف كأنه لا يقدر على أن يفتح أجفانه عليه ويملاً عينيه منه كما يفعل في نظره إلى المحبوبات من الأشياء^(٣).

يقول صاحب الظلال في هذه الصورة وهذا المشهد "والظالمون كانوا طغاة بغاة، فناسب أن يكون الذل هو مظهرهم البارز في يوم الجزاء، إنهم يرون العذاب فتتهاوى كبرياؤهم ويتساءلون في انكسار "هل إلى مرد من سبيل" في هذه الصيغة الموحية باليأس مع الالهفة والانهيار مع التطلع إلى أي بارقة للخلاص! وهم يعرضون على النار (خاشعين) لا من التقوى ولا من الحياء ولكن من الذل والهوان! وهم يعرضون منكسي الأبصار لا يرفعون أعينهم من الذل والعار (ينظرون من طرف خفي) وهي صورة شاخصة ذليلة^(٤).

وفي تهديد شديد ووعيد أكيد للظالمين يقول عز وجل ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا

(١) انظر زاد المسير- أبي الفرج الجوزي- ج ٤ ص ٣٧٠-٣٧١.

(٢) سورة الشورى آية ٤٤.

(٣) التفسير الكبير- الرازي- ج ١٤ ص ١٥٦ ط ١ بتصرف.

(٤) في ظلال القرآن- سيد قطب- ج ٧ ص ٢٥٣.

أَيِّ مُتَقَلِّبٍ يَتَقَلَّبُونَ﴾^(١) فإن في قوله تعالى (وسيعلم) تهويلاً عظيماً وتهديداً شديداً، وكذلك في إطلاق الذين ظلموا وإهتام أي منقلب ينقلبون^(٢) .

والظالمون يوم القيامة رغم ما هم فيه مما سبق ذكره من الرعب والخوف والذل والمهانة، فإنهم وحيدون بلا حميم ولا نصير مما يزيدهم وحشة ووجلاً قال تعالى ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾^(٣) فلا قريب لهم ينفعهم ولا يؤنس وحشتهم، وقال عز وجل ﴿أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾^(٤) فقد عدم النصير وأغلق السبيل أمامهم.

هذا وقد حرّم الله الظلم على نفسه وحرّمه على عباده كذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه "يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا"^(٥) .

والظلم ظلمات إذ يكون الظالمون في ظلام دامس يوم القيامة عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة"^(٦) .

وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال "من ظلم قيد شبر من الأرض طوقه من سبع أرضين يوم القيامة"^(٧) .

والظالمون يؤدون حقوق المظلومين في يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون، عندها

(١) سورة الشعراء آية ٢٢٧ .

(٢) فتح القدير - الشوكاني - ج ٤ ص ١٥١ .

(٣) سورة غافر آية ١٨ .

(٤) سورة الشورى آية ٤٥ .

(٥) صحيح مسلم - كتاب البر والصلة والآداب - باب تحريم الظلم - ج ٤ ص ١٩٩٤ رقم ٢٥٧٧ . مسند أحمد ج ٥ ص ١٦٠ .

(٦) صحيح مسلم - كتاب البر والصلة والآداب - باب تحريم الظلم - ج ٤ ص ١٩٩٤ رقم ٢٥٧٨ .

(٧) صحيح البخاري - كتاب بدء الخلق - باب ما جاء في سبع أرضين وقول الله تعالى (الله الذي خلق سبع سموات .. الآية) ٢م ج ٤ ص ١٣٢ بنحوه . صحيح مسلم - كتاب المساقاة باب تحريم الظلم وغصب الأرض وغيرها - ج ٣ ص ١٢٣٠ رقم ١٦١٠ بلفظه .

يأخذ المظلوم من حسنات الظالم حتى إذا فنيت حسناته أخذ من سيئات المظلوم وطرحت على الظالم، عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال "من كانت له مظلمة لأحد، من عرضه أو من شيء، فليتحلله منه اليوم قبل أن لا يكون دينار ولا درهم، إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته، وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه"^(١).

وظلم الإنسان للإنسان معناه اعتداء الظالم على المظلوم في نفسه أو ماله أو عرضه فمن قتل إنساناً أو ضربه أو شتمه أو سبه أو لعنه أو آذاه أي إيذائه في نفسه فهو ظالم لذلك الإنسان، وكذلك إن سلط عليه من يفعل به ذلك، أو أعان على شيء منه. ومن أخذ مالا لإنسان أو تسبب في أخذ ماله بغير حق، قليلاً كان أو كثيراً فإنه يعتبر ظالماً لهذا الإنسان، ومن عاب إنساناً يتقصه بذلك أو اتهمه بأنه فاسق أو فاجر أو قذفه بالزنا أو اتهمه بما هو بريء منه، أو ليس بريئاً ولكنه مستور لم يجاهر بما فعله من الذنوب فإنه بذلك يعتبر ظالماً له.

وإذا كان الإسلام أمر باحترام الملكية للمحال وللأشياء حتى قطع يد السارق المعتدي في ربع دينار، وأمر بصيانة الأعراس والمحافظة عليها فأمر بإقامة الحدود كحد الزنا وحد القذف^(٢) وحد الحرابة وهو قطع الطريق على الناس والاستيلاء على أموالهم أو قتلهم، إذا فعل الإسلام ذلك كله من أجل مجتمع آمن حر تحترم فيه الحقوق والواجبات، ثم جاء الظلمة من الحكام والأغنياء ليأكلوا حق الضعفاء ويذلوا الشعوب المغلوبة على أمرها فإهم يستحقون حينئذ أقسى العقاب في الدنيا والآخرة وهم أولى الناس أن يجلدوا ويرجموا ويصلبوا. وكما تدين تدان^(٣).

وعاقبة الظلم وخيمة ونهايته خطيرة ولا بد من الابتعاد عنه والإقلاع عن فعله

(١) صحيح البخاري - كتاب المظالم والغصب - باب من كانت له مظلمة عند الرجل فحلها له هل يبين مظلمته م ١ ص ٦١٤.

(٢) القذف هو الرمي بالزنا دون أربعة شهداء على ذلك. روائع البيان تفسير آيات الأحكام - الصابوني - ج ٢ ص ٥٧.

(٣) السلوك الاجتماعي في الإسلام - حسن أيوب - ص ١٠٠.

لمن وقع فيه أو ألم بشيء منه، وعلى الظالم أن يتحلل من مظلمته لئلا يُسأل هذه المظلمة في يوم عصيب شديد.

المطلب الثاني: خطر الظلم على الأمة:

إن للظلم خطره العظيم على الأمة فهو مهلك لها ومدمر لمقوماتها، إذ لا يمكن لأمة أن تعيش حياة كريمة عزيزة ما دام الظلم متغلغلاً بين أفرادها، وما دام الظالمون هم الذين يوجهون دفة الأمور فيها، لأنهم لا يسمحون لدعاة الحق أن يوصلوا دعوتهم إلى الناس وينشروا الحق بينهم، ولا يسمحون للعدل أن يأخذ مجراه مما يؤدي إلى فساد المجتمع وهلاكه، وإن كتاب الله زاخر بالآيات التي تبين أثر الظلم على الأمة وما يترتب على فشوه بين أفرادها.

قال تعالى ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونََ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾^(١).

أهلك الله السابقين لأنهم ظلموا الظلم العظيم وكفروا بالله الغني الكريم، وكذبوا الرسل فيما جاءوهم به من البينات والحجج الواضحات فما أغنت عنهم الحجج ولا البينات، فأهلكهم الله لعلمه أنهم لا يؤمنون (كذلك نجزي القوم المجرمين) مثل هذا الإهلاك الذي أعدنا لكل قوم اقترفوا قبيح الجرم وكبائر الإثم، وفي هذا وعيد وتحذير للظلمة المكذبين، وهي سنة الله العزيز القهار مضت في الأولين، ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين^(٢).

وإن أخذ الله للظالمين شديد إذا أخذهم لم يفلتهم بل أخذه شديد قال سبحانه ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى... وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾^(٣).

(١) سورة يونس آية ١٣.

(٢) انظر فتح الرحمن في تفسير القرآن - أ. د. عبد المنعم تليوب - ج ٣ ص ١٤١١. تفسير القرآن العظيم - ابن كثير - ج ٢ ص ٤٠٩.

(٣) سورة هود آية ١٠٠-١٠٢.

فقوله تعالى (ذلك) إشارة إلى ما قص من أنباء الأمم الهالكة كقوم نوح وعاد
وتمود وقوم لوط هذه القرى البائدة والحضارات السادرة، التي ما زالت أنباؤها باقية،
وكثير من آثارها معروضة مشاهدة ترحم النفس والخيال فمنهم الغارقون بالطوفان
ومنهم الهالكون بالعاصفة المدمرة ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسف به
وبداره الأرض ومنهم من يقدم قومه يوم القيامة فيرد النار، وما كان للناس من علم
بمذه الحضارات وأنبأهم القرآن الذي يتهدف بذلك إلى تربية الأمم والشعوب ومعرفة
سنن الله في الحضارات، فما زال منها قائم ترى آثاره وتشهد على ما بلغ أهلها من
القوة كبقايا عاد في الأحقاف وتمود في الحجر، ومنها حصيد كالزرع المحصود (وما
ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم) وظلم النفس هو تعطيل وسائل الإدراك والتدبر فيها،
وهي الحواس وذلك بالتولي عن الحق والتكذيب به والاستهزاء بالوعيد وعدم استعمال
العقل الاستعمال الصحيح، وعند ذلك حق بهم ما كانوا به يستهزئون .. (وكذلك
أخذ ربك إذا أخذ القرى) وبهذا الظلم يأخذ الله القرى، وقوله تبارك اسمه (وهي
ظالمة) في موضع الحال، أي والحال أن أهلها كافرون مفسدون ظالمون، إن بطش الله
القوي الجبار بالكفار والفجار لمرجع غليظ ماله من دافع (إن في ذلك لآية لمن خاف
عذاب الآخرة) ففي انتقام المولى تبارك اسمه من الباغين العادين الظالمين، لعبرة عظيمة
لمن يحذر عذاب اليوم الآخر ويخشاه فإنه إذا رأى ما حل في الدنيا بالمفسدين من
النكال واشتد حذره من عذاب الله واستقام على التقوى فإن عذاب الآخرة أشد
وأبقى" (١).

ومما يؤكد ما ذكرنا ويدل على أن الظلم من أهم عوامل الهلاك والانحدار قوله
تعالى ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ (٢).

والقصم هو القطع بل أشد حركات القطع، وجرسها اللفظي يصور معناها،
ويلقي ظل الشدة والعنف والتحطيم والقضاء الحاسم على القرى التي كانت ظالمة،

(١) انظر فتح الرحمن في تفسير القرآن - أ. د عبد المنعم تليوب ج ٣ ص ١٥٣٧. في ظلال القرآن - سيد قطب -

٤م ج ١٢ ص ٦٢٤.

(٢) سورة الأنبياء آية ١١.

فإذا هي مدمرة محطمة، (وأنشأنا بعدها قومًا آخرين) ثم أنشأنا بعد إهلاكهم أممًا أخرى سواهم (فلما أحسوا بأسنا إذا هم منها يركضون) فلما أيقنوا أن العذاب واقع بهم لا محالة كما أوعدهم أنبيأؤهم إذا هم يهربون سرعًا عجلين يعدون منهزمين. وهنا ننظر فنشهد حركة القوم في تلك القرى، وبأس الله يأخذهم، وهم كالفتران في المصيدة يضطربون مأخوذون ببأس الله كأنما الركن ينحيمهم من بأس الله، وكأنما هم أسرع عدوًّا فلا يلحق بهم حيث يركضون، ولكنها حركة الفأر في المصيدة بلا تفكير ولا شعور، وعندئذ يتلقون التهكم المرير (لا تركضوا وارجعوا إلى ما أترفتم فيه ومساكنكم لعلكم تسألون) لا تركضوا من قريبتكم وعودوا إلى متاعكم الهنيء وعيشكم الرغيد، لعلكم تقصدون للسؤال عما جره عليكم ونزل بأموالكم ومساكنكم فتحيبوا السائلين عما تشاهدون وتعلمون ﴿فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ﴾^(١) فما زالوا يرددون هذه المقالة حتى حصدوا حصدًا وخمدت حركتهم وهدأت أصواتهم ولم ينسوا بنت شقة^(٢).

هذه جملة من الآيات التي تحدثت عن مصير الظالمين، وعبرت كل آية منها بتعبير مستقل عن مآلهم فكان التعبير في الآية الأولى بالهلاك والثانية بالأخذ والثالثة بالقصم، وهي جميعًا ألفاظ توحى بسوء العاقبة بل إن جرسها شديد ومخيف، إنها ألفاظ قوية عنيفة تتلاءم مع حال تلك الأقوام الظالمة والعاقبة التي يستحقها الظالمون جراء ظلمهم وعداوتهم واعتدائهم على المستضعفين من المؤمنين، وهذا يطمئن أهل الحق والمظلومين في كل مكان وزمان بأن الظلم لن يدوم وأن عاقبة الظالمين عسيرة ونهايتهم سريعة وأن حبل الظلم قصير.

أمثلة على خطر الظلم على الأمم:

من الأمثلة الجلية التي تدل على خطر الظلم على الأمة، قصة فرعون وقومه مع موسى عليه السلام. فقد كان فرعون طاغية ظالمًا، استعبد بني إسرائيل فذبح

(١) سورة الأنبياء آية ١٥

(٢) في ظلال القرآن - سيد قطب - ٥٥ ج ١٧ ص ٥٢٢-٥٢٣. تفسير المراغي ج ١٧ ص ١٣.

أبناءهم وجعلهم عبيداً عنده مسخرين له مستذلين مهانين قال تعالى وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنْ أَنْتِ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ^(١) . هذا وصف لفرعون وقومه بأنهم ظالمين فقد ظلموا أنفسهم بالكفر والضلال، وظلموا بني إسرائيل واستعبدوهم فكانوا يذبحون أبناءهم، ويستحيون نساءهم، ويعذبونهم بالسحرة^(٢) والنكال.

فلما أرسل الله موسى إلى فرعون وقومه وجاءهم بالأدلة الواضحة والحجج البيينة، وهي حجج شاهدة بحقيقة ما جاء به موسى من عند الله قالوا لموسى: ما هذا الذي جئتنا به إلا سحر مفترى افتريته من قبلك تخرصته كذباً وباطلاً ما سمعنا به في أسلافنا وآبائنا الأولين الذين مضوا قبلنا.

فقال لهم موسى مجيباً لهم على قولهم ﴿رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾^(٣) أي ربي أعلم بالحق منا يا فرعون من المبطل ومن جاء بالحق الداعي إلى الرشاد، ومن الذي له العقبى المحمودة في الدار الآخرة منا، وهذه معارضة من نبي الله موسى عليه السلام لفرعون، وجميل مخاطبة، إذ ترك أن يقول له بل الذي غرّ قومه وأهلك جنوده، وأضل أتباعه أنت لا أنا، ثم بالغ في ذم عدو الله فقال (إنه لا يفلح الظالمون) أي إنه لا ينجح ولا يدرك طلبهم الظالمون الكافرون - يعني بذلك فرعون وقومه^(٤) .

وبذلك أقام الله الحجة على فرعون وقومه بإرسال موسى عليه السلام إليهم، الذي أراح عنهم الشبه وأقام الحجة عليهم بالترغيب تارة وبالترهيب أخرى قال تعالى ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصِ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَكَّرُونَ فَإِذَا جَاءَتْهُمْ

(١) سورة الشعراء آية ١٠

(٢) السحرة: سخرته بمعنى سخرته أي قهرته، ورجل سخره يسخر في الأعمال ويسخره من قهره. لسان

العرب-ابن منظور- ج ٤ ص ٣٥٤.

(٣) سورة القصص آية ٣٧.

(٤) انظر جامع البيان في تفسير القرآن-الطبري- ج ٢٠ ص ٧٩ . التفسير المنير -د. وهبة الزحيلي- ج ٢٠ ص

الْحَسَنَةَ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ
عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنَسْحَرَنَّ بِهَا فَمَا
نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالِدَّمَ آيَاتٍ
مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ^(١).

فأخبر تعالى أنه ابتلى فرعون وقومه بالسنين وهي أعوام الجذب التي لا يستغل فيها زرع ولا ينتفع بضرع (ونقص في الثمرات) وهي قلة الثمار من الأشجار (لعلهم يذكرون) أي فلم ينتفعوا ولم يرتدعوا ، بل تمردوا واستمروا على كفرهم وعنادهم، (فإذا جاءهم الحسنة) الخصب ونحوه قالوا لنا هذه، أي هذا الذي نستحقه، وهذا الذي يليق بنا (وإن تصيبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه) فيقولون هذا بشؤمهم أصابنا هذا ولا يقولون في الأول إنه ببركتهم وحسن مجاورتهم لهم، ولكن قلوبهم منكرة مستكبرة نافرة عن الحق، إذا جاء الشر أسندوه إليه وإن رأوا خيراً ادعوه لأنفسهم قال تعالى ﴿أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي يجزيهم على هذا أوفر الجزاء (ولكن أكثرهم لا يعلمون وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين) أي مهما جئتنا من الآيات - وهي من الخوارق للعادات - فلسنا نؤمن بك ولا نتبعك ولا نطيعك، ولو جئتنا بكل آية ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالِدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾. أما الطوفان فهو كثرة الأمطار المغرقة المتلفة للزرع والثمار، والجراد حشرة معروفة، وقد أتلف هذا الجراد حضراءهم فلم يترك لهم زرعاً ولا ثماراً ولا قليلاً ولا كثيراً، والقمل قيل هو السوس وقيل دواب سود صغار، وقيل هو القمل المعروف، أما الضفادع فهي المعروفة لبستهم حتى كانت تسقط في أطعمتهم وآنتيتهم، حتى لو فتح أحدهم فاه لطعام أو شراب سقطت فيه ضفدعة من تلك الضفادع، أما الدم فكان قد مزج ماءهم كله فلا يتقون من النيل شيئاً إلا وجدوه دمًا عبيطاً^(٢) ولا من نهر ولا بئر ولا شيء إلا كان دمًا في الساعة

(١) سورة الأعراف آية ١٣٠-١٣٣.

(٢) عبيطاً: العبيط من الدم الخالص - الطري - المختار الصحاح - الرازي - ص ٢٠٤.

الراهنة وقيل إنه الرعاف هذا كله ولم ينل بني إسرائيل من ذلك شيء بالكلية، وهذا تمام المعجزة الباهرة والحجة القاطعة أن هذا كله يحصل لهم عن فعل موسى عليه السلام، فينالهم عن آخرهم ولا يحصل هذا لأحد من بني إسرائيل وفي هذا أدل دليل على نبوته عليه الصلاة والسلام^(١).

إلا أن هذا كله لم ينفع فرعون وقومه، فلم يتعظوا به، ولم يعتبروا بل أصروا على كفرهم وظلمهم وجحودهم وبذلك استحقوا عقاب الله سبحانه واستحقوا الانتقام منه عز وجل. إذ كان عاقبة ذلك الجحود والكفر والظلم، وذلك العصيان والضلال، والمخالفة لما جاء به موسى عليه السلام أن أخذهم الله بقوته، وأذاقهم بأس سطوته فكانوا من الهالكين المغرقين بعد ما كانوا من العتاة المتجبرين الظالمين، ودمر الله ديارهم وجعلها غنيمة للمؤمنين - أي بني إسرائيل -.

إذ أوحى الله إلى موسى عليه السلام ومن معه من بني إسرائيل بالخروج من مصر والتوجه تلقاء البحر وعلم فرعون بخروجهم فتبعهم بجنده ورجاله، ولما وصل موسى عليه السلام ومن معه إلى البحر أمره الله أن يضربه بعصاه فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم وسار فيه موسى ومن معه آمنين مطمئنين، وتبعهم فرعون وجنده وساروا من نفس الطريق الذي سار فيه موسى ومن معه، فأمر الله البحر فأطبق عليهم فكانوا من المغرقين الهالكين وهذه هي عاقبة العتاة المتجبرين قال تعالى: ﴿فَأَنْتَقِمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَعَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾^(٢) انتقم الله منهم لما عتوا وتمردوا مع ابتلائه إياهم بالآيات المتواترة واحدة بعد واحدة، انتقم منهم بإغراقهم في اليم وهو البحر، وذلك بسبب تكذيبهم بآيات الله وتغافلهم عنها وظلمهم واستكبارهم، وأورث القوم الذين كانوا

(١) قصص القرآن - لابن كثير - ص ٣٠٢-٣٠٣. فتح القدير - الشوكاني - ج ٢ ص ٢٩٧.

(٢) سورة الأعراف الآيات ١٣٦-١٣٧

يستضعفون وهم بنو إسرائيل مشارق الأرض ومغاربها، وخرب الله ما كان فرعون وقومه يصنعونه من العمارات والمزارع^(١).

وقال عز وجل عن مصير فرعون وقومه ﴿فَأَخَذْنَاهُ جُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾^(٢) فأغرقهم الله في صبيحة واحدة فلم يبق منهم أحداً، فليتدبر ويتأمل صاحب القلب السليم في قدرة الله وعظمته وآياته كيف كان مصير هؤلاء الظالمين الذين ظلموا أنفسهم وكفروا برهم وادعى كبيرهم الألوهية مع الله سبحانه^(٣).

وهكذا أغرق الله فرعون وقومه وجعلهم عبرة وعظة لمن بعدهم لأنهم ظلموا وتجبروا وطغوا واستعلوا، وهذه هي عاقبة كل الطغاة الظالمين المتجبرين الذين يستكبرون في الأرض ويهضمون حقوق الناس فيها.

(١) تفسير القرآن العظيم-ابن كثير- ج ٢ ص ٢٤٢ بتصرف

(٢) سورة القصص آية ٤٠

(٣) انظر جامع البيان في تفسير القرآن- الطبري- ج ٢٠ ص ٧٩. التفسير المنير - د. وهبة الزحيلي- ج ٢٠ ص

المبحث الثالث: الفساد في الأرض

ويشتمل على مطلبين:

المطلب الأول: تعريف الفساد، وأسباب انتشاره، وعلاج الإسلام للفساد:

تعريف الفساد :

الفساد نقيض الصلاح، ويطلق على أخذ المال ظلماً، والجدب، والمفسدة خلاف المصلحة والاستفساد خلاف الاستصلاح.

وأصله فَسَدَ يَفْسُدُ وَفَسُدَ فَسَادًا وَفَسُودًا، فهو فاسد وفَسِيدٌ وقالوا: هذا الأمر مفسدة لكذا أي فيه فساد^(١).

أسباب انتشاره:

إن لانتشار الفساد في المجتمع أسباب متعددة، هذه الأسباب تراكمت واجتمعت حتى أدت بالمجتمع إلى حافة الهاوية وأصبح قاب قوسين أو أدنى من الوقوع فيها.

وأورد أن أتحدث في هذه الفقرة عن أسباب انتشار الفساد التي انتهجها أعداء الإسلام من أجل حرف المسلمين عن دينهم وأخلاقهم وقيمهم، أما أسباب الانحطاط الأخلاقي في المجتمع الإسلامي فقد أفردت لها مبحثاً مستقلاً وهو المبحث الرابع.

ومن أسباب انتشار الفساد في المجتمع:

١. **التعليم:** التعليم سلاح ذو حدين وقد بينت أثر العلم في الارتقاء وهنا أود أن أبين أثر التعليم في انتشار الفساد في المجتمع وقد أدرك أعداء الإسلام أن التعليم وسيلة هامة للوصول إلى الطبقة المثقفة من المجتمع، وبالتالي كرسوا جهودهم في سبيل غزو المناهج التعليمية بالأفكار الغربية المنحرفة التي تثير الشبهات والشكوك في كثير من عقائد المسلمين ومعاملاتهم وأخلاقهم، وتدعو إلى تغريب الأمة—أي نقلها إلى ثقافة الغرب التي هي عقيدته وتقاليدته وقيمه، وأنشأوا لتحقيق هذا الهدف

(١) انظر لسان العرب—ابن منظور—ج ٣ ص ٣٣٥. الصحاح تاج اللغة العربية وصحاح العربية—الجهري—ج

٢ ص ٥١٩. مختار الصحاح—الرازي—ص ٨٧.

المدراس والجامعات في البلاد الإسلامية وقد صرح بذلك أحد كبار كتاب الغرب وهو شاتليه الذي قال في مقدمته لمقال نشر في مجلة العالم الإسلامي الفرنسية "تحت اسم الغارة على العالم الإسلامي" قلنا في سنة ١٩١٠ عندما كنا نخوض على صفحات هذه المجلة - مجلة العالم الإسلامي الفرنسية - في موضوع السياسة الإسلامية أي السياسة التي ينبغي أن تتبع تجاه الإسلام والبلاد الإسلامية ينبغي لفرنسا أن يكون عملها في الشرق مبنياً قبل كل شيء على قواعد التربية العقلية ليتسنى لها توسيع نطاق هذا العمل والتثبت من فائدته، ويجدر بنا لتحقيق ذلك بالفعل أن لا نقتصر على المشروعات الخاصة التي يقوم بها الرهبان المبشرون وغيرهم... فتبقى مجهوداتكم ضئيلة بالنسبة إلى الغرض العام الذي نتوخاه وهو غرض لا يمكن الوصول إليه إلا بالتعليم الذي يكون تحت الجامعات الفرنسية نظراً لما اقتص به هذا التعليم من الوسائل العقلية والعلمية المبنية على قوة الإرادة! وأنا أرجو أن يخرج هذا التعليم إلى حيز الفعل ليث في دين الإسلام التعاليم المستمدة من المدرسة الجامعة الفرنسية^(١).

هكذا يبين شاتليه في صراحة أن الغرض العام الذي يتوخاه وهو أن تبث في دين الإسلام التعاليم المستمدة من المدرسة الجامعة الفرنسية.. أي تدس في الإسلام التعاليم المسيحية الفرنسية، لا عن طريق الرهبان المبشرين فهؤلاء عملهم محدود لا يفي بالغرض الواسع المدى، وإنما عن طريق التعليم، عن طريق فتح المدارس الفرنسية في العالم الإسلامي تبث هذه التعاليم وتدس هذه الأفكار.. وهذه المدارس هي المدارس العَلْمَانِيَّة!! وهي غير مدارس الرهبان والراهبات ذات الصبغة الدينية الصريحة^(٢).

وقد عمل الغرب جاهدين على إقامة وإنشاء الكليات والجامعات والمعاهد العليا في المجتمع الإسلامي لتحقيق أهدافهم فقام اللورد كرومر المعتمد البريطاني في

(١) الغارة على العالم الإسلامي - لشاتليه - تلخيص وترجمة محب الدين الخطيب، ومساعد الباقي - ص ٧.

(٢) هل نحن مسلمون - محمد قطب - ج ٤ ص ١٤٦-١٤٧ دار الشروق.

مصر أيام الاحتلال الإنجليزي بإنشاء كلية فكتوريا حيث قصد بها تربية جيل من أبناء الحكام والزعماء والوجهاء في محيط إنجليزي ليكونوا من بعدهم أدوات المستعمر الغربي في إدارة شئون المسلمين، كما أنشئت جامعات أمريكية وفرنسية ثبت عملها في مجالات التنصير ومجالات خدمة الواجهة الغربية كالعمل الاستخباري لصالح الحكومات التي تدعم هذه المؤسسات التعليمية، وتخرج هذه الجامعات مجموعات كبيرة من أبناء المسلمين يكون لها دور كبير في تغريب المجتمع الإسلامي، من خلال الأخذ بزمام المبادرة في شغل المناصب العليا ذات التأثير الإداري والثقافي والأدبي والسياسي، بل والديني أحياناً، وتلمع هذه المجموعة المتخرجة من الجامعات الأجنبية وتعطى المهالة الإعلامية وتساند بعضها في المناسبات العلمية والثقافية والأدبية وغيرها.

كما عمل الغرب على محاصرة المناهج الدينية فلم يعطوا مادة التربية الدينية حقها الكامل، بل إنهم لا يدرسون منها إلا تنقلاً يسيرة، ومبنية على الأساس الغربي، فالدين الإسلامي يعلم في مدارسنا على أنه مادة روحية أخلاقية كما هو مفهوم الدين في الغرب وحياة الرسول صلى الله عليه وسلم تدرس لأبنائنا منقطعة الصلة عن النبوة والرسالة فتدرس كما تدرس حياة الزعماء الغربيين ولا تثير في نفوسهم أية مشاعر وأفكار.

ومادة العبادة والأخلاق تعطى من وجهة النظر النفعية فمثلاً يدرس الصوم على أن له فوائد جسمية واجتماعية لما يبحث عليه من صدقات وإحسان دون النظر على أنه حكم شرعي ينظم العلاقة بين العبد وربّه، وأن الأحكام الشرعية مطلوب العمل بها دون تفريق.

والتاريخ الإسلامي تلصق به المثالب التي يخترعها سوء القصد، وسوء الفهم وتوضع بإطار أسود تحت اسم التزاهة التاريخية والبحث العلمي^(١).
ومن أساليب محاصرة الدين وتشويهه ما لجأ إليه أعداء الإسلام من تنفير

(١) التنصير مفهومه وأهدافه ووسائله وسبل مواجهته - د. على النملة - ص ٤٨. الواقع الفاسد وضرورة التغيير - محمد نبهان - ص ٢٣٤.

وسخرية بطالب العلم الديني وبأساتذته، وبالتفرقة بين أستاذي الدين والمواد الأخرى في كل شيء تفرقة مرسومة مقصودة، ثم بالتفرقة بين خريج المعاهد والكليات الدينية وبين زملائه في الكليات الأخرى، فمناصب المعاهد والكليات الدينية محدودة متواضعة في المظهر والأجر، ومناصب المعاهد والكليات الأخرى عديدة كثيرة فارهة المظهر والأجر، مما يرسب في الشعور نفوراً من الدين وإقبالاً على غير الدين^(١).

وعلى هذا كان للتعليم أثر بالغ في إفساد عقائد وأفكار كثير من المسلمين، مما زاد الفجوة بين المسلمين ودينهم، وزادهم قرباً إلى الغرب وأفكاره ومناهجه وصار أكثر المثقفين أبناء الثقافة الغربية وتلاميذها، ونشأ في بلاد المسلمين جيل لا يعرف الصلة بالله سبحانه ولا يريد أن يعرفها.

٢. **الابتعاث إلى الخارج:** من أسباب انتشار الفساد في بلاد المسلمين ما قامت به الدول المستعمرة من ابتعاث بعثات إلى بلاد الغرب، بهدف معلى وهو التعليم، وبأهداف غير معلنة وهي تثقيفهم ثقافة غربية بعيدة عن الثقافة الإسلامية واستمر هذا الابتعاث إلى الدول الغربية حتى بعد خروج الاحتلال من البلاد الإسلامية، الأمر الذي ساعد في زيادة الفساد واستمرار انتشاره.

وقد حقق الابتعاث نتائج كبيرة، إذ تأثر كثير من المبتعثين بالمجتمع الغربي الذي عاشوا فيه، كما تأثروا بالأفكار الغربية التي تعلموها خلال فترة إقامتهم في تلك البلاد، وكان هذا التأثير بارزاً من خلال تصرفات هؤلاء المبتعثين وكتاباتهم التي تدعو إلى التشبه بالغرب وتقليده في أخلاقه ومعاملاته وممارساته، مما يدل على أن هؤلاء المبتعثين قد تطبعوا بأطباع الغرب والشرق حتى صار ذلك طبعاً لهم، وانسلخ هؤلاء الطلاب من حيث يشعرون أو لا يشعرون من تقاليدهم التي تربوا عليها في بلادهم في الملابس والمأكل والمشرب وطريقة التعامل، واستبدلوها بعبادات وتقاليد الغرب والشرق حتى غدوا في تقاليدهم كالغربيين أو الشرقيين بل أكثر منهم في ذلك^(٢).

(١) أساليب الغزو الفكري - د. علي جريشة - ص ٦٤ بتصرف.

(٢) المرجع السابق ص ٦٤

وكان من أوائل المتبعين وأولهم سبقاً في خدمة ما أريد له: رفاة الطهطاوي^(١) حيث مكث في فرنسا خمس سنوات من سنة ١٨٢٦-١٨٣١م ولما رجع بدأ ينشر كلاماً يسمع للمرة الأولى في البيئة الإسلامية مثل: الوطن والوطنية والاهتمام بالتاريخ القديم، ليدعم به المفهوم الوطني الجديد، ثم يتحدث عن الحرية وأنها سبيل التقدم وكذلك طالب بتقنين الشريعة على نمط المدونات الأوروبية، ثم تحدث عن المرأة كتعليمها ومنع تعدد الزوجات، وتحديد الطلاق واختلاط الجنسين^(٢).

كما صرح الطهطاوي بأن الرقص الغربي لون من العيافة والشلابة-أي الفتوة- ثم نادى بالفرعونية-وهي في ميزان الإسلام جاهلية وعصبية منتنة- يناهز بها بديلاً عن الإسلام ومن بعد رافع.. كان طه حسين وكتابات في مستقبل الثقافة في مصر وفي مرآة الإسلام.. ومن قبلها في الشعر الجاهلي.

ومع طه حسين.. قاسم أمين الذي نادى بتحرير المرأة وغير هؤلاء كثير^(٣).
٣. وسائل الإعلام: إن وسائل الإعلام من إذاعة وتلفزيون وسينما وفيديو وفضائيات-البيت المباشر- وصحافة ومجلات وغيرها من وسائل الإعلام المرئية والمسموعة والمقروءة، لها أثر كبير في نشر الفساد بين الأمم، بل إنها مسخرة لإشاعة الفاحشة والإغراء بالجريمة، والسعي بالفساد في الأرض لما يترتب على ذلك من خلخلة للعقيدة وتحطيم للأخلاق والقيم والمثل.

وقد أدرك أعداء الإسلام أثر هذه الوسائل في المجتمعات فأحكموا قبضتهم عليها، وبثوا من خلالها ما رسموه لإفساد المسلمين وإخراجهم من إسلامهم. إذ تبث هذه الوسائل الإعلامية من المفاصد ما لا يحصى من تمثيلات ومسرحيات وأغاني

(١) رفاة رافع بن بدوي بن علي الطهطاوي، عالم مصري، من أركان نهضة مصر العلمية في العصر الحديث، ولد في طنطا سنة ١٢١٦هـ، وقصد القاهرة سنة ١٢٢٣هـ فتعلم في الأزهر، أرسلته الحكومة المصرية إماماً للصلاة والوعظ مع بعثة من الشبان أوفدتم إلى أوربه لتلقي العلوم الحديثة، فدرس الفرنسية وثقف الجغرافية والتاريخ من كتبه تخلص الإبريز، توفي في القاهرة سنة ١٢٩٠هـ.

(٢) الإسلام والحضارة الغربية -د. محمد محمد حسين- ص١٧.

(٣) أساليب الغزو الفكري -د. علي جريشة- ص٦٥.

وأفلام فيها من العري والتبرج والاختلاط والألفاظ النابية المتبدلة ما يندى له الجبين ويتقطع له القلب أساً وحسرة. بل إن من هذه التمثيليات والمسرحيات ما يحتوي على تهجم سافر على الإسلام وسخرية بالعلماء ورميهم بالتهمة الملققة كما حدث في الفيلم الذي بثه التلفزيون المصري تحت اسم "الإرهابي" الذي هدف إلى وصم دعاة الإسلام وعلمائه بالإرهاب والتطرف وغيرها من التهم.

ومن أخطر ما ييثر في هذه الوسائل الخطيرة تلك البرامج الوثائقية والتعليمية والتي تشوه صورة الإسلام الناصعة وتنشر الأفكار المخالفة لما جاء به الإسلام، والتي تطبع بنمط العيش الغربي بما فيه من ثقافة غريبة مضللة.

حتى أفلام الصور المتحركة -الكرتون- الموجهة للأطفال تصبغ بهذه الصبغة التي تشعر المتابع أنها مقصودة متعمدة، وتعتمد إلى تزيف المشاهدين والمستمعين والقراء على الثقافة الغربية المنحرفة^(١).

هذا الذي ذكرناه إنما يدل على دور التلفاز ووسائل الإعلام المرئية والمسموعة في نشر الفساد، أما وسائل الإعلام المقروءة فإنها لا تقل خطورة عن الوسائل السابقة في نشرها للفساد والانحلال.

ومصادق ذلك أن الصحافة المأجورة أيام تأسيسها في مصر ظلت تكتب عن مشكلة البغاء ثلاثين سنة، وكذلك عن مشكلة المرأة واختلاطها بالرجال وتحطيم هوية الدين ووصمه بالرجعية والجمود والتقاليد البالية وأنه لم يعد صالحاً لمواكبة العصر^(٢).

حتى إن وسائل الإعلام هذه خلقت جفوة ونوعاً من الحذر والتخوف بين الإسلام ودعاته وبين القاعدة العريضة، وذلك عن طريق الضرب على أوتار الشهوات، والاستخويف من الأحكام الإسلامية التي تطبق على الجناة وكأن وسائل الإعلام نفسها تتهم الناس جميعاً بأنهم صاروا لصوصاً^(٣).

(١) التنصير مفهومه وأهدافه ووسائله وسبل مواجهته-د. علي النملة- ص ٥٨.

(٢) الولاء والبراء- محمد القحطاني- ص ٤٠٦.

(٣) عن مقاله بعنوان الإعلام الإسلامي وموقعه من الإعلام العالمي للأستاذ حسن علي الغيبي من مجلة الأزهر ج ١٢ السنة التاسعة والخمسون ص ١٧٣٢-١٧٣٧ باختصار ذي الحجة ١٤٠٧هـ.

وقد ندد المؤتمر العالمي لتوجيه الدعوة وإعداد الدعاة المنعقد في عام ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م بالمدينة المنورة بما وصل إليه الإعلام في البلاد الإسلامية من التردى ونشر الفساد والضلال ويندد المؤتمر بالهوة السحيقة التي تردى فيها إعلامنا ولا يزال يتردى، عن علم من القائمين به أو عليه أو عن جهل منهم، فبدلاً من أن يكون الإعلام في البلاد الإسلامية منبر دعوة للخير، ومنار إشعاع للحق صار صوت إفساد وسوط عذاب .. وسكت القادة فأقروا بسكوتهم أو جاوزوا ذلك فشجعوا وحموا.. وزلزل الناس في إيمانهم وقيمهم ومثلهم.. ولم يعد الأمر يحتمل السكوت من الدعاة إلى الحق" (١).

علاج الفساد:

يجب على العاملين للإسلام وحملته رايته أن يواجهوا الفساد الذي ينتشر في المجتمعات الإسلامية انتشار النار في الهشيم، وأن يستعملوا في ذلك كل الأساليب المتاحة لذلك والتي منها:

١- الدعوة إلى الله بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أهم وسائل مواجهة الفساد، وقد حض الإسلام عليه وأمر به قال تعالى ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٢). وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان" (٣).

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يقتضي الذهاب إلى من ينشرون المنكرات في أماكن تواجدهم، وتقديم النصح لهم وإرشادهم ونهيهم عن المنكر الذي ينشرونه

(١) أساليب الغزو الفكري - د. علي جريشة - ص ٧٣.

(٢) سورة آل عمران آية ١٠٤.

(٣) صحيح مسلم - كتاب الإيمان - باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان، وأن الإيمان يزيد وينقص، وأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبان ج ١ ص ٦٩ رقم ٤٩.

في المجتمع، وبيان خطورة هذه المنكرات والآثار المترتبة على انتشارها.

إلا أن هذه الزيارات لأهل المنكر تحتاج إلى شروط هامة يجب توافرها فيمن

يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ومن هذه الشروط ما يلي:

أ- الحكمة: لا بد لمن يتصدى للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومحاربة الفساد أن يكون حكيماً في أسلوبه وحديثه فلا يغلظ القول على المدعو، ولا يقسو عليه إلى حد ينفره من الاستجابة للدعوة: بل يلين له في القول قال تعالى ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾^(١) ، وأمر الله موسى وهارون لما أرسلهما إلى فرعون الطاغية الجبار أن يلينا له في القول قال تعالى ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾^(٢) وهذه الآية فيها عبرة عظيمة وهو أن فرعون في غاية العتو والاستكبار وموسى صفوة الله من خلقه إذ ذاك ومع هذا أمر أن لا يخاطب فرعون إلا بالملاطفة واللين^(٣) ، فإن كان هذا واجباً في دعوة فرعون رغم كفره وجبروته، فكيف بمن هم دونه، إنهم أولى أن يلان لهم في القول ولا يغلظ عليهم قال تعالى مخاطباً رسوله صلى الله عليه وسلم ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾^(٤) ، وذلك أن الرسول صلى الله عليه وسلم لان ورفق بمن تولى يوم أحد ولم يغلظ عليهم ولم يعنفهم، فبين الله في هذه الآية أن الرسول صلى الله عليه وسلم أغلظ عليهم وشدد لتفرقوا من حوله، فإن كان هذا الحال مع الرسول صلى الله عليه وسلم، فكيف بالفظاظة من غيره إن أثرها أشد سوءاً على المدعويين^(٥) .

ب- إن الذي يتعرض للناس فيأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر لا بد له أن يتسلح بال بصير لأنه من غير المتوقع أن يستجيب المدعو -خاصة إذا كان داعياً إلى المنكر ناشراً

(١) سورة النحل آية ١٢٥ .

(٢) سورة طه آية ٤٤ .

(٣) تفسير القرآن العظيم - ابن كثير - ج ٣ ص ١٤٩ .

(٤) سورة آل عمران آية ١٥٩ .

(٥) تفسير الجامع لأحكام القرآن - للقرطبي - ج ٤ ص ٢٤٨ .

للفساد- من أول زيارة أو من الثانية، بل إنه يحتاج إلى زيارات متكررة لتؤثر في نفسه فيستجيب.

ثم إن الصبر لازم للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لأنه ربما يتعرض للإيذاء الجسدي فيعتدى عليه، أو النفسي فيسمع كلاماً لا يعجبه بل يؤذيه، عند ذلك يجب عليه أن يحتمل هذا الإيذاء وأن يصبر ويحتسب، ولا يقابل السيئة بالسيئة لئلا تفشل مهمته التي يقوم بها قال تعالى على لسان لقمان وهو يعظ ابنه ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَيَّ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾^(١).

ج- العلم الشرعي: يجب على الناهي عن المنكر أن يكون عالماً بما ينهى عنه، لئلا ينهى عن أمر هو مباح شرعاً، ثم لا بد للداعي أن يكون متسلحاً بالعلم ليتمكن من إقناع المدعو بخطورة ما هو واقع فيه من الإثم ومن شدة الأضرار التي يحملها نتيجة مساعدته في نشر المنكرات والفواحش في المجتمع، وبآثار نشر المنكرات على الأمة، فهي سبب في الهلاك والدمار، وفي وقوع الفتنة بالأمة ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾^(٢).

هذه من أهم الصفات التي يجب أن يتصف بها الداعي إلى الله الذي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر والتي يجب توافرها فيه، ليكون ناجحاً في دعوته ومحاربه للفساد والمنكر.

٢- إيجاد هيئة من أهل العلم والبصيرة، ومن الكتاب والأدباء والقصصيين الإسلاميين تتفرغ لكتابة البحوث والنشرات والمقالات النافعة التي تشتمل على بيان محاسن الإسلام وعقائده وأخلاقه وغير ذلك من الموضوعات الهامة، وتشتمل على الرد على أساليب الفساد المسمى بالغزو الفكري - أو الثقافي - المنظم وكشف عواربه وتبيين زيفه ودوره التخريبي المدمر، حتى يحدث تياراً مضاداً لآثار الإفساد، لأن الأعداء قد

(١) سورة لقمان آية ١٧.

(٢) سورة الأنفال آية ٢٥.

جندوا كافة إمكاناتهم وقدراتهم وأوجدوا المنظمات المختلفة والوسائل المتنوعة للدس على المسلمين، فلا بد من تفنيد هذه الشبهات وعرض الإسلام عقيدة وتشريعاً وأحكاماً وأخلاقاً عرضاً شيقاً صافياً جذاباً بالأساليب الطيبة العصرية المناسبة، وعن طريق الحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن .

٣- ضرورة إبراز مادة علمية دراسية جديدة باسم محاربة الفساد أو ما شاكله من الأسماء تشرح دور هذا الفساد ومدى تأثيره في حياة المسلمين المعاصرة فكرياً وقانونياً وتعليمياً.

٤- إنشاء الجامعات والكليات والمعاهد المختلفة بكافة اختصاصاتها للحد من الابتعاث إلى الخارج وتدریس العلوم بكافة أنواعها، كما تقوم بتوجيه الرسائل العلمية إلى دراسة أساليب الغزو الثقافي الإفسادي وآثاره على الأمة الإسلامية، وتنظيم المسابقات والجوائز لأحسن كتاب أو قصة أو دراسة موضوعية مختارة، ترقى إلى عمل متكامل يحسن بأثره الفرد والمجتمع.

٥- يجب على الحكومات الإسلامية أن تتصدى للمفسدين بعدم تقديم التسهيلات للمفسدين في المجتمعات المسلمة، وبالتأكيد على الوافدين إلى بلاد المسلمين من غير المسلمين باحترام ثقافة البلاد وعدم اتخاذهم أي إجراء عام يتعارض مع هذه الثقافة أو يتناقض معها وإحلال البديل الحق الذي يتقدم المفسدون بما يبدو أنه مماثل له، ذلك البديل المؤصل المناسب للبيئة المسلمة.

٦- رجال الأعمال والتجار والموسرون مطالبون بالإسهام في التصدي للفساد سواء كانوا في أماكن أعمالهم، أو في البلاد التي يتعاملون معها، كما أنهم مطالبون أن يكونوا قدوة في أعمالهم ومعاملاتهم وتعاملهم مع الآخرين، لأنهم يمثلون ثقافة وخلفية ينظر إليهم من خلالها، كما أنهم مطالبون في الداخل بأن يهبوا داعمين للأعمال الخيرية الموثوقة، وهم بحق عصب الأعمال الخيرية والدعوية، ودون ولوجهم أعمال الخير بالبذل وتبني المشروعات تقف الدعوة والإغاثة مشلولة تنظر إلى الآخرين وهم يتبرعون بسخاء للمنظمات والجمعيات المفسدة يصل إلى حد وقف مشروعات بأكملها على

المنظمات، والوصية لها بكامل التركة أو بجزءها بعد الموت وهكذا^(١).

٧- إيجاد الإعلام الإسلامي: إن مسؤولية الإعلام الإسلامي اليوم مسؤولية جسيمة وخطيرة فالأحداث من حولنا تتوالى بسرعة مذهلة والمتغيرات العالمية تتلاحق وقضايا المسلمين تزداد إلتهاً وخطورة في العالم كله، ومعالجة هذه القضايا بأسلوب إعلامي صحيح أصبح مهمة صعبة وشائكة تحتاج إلى فهم واسع لمجريات الأحداث، وإلى معرفة شاملة بإمكانات الإعلام بالشكل الذي نستطيع به أن نخدم قضايا المسلمين في العالم، ولمواجهة الإعلام الغربي الذي يبيث الإفساد والدمار إلى العالم الإسلامي.

نعم العلم بأن الإعلام الإسلامي أضعف بكثير من الإعلام الغربي، حتى إنه لا توجد وكالة أنباء واحدة دولية في مستوى وكالات الأنباء التي في أمريكا أو فرنسا أو بريطانيا أو روسيا. في الحين الذي تملك فيه دول الغرب وروسيا وكالات أنباء عديدة، مثل وكالة فرانس برس الفرنسية، ووكالة رويتر البريطانية ووكالة الاسوشيتد برس واليونيتد برس، ووكالة تاس ونوفو ستي السوفييتان. وهذا يشكل خطراً بالغاً على الهوية الإسلامية أن تبقى في وضع المتلقى دائماً، ومن ثم تصبح قابلة للدوبان والتحول في أقرب فرصة تسنح أمام هذه الدوائر المعادية للإسلام.

أليس من الأجدر أن يوجه رجال الإعلام جهودهم إلى هذا السيل العرم من وسائل الإعلام الأجنبية التي تحارب الله ورسوله جهاراً نهاراً، وتقتحم على المسلم داره دون استئذان^(٢).

هذه بعض أسباب الفساد في الأمة -وسأذكر بعض أسباب الفساد الأخلاقي في المبحث القادم- والتي يدير كثيراً منها أعداء الإسلام من الخارج وينفذها أدواتهم في الداخل تحت شعارات براقة كالتقدم والتحضر والثقافة وغيرها.

(١) انظر أساليب الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام -د. محمد نعيم ياسين- ص ١٦٢. مقالة: كيف نحارب الغزو الثقافي العربي والشرقي -لعبد العزيز بن باز- ص ٦٥ مجلة الجامعة الإسلامية المدينة المنورة العدد الثالث السنة الخامسة محرم ١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م.

(٢) انظر مقالة "الإعلام الإسلامي وموقعه من الإعلام العالمي" -الأستاذ حسن علي الغيبي- مجلة الأزهر ج ١٢ السنة التاسعة والخمسون ص ١٧٣٥.

ويلي هذه الأسباب أدوات العلاج ووسائل الوقاية من هذا الفساد المستشري والتي يمكن أن تحد من انتشاره واتساعه داخل المجتمعات الإسلامية، والواجب الآن تنمية هذه الوسائل وتطبيقها عملياً لتوقف تيار الفساد العارم.

المطلب الثاني: أنواع الفساد:

أولاً: الفساد السياسي:

من مظاهر الفساد البارزة في المجتمع والتي بذل أعداء الإسلام جهوداً مضنية لتحقيقها وفرضها على الواقع "الفساد في الجانب السياسي" وقد قام بتنفيذ هذا الدور أصحاب الرأي والقرار في البلاد الإسلامية، ثم أوقعوا كثيراً من أبناء الأمة الإسلامية في هذا المنحدر الخطير، وقد اتخذ الفساد السياسي عدة مناح وهي:

أ_ الحكم بغير ما أنزل الله:

لم يهدأ لأعداء الإسلام بال، ولم يقر لهم قرار، ولم تطمئن قلوبهم حتى رأوا المسلمين يحكمون بغير ما أنزل الله، ويتحاكمون إلى القوانين الفرنسية والانجليزية، وهذا جرم كبير وقع فيه حكام الدول الإسلامية بإقصائهم منهج الله عن واقع الحياة والاحتكام إلى أنظمة وقوانين من وضع البشر.

مع أن الأمر بالتحاكم للكتاب والسنة لا يخفى على ذي لب من المسلمين فالآيات كثيرة والأحاديث عديدة، ومن ذلك قول الله سبحانه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ (١).

فأمرت الآية بطاعة الله في الفرائض وطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم في السنن، وطاعة أولى الأمر من المسلمين كالأئمة والسلاطين والقضاة وكل من كانت له ولاية شرعية لا ولاية طاغوتية، وتجب طاعتهم ما لم يأمروا بمعصية إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، فإن حدث نزاع وخلاف بين المسلمين وجب عليهم أن

(١) سورة النساء آية ٥٩.

يرجعوا الحكم في ذلك التزاع إلى ما أمر الله فيما يأمر بالوحي، وإلى أمر الرسول صلى الله عليه وسلم فيما يخبر عن الوحي، وذلك في حياته صلى الله عليه وسلم أما بعد موته فبالرجوع إلى سنته صلى الله عليه وسلم، وهذا الرد متحتم على المتنازعين إن كانوا يصدقون بالله واليوم الآخر، وذلك الرد إلى الكتاب والسنة خير من الاختلاف وأحسن عاقبة^(١).

ومن الآيات المصرحة بوجوب التحاكم إلى منهج الله قوله عز وجل ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾^(٢).

وفي هذا دلالة على أن ما اختلف فيه الناس من الأحكام فحكمه إلى الله وحده لا إلى غيره، فالحلال هو ما أحله الله والحرام هو ما حرمه الله، والدين هو ما شرعه الله فكل تشريع من غيره باطل، والعمل به بدل تشريع الله عند من يعتقد أنه مثله أو خيره منه كفر بواح لا نزاع فيه^(٣).

ولهذا نفى القرآن العظيم كمال الإيمان عمن يتحاكمون إلى غير الكتاب والسنة فقال سبحانه ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾^(٤).

وسبب نزول هذه الآية أن رجلا من الأنصار خاصم الزبير في ماء يسقي به النخل فقال النبي صلى الله عليه وسلم للزبير "اسق أرضك ثم أرسل الماء إلى أرض جارك" فقال الأنصاري لأجل أنه ابن عمك، فتلون وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال للزبير "اسق ثم احبس الماء حتى يبلغ الجدر"^(٥).

"وفي الآية قسم من الله تعالى بربوبيته لرسوله صلى الله عليه وسلم بأن أولئك الذين رغبوا عن التحاكم إليه صلى الله عليه وسلم وأمثالهم، وهم من المنافقين الذين

(١) بحر العلوم - للسمرقندي - ج ١ ص ٣٦٢ . وفتح القدير - للشوكاني - ج ١ ص ٦٠٧ .

(٢) سورة الشورى آية ١٠ .

(٣) تفسير المنار - محمد رشيد رضا - ج ٣ ص ١٩٣ .

(٤) سورة النساء آية ٦٥ .

(٥) صحيح البخاري - كتاب المساقاة - باب شرب الأعلى قبل الأسفل - م ١ ج ٣ ص ٥٩٠ .

يزعمون الإيمان زعمًا لا يؤمنون إيمانًا صحيحًا حقيقيًا، وهو إيمان الإذعان النفسي إلا بثلاث:

الأولى: أن يحكموا الرسول صلى الله عليه وسلم فيما شجر بينهم، أي في القضايا التي يختصمون فيها ويشتجرون فلم يتبين الحق فيها لهم، أو لم يعترف به كل منهم، بل يذهب كل مذهبًا فيه، والتحكيم هو تفويض أمر الحكم إليه، وهذا يدل على أن من لم يرض بحكم الرسول صلى الله عليه وسلم لا يكون مؤمنًا.

الثانية: قوله (ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجًا مما قضيت) فلا تضيق صدورهم من أفضيتك، واعلم أن الراضي بحكم الرسول صلى الله عليه وسلم قد يكون راضيًا به في الظاهر دون القلب فيين في هذه الآية أنه لا يؤمن إلا بحصول الرضى به في القلب، فتذعن النفوس لقضائه صلى الله عليه وسلم وحكمه فيما شجر بينهم بحيث لا يكون فيها ضيق ولا امتعاض من قبوله والعمل به.

الثالثة: قال تعالى ﴿ويسلموا تسليمًا﴾ والتسليم هو الانقياد بالفعل، وما كل من يعتقد حقيقة الحكم ولا يجد في نفسه ضيقًا منه ينقاد له بالفعل وينفذه طوعًا وإن لم يخش في ترك العمل به مؤاخذه في الدنيا^(١).

"وبهذا نفى الله الإيمان حتى توجد هذه الغاية، وهذا دليل على أن هذه الغاية وهي تحكيم الرسول صلى الله عليه وسلم فرض على الناس، فمن تركها كان من أهل الوعيد، ولم يكن قد أتى بالإيمان الواجب الذي وعد أهله بدخول الجنة بلا عذاب، فإن الله إنما وعد بذلك من فعل ما أمر به، وأما من فعل بعض الواجبات وترك بعضها فهو معرض للوعيد، ومعلوم اتفاق المسلمين أنه يجب "تحكيم الرسول" في كل ما شجر بين الناس في أمر دينهم وديارهم في أصول دينهم وفروعه وعليهم كلهم إذا حكم بشيء أن لا يجدوا في أنفسهم حرجًا مما حكم به ويسلموا تسليمًا^(٢).

ويتعجب القرسان وينكر على الذين يتولون عن حكم الحق فيبغون حكم

(١) التفسير الكبير - الرازي - ج ٩ ص ١٦٥ .

(٢) الفتاوى "الإيمان" - لابن تيمية - ج ٧ ص ٣٨ .

الجاهلية المبني على الهوى وترجيح القوى على الضعيف قال تعالى ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾^(١).

روى أن هذا نزل في خصومة مما كان بين بني النضير وبني قريظة من جعل دية القرظي ضعفي دية النضري لمكان القوة والضعف^(٢) "ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون" فلا أحد أحسن حكماً من حكم الله تعالى لقوم يوقنون بدينه ويدعون لشرعه، لأن هذا الحكم يجمع الحسينيين منتهى العدل والالتزام بالحق من الحاكم ومنتهى القبول والإذعان من المحكوم له، والمحكوم عليه وهذا مما تفضل به الشريعة الإلهية القوانين البشرية^(٣) ولعظمة الشريعة الإلهية وتميزها على القوانين البشرية جعل القرآن أن من أعظم الظلم بل من الكفر التحاكم إلى القوانين البشرية وتفضيلها على الشريعة الإلهية قال تعالى ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾^(٤) والكفر في الآية إما أنه كفر دون كفر، وإما أنه كفر مخرج من الملة إن كان المتحاكم للقوانين البشرية مستحلاً لفعله أو قاصداً به جحد أحكام الله وردها مع العلم بها، وأما من حكم بغير حكم الله وهو عالم أنه مرتكب ذنباً فينطبق عليه قوله تعالى (فأولئك هم الظالمون) وقوله (فأولئك هم الفاسقون) فهم ظلمة فسقة. وقد بينت هذا الحكم في موضوع أسباب الكفر^(٥)

كل هذا الذي ذكرت يؤكد أن الحكم لله وحده لا إلى غيره وهذا ما صرح به القرآن تصريحاً واضحاً في قوله سبحانه (إن الحكم إلا لله)^(٦).

فالحكم لله وحده لا إلى غيره، وهذا الحكم يشمل جميع المناحي مما يتعلق بالأمور الدينية أو الدنيوية من عبادات ومعاملات وعقائد وشرائع وسياسة وغيرها من

(١) سورة المائدة آية ٥٠.

(٢) الدر المنثور في التفسير بالمأثور - السيوطي - ١م ج ٢ ص ٣١٩ بنحوه .

(٣) تفسير المنار - محمد رشيد رضا - ج ٣ ص ٣٤٩ .

(٤) سورة المائدة آية ٤٤ .

(٥) انظر الفصل الثالث ص ١٦٦

(٦) سورة يوسف آية ٦٧ .

أمور البشر.

وعلى هذا فإنه يتوجب على المسلمين أن يحكموا كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ويتحاكموا إليهما في كل شيء. لما مر من الآيات ولقوله صلى الله عليه وسلم "وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله إلا جعل بأسهم بينهم"^(١). وعلى المسلمين كذلك أن يلغوا القوانين الأجنبية من بلادهم كالقوانين الفرنسية والإنجليزية وغيرها مما يخالف حكم الله، وأن لا يلجأوا إلى المحاكم التي تحكم بقوانين تخالف الإسلام، وأن يتحاكموا إلى الإسلام عند من يثقون به من أهل العلم فذلك خير لهم، لأن الإسلام ينصفهم، ويعدل بينهم ويوفر عليهم المال والوقت الذي يضيع في المحاكم المدنية بلا فائدة تذكر، إضافة إلى العذاب الأكبر يوم القيامة، لأنه أعرض عن حكم الله العادل، ولجأ إلى حكم المخلوق الظالم"^(٢).

وهكذا تبرز قيمة الحكم بما أنزل الله وخطورة التحاكم إلى غيره من دساتير وقوانين وشرائع من وضع البشر الذين لا يعلمون حقيقة تكوين هذا الإنسان ولا ما يصلحه أو يفسده.

مع العلم أن أعداء الإسلام دخلوا من هذا الباب لإفساد الأمة الإسلامية في عقيدتها وعبادتها وأخلاقها، فعندما فكر أعداء الإسلام في إبعاد تركيا عن الإسلام بذلسوا جهوداً "لتغيير التشريعات الإسلامية إلى قوانين غربية وتدرجوا في ذلك، ففي كل عشر سنوات يتم استبدال تشريع بقانون في جانب من جوانب القانون منذ سنة ١٢٥٦هـ - ١٨٤٠م ثم صارت كل حوالي عشرين سنة حتى تم أكبر إلغاء للخلافة سنة ١٩٢٤م.

أما في مصر فبدأ تغيير واستبدال التشريع بالقوانين الوضعية مع بداية الاحتلال الأجنبي فكان أول ذلك سنة ١٣٠١هـ - ١٨٨٣م بعد الاحتلال بسنة واحدة. وقد تم الآن تغيير واستبدال التشريع الإسلامي بالقوانين الوضعية في أكثر

(١) سنن ابن ماجه - كتاب الفتن - باب العقوبات ج ٢ ص ١٣٣٣ رقم ٤٠١٩، حسن - صحيح سنن ابن ماجه - الألباني ج ٢ ص ٣٧٠.

(٢) توجيهات إسلامية لإصلاح الفرد والمجتمع - محمد جميل زينو - ص ١٨٧.

الدول الإسلامية" (١).

وهذا انتشر الفساد في المجتمعات الإسلامية حتى عم كثيراً من جوانب الحياة فيها بسبب إقصاء حكم الله عن واقع الحياة واستبداله بقوانين الكفر والضلال.

ب_ موالة الكافرين:

الولاء: هو الدنو والقرب، والولاية ضد العداوة، والولي عكس العدو، والمؤمنون أولياء الرحمن، والكافرون أولياء الطاغوت والشيطان لقرب الفريق الأول من الله بطاعته وعبادته، وقرب الفريق الثاني من الشيطان بطاعة أمره، وبعدهم عن الله بعصيانه ومخالفته، ومن هنا نتبين أن موالة الكفار تعني التقرب إليهم وإظهار الود لهم، بالأقوال والأفعال والنوايا (٢). "وتعني كذلك نصرتهم وإكرامهم واحترامهم والكون معهم ظاهراً وباطناً" (٣).

وقد نهي القرآن الكريم أشد النهي عن موالة الكافرين والتقرب إليهم حتى لو كانوا من المقربين نسباً لأن آصرة العقيدة أقوى من علاقة النسب والقرابة قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ءَابَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (٤)

وفي هذا نهي للمؤمنين عن اتخاذ الآباء والإخوان وهم أقرب الناس للإنسان أولياء ينصرونهم في القتال ويظاهرون لأجلهم الكفار أو يطلعونهم على أسرار المؤمنين وما يستعدون به لقتال المشركين، إن أصروا على الكفر وآثروه على الإيمان، فإن في ذلك قوة للمشركين على قتال المؤمنين وخضداً لشوكتهم (٥).

وقد ذهب بعض المفسرين أن في هذه الآية جواباً على شبهة، وهي أن البراءة

(١) أساليب الغزو الفكري - د. علي جريشه - ص ٧٤ باختصار.

(٢) الإيمان - د. محمد نعيم يس - ص ١٤٥

(٣) الولاء والبراء - القحطاني - ص ٩٢.

(٤) سورة التوبة آية ٢٣.

(٥) تفسير المراغي م ٤ ج ١٠ ص ٨١.

من الكفار غير ممكنة، لأن الرجل المسلم قد يكون أبوه كافرًا والرجل الكافر قد يكون أبوه أو أخوه مسلمًا، وحصول المقاطعة التامة بين الرجل وأبيه وأخيه كالمعتذر الممتنع، وإذا كان الأمر كذلك كانت تلك البراءة التي أمر الله بها شاقة ممتعة متعذرة، فذكر الله تعالى هذه الآية ليزيل هذه الشبهة... وذكر سبحانه أن الانقطاع عن الآباء والأولاد والإخوان واجب بسبب الكفر وهو قوله (إن استحبوا الكفر على الإيمان) والاستحباب طلب المحبة يقال استحبه له بمعنى أحبه كأنه طلب محبته^(١).

وهكذا تنقطع أواصر الدم والنسب إذا انقطعت آصرة القلب والعقيدة، وتبطل ولاية القرابة في الأسرة إذا بطلت ولاية القرابة في الله، فله الولاية الأولى، وفيها ترتبط البشرية جميعًا، فإذا لم تكن فلا ولاية بعد ذلك والحبل مقطوع والعروة منقوضة^(٢).

وفي نفس السياق نفي القرآن الكريم الإيمان عن يوادون ويوالون من حاد الله ورسوله ولو كانوا من أشد الناس قرابة للمرء قال تعالى ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^(٣).

وهذا الخطاب موجه للرسول صلى الله عليه وسلم أي لا تجد يا محمد قومًا يصدقون الله ويقرون باليوم الآخر يوادون الذين يحادون الله ورسوله ويشاققوهم، ويخالفون أمر الله ونهيه ولو كان الذين يحادون الله ورسوله آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم، وإنما أحير الله جل ثناؤه نبيه عليه السلام بهذه الآية أن الذين تولوا من غضب الله عليهم، ليسوا من أهل الإيمان بالله واليوم الآخر، وهذا—أي عدم

(١) التفسير الكبير - الرازي - ج ١٦ ص ١٨ ط ٢.

(٢) في ظلال القرآن - سيد قطب - م ٤ ج ١٠ ص ١٦٢.

(٣) سورة المجادلة آية ٢٢.

الإيمان - جعلهم يتولون الذين تولوهم من اليهود" (١) .

هذا وصف الذين يوالون الكافرين الذين يحادون الله ورسوله، أما الذين لا يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم قضى الله في قلوبهم الإيمان، وقواهم ببرهان منه ونور وهدى (ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار) من بساتين تجري من تحت أشجارها الأنهار ماكين فيها أبداً رضي الله عنهم بطاعتهم إياه في الدنيا ورضوا عنه في الآخرة، بإدخاله إياهم الجنة، وهؤلاء الذين هذه صفتهم جند الله وأولياؤه، ألا إن جند الله هم المفلحون الباقون المنجحون" (٢) .

هكذا يشدد القرآن في أمر الموالاتة تشديداً عظيماً لشدة ضرر مناصرة الكافرين ومؤازرتهم ابتغاء المنفعة عندهم وطلب العزة والكرامة منهم، حتى تمكم القرآن من المنافقين الذين كانوا يوالون الكفرة يطلبون منهم المنفعة والنصرة" (٣) وذلك في قوله سبحانه ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا الَّذِينَ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيْتَعُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ (٤) .

وهذا كشف صريح لوجه المنافقين الذين ترددوا بين الإيمان والكفر فهم منافقون وليس لهم إلا العذاب الأليم، وفي سوق العذاب الأليم إلى المنافقين بين يدي من يشرهم به، ما يشير إلى شناعة موقف هؤلاء المنافقين وشؤم مصيرهم، وأنه إذا كان لهم ما يبشرون به في الآخرة فهو هذا العذاب الأليم، فكيف ما يساعون به من ألوان المساءات وهو شيء شنيع، والغاية التي يوالي المنافقون الكافرين عليها هي طلب العزة (أيتعون عندهم العزة) فهم يتعون العزة منهم، إذ خيل إليهم أن جانب الكافرين هو القوي بما فيهم من كثرة عدد ومن سعة غني على حين كان المسلمون في قلة من الرجال والأموال، وينكر الله عليهم فعلهم بقوله (أيتعون عندهم العزة) وهذا استفهام انكاري تهديدي يكشف للمنافقين سوء فهمهم وتقديرهم وخسارة

(١) جامع البيان في تفسير القرآن - الطبري - ١٢م ج ٢٨ ص ١٩ .

(٢) جامع البيان في تفسير القرآن - الطبري - ١٢م ج ٢٨ ص ١٩ .

(٣) تفسير مدارك التنزيل وحقائق التأويل - النسفي - ج ١ ص ٢٥٧ .

(٤) سورة النساء آية ١٣٨-١٣٩

صفقتهم لأن العزة لله جميعاً، فلا أخسر صفقة ممن أراد العزة فاتخذ غير الله طريقاً إليها وغير المؤمنين أولياء في طلبها، لأن العزة لله جميعاً وإن العزة لأولياء الله ولمن والى أولياء الله^(١).

ولشدة خطورة موالاته الكافرين ، وعظم جرم موالاتهم مع ما يكونه للمؤمنين من عداًء وكيد جعل الله سبحانه حكم من يتولى قوماً كحكمهم، فمن تولى اليهود فهو يهودي مثلهم، ومن تولى النصارى فهو نصراني مثلهم ومن تولى المجوس فهو مجوسي مثلهم وهكذا، لأن المتولي متبني لما عليه ذلك الكافر وراض عنه قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾^(٢).

وسبب نزول هذه الآية كما ذكره ابن عباس رضي الله عنهما "أن عبد الله بن سلول قال بعدما آمن إن بيني وبين قريظة والنضير حلف وإني أخاف الدوائر فارتد كافراً، وقال عبادة بن الصامت^(٣) أبرأ إلى الله من حلف قريظة والنضير وأتولى الله ورسوله والمؤمنين فأنزل الله هذه الآية والتي تليها من الآيات^(٤) ، وفي الآية نداء للمؤمنين الذين يتصفون بصفة الإيمان بالله ورسوله ألا يفعلوا ما نهاهم الله عنه من اتخاذ اليهود والنصارى أولياء، يلقون إليهم بالمودة ويسرون إليهم بما أخفوا وما أعلنوا ويتحابون إليهم ويصادقونهم، إذ بعض اليهود أولياء بعض، وبعض النصارى أولياء بعض، والجملة -بعضهم أولياء بعض- مستأنفة تعليلاً للنهي قبلها، وتأكيذاً لإيجاب اجتناب المنهي عنه أي بعضهم أولياء بعض، متفقون على كلمة واحدة في كل ما يأتون وما يذرون، ومن ضرورة ذلك إجماع الكل على مضادكم ومضارتكم، بحيث

(١) التفسير القرآني للقرآن -الخطيب- ٢م ج ٥ ص ٩٣٥.

(٢) سورة المائدة آية ٥١.

(٣) عبادة بن الصامت بن قيس بن ثعلبة بن غنم بن سالم بن عوف بن عمرو بن عوف بن الخزرج الأنصاري المخزومي أبو الوليد، شهد بدرًا، وكان أحد النقباء بالعقبة، وشهد المشاهد كلها بعد بدر مات بالرمل سنة أربع وثلاثين، وقيل إنه عاش إلى سنة خمس وأربعين. الإصابة في تمييز الصحابة -ابن حجر- ج ٢ ص ٢٦٩.

(٤) الدر المنثور في التفسير بالمأثور -السيوطي- ج ٢ ص ٣١٩.

يسومونكم السوء، ويغنونكم الغوائل^(١)، فكيف يتصور بينكم وبينهم موالاته؟ (ومن يتولم منكم فإنه منهم) أي من جملتهم وحكمه حكمهم، وهذا تشديد على المنافقين الذين يتخذون صداقات، ويرتبطون بصلات باليهود والنصارى وأعداء الدين. عن محمد بن سيرين قال: قال عبد الله بن عبيد^(٢) "ليثق أحدكم أن يكون يهوديًا أو نصرانيًا وهو لا يشعر قال فظنناه يريد هذه الآية (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء..).

وقوله تعالى (إن الله لا يهدي القوم الظالمين) الذين ظلموا أنفسهم بموالات الكفار أيًا كان السبب الذي والوهم من أجله.

وتتابع الآيات وصف حال هؤلاء الذين يوالون الكافرين فتقول (فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم)^(٣) أي ترى يا محمد وكل من تصح منه الرؤية ترى الذين في قلوبهم مرض الشك والنفاق كعبد الله بن أبي وأضرابه يسارعون في موالاتهم ويرغسبون فيها رغبة أكيدة خالصة للشيطان، وانظر التعبير القرآني (يسارعون فيهم) بدل "يسارعون إلى موالاتهم" للإشارة إلى أنهم منتقلون من بعض مراتبها إلى بعض فهم مستقرون فيها"^(٤).

إن في هذا التحذير والنهي عن موالات الكافرين للدليل جازم على خطورة هذه الموالات على الأمة الإسلامية، لأن الذين يوالون الكافرين ينصرونهم على المؤمنين، وينقلون أسرار المسلمين للكافرين مما يجعل الكافرين على علم بمخططات المسلمين، وهذا خطر عظيم، كما أنهم يدافعون عن الكافرين ويحسنون صورهم أمام العامة من المسلمين، مما يؤدي إلى نوع مودة لهم في قلوب بعض المسلمين كما هو حادث اليوم

(١) الغوائل: الدواهي. القاموس المحيط - الفيروز أبادي - ج ٤ ص ٢٧

(٢) عبد الله بن عبيد بن قتادة الليثي - يكنى أبا هاشم - كان من أفصح الناس بمكة، كان ثقة صالحًا مات سنة ثلاث عشرة مئة بمكة. انظر الطبقات الكبرى - ابن سعد - ج ٥ ص ٤٧٤. سير أعلام النبلاء - الذهبي - ج ٤ ص ١٥٧.

(٣) سورة المائدة آية ٥٢

(٤) تفسير القرآن العظيم - ابن كثير - ج ٢ ص ٦٨، روح المعاني - الألوسي - ج ٢ ص ١٥٦-١٢٧، في رحاب التفسير - كشك - ج ٢ ص ١١٢٧.

فيما يسمى بالتطبيع بين المسلمين واليهود، والذي يحمل لواءه أولياء اليهود من المسلمين.

وهذا خطره عظيم على الأمة الإسلامية وهو سبب رئيس في انحدارها، لأن موالاته الكافرين تعني التشبه بهم وتقليدهم، والأخذ عنهم، وذلك فيما يضر ولا ينفع مما يفسد المجتمع ويوقعه في الهاوية، وذلك مع ما يشكله نقل أسرار المسلمين للكافرين من خطر على المجتمع الإسلامي.

صفات من تجب موالاتهم:

بعد أن نهي الله عن اتخاذ اليهود والنصارى أولياء، وبين علة ذلك، عقب بذكر من هو حقيق بالموالاته بطريق القصر فقال سبحانه ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾^(١) فكانه قيل لا تتخذوا أولئك أولياء لأن بعضهم أولياء بعض وليسوا بأوليائكم إنما أولياؤكم الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنون، فاختصوهم بالموالاته ولا تتخطوهم إلى الغير، وفي هذا بيان أنه لا ناصر للمؤمنين ينصرهم إلا الله تعالى ورسوله وأنفسهم بعضهم أولياء بعض. وإفراد (وليكم) مع إسناد الجمع إليه لبيان أن الولي الناصر بالذات هو الله تعالى، وأن ولاية الرسول والمؤمنين تبع لولايته، وإذا كان الله هو وليكم وناصركم وكان الرسول صلى الله عليه وسلم والذين آمنوا أولياؤكم بالتبع لولايته فهم بذلك حزب الله والله ناصر لهم.

ثم شرع في بيان صفات هؤلاء المؤمنين فقال (الذين يقيمون الصلاة) التي هي أكبر أركان الإسلام يؤديونها على وجهها الصحيح بخشوعها وطمانينتها، لا كالمنافقين الذين يأتون بصورة الصلاة دون روحها ومعناها، فإذا قاموا إليها قاموا كسالى، يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا، ثم (ويؤتون الزكاة) فيعطونها إلى مستحقيها من الضعفاء والمساكين، وهم خاشعون خاضعون لا يتكبرون، طيبة نفوسهم بإيائها.

(١) سورة المائدة آية ٥٥.

وفي الآية وعد من الله سبحانه لمن يتول الله ورسوله والذين آمنوا بأنهم الغالبون لعدوهم، وقد وقع والله الحمد ما وعد الله به أوليائه وأولياء رسله، وأولياء عباده المؤمنين من الغلب لعدوهم، فإنهم غلبوا اليهود بالسبي والقتل والإجلاء وضرب الجزية حتى صاروا لعنهم الله أذل الطوائف الكفرية وأقلها شوكة^(١).

من مظاهر الولاء للكافرين:

١. تولي الكافرين واتخاذهم أعواناً وأنصاراً، والدخول في دينهم، وقد نهي الله عن ذلك فقال ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾^(٢) وهذا نهي للمؤمنين أن يتخذوا الكافرين أنصاراً، ولا يجعلوا ابتداء الولاية مكاناً دون المؤمنين، لأن مكان المؤمن الأعلى ومكان الكافر الأدنى، فمن اتخذ الكفار أعواناً وأنصاراً وظهوراً يواليهم على دينهم ويظهرهم على المسلمين فليس من الله في شيء، أي قد برئ من الله وبرئ الله منه، بارتداده عن دينه ودخوله في الكفر (إلا أن تتقوا منهم تقاة) أي إلا أن تكونوا في سلطانهم فتخافوهم على أنفسكم فتظهروا لهم الولاية بألسنتكم وتضمروا العداوة، ولا تشايعوهم على ما هم عليه من الكفر ولا تعينوهم على مسلم بفعل^(٣).

٢. الركون إليهم قال تعالى ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾^(٤) الركون هو السكون إلى الشيء والميل إليه بالحب، ونقيضه النفور عنه، قال العلماء الركون المنهي عنه هو الرضا بما عليه الظلمة من الظلم وتحسين تلك الطريقة وتزيينها عندهم وعند غيرهم ومشاركتهم في شيء من تلك الأبواب، فأما

(١) انظر روح المعاني - الألويسي - ج ٢ ص ١٦٦-١٦٧، فتح القدير ج ٢ ص ٦٥، تفسير المنار - محمد رشيد رضا - ج ٦ ص ٣٦٦.

(٢) سورة آل عمران آية ٢٨.

(٣) جامع البيان في تفسير القرآن - الطبري - ج ٣ ص ٢٢٨.

(٤) سورة هود آية ١١٣.

مداخلتهم لرفع ضرر أو اجتلاب منفعة عاجلة فغير داخل في الركون (فتمسكم السنان) أي إنكم إن ركتم إليهم فهذه عاقبة الركون (وما لكم من دون الله من أولياء) أي ليس لكم أولياء يخلصونكم من عذاب الله^(١).

٣. محبتهم وإظهار الود لهم قال تعالى ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ﴾^(٢) الآية فلا يجوز لمن وحد الله وعبد الله موالاته من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم، وهذه هي حقيقة الإيمان، إذ الإيمان أن تحب أهل الإخلاص وتواليهم وتبغض أهل الشرك وتعاديهم وهذه ملة إبراهيم عليه السلام التي سفه من رغب عنها^(٣) وقد سبق الحديث عن هذه الآية عند الحديث عن الموالاتة للكافرين^(٤).

٤. اتخاذهم بطانة من دون المؤمنين قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنَتُمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾^(٥) وبطانة السرجل هم خاصته الذين يستبطنون أمره، وأصله البطن الذي هو خلاف الظهر، وبطن فلان يبطن بطونًا وبطانة، إذا كان خاصًا به، و(من دونكم) أي من دون المسلمين وهم الكفار الذين لا يمنعون المؤمنين خبالًا وهو الفساد في الأفعال والأبدان والعقول، ويودون العنت والمشقة لهم، وقد ظهرت البغضاء وهي شدة البغض في كلامهم فهم يصرحون بذلك علانية في فلتات ألسنتهم وما تخفيه صدورهم أكبر، لأن فلتات اللسان بالنسبة لما في الصدور قليلة جدًا^(٦).

(١) التفسير الكبير - الرزاي - ٩م ج ١٨ ص ٥٨.

(٢) سورة المجادلة آية ٢٢.

(٣) مجموعة التوحيد - لابن تيمية - ص ١٢-١٣.

(٤) انظر تفسير الآية ص ٢٠٦.

(٥) سورة آل عمران آية ١١٨.

(٦) فتح القدير - الشوكاني - ج ١ ص ٤٧٤.

٥. التآمر معهم وتنفيذ مخططاتهم والدخول في أحلافهم وتنظيماتهم، وهذه الصورة من أخطر ما ابتليت به أمتنا في هذا العصر ذلك لأن وجود ما يسمى في المصطلح الحديث "الطابور الخامس" قد أفسد أجيال الأمة في كل مجال سواء في التربية والتعليم أم في السياسة وشئون الحكم أم في الأدب والأخلاق أم في الدين والدنيا معاً" (١)

٦. اتباع أهواءهم وقد نهى الله عن اتباعها قال تعالى ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنْ هُدَى اللَّهُ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ (٣)، وهذا تهديد مفزع، وقطع جازم، ووعيد مرعب.. لمن؟ لربي الله صلى الله عليه وسلم ورسوله وحببيه الكريم! إنما الأهواء.. إن أنت ملت عن الهدى.. هدى الله الذي لا هدى سواه.. وهي الأهواء التي تفهم منك هذا الموقف، موقف العداء وليس نقص الحجة ولا ضعف الدليل" (٣).

٧. طاعتهم فيما يأمرن ويشيرون به قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ...﴾ (٤)، ويحذر الله في الآية الذين آمنوا أن يطيعوا الذين كفروا، فطاعة الذين كفروا عاقبتها الخسارة المؤكدة وليس فيها ربح ولا منفعة، فيها الانقلاب على الأعقاب إلى الكفر، فالمؤمن إما أن يمضي في طريقه يجاهد الكفر والكفار، ويكافح الباطل والمبطلين، وإما أن يردد على عقبيه كافرًا والعياذ بالله فالذي لا يتحرك إلى الأمام في هذا المجال لا بد أن يردد على عقبيه إلى الكفر والشرك والضلال والباطل والطغيان،... إنما الهزيمة الروحية أن يركن صاحب العقيدة إلى أعداء عقيدته وأن

(١) الولاء والبراء - القحطاني - ص ٢٤٨.

(٢) سورة البقرة آية ١٢٠.

(٣) انظر في ظلال القرآن - سيد قطب - م ١ ج ١ ص ١٤٧.

(٤) سورة آل عمران آية ١٤٩.

يستمع إلى وسوستهم وأن يطيع توجيهاتهم، ثم أمرهم الله بطاعته وموالاته والاستعانة به والتوكل عليه، ثم بشرهم بأنه سيلقي في قلوب أعدائهم الخوف منهم والذلة لهم بسبب كفرهم^(١)

٨. مداهنتم ومداراتهم ومجاملتهم على حساب الدين قال تعالى ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾^(٢) فود الذين كفروا لو يلين لهم الرسول صلى الله عليه وسلم فيلينون له، ويصانعونهم فيصانعونه^(٣)، وهذا نوع من موالاتهم التي يطمنون وقوعها من رسول الله صلى الله عليه وسلم.

٩. التجسس من أجلهم ونقل عورات المسلمين وأسرار الأمة إليهم والقتال في صفهم: ومن أمثلة نقل أسرار المسلمين للكافرين ما حدث من حاطب بن أبي بلتعة^(٤) عندما بعث للمشركين يعلمهم بقرب قدوم الرسول صلى الله عليه وسلم لفتح مكة، وهذه الحادثة التي نزل فيها قول الله سبحانه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمُودَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمُودَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾^(٥).

أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال "بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا والزبير والمقداد، فقال رسول الله صلى الله

(١) في ظلال القرآن - سيد قطب - م ٢٤ ج ٤ ص ١٠٢، الأساس في التفسير - سعيد حوى - ج ٢ ص ٨٩٦.

(٢) سورة القلم آية ٩.

(٣) فتح القدير - الشوكاني - ج ٥ ص ٣٣٢.

(٤) حاطب بن أبي بلتعة: هو عمرو بن عمير بن سلمة، اللخمي المكي، حليف بني أسد بن عبد العزى، بن قصي من مشاهير المهاجرين، شهد بدرًا والمشاهد، وكان رسول النبي صلى الله عليه وسلم إلى المقوقس = صاحب مصر، وكان تاجرًا في الطعام، له عبيد، وكان من الرماة الموصوفين، مات سنة ثلاثين. سير أعلام

النبلاء - الذهبي - ج ٢ ص ٤٣-٤٥ بتصرف

(٥) سورة الممتحنة آية ١.

عليه وسلم: انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ^(١) فإن بها طعينة معها كتاب فخذوه منها فأتوني به، فخرجنا حتى أتينا الروضة، فإذا نحن بالطعينة، فقلنا أخرجي الكتاب، قالت ما معي من كتاب، فقلنا لتخرجن الكتاب أو لتلقين الثياب، فأخرجته من عقاصها، فأتينا به النبي صلى الله عليه وسلم، فإذا فيه: من حاطب بن أبي بلتعة إلى أناس من المشركين بمكة يخبرهم ببعض أمر النبي صلى الله عليه وسلم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم ما هذا يا حاطب؟ قال: لا تعجل علي يا رسول الله، إني كنت امرأً ملصقاً في قريش ولم أكن من أنفسها، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون بها أهليهم وأموالهم بمكة فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن اصطنع إليهم يداً يحمون بها قرابتي، وما فعلت ذلك كفرةً ولا ارتداداً عن ديني، فقال النبي صلى الله عليه وسلم صدق، فقال عمر: دعني أضرب عنقه، فقال: إنه شهد بدرًا وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم. ونزلت (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة)^(٢)

من خلال الحديث السابق عن الولاة، ونهي القرآن عن موالة الكافرين، ومظاهر ذلك الولاة، تتأكد خطورة موالة الكافرين على الأمة الإسلامية، إذ ينتج عن ذلك الولاة تقوية صف الكافرين وإضعاف صف المسلمين، الأمر الذي من شأنه أن يبقى المسلمين أدوات في أيدي أعدائهم، ينفذون مخططاتهم ويحققون أهدافهم، وهذا ما هو حادث في العصر الحاضر، إذ إن حكام الأمة الإسلامية يوالون أعداء الأمة من الكافرين والمشركين ويتلقون منهم الأوامر لتنفيذها في بلادهم، مما يجعل الأمة الإسلامية أمة تابعة منفذة، وليست أمة متبوعة حاكمة كما كانت في سالف عهدها، وهذا زاد من هوان الأمة وذلتها، ومن وهنها وضعفها.

مما يتطلب نهضة جديدة بالأمة لإنقاذها من وهنها وإخراجها من كبوتها،

(١) روضة خاخ: موضع بين الحرمين، بقرب حمار الأسد من المدينة. معجم البلدان - البغدادي - ج ٢ ص

(٢) صحيح البخاري - كتاب التفسير - باب سورة الممتحنة م ٢م ج ٦ ص ٦٦٨، صحيح مسلم - كتاب فضائل الصحابة - باب من فضائل أهل بدر رضي الله عنهم وقصة حاطب بن أبي بلتعة ج ٤ ص ١٩٤١ رقم ٢٤٩.

بالتحرر من موالاة أعدائها، والاستقلال في اتخاذ قراراتها وتشريعاتها، والتبرؤ من الكافرين بعدم مودتهم ومحبتهم واتخاذهم أولياء من دون المؤمنين، وبعدم الاستجابة لأوامرهم وطلباتهم ليتسنى للأمة أن ترتقي وتتقدم، وتقيم أركانها على أساس من الدين القويم والصراط المستقيم بعيداً عن ضغوطات الكافرين والمشركين.

ج_ الاستبداد السياسي:

إن استبداد فرد بحكم الأمة والتفرد في وضع القوانين والتشريعات دون مشاركة غيره له، هذا المنهج في الحكم حاربه القرآن ونهى عنه، وأمر القرآن الحاكم أن يشاور ذوي الرأي ويأخذ آراءهم في المسائل التي يريد الحكم فيها، مما لم يرد فيه نص شرعي أو وضعت لها الشريعة مبادئ عامة دون الدخول في الفروع.

فالحاكم ليس إلا فرداً من أبناء الأمة وكلت إليه أمور الدين والدنيا، فصار أكثرهم تبعات وأثقلهم حملاً، إلا أنه ليس له أن يستبد بالأمر دونهم ويزعم أنه لا سلطان فوق سلطانه، وأنه مصدر القوة والسلطان "فالله سبحانه وتعالى يخاطب سيد الناس جميعاً بقوله ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٌ﴾^(١) ويقول عز وجل ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدٌ﴾^(٢).

فوضع جميع السلطات في يد رجل واحد يحمل في طياته نذراً خطيرة لا تؤمن عواقبها، ذلك لأن الفرد مهما كان ذكياً وتقياً وحسن النية فمن المحتمل أن يخطئ في حكمه على الأمور متأثراً في ذلك بميوله الخاصة، ولكن احتمال الخطأ سيقبل إلى أدنى حد ممكن إذا عرض الأمر على جماعة تتنوع آراء أفرادها، ويستخدم النقاش بينهم تبعاً لذلك، الأمر الذي يؤدي إلى استعراض موضوع البحث من زوايا مختلفة بالإضافة إلى أن خطر الميول الشخصية التي قد تعكس ظلها على سن القوانين سيقبل هو الآخر إذا لم يزل بالكلية، فضلاً عن أن تجمع السلطات كلها في يد واحدة قد يؤدي إلى إفساد

(١) سورة الغاشية آية ٢١-٢٢.

(٢) سورة ق آية ٤٥.

صاحبها وإغرائه على تسخيرها لخدمة أغراضه الخاصة أو أغراض الفئة التي تشايعه، ولهذا لا بد أن توضع السلطة التشريعية في الدولة في أيدي هيئة خاصة تنتخبها الأمة لهذا الغرض" (١).

وهذا ما أمر الله به في قوله ﴿وَأْمُرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ (٢).

"إن هذا النص القرآني يجب اعتباره المادة الأساسية الفعالة في التفكير الإسلامي بصدد مسألة إدارة الدولة، ولعله ليس من العسير علينا أن ندرك أن هذا النص يمتد أثره بحيث يشمل كل صغيرة وكبيرة من دقائق حياتنا السياسية، ولهذا لا بد أن يتم عمل الدولة ككله ابتداء بتأسيس وتشكيل أول لجنة فيها ثم انتخاب رئيس الدولة وأولي الأمر وانتهاء بالأمور التشريعية والمسائل التنفيذية على أساس تشاور المؤمنين فيما بينهم بصرف النظر عما إذا تمت المشورة مباشرة أم عن طريق أهل الحل والعقد.

وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يشاور أصحابه فيما يتعلق بمصالح الحرب، وكذا بين الصحابة رضوان الله عليهم بعده صلى الله عليه وسلم وكانت بينهم أيضاً في الأحكام كقتال أهل الردة وميراث الجدة، وعدد الجلدات في حد الخمر وغير ذلك، والمراد بالأحكام ما لم يكن لهم فيه نص شرعي وإلا فالشورى لا معنى لها، وكيف يليق بالمسلم العدول عن حكم الله عز وجل إلى آراء الرجال، والله سبحانه هو الحكيم الخبير" (٣).

وقد استدلل بعض العلماء على أن الأمة هي صاحبة السلطة ومصدر السيادة بحديث "لا تجتمع أمتي على ضلالة" (٤) فإن هذا معناه أنه متى اجتمعت الأمة على رأي

(١) منهاج الإسلام في الحكم - محمد أسد - تعريب منصور محمد ماضي - ص ٨٨.

(٢) سورة الشورى آية ٣٨.

(٣) انظر روح المعاني - الألويسي - ج ٢٥ ص ٤٦. الخلافة والملك - المدودي ص ٢٥ بتصرف. منهاج

الإسلام في الحكم - محمد أسد - ص ٨٨.

(٤) سنن ابن ماجه - كتاب الفتن - باب السواد الأعظم - ج ٢ ص ١٣٠٣، سنن الدارمي - المقدمة - باب ما

أعطى النبي صلى الله عليه وسلم من الفضل ج ١ ص ٣٣ رقم ٥٤ بنحوه.

كان هو الحق، وكان واجباً الأخذ به لأنه صدر ممن له حق السيادة.

وكذلك قد يستدل لهذا أيضاً بأن القرآن في كثير من آياته يتوجه بالخطاب في الأمور العامة إلى المؤمنين أي إلى الجماعة الإسلامية كلها، وما هذا إلا لأنها صاحبة الحق في تنفيذ الأوامر والرقابة على القائمين عليها، وهذا يبين مظهر السيادة والسلطان.

ومن هذه الآيات قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلَوُوا أَوْ تَعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾^(١) وقوله عز وجل ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾^(٢).

ومن هذا القبيل آيات كثيرة أخرى جاء الخطاب فيها للمؤمنين، وفيها الأمر بأداء الأمانات إلى أهلها والحكم بالعدل، والوفاء بالعهد، ووجوب التواصي بالحق والصبر.

وفي توجيه القرآن الخطاب في تلك الآيات وأمثالها إلى الأمة جميعاً دلالة بالغة على أن الأمة هي التي تحمل مسئولية إقامة الدين وشرائعه ورعاية مصالح الأمة، فتكون إذن هي مصدر السيادة العليا لقاء ما تحمل من المسئولية الكبرى ويكون لها حق اختيار الرئيس الأعلى للدولة وحق الإشراف عليه وعلى سائر الحكام.

وهكذا يجعل الإسلام الأمة هي صاحبة السلطة ومصدر السيادة، ويكون من الواجب على الحاكم أن يرجع إليها ويستشيرها فيما يجد من مسائل وقضايا لم يرد فيها نص شرعي، ليتوصلوا فيه إلى حكم ينبع من روح الشريعة الإسلامية ويتفق معها.

وهذا يكون المجتمع الإسلامي مترابطاً متماسكاً، الأمة فيه راضية عن الحاكم متعاونة معه وكذلك الحاكم متعاون مع الأمة متحد معها.

(١) سورة النساء آية ١٣٥.

(٢) سورة المائدة آية ١.

وهذا ما تفتقر إليه الحكومات الإسلامية اليوم، التي يهيمن فيها الحكام على مقدرات الأمة ويتخذون القوانين والقرارات بمفردهم، فهم أصحاب القرارات وحدهم، حتى وإن اتخذوا لهم مجالس للشعب أو ما يسمى بالمجالس التشريعية، فإن هذه المؤسسات صورية لا قيمة لها يتحكم فيها الحكام كما يشاءون، فيمكنهم أن يجمدوا عملها إذا تعارضت مع سياساتهم، فيخرج أعضاء المجلس في إجازة مفتوحة، أو يعطلون القوانين التي يتخذها مجلس الشعب، فتبقى حبراً على ورق بلا قيمة ولا أثر، ويبقى هو وحده صاحب السيادة والسلطة.

هذا الاستبداد بالسلطة يؤدي إلى شرخ كبير بين الحاكم والمحكوم، مما يجعل الشعوب مبغضة لحكامها ناقمة عليهم، والحكام ينظرون إلى الشعوب نظرة ريبة وعدم اطمئنان، ولهذا يحيطون أنفسهم بالحراسات المكثفة والمدججة بالسلاح، حتى لا يصل إليهم أحد أو يمسه بسوء. زد على ذلك أن هؤلاء الحكام يحكمون بقوانين وضعية، وما يضعونه من قوانين يتفق مع هذه القوانين الوضعية الحادة لشرع الله والمخالفة له، وهذا يزيد من جور الحكام وظلمهم لشعوبهم.

ثانياً: الفساد الاقتصادي:

إن الإسلام كل متكامل، يعتني بكل جانب من جوانب الحياة ولا يغفل شيئاً منها ومن الجوانب الهامة في حياة المجتمعات الجانب الاقتصادي، هذا الجانب الذي أصبح له دور كبير في قوة المجتمعات أو ضعفها والذي يجعل الدول الغنية القوية اقتصادياً تتحكم في الدول الفقيرة الضعيفة اقتصادياً.

ومن عناية الإسلام بالجانب الاقتصادي أن أباح أنواع المعاملات التي فيها نفع للمجتمع كالبيع والمراصة والمضاربة وغيرها من المعاملات. وحرّم أنواعاً أخرى لضررها كالربا والتطفيف وغير ذلك، قال تعالى (وأحل الله البيع وحرم الربا) وإنني في هذه السياق أود أن أتحدث عن الفساد في الجانب الاقتصادي وأبدأ بالربا.

أولاً: الربا:

أباح القرآن الكريم استثمار الأموال من خلال التجارة فقال تعالى ﴿يَأْتِيهَا

الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالِكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ»^(١) . وأثنى على الذين يضربون في الأرض للتجارة ﴿وَأَخْرُوجُونَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾^(٢) .

ولكن القرآن وفي مقابل ثنائه على الذين يضربون في الأرض للتجارة، ذم الذين يتعاملون بالربا، وحرّم عليهم التعامل به واستثمار أموالهم من خلال التعامل به في آيات عديدة، ولكن قبل أن نستعرض هذه الآيات وما ذكره العلماء في تفسيرها، أود أن أذكر تعريف الربا:

الربا لغة: هو الزيادة وأما شرعاً فالمقصود به: زيادة على رأس المال يأخذها المقرض من المستقرض مقابل الأجل قلت هذه الزيادة أو كثرت"^(٣) .

حكم الربا:

الربا محرم في جميع الأديان ومحظور في اليهودية والنصرانية والإسلام، إلا أن اليهود لا يرون مانعاً من أخذ الربا من غير اليهود، وقد رد عليهم القرآن، ففي سورة النساء قال تعالى ﴿وَأَخَذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ﴾^(٤) فكان اليهود يأخذون الربا يحتالون عليه بأنواع الحيل وصنوف الشبه رغم نهي الله لهم عن ذلك"^(٥) .

وقد تحدث القرآن الكريم عن الربا في عدة مواضع مرتبة ترتيباً زمنياً، إذ تدرج القرآن في تحريم الربا فكان أول ما نزل وذلك في مكة قوله سبحانه ﴿وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رَبًّا لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾^(٦) .

(١) سورة النساء آية ٢٩ .

(٢) سورة المزمل آية ٢٠ .

(٣) روائع البيان تفسير آيات الأحكام للصابري ج ١ ص ٣٥٨ .

(٤) سورة النساء آية ١٦١ .

(٥) تفسير القرآن العظيم - ابن كثير - ج ١ ص ٥٨٤ .

(٦) سورة الروم آية ٣٩ .

وفي العهد المدني نزل تحريم الربا صراحة في قوله سبحانه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(١).

وفي الآية نهي عن تعاطي الربا وأكله أضغافاً مضاعفة، وقد كان ذلك سائداً في الجاهلية إذ كانوا يقولون إذا حلّ الدين إما أن تقضي وإما أن تربي، فإن قضاها وإلا زاده في المدة وزاد الآخر في القدر، وهكذا كل عام فرما تضاعف القليل حتى يصير كثيراً مضاعفاً، وأمر الله عباده بالتقوى لعلهم يفلحون في الدنيا والآخرة^(٢).

وآخر ما ختم به التشريع قول الله سبحانه ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا... يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾^(٣).

هذه الآيات من آخر ما نزل من القرآن، وذكرت في النظم بعد آيات الصدقة التي كان آخرها آية الكاملين في السخاء والجود الذين ينفقون في عامة الأوقات والأحوال وهي قوله تعالى ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً...﴾ الآية^(٤). ولما بين الآيتين من التناسب والتقابل، فالمتصدق يعطي المال بغير عوض يقابله، والمرابي يأخذ المال بغير عوض يقابله. وخص الأكل بالذكر لأنه معظم الأمر، ولأن نفس الربا الذي هو الزيادة في المال على ما كانوا يفعلون في الجاهلية لا يؤكل، إنما يصرف في المأكول فيؤكل، والمراد التصرف فيه، فمنع الدين من التصرف فيه، وقوسله تعالى (لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس) فالمراد منه القيام يوم القيامة أو القيام من القبر، ولا منافاة بين الوجهين.

والخبط معناه الضرب على غير استواء، يقال للرجل الذي يتصرف في أمر ولا

(١) سورة آل عمران آية ١٣٠.

(٢) تفسير القرآن العظيم - ابن كثير - ج ١ ص ١٠٤.

(٣) سورة البقرة آية ٢٧٥-٢٧٩.

(٤) سورة البقرة آية ٢٧٤.

يهتدي فيه، إنه يخبط خبط عشواء، وخبط البعير الأرض بأخفافه، وتخبطه الشيطان إذا مسه بخبل أو جنون لأنه كالضرب على غير الاستواء في الإدهاش، وتسمى إصابة الشيطان بالجنون والخبيل خبطه، والمس الجنون، وأصله من المس باليد، كأن الشيطان يمس الإنسان فيجنه فسمي الجنون مساً^(١).

وفي هذه الآية صورة مجسمة حية متحركة، صورة الممسوس المصروع، وهي صورة معروفة معهودة للناس، فالنص يستحضرها لتؤدي دورها الإيحائي في إفزاع الحس لاستحاشة مشاعر المرابين، وهزها هزة عنيفة تخرجهم مما ألفوه من العادات في نظامهم الاقتصادي ومما يحرصون على تحقيقه من فائدة^(٢).

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾^(٣) فجعلوا البيع والربا شيئاً واحداً

وشبهوا البيع بالربا مبالغة يجعلهم الربا أصلاً والبيع فرعاً، أي البيع بلا زيادة عند حلول الأجل كالبيع بزيادة عند حلوله، فرد الله عليهم بقوله (وأحل الله البيع وحرّم الربا) أي أن الله أحل البيع وحرّم نوعاً من أنواعه وهو البيع المشتمل على الربا (فمن جاءه موعظة من ربه) أي من بلغته موعظة من الله من المواعظ التي تشتمل عليها الأوامر والنواهي، ومنها ما وقع هنا من النهي عن الربا (فانتهى) أي فامتثل النهي الذي جاء وانزجر عن المنهي عنه (فله ما سلف) أي ما تقدم منه من الربا لا يؤاخذ به لأنه فعله قبل أن يبلغه تحريم الربا، أو قبل أن تتزل آية تحريم الربا (وأمره إلى الله) قال بعض العلماء الضمير عائد إلى الربا، أي أمر الربا عائد إلى الله في تحريمه على عباده واستمرار ذلك التحريم، وقيل الضمير عائد إلى ما سلف أي أمره إلى الله في العفو عنه وإسقاط التسبعة فيه، وقيل الضمير يرجع إلى المربي: أي أمره إلى الله في تشييته على الانتهاء أو الرجوع إلى المعصية، ومن عاد إلى أكل الربا والمعاملة به فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون.

(١) التفسير الكبير - الرازي - ج ٨٦ ص ٨٦

(٢) في ظلال القرآن - سيد قطب - م ١ ج ٣ ص ٤٦٣

(٣) سورة البقرة آية ٢٧٥.

﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾^(١) الحق نقصان الشيء حالا بعد حال، حتى يذهب بالكلية من يد صاحبه أو يحرم بركة ماله فلا ينتفع به، وصدق الله وعده ووعيده، فهذا نحن أولاء نرى أنه ما من مجتمع يتعامل بالربا ثم تبقى فيه بركة أو رخاء أو سعادة أو أمن أو طمأنينة، إن الله يمحق الربا فلا يفيض على المجتمع الذي يوجد فيه هذا الدنس إلا القحط والشقاء، وقد ترى العين — في ظاهر الأمر — رخاء وإنتاجاً وموارد موفورة ولكن البركة ليست بضخامة الموارد بقدر ما هي في الاستمتاع الطيب الآمن بهذه الموارد، وإن من الدول الغنية بمواردها وخيراتها لتعيش في شقاء ونكد وقلق نفسي لا يدفعه ثراء بل يزيده، ومن هذه الدول يفيض القلق والاضطراب على العالم كله اليوم.

(والله لا يحب كل كفار أئيم) وهذا تعقيب قاطع في اعتبار من يصرون على التعامل الربوي — بعد تحريمه — من الكفار الآئمين، الذين لا يحبهم الله، وما من شك أن الذين يحلون ما حرم الله ينطبق عليهم وصف الكفر والإثم، ولو قالوا بألستهم ألف مرة: لا إله إلا الله محمد رسول الله فالإسلام ليس كلمة باللسان إنما هو نظام حياة ومنهج عمل وإنكار جزء منه كإنكار الكل.. وليس في حرمة الربا شبهة، وليس في اعتباره حلالاً وإقامة الحياة على أساسه إلا الكفر والإثم والعياذ بالله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾^(٢) والخطاب موجه للذين آمنوا الذين صدقوا بالله وبرسوله أن يتقوا الله ويخافوه على أنفسهم، وتقوى الله إنما تتحقق بطاعته فيما يأمر به والانتهاز عما ينهى عنه (وذروا) أي دعوا ما بقي من الربا بترك طلب ما بقي لكم من فضل على رؤوس أموالكم التي كانت لكم قبل أن تربوا عليها، إن كنتم محققين إيمانكم قولاً وعملاً. قال ابن جريج: كانت ثقيف قد صالحت النبي صلى الله عليه وسلم على أن ما لهم من ربا على الناس وما كان للناس عليهم من ربا، فهو موضوع، فلما كان الفتح استعمل رسول الله صلى

(١) سورة البقرة آية ٢٧٦.

(٢) سورة البقرة آية ٢٧٨.

الله عليه وسلم عتّاب بن أسيد على مكة، وكانت بنو عمرو بن عمير بن عوف يأخذون الربا من بني المغيرة، وانت بنو المغيرة يُربون لهم في الجاهلية، فحاء الإسلام ولهم عليهم مال كثير، فأتاهم بنو عمرو يطلبون رباهم، فأبى بنو المغيرة أن يعطوهم في الإسلام، ورفعوا ذلك إلى عتّاب بن أسد، فكتب عتّاب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فترلت (يا أيها الذين آمنوا تقوا الله وذروا ما بقي من الربا ... إلى قوله ولا تظلمون) فكتب بها رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عتّاب وقال "إن رضوا وإلا فآذهم بحرب".

﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾^(١) يعني إن لم تذرُوا ما بقي من الربا، فاعلموا واستيقنوا بحرب من الله ورسوله وكونوا على إذن من الله عز وجل لكم بذلك. قال ابن عباس رضي الله عنهما "من كان مقيماً على الربا لا يترع عنه فحق على إمام المسلمين أن يستتيه فإن نزع وإلا ضرب عنقه، وروى عنه رضي الله عنه أنه قال "يقال يوم القيامة لآكل الربا: خذ سلاحك للحرب وهذا ينبيء على أن قوله (فأذنوا بحرب من الله) إيذان من الله عز وجل لهم بالحرب والقتل لا أمر لهم بإيذان غيرهم. (وإن تبتم فلکم رؤوس أموالکم) يعني جل ثناؤه بذلك إن تبتم فتركتهم أكل الربا وأنبتهم إلى الله عز وجل فلکم رؤوس أموالکم من الديون التي لكم على الناس دون الزيادة التي أحدثتموها على ذلك رباً منكم. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع "وربا الجاهلية موضوع، وأول ربا أضع ربانا. ربا عباس بن عبد المطلب فإنه موضوع كله"^(٢) (لا تظلمون ولا تظلمون) لا تظلمون بأخذكم رؤوس أموالكم التي كانت لكم قبل الإرباء على غرمائكم منهم دون أرباحها التي زدتموها ربا على ما أخذتم ذلك منه من غرمائكم فتأخذوا منهم ما ليس لكم أخذه أو لم يكن لكم قبل ولا تُظلمون أي ولا الغريم الذي يعطيكم ذلك دون الربا الذي كنتم

(١) سورة البقرة آية ٢٧٩.

(٢) صحيح مسلم - كتاب الحج - باب حجة النبي صلى الله عليه وسلم ج ٢ ص ٨٨٩ رقم ١٢١٨.

الترتموه من أجل الزيادة في الأجل بيخسكم حقاً لكم عليه فيخفكموه^(١) لأن ما زاد على رؤوس أموالكم لم يكن حقاً لكم عليه فيكون بمنعه إياكم ذلك ظالماً لكم^(٢).

وهكذا ننتهي من عرض الآيات التي تحدثت عن الربا والتي عاجلت موضوعه معالجة تامة، وبقي أن نذكر بعض الأحاديث التي بين فيها الصادق المصدوق خطورة الربا وعقوبة مقترفيه يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم "اجتنبوا السبع الموبقات، قالوا: وما هن يا رسول الله؟ قال الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات"^(٣). والموبقات هن المهلكات، التي تهلك من وقع فيها وأكل الربا ملعون وكل من تعاون معه في ذلك ملعون كذلك، روى البخاري ومسلم عن جابر بن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال "لعن الله آكل الربا وموكله وشاهديه وكتابه"^(٤) واللعن "هو الطرد والإبعاد من الله"^(٥) وأي خسران أعظم من هذا الخسران وعن عبد الله بن حنظلة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال "الدرهم من الربا أشد عند الله من ست وثلاثين زنية في الخطيئة"^(٦).

في هذه الأحاديث دلالة على عظم جرم التعامل بالربا وأكله فهو من الموبقات

(١) خَفَع: يَخْفَعُ خَفْعًا: ضَعُفَ مِنْ جُوعٍ أَوْ مَرَضٍ، وَقِيلَ خُفِعَ الرَّجُلُ مِنَ الْجُوعِ فَهُوَ مَخْفُوعٌ، وَرَجُلٌ خَوْفَعٌ أَي بِهِ اِكْتِنَابٌ وَوَجُومٌ. لسان العرب ج ٨ ص ٧٦.

(٢) انظر جامع البيان في تفسير القرآن - الطبري - ٣م ج ٣ ص ٧٢. الجامع لأحكام القرآن - القرطبي - ٣ ج ص ٣٩٣-٣٩٥. في ظلال القرآن - سيد قطب - ١م ج ٣ ص ٤٨٥-٤٨٦. فتح القدير - الشوكاني - ج ١ ص ٣٧٤.

(٣) صحيح البخاري - كتاب الوصايا - باقول الله تعالى (إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً" ٢م ج ٤ ص ١٤. صحيح مسلم - كتاب الإيمان - باب بيان الكبائر وأكبرها ج ١ ص ٩٢ رقم ٨٩.

(٤) صحيح البخاري - كتاب الطلاق - باب مهر البغي والنكاح الفاسد ٣م ج ٧ ص ٨١ بنحوه. صحيح مسلم - كتاب المساقاة - باب لعن آكل الربا وموكله ج ٣ ص ١٢١٩ رقم ١٥٩٨.

(٥) لسان العرب - لابن منظور - ج ١٣ ص ٣٨٧.

(٦) مسند الإمام أحمد ج ٥ ص ٢٢٥. صحيح. صحيح الجامع الصغير وزيادته - الألباني - ج ١ ص ٦٣٦.

المهلكات وكل من له علاقة به ملعون مطرود من رحمة الله، وهو أشد من ست وثلاثين زينة فأبي جرم أعظم من هذا الجرم وأي ذنب أعظم من هذا الذنب، لا شك أنه ذنب عظيم وإثم جسيم ويجب على المسلم أن يجتنبه وأن يحذر منه.

أنواع الربا:

الربا نوعان: ربا النسيئة و ربا الفضل.

أما ربا النسيئة: وهو الذي كان مشهوراً في الجاهلية، ويكون بإقراض قدر معين من المال لزمن محدود كسنة أو شهر مع اشتراط الزيادة في نظير امتداد الأجل وهو المستعمل الآن في المصارف المالية، وهو الذي نص القرآن الكريم على تحريمه، والتعامل بهذا النوع من الكبائر.

أما ربا الفضل: فيكون ببيع الشيء بنظيره مع زيادة أحد العوضين على الآخر كأن يبيعه صاعاً من القمح الهندي بثلاثة أصع من القمح البلدي، وهكذا الحكم في جميع المكيلات والموزونات والتقدين من الذهب والفضة لما جاء في الحديث من قوله صلى الله عليه وسلم "لا تبيعوا الذهب بالذهب، والورق بالورق، والبر بالبر، والتمر بالتمر، والشعير بالشعير، والملح بالملح، إلا سواء بسواء عيناً بعيناً يدًا بيد" (١).

وجمهور المجتهدين قد اتفقوا على تحريم الربا في القسمين، أما القسم الأول فبالقرآن وأما القسم الثاني فبالحديث السابق (٢).

شبهة ورد:

١- يريد بعض المهزومين أمام التصورات الرأسمالية الغربية أن يقصروا التحريم على صورة واحدة من صور الربا -وهو ربا النسيئة- بالاستناد إلى وصف السلف للعمليات الربوية في الجاهلية وأن يحلوا -دينياً- وباسم الإسلام، الصور الأخرى المستحدثة التي لا تنطبق في حرفة منها على ربا الجاهلية.

(١) صحيح مسلم - كتاب المساقاة - باب الصرف وبيع الذهب بالورق نقداً ج ٣ ص ١٢١١. سنن النسائي -

كتاب البيوع - باب بيع البر بالبر والشعير بالشعير م ٤ ج ٧ ص ٢٧٤-٢٧٥، مسند الإمام أحمد ج ٥ ص ٣١٥.

(٢) التفسير الكبير - الرازي - ج ٧ ص ٩٢، تفسير المراغي م ١ ج ٣ ص ٥٥.

وفي الرد على هذه الشبهة يقول صاحب الظلال: هذه المحاولة لا تزيد على أن تكون ظاهرة من ظواهر الهزيمة الروحية والعقلية.. فالإسلام ليس نظام شكليات، إنما هو نظام يقوم على تصور أصيل، فهو حين حرّم الربا لم يكن يحرم صورة منه دون صورة إنما كان يناهض تصورًا يخالف تصوره، ويجارب عقلية لا تتمشى مع عقليته، وكان شديد الحساسية في هذا إلى حد تحريم ربا الفضل إبعادًا لشبح العقلية الربوية والمشاعر الربوية من بعيد جدًا^(١).

شبهة ثانية:

إلا أن هناك ممن تعلموا على أيدي الغرب وتخلوا من معارفهم من ذهب إلى أبعد مما ذهب إليه هؤلاء، فزعموا أن تحريم الربا في الإسلام هو العقبة الكئود في مجارات الأمم الإسلامية للبلاد الغربية في الثروة التي هي مناط العزة والقوة في العصر الحديث، ويحتجون بأن المسلمين ما منوا بالفقر، وذهبت أموالهم إلى أيدي الأجانب إلا بتحريم الربا، فإنهم لاحتياجهم إلى الأموال يأخذونها من الأجانب بالربا الفاحش ومن كان منهم غنيًا لا يعطي ماله بالربا فمال الفقير يذهب، ومال الغني لا ينمو وهم يريدون بذلك أن الدين قد وقف عقبة كأداء في أهم مسألة عمرانية اجتماعية.

الرد على هذه الشبهة:

هذه حجة أو هي من بيت العنكبوت وأوهام يزيناها لهم الشيطان لم يحصوها حق التمحيص فإن المسلمين في هذا العصر لا يحكمون الدين في شيء من أعمالهم ومكاسبهم إذ لو حكموه لما استعانوا بالربا، ولما جعلوا أموالهم غنائم لغيرهم، فإن كانوا تركوا الربا لأجل الدين، فهل هم تركوا الصناعة والتجارة لأجل الدين؟ فالأمم جميعًا قد سبقتنا إلى إتقان ذلك فلماذا لا نتقن سائر المكاسب لنعوض على أنفسنا ما فاتنا من الكسب المحرم، وديننا يدعونا إلى السبق في إتقان كل شيء. والحق أن المسلمين قد نبذوا الدين وراءهم ظهريًا، فلم يبق منه إلا تقاليد وعادات وراثتها عن آبائهم وأجدادهم، فالدين لم يكن عائقًا لهم عن الرقي، بل هو خير

(١) في ظلال القرآن - سيد قطب - ج ٣ ص ٣٢٣ .

الأديان في الدعوة إلى العمل والحث على الكسب قال تعالى ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾^(١) وقال ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾^(٢).

فالأمّة الإسلامية ما ارتفعت إلا بالدين وما سقطت بعدما ارتفعت إلا بترك الدين مع الجهل بالسبب الذي أفضى بها إلى ذلك إلى أن صارت تجعل الرقى سبباً في الانحطاط، فلو اتبعت حكوماتنا وأفرادنا أوامر الدين وتركت التعامل بالربا مع الأجانب لما ضاعت ثروتنا ولا ذهب ملكنا وكان الدين وحده هو العاصم لنا^(٣).

الأسباب التي لأجلها حرم الله الربا:

اعتبرت الشريعة الإسلامية الربا من أكبر الجرائم الاجتماعية والدينية، وشتت عليه حرباً لا هوادة فيها، وأعد القرآن الكريم المتعاملين به عذاباً أليماً في الدنيا والآخرة^(٤)، كل ذلك بسبب ما يترتب على التعامل به من مضار ومفاسد تعود على المجتمع الإسلامي وهذه بعض الأسباب التي حرم القرآن الربا لأجلها:

١. يؤدي إلى العداوة والبغضاء، والمشاحنات والخصومات بين أفراد المجتمع، ويقضي على روح التعاون بينهم، إذ يترع عاطفة التراحم من القلوب، ويضيع المسروعة ويذهب المعروف بين الناس، ويحل القسوة محل الرحمة، حتى إن الفقير لسيموت جوعاً، ولا يجد من يجود عليه ليسد رمقه، ومن جراء هذا منيت البلاد ذات الحضارات التي تعاملت بالربا بمشاكل اجتماعية، فكثيراً ما تألب العمال وغيرهم على أصحاب الأموال، لأن أصحاب رؤوس الأموال والمرابين الذين لا يعرفون معنى للأخوة الإنسانية يعدمون كل احترام أو عطف من أبناء مجتمعهم، وتكون النظرة إليهم نظرة ازدراء واحتقار، وكفى المرابين -مقنّاً وهواناً أنهم

(١) سورة الملك آية ١٥

(٢) سورة الجمعة آية ٩

(٣) تفسير المراغي م ١ ج ٣ ص ٥٦.

(٤) روائع البيان في تفسير آيات الأحكام -الصابوني- ج ١ ص ٣٦٨.

أعداء لمجتمعهم ولأبناء وطنهم بل إنهم أعداء للإنسانية لأنهم يمتصون دماء البشر عن طريق استغلال حاجاتهم واضطرابهم.

٢. يؤدي إلى خلق طبقة مترفة تعيش على النعيم والرفاهية والتمتع بعرق جبين الآخرين وطبقة معدمة تعيش على الفاقة والحاجة والبؤس والحرمان، وقد ثبت أن الربا أعظم عامل من عوامل تضخم الثروات وتكدسها في أيدي فئة قليلة من البشر، وأنه سبب البلاء الذي حل بالأمم والجماعات حيث كثرت المحن والفتن وازدادت الثورات الداخلية، وانتشرت المبادئ الضالة باسم عون الفقير والضعيف.

٣. إن الربا يمنع الناس من الاشتغال بالمكاسب الصحيحة كأنواع الحرف والصناعات، لأن رب المال إذا تمكن بعقد الربا من إتمام ماله خف عليه الكسب وسهلت لديه أسباب العيش، فيألف الكسل ويمقت العمل، في حين أن الإسلام يمجّد العمل ويكرم العاملين ويجعله أفضل وسيلة من وسائل الكسب لأنه يؤدي إلى المهارة، ويرفع الروح المعنوية للأفراد.

٤. يولد في الإنسان حب الأثرة والأنانية فلا يعرف إلا نفسه، ولا يهمله إلا مصلحته ونفعه، وبذلك تنعدم روح التضحية والإيثار وتنعدم معاني حب الخير للأفراد والجماعات، ويحل محلها حب الذات والأثرة والأنانية، وتتلاشى الروابط الأخوية بين الإنسان وأخيه الإنسان، فيغدو الإنسان -المرابي- وحشاً مفترساً لا يهمله من الحياة إلا جمع المال، وامتصاص دماء الناس واستلاب ما في أيديهم، ويصبح ذنباً ضارياً في صورة إنسان وديع، وقد جرت عادة المرابين بأن يزداد طمعهم حين الأزمت كقحط في البلاد، أو حروب تشتد فيها الحاجة إلى الأقوات، فيضطر الفقراء إلى الاستدانة من هؤلاء الطغاة الذين يستترفون دماءهم ويستأثرون بالبقية الباقية من أموالهم.

٥. إن عاقبة الربا الخراب والدمار، فكثيراً ما أذهب من أموال، وخرّب من بيوت، والسر في هذا أن المقترضين يسهل عليهم أخذ المال من غير بدل حاضر، ويزين لهم الشيطان إنفاقه في وجوه من الكماليات التي كان يمكن الاستغناء عنها، ويغريهم

بالمزيد من الاستدانة، ولا يزال يزداد ثقل الدين على كواهلهم حتى يستغرق أموالهم فإذا حل الأجل لم يستطيعوا الوفاء وطلبوا التأجيل ولا يزالون يماطلون ويؤجلون والدين يزداد يوماً بعد يوم حتى يستولي الدائنون قسراً على كل ما يملكون فيصبحون فقراء معدمين" (١).

من هذا العرض لموضوع الربا نتأكد من خطورة هذا التعامل المحرم والآثار التي تعود على المجتمع من ممارسته، فهو مفرق للأمة مشتت لشمليها، زارع للبغضاء والشحناء بين أبنائها، يكسب الأموال في أيدي طبقة معينة من المجتمع دون باقي الأمة، وهذا من شأنه أن يضعف الأمة وأن يفقدها هيبتها وسلطانها مما يؤدي إلى انحدارها وهلاكها.

وانتشار الربا في هذا العصر نذير سوء على الأمم، إذ إن كثيراً من الدول النامية التي تقترض من البنك الدولي بالربا، لا تستطيع أن تسدد الفوائد المستحقة على المبالغ المقرضة، فكيف بالمبلغ نفسه، مما يجعل هذه الدول الصغيرة مدينة إلى الدول العظمى على الدوام، وبالتالي يبقى اقتصاد الدول الضعيفة في تراجع مستمر وقد ينهار هذا الاقتصاد، فلا تستطيع أن توفر متطلبات المعيشة لأبنائها.

وإن البديل السناح للتعامل بالربا يكمن في الرجوع إلى النظام الاقتصادي الإسلامي الذي يدعو إلى التعاون والتكافل بين أفراد المجتمع. يقول المودودي رحمه الله "لا يكتفي الإسلام بدم الربا والتنديد بمعايه على الوجه الخلقى وحسب، بل هو يبغضه إلى النفوس وينفرها عنه بتحريمه من الوجهة الدينية في جانب، ويلغي نظامه ويبتل الصفقات الربوية بموجب الشرع ويعد أخذ الربا وإعطاءه وكتابته والشهادة به جريمة يعاقب مرتكبيها بالقتل ومصادرة الممتلكات إن كانوا لا ينتهون عنه بعقوبات هيينة هذا من الجانب الآخر، ويؤسس نظاماً جديداً للمالية بفرض الزكاة وتكليف الحكومة بجمعها وتوزيعها في الجانب الثالث، ويعني بإصلاح عامة الناس وتعليمهم

(١) انظر في هذه الأسباب تفسير المراغي ١م ج ٣ ص ٥٥-٥٩ باختصار. في رحاب التفسير - كشك - ١م ج

٣ ص ٥٢٢. روائع البيان تفسير آيات الأحكام - الصابوني - ج ١ ص ٢٦٨-٢٧٠.

وتربيتهم بوسائل الدعوة والنشر حتى تكبت في نفوسهم تلك الصفات والميول التي تحملهم على أخذ الربا وإعطائه وتنمو فيهم مكانها صفات وعواطف يجري بها في أفراد المجتمع روح المواساة والتعاون والتكافل^(١).

التطفيف في الكيل والميزان:

تعريف التطفيف:

التطفيف: من طَفَّفَ تَطْفِيفًا، أي بحس الكيل والوزن -ونقص المكيال- وهو أن لا يملأه إلى أصباره^(٢) قال تعالى (ويل للمطففين) فالتطفيف نقص يخون به صاحبه في كيل أو وزن. وهو أيضًا: أن يؤخذ أعلى الإناء ولا يتم كيله، يقال هذَاطَفٌ المِكيال وطَفَافُهُ وطِفافُهُ إذا قارب ملاءه ولما يملأ، ولهذا قيل للذي يسيء الكيل ولا يوفيه مطفف^(٣)

حكم التطفيف:

التطفيف في الكيل والميزان من المحرمات التي حرمها الله في كتابه، وذلك لأن فيه أكلا لأموال الناس بالباطل من خلال السرقة والخيانة والإنقاص في الكيل والوزن، مع أن الله أمر بتوفيتهما وإتمامهما وعدم بخسهما فقال سبحانه ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾^(٤) قال بعض العلماء لما علم الله سبحانه من عباده أن كثيرًا منهم تضيق نفسه عن أن تطيب للغير بما لا يجب عليها له أمر المعطي بإيفاء رب الحق حقه الذي هو له ولم يكلفه الزيادة، لما في الزيادة عليه من ضيق نفسه بها، وأمر صاحب

(١) الربا - لأبي الأعلى المودودي - ص ١٢٥.

(٢) أصباره: الأصبار جمع الصبر وهي الناحية المستعلية من الإناء وغيره والأصبار بالهاء جمع الجمع. المصباح

المنير - الفيومي - ج ١ ص ٣٥٥.

(٣) لسان العرب - لابن منظور - ج ٩ ص ٢٢٢، تاج العروس من جواهر القاموس - للزبيدي - ج ٢٤ ص ٩.

(٤) سورة الأنعام آية ١٥٢.

الحق بأخذ حقه ويكلفه الرضا بأقل منه، لما في النقصان من ضيق نفسه" (١).

وقال عز وجل في موضع آخر من كتابه الكريم ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ
وَزِنُوا بِالْقِسْطِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ (٢).

ومعلوم أن التفاوت الحاصل بسبب نقصان الكيل والوزن قليل، والوعيد الحاصل عليه شديد عظيم، فوجب على العاقل الاحتراز منه، وإنما عظم الوعيد فيه لأن جميع الناس محتاجون إلى المعاضات والبيع والشراء وقد يكون الإنسان غافلاً لا يهتدي إلى حفظ ماله، فالشارع بالغ في المنع من التطفيف والنقصان سعياً في إبقاء الأموال على الملاك، ومنعاً من تلطيخ النفس بسرقة ذلك المقدر الحقيق، والقسطاس مأخوذ من القسط وهو الذي يحصل فيه الاستقامة والاعتدال وبالجملة فمعناه المعتدل الذي لا يميل إلى أحد الجانبين، ثم قال سبحانه (ذلك خير وأحسن تأويلاً) أي الإيفاء بالتمام والكمال خير من التطفيف القليل من حيث أن الإنسان يتخلص بواسطته عن الذكر القبيح في الدنيا والعقاب الشديد في الآخرة، والتأويل ما يؤول إليه الأمر، وإنما حكم تعالى بأن عاقبة هذا الأمر أحسن العواقب لأنه في الدنيا إذا اشتهر بالاحتراز عن التطفيف عول الناس عليه ومالت القلوب إليه، وحصل له الاستغناء في الزمان القليل، وكم من الفقراء لما اشتهروا عند الناس بالأمانة والاحتراز أقبلت القلوب عليهم وحصلت الأموال الكثيرة لهم في المدة القليلة أما في الآخرة فالفوز بالثواب العظيم والخلاص من العذاب الأليم (٣).

هذا عن الأمر بإيفاء الكيل والميزان وفيه إشارة إلى عدم نقص الكيل والميزان، إلا أن الله نهي عن التطفيف في آيات واضحات بينات وتوعد من يقع في ذلك بالعذاب الشديد فقال سبحانه ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وُزِنُوهُمْ يُخْسِرُونَ أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ

(١) الجامع لأحكام القرآن - للقرطبي - ج ٧ ص ١٣٦.

(٢) سورة الإسراء آية ٣٥.

(٣) التفسير الكبير - الرازي - ج ١٠ ص ٢٠٦-٢٠٧.

عَظِيمٌ^(١)

والمطففون هم الذين يتقصون المكيال والميزان، وقيل له المطفف لأنه لا يكاد يسرق في المكيال والميزان إلا الشيء الطفيف الخفيف، وهو مأخوذ من طف الشيء وهو جانبه. و(ويل) الذي توعد الله به المطففين هو شدة الشر وقيل الحزن والهلاك وقيل العذاب الأليم، وقيل جبل في جهنم، وأخرج أحمد والترمذي عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "ويل واد في جهنم يهوي فيه الكافر أربعين خريفًا قبل أن يبلغ قعره"^(٢). وهذا الذي فسر به الرسول صلى الله عليه وسلم الويل هو الراجح.

﴿الَّذِينَ إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ﴾^(٣) "هذه صفة مخصصة للمطففين أو صفة كاشفة لحالهم شارحة لكيفية تطفيفهم الذي استحقوا به الويل أي إذا أخذوا من الناس ما أخذوا بحكم الشراء ونحوه كيلا يأخذونه وأفيًا وافرًا، وتبديل كلمة على هنا بمن قيل لتضمين الاكتيال معنى الاستيلاء أو للإشارة إلى أنه اكتيال مضر للناس، ولم يذكر الوزن هنا اكتفاء عنه بالكيل إذ كل منهما يستعمل مكان الآخر غالبًا (وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون) أي كالوا لهم أو وزنوا لهم من أموال أنفسهم (يخسرون) أي ينقصون.

ثم خوفهم سبحانه فقال (ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون) الجملة مستأنفة مسوقة لتحويل ما فعلوه من التطفيف وتفضيحه، وللتعجب من حالهم في الاجترار عليه والإشارة بأولئك إلى المطففين، وما فيه من معنى البعد للإشعار ببعد درجتهم في الشرارة والفساد (ليوم عظيم) في هوله وعذابه وهو يوم القيامة، ووصفه بالعظيم لكونه زمانًا لتلك الأمور العظام من البعث والحساب والعقاب ودخول أهل الجنة الجنة وأهل النار النار (يوم يقوم الناس لرب العالمين) أي يوم يقومون من قبورهم حفاة عراة

(١) سورة المطففين آية ١-٥.

(٢) سنن الترمذي - كتاب التفسير - باب سورة الأنبياء ج ٥ ص ٣٢٠ رقم ٣٢١٣ وقال حديث غريب، مسند الإمام أحمد ج ٣ ص ٧٥.

(٣) سورة المطففين آية ٢.

غزراً لأمر رب العالمين أو لجزائه أو لحسابه أو لحكمه وقضائه، وفي وصف اليوم بالعظيم مع قيام الناس لله خاضعين فيه ووصفه سبحانه بكونه رب العالمين دلالة على عظم ذنب التطفيف ومزيد إثمه وفضاعة عقابه (١).

كل هذا يؤكد على أن التطفيف من كبائر الذنوب وهو منبئ عن عدم الأنفة والمسروعة بالكلية، وقد ورد في الحديث الشريف ما يبين خطورة التطفيف وأثره على المجتمع وما يترتب عليه من مضار فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: أقبل علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال "يا معشر المهاجرين خمس خصال إذا ابتليتم بهن وأعوذ بالله أن تدركوهن: لم تظهر الفاحشة في قوم قط فيعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا، ولم ينقصوا الكيل والميزان إلا أخذوا بالسنين - أي جمع سنة وهي العام المقحط الذي لا تثبت الأرض فيه شيئاً وقع مطر أو لا - وشدة المؤنة وجور السلطان، ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء، ولولا البهائم لم يمطروا، ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلب الله عليهم عدواً من غيرهم فأخذوا بعض ما في أيديهم، وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله ويتخيروا فيما أنزل الله إلا جعل بأسهم بينهم" (٢).

هذا الوعيد يلحق كل من يأخذ لنفسه زائداً، أو يدفع إلى غيره ناقصاً قليلاً أو كثيراً هذا إن لم يتب منه، فإن تاب قبلت توبته إن شاء الله.

إن هذه العقوبات الخطيرة من فقر وجذب المترتبة على تطفيف الكيل والميزان لتدل على أثر هذا الذنب في انحدار الأمة وهلاكها. وقد قص الله علينا نبأ قوم شعيب عليه السلام وما حل بهم من سخط الله وعذابه بتطفيفهم الميزان، وكان قوم شعيب عليه السلام يطففون الميزان ويبخسون الناس حقوقهم فنهاهم عن ذلك، وأمرهم بإيفاء الكيل والميزان، فلم يستجيبوا لدعوته ولم يتبعوا سبيله فأنزل الله عليهم عذابه

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن - القرطبي - ج ١٩ ص ٢٥١. روح المعاني - الألويسي - ج ١٠ ص ٣٠ ص ٨٨.

فتح البان في مقاصد القرآن - القنوجي - ج ١٥ ص ١٢٦.

(٢) سنن ابن ماجه - كتاب الفتن - باب العقوبات ج ٢ ص ١٣٣٣ رقم ٤٠١٩. صحيح . صحيح سنن ابن

ماجه ج ٢ ص ٣٧٠ ..

وعقابه وجعلهم عبرة لمن بعدهم قال تعالى ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَتَنَّ أَتَّبِعْتُمْ شُعَيْبًا إِنْ كُمْ إِذَا لَخَّاسِرُونَ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِاثِمِينَ﴾^(١)
 "أي قالت الجماعة من كفره رجال قوم شعيب وهم المملأ الذين جحدوا بآيات الله وكذبوا رسوله وتمادوا في غيهم لآخرين منهم لكن أنتم اتبعتم شعيباً على ما يقول وأجبتموه إلى ما يدعوكم إليه من توحيد الله والانتهاة إلى أمره ونهيه وأقررتم بنبوته إنكم إذا لخاسرون لمغبونون في فعلكم وترككم ملتكم التي أنتم عليها مقيمون إلى دينه الذي يدعوكم إليه.

(فأخذتم الرجفة ...) الآية فأخذت الذين كفروا من قوم شعيب الرجفة، أي الزلزلة المحركة لعذاب الله فأصبحوا في دارهم جاثمين على ركبهم موتى هلكى"^(٢)
 وهذا مثال واقعي لما حل بأمة من الأمم وقعت في هذا الإثم فكان عقابها هلاك الله ودماره.

ثالثاً: الفساد الاجتماعي:

التنازع والتفكك:

إنه لا يضعف الأمة شيء إضعاف التنازع والتفكك لها، فالتنازع داخل المجتمع يجعله مفككاً متناحراً، يعج بالاختلافات والإنشاقات، الأمر الذي يؤدي به إلى الإلحاد والإهيار، ويسر وقوعه في الهاوية.

مثله في ذلك كمثل المرض الذي إذا دخل إلى جسم سليم لم يتلبسه -جملة واحدة- وإنما يقع اختياره أول ما يقع على عضو يستضعفه، أو جزء لين من البدن، حتى إذا تمكن منه وتثبت فيه أخذ ينتقل منه إلى عضو آخر حتى يصبح البدن كله ميدانه ومرتعه الخصب كذلك التفرقة والتزاع، يبدو في أوله صغيراً، ثم يغدو شراً مستطيراً، يدخل العائلة فلا يبقى على وثامها وهدوئها، ثم يدخل الجماعة فيشتت

(١) سورة الأعراف، آيتان ٩٠-٩١ .

(٢) جامع البيان في تفسير القرآن - القرطبي - ٥م ج ٨ ص ١٦٦ .

شمسها ويبدد قواها، ثم ينتهي بالأمة فيوردها موارد الهلاك فإذا هي أشلاء ممزقة هنا وهناك^(١).

من أجل ذلك نهى القرآن الكريم عن التنازع وجعله عاملاً من عوامل الضعف وذهاب القوة مما يترتب عليه الفشل والهزيمة قال تعالى ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾^(٢) "ولا هذا نهى عن التنازع والاختلاف لأكما مدعاة الفشل وهو الخيبة والنكول عن إمضاء الأمر، وأكثر أسباب الضعف والجبن لذلك فسروهما بمما، وأصل التنازع كالمنازعة والمشاركة في الترع وهو الجذب وأخذ الشيء بشدة أو لطف كترع السروخ من الجسد، ونزع السلطان العامل من عمله، كأن كل واحد من المتنازعين يريد أن يترع ما عند الآخر من رأي ويلقي به -أو من نزع إلى الشيء نزوعاً إذا مال إليه، فإن كل واحد من المتنازعين في الأمر يميل إلى غير ما يميل إليه الآخر، وهذا أظهر هنا.

وقوله تعالى (وتذهب ريحكم) فمعناه تذهب قوتكم وشوكتكم وترنخي أعصاب شدتكم فيظهر عدوكم عليكم إذ ما من أمة يدب فيها النزاع ثم يبقى لها قوة على العمل والقتال. وقيل (ريحكهم) أي دولتكم فإنها مستعارة للدولة من حيث إنها في تمشي أمرها ونفاذه بما في هبونها وجرياتها والريح في اللغة الهواء المتحرك وهي مؤنثة، وقد تذكر بمعنى الهواء، وتستعار للقوة والغلبة إذ لا يوجد في الأجسام أقوى منها، فإنها تميج البحار وتقتلع أكبر الأشجار وتهدم الدور والقلاع"^(٣).

هذا وقد مرت بالمسلمين أحداث ومواقف دب النزاع فيها بينهم مما أفشلهم وأذهب ريحهم ومن هذه الأحداث الخطيرة "غزوة أحد" هذه الغزوة التي انتصر فيها المسلمون بأدي الأمر إلا أنه حدث نزاع بينهم مما أدى إلى فشلهم وهزيمتهم قال تعالى ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّوهُم بِأُذُنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ

(١) من هدي القرآن في الأخلاف والدين والاجتماع -محمد نمر الخطيب- ص ٧٧.

(٢) سورة الأنفال آية ٤٦.

(٣) انظر تفسير ارشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم -لأبي السعود- ج ٤ ص ٢٥. المنار -محمد رشيد رضا- م ٥٠ ج ١٠ ص ٢٣، في ظلال القرآن -سيد قطب- م ٤٠ ج ١٠ ص ٢٦.

وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمَنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ
ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ»^(١).

فقد وعد الله المسلمين بالنصر بشرط الصبر والتقوى في قوله «بَلَىٰ إِنْ تَصَبَّرُوا
وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ
مُسَوِّمِينَ»^(٢) لأن عدوهم كان ثلاثة آلاف مقاتل، فلما واجهوهم كان الظفر والنصر
أول النهار للإسلام، فلما فشلوا وتنازعوا والمراد تنازع الرماة حين قال بعضهم نلحق
الغنائم، وقال بعضهم: ثبت في مكاننا كما أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم،
عند ذلك تأخر الوعد الذي كان مشروطاً بالصبر والتقوى لعدم ثباتهم وطاعتهم
للسلطان صلى الله عليه وسلم، من بعد ما أراهم الله ما يحبون من النصر والظفر، فكان
فريق منهم ممن رغب في المغنم حين رأى هزيمة المشركين، وفريق رغب في الأجر ذلك
بالبقاء في مراكزهم امتثالاً لأمر الرسول صلى الله عليه وسلم، ثم ردَّ الله المسلمين
عنهم بالانحزام ليمتحنهم ويختبرهم بالهزيمة بعد النصر^(٣). روى البخاري عن البراء
قال: لقينا المشركين يومئذ وأجلس النبي صلى الله عليه وسلم جيشاً من الرماة وأمر
عليهم عبد الله بن جبير^(٤) وقال "لا ترحوا إن رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا ترحوا وإن
رأيتموهم ظهوروا علينا فلا تعينونا" فلما لقيناهم هربوا حتى رأيت النساء يشتددن في
الجبل رفعن عن سوقهن، قد بدت خلاخلهن فأخذوا يقولون: الغنيمة الغنيمة فقال
عبد الله بن جبير عهد إلي النبي صلى الله عليه وسلم أن لا ترحوا فأبوا، فلما أبوا

(١) سورة آل عمران آية ١٥٢.

(٢) سورة آل عمران آية ١٢٥.

(٣) انظر تفسير الكشاف - الزمخشري - ج ١ ص ٤٧٠. تفسير القرآن العظيم - ابن كثير - ج ١ ص ٤١٤. فتح
القدير - الشوكاني - ج ١ ص ٤٩١.

(٤) عسبد الله بن جبير النعمان بن أمية بن امرئ القيس وهو البرك بن ثعلبة بن عمرو بن عوف بن مالك بن
الأوس الأنصاري الأوسي، من بني ثعلبة بن عمرو، قتل يوم أحد، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم جعل
عبد الله على الرماة يوم أحد وكانوا خمسين رجلاً. أسد الغابة في معرفة الصحابة - ابن الأثير - ج ٣ ص ١٣٠ -

١٣١. الإصابة في تمييز الصحابة - ابن حجر - ج ٢ ص ٢٨٦.

صرف وجوههم فأصيب سبعون قتيلاً^(١).

ومن الأمثلة الواقعية الحية على أثر التنازع والتفكك في الانحدار ما وقع للمسلمين في الأندلس من هزيمة وذلة، وطرد وتشريد، وقتل وذبح، بسبب تنازعهم وتفرقهم، ففي كل بلد أمير وعلى كل جماعة سلطان، وفي كل جهة خليفة، فكانت النتيجة المحتومة أن ضرب الفرنجة العرب جماعة بعد جماعة، وأخذوا البلاد بلدًا بعد بلد، حتى طردوا آخر عربي منها إلى ما وراء البحار وانتهت قصة هذا الخلاف وهذا النزاع بتلك العبرة الهائلة^(٢) وذلك بعد أن كان المسلمون يعيشون في سؤدد وعزة، وقوة وسلطان عندما كانوا متحدين متماسكين.

والأمثلة على ذلك كثيرة على مر التاريخ الإسلامي، إذ لم يخذل المسلمون ويهزموا إلا في أوقات كانوا فيها متفرقين مختلفين متنازعين. ولم ينتصروا إلا في أوقات كانوا فيها متحدين متآزرين مترابطين.

فإبان الغزو الصليبي لبلاد المسلمين كان المسلمون يعيشون في تفرق ونزاع مستمر، كانوا مشتتين لا يربط بينهم إلا الحروب الطاحنة التي أضعفت قوتهم مما سهل على الصليبيين هزيمة المسلمين والاستيلاء على بلادهم وديارهم، وإقامة الممالك الصليبية فيها.

وكذلك كان الحال عند غزو التتار لبلاد الإسلامية مما أدى إلى نفس النتيجة وهي الهزيمة المشينة للمسلمين وضياع ديارهم، هذا عدا قتل الآلاف من المسلمين على أيدي الغزاة الظالمين.

ولم ينتصر المسلمون على كل من الصليبيين والتتار إلا بعدما وحدوا جهودهم وجمعوا صفوفهم وكانوا يداً على من عاداهم.

من خلال هذه الأمثلة يمكننا أن نخرج بخلاصة هامة، وهي أن التنازع والتفكك داخل الصف الإسلامي وفي الأمة الإسلامية هو عنوان هزيمتها وذلتها

(١) صحيح البخاري - كتاب المغازي - باب غزوة بدر - ٢م ج ٥ ص ٣٧٦.

(٢) من هدي القرآن في الأخلاق والدين والاجتماع - محمد نمر الخطيب - ص ٧٧.

وانحذارها، وأن الاتفاق والترابط في الأمة هو شعار نصرها وعزتها وكرامتها.
ومن الجدير بالذكر في هذا المقام أن نُذَكِّرُ بأن أعداء الإسلام اتبعوا أسلوب
الستفركة لإذلال الأمة تحت شعار (فرق تسد) وبالفعل نجحوا في هذا المخطط الخبيث
ففرقوا الأمة الإسلامية إلى دويلات متناحرة متحاربة، تتنازع فيما بينها على بضع
كيلو مترات مختلف عليها بين حدودها، مما أدى إلى حروب طاحنة في مواطن عديدة
من البلاد الإسلامية (مثل النزاع الحدودي بين السعودية واليمن، والعراق والكويت،
والنزاع الحدودي بين البحرين والإمارات والمغرب والجمهورية الصحراوية وغيرها من
النزاعات بين هذه الدول الإسلامية).

هذا عن النزاعات بين الدول أما عن النزاعات بين الطوائف داخل الدولة
الواحدة فحدث ولا حرج فأمثلته كثيرة جداً على رأس هذه الأمثلة ما حدث في لبنان
من صراعات داخلية أثرت فيه تأثيراً بالغاً، وما يحصل في السودان بين المسلمين
والنصارى في الجنوب وفي الصومال، ثم ما أثير من صراعات بين المسلمين والأقباط في
مصر، وبين المسلمين والبربر في المغرب العربي. وغيرها كثير. هذه النزاعات التي
يغذيها الغرب الكافر مادياً وإعلامياً يجب على المسلمين أن يحذروا من نتائجها، لأن
الأعداء يهدفون من خلالها إضعاف قوة المسلمين وشغلهم بهذه الصراعات الجانية عن
هدفهم الأسمى والأعظم وهو إقامة دولة الإسلام وإعادة الخلافة الإسلامية ونشر دين
الله في الأرض.

عدم التعاون:

إن عدم التعاون بين أفراد المجتمع يفرق الجهود ويوزعها، ومن ثم لا تنتج
النتائج الطيبة التي يمكن أن تقدم نفعاً واضحاً للأمة، بل إن عدم التعاون في المجتمع
يؤدي به إلى الانحذار والفشل، ولهذا حرص الإسلام على إنشاء مجتمع متعاون مترابط
ليرتقي ويقوى، ويثبت في وجه المخططات الخارجية التي تهدف إلى إضعافه وإذلاله.
"والتعاون مشتق من العون وهو إعانة الناس بعضهم بعضاً، ويقتضي المشاركة
من الطرفين، فهو عملية لا تتم من طرف شخص واحد، بل لا بد من اشتراك

شخصين أو أكثر والمجتمع يضم جميع الأفراد، فتعاون المجتمع يشمل جميع أفرادها.

...والإنسان متعاون مع أخيه الإنسان بطبعه، ولولاه لما استطاع أن يبدأ حياته، ولما استمر توالد الإنسان ومنذ أن خلق الله آدم، خلق له حواء، ليتعاوننا معاً، على إحصاب الحياة، وإيجاد الذرية، وإنشاء المجتمع قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ (١).

فالتعاون ظاهرة قديمة جداً قدم الخلق نفسه، انتقل من الاثنين إلى الأسرة، ومن الأسرة إلى القبيلة ومن القبيلة إلى الأمة إلى المجتمع كله (٢).

وإن مما يقوى عامل التعاون بين أفراد المجتمع الإيمان بالله سبحانه، فالإيمان بالله يقلب البشرية كلها من التنافس والصراع إلى التعاون والتعارف، والشرط الأساسي لارتقاء أي نوع من أنواع الأحياء هو الذي يقل منه إلى الحد الأدنى التنافس بين الأفراد داخل النوع نفسه ويتغلب التعاون بينهم على التنافس كما أثبت علماء الأحياء أن البشر مختلفون ومتفاوتون فهم أمم مختلفة وأقوام متباينة في خصائصها، ولكن لا يجوز أن يكون هذا التفاوت والتباين سبباً للاختلاف بل داعياً إلى التعاون والتعارف ليكمل بعضهم بعضاً (٣). قال تعالى ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (٤).

وهذا دليل على تفاوت الناس وتفاضلهم، فقد فاضل الله بينهم فجعل بعضهم أفضل من بعض في الدنيا بالرزق والرياسة والقوة والحرية والعقل والعلم، ثم ذكر العلة لرفع درجات بعضهم على بعض فقال (ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً) أي ليتعاونوا ويستخدم بعضهم بعضاً فيستخدم الغني الفقير والرئيس المرؤوس، والقوي الضعيف،

(١) سورة النساء آية ١.

(٢) المجتمع المتكافل في الإسلام - د. عبد العزيز الخياط - ص ٢٩٢-٢٩٣.

(٣) نحو إنسانية سعيدة - محمد المبارك - ص ١٠٨.

(٤) سورة الزخرف آية ٣٢.

والحر العبد، والعاقل من هو دونه في العقل، والعالم الجاهل، وهذا في غالب أحوال أهل الدنيا، وبه تتم مصالحهم وينتظم معاشهم ويصل كل واحد منهم إلى مطلوبه فإن كل صناعة دنيوية يحسنها قوم دون آخرين، فجعل البعض محتاجاً إلى بعض ليحصل التعاون فيما بينهم وتحصل المواساة في متاع الدنيا، ويحتاج هذا إلى هذا ويصنع هذا لهذا ويعطي هذا لهذا^(١).

وإن مما حرص القرآن عليه وأصله في قلوب المسلمين ظاهرة التعاون الجماعي، الذي ينأى بالإنسان عن الانعزالية، ثم ينأى به نفسياً عن الانفرادية وقبائحها الأنانية المفرطة، ويحقق معنى الجسدية الواحدة، ويهيئ المناخ المناسب لإقامة جلائل الأعمال العلمية والتطبيقية، ولذلك أمر الله تعالى بالتعاون، إلا أنه قيده بأن يكون تعاوناً على البر والتقوى لا تعاوناً على الإثم والعدوان.

إن الشياطين فيما بينهم ودعاة الشر والإفساد والمجرمين وعصابات اللصوص وأحزاب الفتنة ومنظمات الإضلال كل هؤلاء يتعاون أفرادهم فيما بينهم على الإثم والعدوان، والشر والإفساد وخراب العمران، أما تعاون المؤمنين بالله المتبعين لتعاليم الإسلام ووصاياه، فهو تعاون على البر والتقوى في أعمال جماعية نافعة للإنسانية رافعة لجماعة المسلمين^(٢).

قال تعالى ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾^(٣). "وهذا أمر من الله بالتعاون على البر والتقوى، وهما العفو والإغضاء ومتابعة الأمر ومجانبة الهوى، والبر يتناول الواجب والمندوب إليه، أما التقوى فهي رعاية الواجب، ثم نهي عن التعاون على الإثم والعدوان وهما التشفي والانتقام وظلم الناس"^(٤).

وللتعاون مظاهر كثيرة منها التعاون في الفكر والتعاون في المال والتعاون في الأجسام والأعمال، والتعاون النفسي والوجداني في الأفراح والأحزان إلى غير ذلك

(١) فتح القدير-الشوكاني- ج ٤ ص ٦٨٦ بتصرف.

(٢) الأخلاق الإسلامية- للميداني- ج ٢ ص ٢٠٦.

(٣) سورة المائدة آية ٢.

(٤) انظر المحرر الوجيز- لابن عطية- ج ٤ ص ٣٣٢. أنوار التنزيل وأسرار التأويل- للبيضاوي- ج ١ ص ٢٥٤.

من مظاهر التعاون. وقد حث الرسول صلى الله عليه وسلم على فضيلة التعاون في مناسبات كثيرة ومنها قوله صلى الله عليه وسلم "تعين الرجل في دابته فتحمله عليها أو ترفع له عليها متاعه صدقة، وقال الكلمة الطيبة صدقة وقال كل خطوة تمشيها إلى الصلاة صدقة وقال وتميط الأذى عن الطريق صدقة"^(١).

ولما كان التعاون يؤدي إلى تماسك الأمة ويقوي تكافلها وتساندها كان لا بد أن يشمل جميع الميادين وأن يكون في كل شكل من أشكال الحياة، شريطة أن لا يتعارض مع أوامر الله ونواهيه وأن لا يكون في المنكر والإثم سواء شمل الجمعيات التعاونية والمشاريع الزراعية والشركات من التعاون المادي، أو شمل ضم الجهود على تربية الأفراد وإعانة البشر والنصيحة لهم، ودلالتهم على الخير وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، من التعاون المعنوي^(٢).

من خلال ما سبق من حديثنا عن التعاون ندرك أثر التعاون في ارتقاء الأمة وتوحيدها وتماسكها، ومن ثم ندرك كذلك أثر عدم التعاون في تفكك الأمة وانحدارها وضعفها مما يجعلها لقمة سائغة لأعدائها، فأثر عدم التعاون خطير على الأمة ونتائجه وخيمة، وبالتالي يجب على الأمة الإسلامية أن تحذر من الوقوع في هذا الداء، وأن تكون أمة متعاونة متألفة فيما بينها لتقوى وتكون لها هبة بين الأمم، خاصة في هذا الوقت الذي تقطعت فيه الأواصر بين كثير من الدول الإسلامية فأصبحت تتعاون مع أعدائها أكثر مما تتعاون مع بعضها مما زادها ضعفاً وذلة.

كما ندعو المجتمعات الإسلامية إلى زيادة التعاون فيما بينها، ليزيدها ذلك ترابطاً وتكاتفاً، لأن عدم التعاون يفرقها ويضعف قوتها ويدفعها إلى الانحدار والهاوية.

(١) صحيح مسلم - كتاب الزكاة - باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف - ج ٢ ص ٦٩٩

رقم ١٠٠٩. مسند الإمام أحمد ج ٢ ص ٣١٦.

(٢) انظر الإسلام والتعاون - لعبد المنعم حمادة - ص ٣٨. الأخلاق الإسلامية - للميداني - ج ٢ ص ٢٠٦.

المبحث الرابع: الانحطاط الأخلاقي

المطلب الأول: أسباب انتشاره:

أولاً: ضعف التقوى والوازع الديني:

إن من أعظم ما يقي المسلم من الوقوع في الفاحشة والمنكر، أو المعاصي والردائل تقوى الله سبحانه، والوازع الذي يحرك ضميره ويؤنبه، ومن ثم إذا هم بفعل سوء تذكروا الله سبحانه فيتوقف ويرجع عما زين له الشيطان الوقوع فيه، وهذا ما قرره القرآن الكريم إذ يقول الله سبحانه ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ (١).

فهذه عادة المتقين الذين اتقوا الشر والمعاصي أنهم إذا أصابهم نزع من الشيطان، أو ألم واتصل بهم طيف منه ليحملهم بسوسه على المعصية، أو ليقوع بينهم البغضاء والستفرقة (تذكروا) أن هذا من الشيطان وإغوائه، أو تذكروا ما أمر الله به ونهى عنه، أو تذكروا عقاب الله لمن أطاع الشيطان وعصى الرحمن، وجزيل ثوابه لمن عصى الشيطان وأطاع الرحمن (فإذا هم مبصرون) من البصيرة، فإذا هم قد تبينوا الحق والسداد ومالوا إليه ودفعوا ما وسوس به الشيطان إليهم ولم يتبعوه فيه، لأن وسوسته إنما تأخذ الغافلين عن أنفسهم لا يحاسبونها على خواطرها، الغافلين عن ربهم لا يراقبونه في أهوائها وأعمالها، ولا شيء أقوى على طرد الشيطان من ذكر الله تعالى بالقلب، ومراقبته في السر والجهر، فذكر الله تعالى بأي نوع من أنواعه يقوي في النفس حب الحق ودواعي الخير ويضعف فيه الميل إلى الباطل والشر، حتى لا يكون للشيطان مدخل محل إليها، فهو إنما يزين لها الباطل والشر بقدر استعدادها لأي نوع منها، فإن وجد بالغفلة مدخلاً إلى قلب المؤمن المتقي لا يلبث أن يشعر به لأنه غريب عن نفسه، ومتى شعر ذكر فأبصر فحنس الشيطان وابتعد عنه، وإن أصاب منه غرة قبل تذكره تاب من قريب، فمثل المؤمن التقي في عدم تمكن الشيطان من إغوائه وإن

(١) سورة الأعراف آية ٢٠١

تمكن من مسه كمثل المرء الصحيح المزاج القوي الجسم النظيف الثوب والبدن والمكان لا تجد فيه الأمراض المفسدة للصحة استعداداً لإفساد مزاجه وإصابته بالأمراض، فهي تظل بعيدة عنه، فإن مسه شيء منها بدخوله في معدته أو دمه فتكت بها نسمة الصحة والعافية فحالت دون فتكها به، وكذلك يكون قوي الروح بالإيمان والتقوى غير مستعد لتأثير الشيطان في نفسه. أما إخوان الشياطين الذين ليسوا بمتقين فإن الشياطين يمدونهم في الغي، أي يكونون مدداً لهم فيه ويعضدوهم (ثم لا يقصرون) أي لا يمسكون عن إغوائهم حتى يصروا ولا يرجعوا" (١).

وهكذا تقي التقوى صاحبها من الوقوع فيما حرم الله وتقف سدّاً بينه وبين الفواحش والمحرمات حتى إن غفل يوماً، وزين له الشيطان فعل المعصية فأصاب شيئاً منها فإنه سرعان ما يرجع ويتوب إلى الله لا يصر على معصية ولا يقيم على باطل، ولهذا قال تعالى في وصف المتقين ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (٢) "هذه صفات المتقين والتي منها أنهم إذا فعلوا فاحشة وهي ما عظم قبحه من الأفعال والأقوال، وأصل الفحش القبح والخروج عن الحد وأكثر ما تكون في الأعمال السيئة وقيل الفاحشة هي الزنا، (أو ظلموا أنفسهم) وظلم النفس يقع على كل مكروه ينالها من قبل صاحبها فيما يمس خاصة الإنسان من أذى، أو يتجاوزه إلى غيره من الناس، وقيل ظلم النفس هو ما دون الزنا مثل القبلة والمعانقة واللمس والنظر، وذكر بعض العلماء أن الفاحشة ما يكون فعله كاملاً في القبح وظلم النفس هو أي ذنب كان، فإذا فعل المتقي شيئاً من ذلك ذكر الله، وذكر عظمة الله جل جلاله وعلمه به وفضله عليه، وذكر لقاء الله ومحاسبته بين يديه وسؤاله عن ذلك

(١) انظر: الكشاف-الزمخشري- ج ٢ ص ١٣٩، المحرر الوحيز- ابن عطية- ج ٧ ص ٢٣٥، تفسير المنار -

محمد رشيد رضا- ج ٩ ص ٥٤٤.

(٢) سورة آل عمران آية ١٣٣-١٣٤-١٣٥

يوم الفزع الأكبر، وقيل ذكروا الله باللسان عند الذنوب وهو قوله (فاستغفروا لذنوبهم) يعني لأجل ذنوبهم فتابوا منها وأقلعوا عنها نادمين على فعلها عازمين أن لا يعودوا إليها (ومن يغفر الذنوب إلا الله) وصف سبحانه نفسه بسعة الرحمة وقرب المغفرة، وأن التائب من الذنب عنده كمن لا ذنب له، وأنه لا مفرغ للمذنبين إلا إلى فضله وكرمه وإحسانه وعفوه ورحمته، وفيه تنبيه إلى أن العبد لا يطلب المغفرة إلا منه وأنه القادر على عقاب المذنب، وكذلك هو القادر على إزالة ذلك العقاب عنه، وهذا إغراء للعصاة والمذنبين بالتوبة والقبول إذا هم مدوا أيديهم إليه وطلبوا الصفح والمغفرة منه. (ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون) إشارة إلى ما تصح عليه توبة التائبين، وهو أنهم إذا فعلوا المعصية لم يصروا على معاودتها، بل أخذتهم خشية الله واستولى عليهم الندم... وأقبلوا على الله تائبين مستغفرين (وهم يعلمون) قال ابن عباس: وهم يعلمون أنها معصيته وأن له رباً يغفرها" (١).

هذا عن دور التقوى في الحد من وقوع الناس في الفاحشة والمنكر، أما عن الوازع الديني في نفس المسلم فإن أثره كبير كذلك في منع صاحبه من اقتراف ما حرم الله عليه هذا الوازع الديني والذي للتقوى دور كبير في تقويته داخل الإنسان من خلال إيمانه بالله واليوم الآخر، هو الذي يجعل المرء يحاسب نفسه ويؤنبها عند اعتدائها على حدود الله وتجاوزها لأخلاق الإسلام.

والوازع الديني قوة خفية في أعماق النفس الإنسانية لا تشاهد بالعين، ولا ترى بالجمهور ولا يعرفها التشريح والفسولوجيا وعلم وظائف الأعضاء، إنها قوة معنوية يحسها الإنسان في حناياه تهديه إلى الواجب كأنها كشاف ينير له الطريق وتجذب به إلى الخير، وتدفعه عن الشر كأنها صوت الأب يحذر ولده، أو الأستاذ ينصح تلميذه، فإذا خالف ما تأمر به أو اقترف ما تحذر كانت هذه القوة محكمة تقضي له أو عليه، تقضي له بالراحة والسرور والطمأنينة، أو تحكم عليه بالألم والقلق والعذاب.

(١) انظر: لباب التأويل في معاني التنزيل - للخازن - ج ١ ص ٤٢٢، التفسير القرآني للقرآن - للخطيب - ج

هذه القوة الكاشفة الهادية الآمرة الناهية هي التي سماها علماء الأخلاق "الضمير" وسماها بعضهم "الوجدان" وسماها الإسلام "القلب" قال صلى الله عليه وسلم "استفت قلبك وإن أفنك الناس وأفتوك"^(١).

هذا الوازع في نفس المسلم هو عماد الأخلاق وركيزتها الأولى فهو يهدي إلى ما تشابه منها، ويرغب في خيرها ويزع عن شرها ويقف حارساً لها. والمجتمع لا يرقى وينتظم ويسعد بسن القوانين وإصدار القرارات وتنظيم اللوائح ويقظة رجال السلطة، وإن كان لا يستغني عن ذلك كله، وإنما يرقى وينتظم ويسعد بوجود القلوب الحية وتوافر الضمائر اليقظة بين أبنائه.

وعلى هذا فإن قوة تقوى الله والوازع الديني في نفس المسلم تجعلان الإنسان مراقباً لربه محاسباً لنفسه متيقظاً لأمره متدبراً في عاقبته لا يظلم ولا يخون ولا يتناول ولا يستكبر لا يجحد ما عليه ولا يدعي ما ليس له، ولا يفعل اليوم ما يخاف من حسابه غداً، ولا يعمل في السر ما يستحي منه في العلانية^(٢). وهذه عين المراقبة لله والمحاسبة للنفس التي تغرسها التقوى والوازع الديني نفسه على سبيل التوصية بالحق فنبغي أن يكون له في آخر النهار ساعة يحاسب فيها نفسه. يقول صاحب الإحياء: "اعلم أن العبد كما يكون له وقت في أول النهار يشارط فيه ويحاسبها على جميع حركاتها وسكناتها كما يفعل التجار في الدنيا مع الشركاء في آخر كل سنة أو شهر أو يوم حرصاً منهم على الدنيا، وخوفاً من أن يفوتهم منها ما لو فاتهم لكانت الخيرة لهم في فواته، ولو حصل ذلك لهم فلا يبقى إلا أياماً قلائل، فكيف لا يحاسب العامل نفسه فيما يتعلق به خطر الشقاوة والسعادة أبد الآباد؟ وعن ميمون بن مهران^(٣) أنه قال:

(١) سنن الدارمي - كتاب البيوع - باب دع ما يريك إلى ما يريك - ج ٢ ص ٣٢٠ . مسند الإمام أحمد

ج ٤ ص ٢٢٨ . حسن . صحيح الجامع الصغير وزياداته - الألباني - ج ١ ص ٢٢٤ .

(٢) الإيمان والحياة . د. يوسف القرضاوي - ص ٢٢٨ - ٢٣١ باختصار .

(٣) ميمون بن مهران: الإمام الحجة عالم الجزيرة وفقهها، اعتقته امرأة من بني نصر بن معاوية بالكوفة فنشأ

بها ثم سكن الرقة، توفي سنة سبع عشرة ومائة. تهذيب سير إعلام النبلاء - الذهبي - هذبه أحمد الحمصي - ج ١

"لا يكون العبد من المتقين حتى يحاسب نفسه أشد من محاسبته شريكه، والشريكان يتحاسبان بعد العمل". وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يضرب قدميه بالدرّة إذا جنه الليل ويقول لنفسه ماذا عملت اليوم" (١).

هذا هو أثر التقوى والوازع الديني في تنمية الأخلاق الحميدة في نفس صاحبها، وابتعاده عن الأخلاق الرذيلة وتجنبه لها ابتغاء مرضاة الله، حتى لو وقع فيما لا يرضاه الله سرعان ما يرجع ويؤوب ويراجع نفسه ويحاسبها ويراقبها في السر والعلانية.

أما ضعف التقوى والوازع الديني فإنه على العكس من ذلك يوقع الإنسان في المحرمات والمنكرات وينشر الرذائل والأخلاق الدنيئة، فتزداد مظاهر الانحراف الأخلاقي في المجتمع من تخرج وسفور واختلاط وزنا ولواط وشرب للخمور والمخدرات، ومن سرقة وخيانة وتشبه بالكفار في أعمالهم وحركاتهم وملابسهم وغيرها من الأخلاق والممارسات الدنيئة.

كل هذا وغيره يحدث إذا ضعفت التقوى في القلوب، ومات الوازع الديني في النفوس فلا خشية لله ولا مراقبة له ولا محاسبة للنفس مما يدفع الأمة إلى الهاوية والانحدار، ويؤدي إلى الهلاك والبوار.

ثانياً: التبرج والاختلاط:

إن للمرأة دور عظيم في المجتمع، فهي المربية للأبناء والموجهة لهم، ولها تأثيرها على الحياة كلها، ولهذا يجب على المرأة المسلمة أن تفهم مهمتها الحقيقية، ووضعها الصحيح الذي رسمه الإسلام لها، إيماناً بأن لها رسالة في المجتمع والأسرة والحياة تختلف عن رسالة الرجل. وهي مكتملة لها في نفس الوقت، وعليها أن تؤمن أساساً بأن الإسلام، والإسلام وحده هو الذي أخرجها من الظلم والظلمات، وأعطها حق الحياة، وأقر لها دستوراً يحميها تمام الحماية ويفسح أمامها الباب واسعاً لتحقيق إرادتها، وأن هذه الجولة الباطلة الضالة التي تغشى المجتمعات الإسلامية منذ قريب تحت اسم

(١) إحياء علوم الدين - الغزالي - ج ٤ ص ٤٠٤-٤٠٥

"تحرير المرأة" هي مؤامرة خطيرة قام بها النفوذ الأجنبي بالاشتراك مع بعض القائمين على مقاليد الأمور من أوليائه لتدمير الوجود الحقيقي للمرأة^(١)، وتحويلها إلى أداة من أدوات الاستمتاع الرخيص من خلال إخراجها عن سمتها وحشمتها بحجة التحضر والانطلاق ثم إقحامها في أنشطة اجتماعية وسياسية ليست بالضرورة بحاجة إليها.^(٢) وهذا الذي سعى إليه أعداء الإسلام ومن حذا حذوهم من المتغربين من المسلمين إنما يراد منه إفساد الأخلاق في المجتمع الإسلامي والخط من قيم المسلمين وآدابهم، ومن أخطر ما اتبعوه في هذا السبيل إخراج المرأة المسلمة من بيتها مترجحة سافرة لتختلط بالرجال في المدارس والجامعات وفي أماكن العمل وفي الشارع والسوق وغيرها من الأماكن العامة والخاصة.

وقد نهى الإسلام عن تبرج المرأة وعن اختلاطها بالرجال وحذر من ذلك تحذيراً شديداً صوتاً لأخلاق المسلمين وحفاظاً على آدابهم، ومجتمعهم، ووصف التبرج بأنه من أفعال الجاهلية الأولى التي يجب على المسلمين أن يترفعوا عنها قال تعالى: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾^(٣) "يقول تعالى ذكره لأزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم يا نساء النبي لستن كأحد من النساء، من نساء هذه الأمة إن اتقيتن فيما أمركنّ وهما كنّ فلا تخضعن بالقول أي لا تلتن بالقول للرجال فيما يتغيه أهل الجاهلية منكن، وهو أمر لهن أن يكون قولهن جزلاً وكلامهن فصلاً ولا يكون على وجه يظهر في القلب علاقة بما يظهر عليه من اللين، كما كانت الحال عليه في نساء العرب من مكالمة الرجال بترخيم الصوت ولينه، مثل كلام المريات والمومسات، فيطمع الذي في قلبه مرض الشك وشهوة الزنا والتشوف للفجور. (وقلن قولاً

(١) انظر: نحو بناء منهج البدائل الإسلامية- لأنور الجندي- ص ١٠٩.

(٢) التنصير مفهومه وأهدافه ووسائله وسبل مواجهته- د. علي النملة- ص ٥٠.

(٣) سورة الأحزاب الآيات ٣٢-٣٣

معروفاً) أي قولاً جميلاً حسناً معروفاً في الخير. قال ابن عباس: أمرهن بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. (وقرن في بيوتكن) وهذا أمر بلزوم البيت وإن كان الخطاب لنساء النبي صلى الله عليه وسلم فقد دخل غيرهن فيه بالمعنى، فأمر الله تعالى نساء النبي صلى الله عليه وسلم بملازمة بيوتهن وخاطبتهن بذلك تشريعاً لهن، ونهاهن عن التبرج وأعلم أنه فعل الجاهلية الأولى (ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى) وحقيقة التبرج هو إظهار ما ستره أحسن، وهو مأخوذ من السعة يقال في أسنانه تبرج إذا كانت متفرقة، وقال مجاهد^(١) "كان النساء يتمشين بين الرجال فذلك التبرج" وكانت النساء في الجاهلية الجهلاء يظهرن ما يقبح إظهاره حتى كانت المرأة تجلس مع زوجها وخلها - صديقها الخالص - فينفرد خلها بما فوق الإزار إلى الأعلى وينفرد زوجها بما دون الإزار إلى الأسفل وربما سأل أحدهما صاحبه البدل. وهذا يدل على مدى ما وصل إليه حال أهل الجاهلية من التردى في الأخلاق والانحراف في القيم، التي يجب على المسلمين أن يترفعوا عنها أو يتعالوا عليها"^(٢).

واللباس المحتشم يقي المرأة المسلمة من إيذاء السفهاء ومرضى القلوب، ومن ملاحقة المنحرفين والمفسدين قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجِكُمْ وَبَنَاتِكُمْ وَنِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنَسْنَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾^(٣) "هذا خطاب الله لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم أن يأمر أزواجه وبناته ونساء المؤمنين أن يدنين عليهن من جلابيهن، والجلابيب جمع جلباب وهو ثوب أكبر من الخمار... وقيل هو ثوب يستر جميع بدن المرأة. قال الواحدي: قال المفسرون يغطين وجوههن ورؤوسهن إلا عيناً واحدة، فيعلم أنهن حرائر فلا يعرض

(١) مجاهد بن جبر الإمام شيخ القراء والمفسرين، أبو الحجاج المكي الأسود، مولى السائب بن أبي السائب المخزومي، روى عن ابن عباس فأكثر وأطاب، وعنه أخذ القرآن والتفسير والفقهاء مائة سنة اثنتين ومائة وهو ساجد الطبقات الكبرى - ابن سعد - ج ٥ ص ٤٦٦. سير اعلام النبلاء - الذهبي - ج ٤ ص ٤٤٩ - ٤٥٥.

(٢) انظر جامع البيان في تفسير القرآن - الطبري - ج ٣ م ٢٢ ص ٣. الجامع لأحكام القرآن - القرطبي - ج ١٤ ص ١٧٨.

(٣) سورة الأحزاب آية ٥٩

لهن بأذى، وذلك قوله تعالى (ذلك أدنى أن يعرفن) أي أقرب أن يعرفن فيتميزن عن الإماء ويظهر للناس أنهن حرائر (فلا يؤذين) من جهة أهل الرية بالتعرض لهن ولأهلهن، وليس المراد بقوله ذلك أدنى أن يعرفن أن تعرف الواحدة منهن من هي، بل المراد أن يعرفن أنهن حرائر لا إماء لأنهن قد لبسن لبسة تختص بالحرائر (وكان الله غفوراً) لما سلف منهن من ترك إدناء الجلايب (رحيمًا) بهن أو غفوراً لذنوب المؤمنين رحيمًا بهن فيدخلن في ذلك دخولاً أولياً^(١).

وحسب القواعد من النساء اللاتي لا حاجة لهن في الرجال استحباب القرآن لهن أن يحتجبن عن الرجال الأجانب عنها قال تعالى: ﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾^(٢) فاللاتي قعدن عن الولد من الكبر من النساء فلا يحضن ولا يادن وهن العجائز اللاتي يئسن من البعولة فلا يطمعن في الأزواج فليس عليهن حرج ولا إثم أن يضعن ثيابهن يعني جلايبهن التي تكون فوق الثياب، وإنما جاز لهن ذلك لانصراف الأنفس عنهن إذ لا رغبة للرجال فيهن، فأباح الله سبحانه لهن ما لم يبحه لغيرهن، ثم استثني حالة من حالتهن فقال (غير متبرجات بزينة) من غير أن يردن بوضع الجلايب إظهار زينتهن ولا متعرضات بالترين لينظر إليهن الرجال، ثم ختم الآية بتحريض القواعد على الاستعفاف، وأوضح أنه خير لهن وإن لم يتبرجن، فبين بذلك فضل التحجب والتستر بالثياب ولو من العجائز وأنه خير لهن من وضع الثياب، فوجب أن يكون التحجب والاستعفاف عن إظهار الزينة خيراً للشابات من باب أولى وأبعد لهن عن أسباب الفتنة^(٣). وإغلاقاً لباب الفتنة وعدم انتشار الفاحشة أمر الله بغض الأبصار وبالحجاب فقال تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ وَقُلْ

(١) فتح القدير-الشوكاني- ج ٤ ص ٣٧٧

(٢) سورة النور آية ٦٠

(٣) انظر جامع البيان في تفسير القرآن-الطبري- ٩م ج ١٨ ص ١٢٨. فتح القدير-الشوكاني- ج ٤ ص ٦٥.

نشرة خطر التبرج والسفور على الفرد والمجتمع لابن باز ص ٣.

لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا...»^(١)

"هذا خطاب للرسول صلى الله عليه وسلم أن يأمر أتباعه المؤمنين بالغض من أبصارهم ويكفوا عن النظر إلى الأجنبية، وعدم النظر إلا إلى ما أبيض لهم النظر إليه، وأن يحفظوا فروجهم عن الزنى ويستروا عوراتهم حتى لا يراها أحد، فإن ذلك أظهر لقلوبهم من دنس الريبة، وأنقى لهم وأحفظ من الوقوع في الفجور (إن الله خبير بما يصنعون) فهو سبحانه لا تخفى عليه خافية ثم أمر سبحانه المؤمنات بغض أبصارهن كذلك، غيرة منه سبحانه لأزواج عباده المؤمنين وتمييزهن عن صفة نساء الجاهلية وفعال المشركات، وكان سبب نزول هذه الآية ما ذكره مقاتل بن حيان قال: بلغنا والله أعلم أن جابر بن عبد الله الأنصاري حدث أن أسماء بنت مرثد^(٢) كانت في محل لها في بني حارثة، فجعل النساء يدخلن عليها غير متررات فيبدو ما في أرجلهن من الخلائل وتبدو صدورهن وذوائبهن، فقالت أسماء ما أقبح هذا فأنزل الله تعالى ﴿ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ ﴾ أي لا يجوز للمرأة النظر إلى الرجال الأجانب بشهوة أو بغير شهوة أصلاً إلا لضرورة.

﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ أي لا يظهرن شيئاً من الزينة للأجانب إلا ما لا يمكن إخفاؤه قال ابن مسعود رضي الله عنه كالرداء والثياب يعني ما كان يتعاطاه نساء العرب من المقنعة التي تجلل ثيابها، وما يبدو من أسافل الثياب فلا حرج عليها فيه لأن هذا لا يمكنها إخفاؤه ونظيره في زي النساء ما يظهر من إزارها وما لا يمكن إخفاؤه، وهذا القول ذهب إليه جماعة من العلماء على رأسهم الصحابي الجليل ابن مسعود رضي الله عنه.

وذهب ابن عباس رضي الله عنهما وجماعة إلى أن المراد بقوله (إلا ما ظهر

(١) سورة النور الآيتان ٣٠-٣١

(٢) أسماء بنت مرثد من بني حارثة . الاستيعاب في معرفة الأصحاب - لأبي عمر يوسف القرطبي - ج ٤

ص ٣٤٨ دار الكتب العلمية ط ١ سنة ١٩٩٥ م. الإصابة في تمييز الصحابة- ابن حجر- ج ٨ ص ١٨.

منها) وجهها وكفيها والخاتم^(١) وإن الذي تطمئن إليه النفس من هذين القولين، القول الأول الذي ذهب إليه ابن مسعود وجماعة كبيرة من العلماء.

وللدلالة على قوة هذا الرأي نكتفي بذكر دليل واحد من كتاب الله وهو قوله سبحانه (ولا يبدين زينتهن) "فقد حرمت الآية الكريمة إبداء الزينة، والزينة على قسمين خلقية ومكتسبة، والوجه من الزينة الخلقية بل هو أصل الجمال ومصدر الفتنة والإغراء، أما الزينة المكتسبة فهي ما تحاوله المرأة في تحسين خلقتها كالثياب والحلي والكحل والخضاب... والآية الكريمة منعت المرأة من إبداء الزينة مطلقاً، وحرمت عليها أن تكشف شيئاً من أعضائها أمام الرجال أو تظهر زينتها أمامهم وتأول من قال بهذا القول قوله تعالى (إلا ما ظهر منها) أن المراد ما ظهر بدون قصد ولا عمد مثل أن يكشف الريح عن نحرها أو ساقها أو شيء من جسدها، ويصبح معنى الآية على هذا التأويل ولا يبدين زينتهن أبداً وهن مؤاخذات على إبداء زينتهن إلا ما ظهر منها بنفسه وانكشف بغير قصد ولا عمد فلن مؤاخذات عليه فيكون الوجه والكف من الزينة التي يحرم إبدؤها"^(٢)

هذا عن التبرج وأخطاره ونهى القرآن عنه، أما الاختلاط فأثره وخطره ليس بأقل من خطر التبرج، لأن اختلاط الفتيات بالفتيان، والنساء بالرجال يزيد من سعار الشهوة ويلهب نارها في نفوس كل من الجنسين مما يترتب عليه آثار خطيرة ومدمرة، تدفع كثيراً منهم إلى الفاحشة والمنكر.

"ومن أخطر وأجرب الأجواء التي تم فيها الاختلاط هو الجو المدرسي، بمنهج الحبيثة وبيئته الخاصة المكيفة تكييفاً مخططاً مرسومًا.

وهذا الاختلاط في كثير من الأحيان مدعوم بتخطيط ماكر ليؤدي دوره التربوي الخطير ليحقق التغيير المطلوب ويكفل لها الاستمرار والاستقرار بواسطة هذه الطبقة الجديدة الممتدة في قلب أمتنا... ولقد كان من أفحش النتائج المدمرة بسبب

(١) تفسير القرآن العظيم - ابن كثير - ج ٣ ص ٢٨٣

(٢) روائع البيان تفسير آيات الأحكام من القرآن - للصابري - ج ٢ ص ١٤٧.

هذا الاختلاط ظهور عادات وأخلاقيات جديدة في المجتمع تحاد الدين وتضاده أو تتنافر مع ذوقه وآدابه في أقل الأحوال.

وكان ما أصاب المرأة المسلمة من ذلك بالذات هو المقتل الذي أسرع بالمجتمع نحو هاوية سحيقة ما لها من قرار" (١)

فهل يعي المسلمون خطر الاختلاط الذي عم المؤسسات بكل صورها، وانتشر في مؤسسات التعليم انتشاراً عظيماً، ففي المدارس بجميع مراحلها، وفي الجامعات يختلط الفتيان بالفتيات، والشباب بالشابات، وهنَّ يلبسن الملابس الفاضحة الخليعة الماجنة ويكشفن عن محاسنهن ويضعن المساحيق والألوان المغرية، والتي تلفت أنظار الشباب وتجذبهم إليهن، ولهذا يجب على المسلمين أن ينهوا هذا المنكر الذي يؤدي إلى فساد المجتمع وتحلله وانتشار الفواحش من خلاله.

يقول صاحب الظلال "لقد شاع في وقت من الأوقات أن النظرة المباحة، والحديث الطليق، والاختلاط الميسور، والدعابة المرححة بين الجنسين والإطلاع على مواطن الفتنة المخبوءة ... شاع أن كل هذا تنفيس وترويح ووقاية من الكبت ومن العقد النفسية ... شاع هذا على إثر انتشار بعض النظريات المادية القائمة على تجريد الإنسان من خصائصه التي تفرقه عن الحيوان والرجوع إلى القاعدة الحيوانية الغارقة في الطين وبخاصة نظرية فرويد ولكن هذا لم يكن سوى فروض نظرية.

رأيت بعيني في أشد البلاد إباحية وتفلتاً من جميع القيود الاجتماعية والأخلاقية والدينية والإنسانية ما يكذبها وينقضها من الأساس.

نعم شاهدت في البلاد التي ليس فيها قيد واحد على الكشف الجسدي والاختلاط الجنسي بكل صورته وأشكاله، أن هذا كله لم ينته بتهديب الدوافع الجنسية وترويضها إنما انتهى إلى سعار مجنون، لا يرتوي ولا يهدأ إلا ريثما يعود إلى الظمأ والاندفاع.

شاهدت هذه الأمراض النفسية والعقد التي كان مفهومًا أنها لا تنشأ إلا من الحرمان شاهدتها بوفرة ومعها الشذوذ الجنسي بكل أنواعه ثمرة مباشرة للاختلاط

(١) الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام - د. عبد الستار فتح الله سعيد - ص ١٤٢.

الذي لا يقيد قيد ولا يقف عنده حد".^(١)

وهذا الذي شاهده سيد قطب من شذوذ جنسي وأمراض نفسية رآها في أمريكا، هاهو ينتقل إلى مجتمعنا الذي نعيش فيه، في هذا المجتمع من الفواحش والشذوذ والأمراض النفسية الكثير وكل ذلك من جراء التبرج والاختلاط الذي أدى إلى هذا الانحدار الأخلاقي في الأمة الإسلامية.

(١) انظر: في ظلال القرآن - سيد قطب - ج ٦ م ١٨ ص ٩٤-٩٥.

المطلب الثاني: من مظاهر الانحطاط الأخلاقي

أولاً: انتشار الزنى:

إن من آثار ومظاهر الانحطاط الأخلاقي في الأمة انتشار الزنا، وهو جريمة أخلاقية خطيرة، تترتب عليها مضار عظيمة في المجتمع، مما يفسد العلاقات ويقطع أواصر المحبة بين أبناء المجتمع، وهو من عادات الجاهلية التي هُي عنها الإسلام ليحفظ المجتمع من الفواحش والمنكرات والفتن.

وقد عمل الإسلام على توجيه الطاقة التي بداخل الإنسان توجيهاً سليماً من خلال تفريغ هذه الطاقة بطرق مباحة شريفة، وذلك من خلال "الزواج الشرعي" الذي حض عليه الإسلام وجعله نعمة من النعم التي منَّ الله بها على الإنسان ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾^(١)

وقد هُي القرآن عن الزنا وبيّن أخطاره فقال الله عز وجل ﴿وَلَا تَقْرُبُوا الزَّانَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾^(٢)

فهذا هُي من الله لعباده عن قرب الزنا بمباشرة أسبابه ودواعيه فضلاً عن مباشرته هو للمبالغة في النهي عنه وبيان شدة قبحه، قال العلماء "إذا قيل للإنسان لا تقرب هذا، فهذا أكد من أن يقال له لا تفعله، ثم علل سبحانه ذلك بقوله (إنه كان فاحشة وساء سبيلاً) أي أنه كان فعلة ظاهرة القبح مشتملة على مفسد كثيرة.^(٣)

ومن دلائل قبح الزنا أنه يترفع عنه المؤمنون ويتعالى عليه المتقون، وقد وصف الله عباد الرحمن بأنهم لا يزنون فقال سبحانه ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا... وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ

(١) سورة الروم آية ٢١

(٢) سورة الإسراء آية ٣٢

(٣) التفسير الكبير - الرازي - ج ٥ ص ٣٩٤. تفسير المراغي م ٥ ج ١٥ ص ٤٣.

اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزُنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿١﴾

فالتحرج من الزنا مفرق الطريق بين الحياة النظيفة التي يشعر فيها الإنسان بارتفاعه من الحس الحيواني الغليظ ويحس بأن لالتقائه بالجنس الآخر هدفاً أسمى من إرواء سعار اللحم والدم والحياة الهابطة الغليظة التي لا هم للذكور والإناث فيها إلا إرضاء ذلك السعار" (٢)

ومن الوسائل الهامة التي اتخذها القرآن الكريم لتنفير المسلمين وإبعادهم عن الزنا، تلك العقوبة الصارمة التي يعاقب بها الزانية والزاني، وذلك بجلد الزاني البكر مائة جلدة ذكراً أو أنثى قال تعالى ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَيْشَهَّدَ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٣)

هذه هي العقوبة التي قررها القرآن للزناة فمن زنى من الرجال أو زنت من النساء وهو حر بكر غير محصن بزواج فاجلدوه ضرباً مائة جلدة عقوبة لما صنع وأتى من معصية الله.

هذا حد الزاني البكر الغير محصن، أما المحصن فإن حده الرجم حتى الموت وقد دلت على ذلك السنة المشرفة، فقد ثبت هذا الحد بفعل النبي صلى الله عليه وسلم وقوله وعمله وكذلك بإجماع الصحابة والتابعين، فقد ثبت بالروايات الصحيحة أن النبي صلى الله عليه وسلم أقام حد الرجم على بعض الصحابة كما عزر، والغامدية، وأن الخلفاء الراشدين من بعده قد أقاموا هذا الحد في عهودهم وأعلنوا مراراً أن الرجم هو الحد للزنى بعد الإحصان (٤)

فقد روى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال وإن الله بعث محمداً صلى الله عليه وسلم بالحق وأنزل عليه الكتاب فكان فيما أنزل عليه آية الرجم يعني

(١) سورة الفرقان آية ٦٨

(٢) في ظلال القرآن - سيد قطب - ٦م - ج ١٩ ص ١٨٥

(٣) سورة النور آية ٢

(٤) روائع البيان في تفسير آيات الأحكام - الصابوني - ج ٢ ص ٢٢ .

بها قوله تعالى (الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالا من الله والله عزيز حكيم) فقرأناها ووعيناها ورجم رسول الله صلى الله عليه وسلم ورجمنا بعده وأخشى أن يطول بالناس زمان يقول قائل: لا نجد الرجم في كتاب الله تعالى فيضلوا بترك فريضة أنزل الله عز وجل في كتابه. ألا وإن الرجم حق على من زنى إذا أحصن من الرجال أو النساء وقامت البينة أو كان حمل أو اعتراف، والله لولا أن يقول الناس زاد في كتاب الله لكتبها" (١) ثم تواصل الآيات حديثها عن حد الزاني فيقول سبحانه (ولا تأخذكم بما رأفة) وهي رقة الرحمة (في دين الله) أي في طاعة الله وإقامة حده فتعطلوه أو تسامحوا فيه، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها" (٢) (إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر) أي إن كنتم تصدقون بالله ربكم وباليوم الآخر، وأنكم فيه مبعوثون لحشر القيامة وللثواب والعقاب فإن من كان بذلك مصدقا فإنه لا يخالف الله في أمره ونهيه خوف عقابه على معاصيه، وهذا من باب التهيج والإلهاب، لأن الإيمان بالله واليوم الآخر يقتضي الجِد في طاعة الله والاجتهاد في إجراء أحكامه (وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين) أي ليحضر جلد الزانيين البكرين وحدثهما إذا أقيم عليهما طائفة من المؤمنين والعرب تسمى الواحد فما زاد طائفة، وقيل الطائفة ما زاد عن الثلاثة فعن ابن عباس رضي الله عنهما "من أربعة إلى أربعين" وقوله تعالى (من المؤمنين) يعني من أهل الإيمان بالله ورسوله، وحضور طائفة من المؤمنين فيه زيادة في التنكيل، فإن التفضيح قد ينكل أكثر مما ينكل التعذيب" (٣)

وقدّم القرآن الزانية على الزاني أي المرأة على الرجل، لأن الزنى من المرأة أقبح

(١) صحيح البخاري - كتاب الحدود - باب إقامة الحدود على الشريف والوضيع ٣م ج ٨ ص ٤٢١. صحيح

مسلم - كتاب الحدود - باب رجم الثيب في الزنا ج ٣ ص ١٣١٧ رقم ١٦٩١

(٢) صحيح البخاري - كتاب الحدود - باب رجم الحبل من الزنا إذا أحصنت ٣م ج ٣ ص ٤٢١. صحيح مسلم

- كتب الحدود باب قطع السارق الشريف وغيره ونهيه عن الشفاعة في الحدود ج ٣ ص ١٣١٥ رقم ١٦٨٨.

(٣) انظر جامع البيان في تفسير القرآن - الطبري - ج ٩ ص ٥٩. إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم -

أبي السعود - ج ٤ ص ٦٩.

وجرمه أشنع لما يترتب عليه من تلطيخ فراش الرجل، وفساد الأنساب، وإلحاق العار بالعشيرة، ثم الفضيحة بالنسبة للمرأة "بالحمل" تكون أظهر وأدوم، ولأن المرأة هي الأصل في الفعل لكون الداعية فيها أوفر، ولولا تمكينها منه لم يقع. (١)

ثم بين سبحانه أن الزاني لا يليق به أن ينكح المؤمنة العفيفة الشريفة إنما ينكح مثله أو أحسن منه، ينكح الزانية الفاجرة، أو المشتركة الوثنية، ولا عجب فإن الفاسق الخبيث لا يرغب غالباً إلا في فاسقة من شكله أو مشركه، والزانية الخبيثة كذلك لا يرغب فيها إلا خبيث مثلها أو مشرك، فالنفوس الطاهرة تأبى مثل هذا الزواج بالفواجس الفاسقات قال تعالى ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢)

وسبب نزول الآية أن امرأة تدعى "أم مهزول" كانت من البغايا، فكانت تسافح الرجل تشترط أن تنفق عليه، فأراد رجل من الصحابة أن يتزوجها فأنزل الله هذه الآية (٣) وعلى هذا فإنه ينبغي للمسلم الورع أن يترفع عن نكاح الزانيات، وعلى المرأة الشريفة العفيفة أن تتعفف عن التزوج بالرجل الفاحش المقترف للزنى.

المفاسد المترتبة على الزنا:

- ١- اختلاط الأنساب واشتباهاها فلا يعرف الإنسان أن الولد الذي أتت به الزانية أهو منه أو من غيره فلا يقوم بتربيته ولا يستمر في تعهده، وذلك يوجب ضياع الأولاد وانقطاع النسل وخراب العالم.
- ٢- إنه إذا لم يوجد سبب شرعي لأجله يكون هذا الرجل أولى بهذه المرأة من غيره لم يبق في حصول ذلك الاختصاص إلا التوائب والتقاتل وذلك يفضي إلى فتح

(١) انظر إرشاد العقل السليم - أبو السعود - ج ٤ ص ٦٩. روائع البيان تفسير آيات الأحكام - الصابوني -

ج ٢ ص ١٦

(٢) سورة النور آية ٣

(٣) جامع البيان في تفسير القرآن - الطبري - ج ٩ ص ٥٩ .

بساب الهرج^(١) والمرج^(٢) وكم سمعنا وقوع القتل الذريع بسبب إقدام المرأة الواحدة على الزنا.

٣- إن المرأة إذا باشرت الزنا وثمرت عليه يستقدرها كل طبع سليم وكل خاطر مستقيم وحينئذ لا تحصل الألفة والمحبة ولا يتم السكن والازدواج ولذلك فإن المرأة إذا اشتهرت بالزنا تنفر عن مقارنتها طباع أكثر الخلق.

٤- إنه ليس المقصود من المرأة مجرد قضاء الشهوة، بل أن تصير شريكة للرجل في ترتيب المنزل وإعداد مهامه من مطعم ومشروب وملبوس وأن تكون حافظة له، قائمة بشؤون الأولاد والخدم، وهذه المهام لا تتم على وجه الكمال إلا إذا كانت مختصة برجل واحد منقطعة له دون غيره من الناس.

٥- إنه إذا انفتح باب الزنا فحينئذ لا يبقى لرجل اختصاص بإمرأة وكل رجل لا يمكنه التواثب على كل امرأة شاءت وأرادت، وحينئذ لا يبقى بين نوع الإنسان وبين سائر البهائم فرق في هذا الباب^(٣).

وبناءً على ذلك فإن لانتشار الزنا مفسدات كثيرة وخطيرة وهي كفيلة بتقويض بنيان المجتمع الذي تتمكن منه، فاختلاط الأنساب وانتشار الهرج والمرج، وعزوف الرجال عن النساء اللاتي يقترفن هذه الفاحشة، كل هذه الآثار وغيرها، تؤدي دوراً كبيراً في انحطاد المجتمع في أخلاقه وقيمه، ومن ثم يكون على شفا جرف هار يوشك أن يتحطم.

وهذا حال المجتمعات التي انتشر فيها الزنا، فهي أشبه ما تكون بتجمعات الحيوانات التي يتزو بعضها على بعض، بل إن من الحيوانات من يغار على أنثاه فلا يسمح لغيره بالاقتراب منها، وهي بذلك أعلى منزلة من أولئك الذين لا يغارون على أعراضهم من البشر، الذين يدعون التقدم والتحضر.

(١) الهرج: الهاء والراء والجيم، أصل صحيح يدل على اختلاط وتخليط، ومنه هرج الرجل في حديثه: خلط،

ويقال لهذا يقال للقتل هرج. معجم مقاييس اللغة - ابن فارس - ج ٦ ص ٤٩

(٢) المرج: الميم والراء والجيم أصل صحيح يدل على مجيء وهاب واضطراب. المصدر السابق ج ٥ ص ٣١٥

(٣) انظر في هذه المفسدات - التفسير الكبير - الرازي - ج ٥ ص ٣٩٤ بتصرف يسير.

ثانياً: شرب الخمر:

"الخمر هو ما خامر العقل" أي غطاه أو خالطه فلم يتركه على حاله، وهو من مجاز التشبيه والعقل هو آلة التمييز، فلذلك حرم ما غطاه أو غيره لأنه بذلك يزول الإدراك الذي طلبه الله من عباده ليقوموا بحقوقه. (١)

ونزل تحريم الخمر سنة ثلاث بعد وقعة أحد، وكانت هذه الوقعة في شوال سنة ثلاث من الهجرة، وتحريم الخمر كان بتدريج ونوزال كثيرة، فإنهم كانوا مولعين بشربها، وأول ما نزل في شأنها قوله سبحانه ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (٢). "وكان نزول هذه الآية قبل تحريم الخمر" (٣) ثم توالى الآيات في النهي عن شربه فترل قوله سبحانه ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ (٤) أي في تجارتهم، فلما نزلت هذه الآية تركها بعض الناس وقالوا لا حاجة لنا فيما فيه إثم كبير، ولم يتركها بعض الناس وقالوا: نأخذ منفعتها ونترك إثمها فترلت هذه الآية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى﴾ (٥) فتركها بعض الناس وقالوا لا حاجة لنا فيما يشغلنا عن الصلاة، وشربها بعض الناس في غير أوقات الصلاة حتى نزلت ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (٦)

فصارت حراماً عليهم حتى صار يقول بعضهم: ما حرم الله شيئاً أشد من الخمر. وروى الإمام أحمد وأبو داود والترمذي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: اللهم بين لنا في الخمر بيئاً شافياً فإنها تذهب بالمال والعقل، فترل قوله تعالى

(١) عون المعبود شرح سنن أبي داود - للمحمد شمس الحق أبادي مع شرح ابن القيم الجوزية م ٥ ج ١٠ ص ٧٥

(٢) سورة النحل آية ٦٧

(٣) فتح القدير - للشوكاني - ج ٣ ص ٢١٨

(٤) سورة البقرة آية ٢١٩

(٥) سورة النساء آية ٤٣

(٦) سورة المائدة آية ٩٠

(ويسألونك عن الخمر والميسر) فدعى عمر فقرئت عليه فقال: اللهم بين لنا في الخمر بيانا شافيا، فزلت الآية في سورة النساء (يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى) فكان منادي رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أقام الصلاة نادى "أن لا يقربن الصلاة سكران" فدعى عمر فقرئت عليه فقال "اللهم بين لنا في الخمر بيانا شافيا، فزلت آية المائدة فدعى عمر فقرئت عليه فلما بلغ (فهل أنتم منتهون) قال عمر انتهينا، انتهينا" (١)

وفي تحريم الخمر بهذا التدرج حكمة بليغة، وذلك أن القوم ألفوا شرب الخمر، وأصبحت جزءاً من حياتهم، فلو حُرِّمت عليهم دفعة واحدة لشق ذلك على نفوسهم، وربما لم يستحيوا لذلك النهي وذلك من الخطة الحكيمة التي انتهجها القرآن في معالجة الأمراض الاجتماعية، فقد سلك بالناس طريق التدرج في التشريع فبدأ بالتنفير منه عن طريق المقارنة بين شيئين شيء فيه نفع ضئيل وشيء فيه ضرر جسيم. ثم بالتحريم الجزئي في أوقات الصلاة، ثم بالتحريم الكلي في جميع الأوقات. فله ما أدق هذا التشريع وما أحكمه" (٢)

وكان آخر ما نزل في تحريم الخمر قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ (٣)

وقد أكد سبحانه تحريم الخمر في هذه الآية بفنون التأكيد حيث صدرت الجملة بإنما وقرن بالأصنام والأزلام (٤) والميسر، وسمي رجساً من عمل الشيطان تبيهاً

(١) الدر الثور في التفسير بالمأثور-السيوطي- ج ١ ص ٢٥٢. سنن أبي داود- كتاب الأشربة- باب تحريم الخمر ج ٣ ص ٣٢٥ رقم ٣٦٧٠. سنن الترمذي- كتاب تفسير القرآن- باب سورة المائدة- ج ٤ ص ٣١٩ رقم ٥٠٤٢. حديث مرسل. مسند الإمام أحمد ج ٨ ص ٥٣.

(٢) روائع البيان في تفسير آيات الأحكام-الصابوني- ج ١ ص: ٢٥٥.

(٣) سورة المائدة الآيتان ٩٠-٩١

(٤) الأزلام: هي قداح الاستسقام، يقال: كانت في البيت-أي البيت الحرام- عند سدنة البيت وخُدَّام =

على غاية قبحه، لأنه من تزيينه وإغوائه ودعائه إليه، وأمر بالاجتناب عن عينه بناء على بعض الوجوه وأن يكونوا جانباً منه، وجعله سبباً يرجى منه الفلاح فيكون ارتكابه خيبة، ثم قرر ذلك بيان ما فيها من المفسدات الدنيوية والدينية، فقال سبحانه (إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر) أي بسبب تعاطيهما لأن السكران يقوم على كثير من القبائح التي توجب ذلك ولا يبالي، وإذا صحاً ندم على ما فعل، وهذا إشارة إلى مفسدات الخمر الدنيوية، وقوله تعالى (ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون) إشارة إلى مفسدات الخمر الدينية، ووجه صد الشيطان لهم بذلك عما ذكر أن الخمر لغلبة السرور به والطرب على النفوس والاستغراق في الملاذ الجسمانية تلهي عن ذكر الله تعالى وعن الصلاة، وتخصيص الخمر بإعادة الذكر وشرح ما فيه من الوبال للتنبيه على أن المقصود بيان حاله، (فهل أنتم منتهون) ثم إنه سبحانه أعاد الحث على الانتهاء بصيغة الاستفهام الإنكاري مع الجملة الاسمية مرتباً على ما تقدم من أصناف الصوارف فقال (فهل أنتم منتهون...) إيداناً بأن الأمر في الردع والمنع قد بلغ الغاية وأن الأعداء قد انقطعوا بالكلية حتى إن العاقل إذا خلى بنفسه بعد ذلك لا ينبغي أن يتوقف في الانتهاء" (١)

مضار الخمر:

إن للخمر مفسدات كثيرة، وله مضار عديدة وهذا ما أشارت إليه الآية السابقة في قوله تعالى ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ (٢) كما أشار إلى ذلك قوله سبحانه ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ

«الأصنام، يأتي الرجل إذا أراد حاجة، فيقبض منها شيئاً، فإن كان عليه "أمرني ربي" خرج إلى حاجته، على ما أحب أو كره. التفسير المثير في العقيدة والشريعة والمنهج-د. وهبة الزحيلي - ج ٧ ص ٤٣.

(١) روح المعاني - الأترسي - ج ٧ ص ١٦-١٧. لباب التأويل في معاني التنزيل - للبخاري - ج ١ ص ٤٩٠

(٢) سورة المائدة آية ٩١

وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا^(١)

ففسى الخمر منافع للناس في تجارتهم، ولكن فيها مضار ومفاسد أعظم وأكبر، ومن مضار الخمر ما هو في البدن ومنها ما هو في النفس والعقل والمال، ومنها ما يكون في التعامل وارتباط الناس بعضهم ببعض، ولا يوجد إثم من الآثام يدخل ضرره في كل شيء كالخمر وهذه هي مضار الخمر بشيء من التفصيل:

١. **مضار الخمر الصحية:** إفساد المعدة والإقهاء^(٢) وتغيير الخلق، فالسكرارى يسرع إليهم التشوه، فتحفظ أعينهم وتمتقع وجوههم، وتعظم بطونهم بل قال أحد الأطباء الألمان "إن السكر - كثير السكر - ابن الأربعين يكون نسيج جسمه كنسيج جسم ابن الستين، ويكون كالمهرم جسمًا وعقلًا، ومنها مرض الكبد والكلى وداء السل الذي يفتك في البلاد الأوربية فتكًا ذريعًا على عناية أهلها بقوانين الصحة، ولكن لا وقاية من شرور السكر إلا بتركه.

٢. **أما مضار الخمر في العقل:** فهو مسلم عند الناس وليس ضرره فيه خاصًا بما يكون من فساد التصور والإدراك عند السكر، بل السكر يضعف القوة العاقلة وكثيرًا ما ينتهي بالجنون، وقد قال الأطباء إن المسكر لا يتحول إلى دم كما تتحول سائر الأغذية بعد الهضم بل يبقى على حاله فيزاحم الدم في مجاريه، فتسرع حركة الدم، وتختل موازنة الجسم، وتعطل وظائف الأعضاء أو تضعف، وتخرج عن وضعها الطبيعي المعتدل، فمن تأثيره في اللسان إضعاف حاسة الذوق... ومن تأثيره في المجموع العصبي فهو الذي يولد الجنون ويهلك النسل، فولد السكر لا يكون نجيًا، وولد ولده شرًا من ولده وأضعف بدنًا وعقلًا.

٣. **أضرار الخمر الاجتماعية:** إن الشيطان يريد بشرب الخمر أن تقع العداوة والبغضاء في المجتمع، فيقضي على الجماعة الإسلامية، ويشتت شملها ويهدم كيانها، وهذه العلة في التحريم من أكبر العلل في نظر الدين، ولذلك ورد بها النص في قوله

(١) سورة البقرة آية ٢١٩

(٢) الإقهاء: فقد الشهوة للطعام. تفسير المنار - محمد رشيد رضا - ج ٢ ص ٣٢٥.

سبب حانه (إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر) وجريمة السكر تغري بجميع الجرائم التي تعرض للسكران وتجري عليها ولا سيما الزنا والقتل ولذلك سميت الخمر أم الخبائث، روى النسائي عن عثمان رضي الله عنه أنه قال: "اجتنبوا الخمر فإنها أم الخبائث، إنه كان رجل من كان قبلكم متعبداً فعلقته امرأة غوية، فأرسلت إليه جاريتها فقالت له إنا ندعوك للشهادة، فانطلق مع جاريتها فطفقت كلما دخل باباً أغلقتة دونه، حتى أفضى إلى امرأة وضيفة عندها غلام وباطية خمر، فقالت: إني والله ما دعوتك للشهادة، ولكن دعوتك لتقع عليّ، أو تشرب من هذه الخمر كأساً، أو تقتل الغلام، قال فاسقيني من هذا الخمر كأساً، فسقته كأساً قال زيدوني فزادوه، فلم يرح حتى وقع عليها، وقتل النفس. فاجتنبوا الخمر فإنه والله لا يجتمع الإيمان وإدمان الخمر إلا يوشك أن يخرج أحدهما صاحبه (١).

٤. **و ضرر الخمر المادي:** أنه يستهلك المال ويفني الثروة، ولم يكن كالخمر مذهباً للثروة في زمن من الأزمان كزمننا هذا.

هذه أضرار الخمر الدنيوية أما أضرارها الدينية فهو يصد عن ذكر الله الذي يحلي القلوب ويزكيها، ويطهر النفوس ويهديها، وهو يمنع من الصلاة التي هي عماد الدين، إذ السكران لا عقل له ولا قلب فكيف يهتدي إلى الخير وإلى الصلاة؟ (٢)

إن ما ذكر من شأن الخمر ومفاسدها وأضرارها على الصحة والعقل والمال لهو مؤشر واضح على خطر الخمر وما يتبعها من المسكرات والمفترات، والتي انتشرت في هذا الزمان تحت أسماء متعددة، والتي منها الأفيون والكوكايين والهروين والحشيشة

(١) سنن النسائي بشرح السيوطي - كتاب الأشربة - باب ذكر الآثام المتولدة عن شرب الخمر من ترك الصلوات ومن قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ومن وقوع على المحارم - ج ٨ ص ٣١٥. السنن الكبرى - للبيهقي - كتاب الأشربة والحد فيها - باب ما جاء في تحريم الخمر ج ٨ ص ٢٨٥. صحيح. جامع الأصول - تخريج عبد القادر الأرناؤوط - ج ٥ ص ١٠٣.

(٢) انظر في مضار الخمر - تفسير المنار - محمد رشيد رضا - ج ٢ ص ٣٢٥ - ٣٢٨ باختصار. التفسير الواضح - لحجازي - ج ٧ ص ١٢.

والقناب وغيرها من هذه المواد المخدرة المسكرة.

وقد ظهر أثر هذه المخدرات في المجتمع ظهوراً جلياً حتى أصبحت تسمى بالسموم القاتلة، وأنشأت من أجل محاربتها المؤسسات العلاجية، وتعمل الدول على مكافحتها بكل الوسائل، إلا أن هذا لم يجد كثيراً فانتشارها في ازدياد حتى بين صغار السن، وهذا ينذر بخطر كبير على هذه المجتمعات التي يقودها انتشار المخدرات فيها إلى الانحدار والهاوية، فأكثر شبابها سكارى مخمورين لا يؤدون أعمالهم على وجهها الصحيح، وينشرون الرذائل والمفاسد والأخلاق الدنيئة في المجتمع، وكل هذا يؤدي إلى الهلاك والدمار، وهو مظهر من مظاهر الانحلال والانحطاط الأخلاقي في الأمة.

ثانياً: السرقة:

السرقة التي يقطع بها هي: أخذ العاقل البالغ مقداراً مخصوصاً من المال خفية من حرز معلوم بدون حق ولا شبهة^(١)

من مظاهر الانحطاط الأخلاقي في المجتمع انتشار السرقة بين أبنائه، وهذا دليل على أن المجتمع ليس مستقيماً على أوامر الله وحدوده، "فالمجتمع المسلم يوفر لأهل دار الإسلام على اختلاف عقائدهم ما يدفع خاطر السرقة عن كل نفس سوية، إنه يوفر ضمانات العيش والكفاية، و ضمانات التربية والتقويم، و ضمانات العدالة في التوزيع، وفي الوقت ذاته يجعل كل ملكية فردية فيه تنبت من حلال، وقد احترم الإسلام المال، من حيث إنه عصب الحياة، واحترم ملكية الأفراد له، وجعل حقهم فيها حقاً مقدساً، لا يحل لأحد أن يعتدي عليه بأي وجه من الوجوه، ولهذا حرّم الإسلام السرقة وشدد في أمرها ففضى بقطع يد السارق التي من شأنها أن تباشر، وفي ذلك حكمة بيّنة، إذ إن اليد الخائنة بمثابة عضو مريض يجب بتره ليسلم الجسم، والتضحية ببعض من أجل الكل مما اتفقت عليه الشرائع والعقول كما أن في قطع يد السارق عبرة لمن تحدّثه نفسه بالسطو على أموال الناس، فلا يجرو أن يمد يده إليها وبهذا تحفظ الأموال

(١) روائع البيان في تفسير آيات الأحكام - الصابوني - ج ١ ص ٥٢٠

وتصان.^(١) قال تعالى ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا
مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾^(٢)

وهذا بيان لجزاء من يعتدي على الناس ويسرق أموالهم خفية، فمن يسرق منكم ذكراً كان أو أنثى فاقطعوا أيديهما جزاء لهما على ارتكاب فعلها وانتهاك حرمة الغير بأخذ ماله، ولأن السرقة قد تجر إلى الدفاع عن المال وإلى القتل^(٣).
والمقدار الذي تقطع فيه اليد ربع دينار لما روى عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "تقطع اليد في ربع دينار فصاعداً"^(٤).
وما روى عن عبد الله بن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم "قطع في مجن^(٥) ثمنه ثلاثة دراهم"^(٦).

يقول ابن جرير رحمه الله: وظاهر الآية العموم في كل سارق وليس كذلك لقوله عليه السلام: "لا تقطع يد السارق إلا في ربع دينار فصاعداً"^(٧)، فبين أنه إنما أراد بقوله (والسارق والسارقة) بعض السراق دون بعض فلا تقطع يد السارق إلا في ربع دينار أو فيما قيمته ربع دينار"^(٨)

(١) انظر في ظلال القرآن - سيد قطب - ٢م ج ٦ ص ٨٨٣. في رحاب التفسير - كشك - ٢م ج ٦ ص ١١٠٦

(٢) سورة المائدة آية ٣٨

(٣) التفسير الواضح - حجازي - ١م ج ٦ ص ٥١

(٤) صحيح البخاري - كتاب الحدود - باب قول الله تعالى: "والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما" وفي كم يُقطع ٣م ج ٨ ص ٤٢١. صحيح مسلم - كتاب الحدود - باب حد السرقة ونصاها ج ٣ ص ١٣١٢ رقم ١٦٨٤. بنحوه.

(٥) المجن: بكسر الميم: الترس. تاج العروس من جواهر القاموس - الزبيدي - ج ٩ ص ٣٤١

(٦) صحيح البخاري - كتاب الحدود - باب قول الله تعالى "والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما" وفي كم يُقطع ٣م ج ٨ ص ٤٢٢. صحيح مسلم - كتاب الحدود - باب حد السرقة ونصاها ج ٣ ص ١٣١٣ رقم ١٦٨٦.

(٧) صحيح مسلم - كتاب الحدود - باب حد السرقة ونصاها ج ٣ ص ١٣١٣ رقم ١٦٨٤.

(٨) الجامع لأحكام القرآن - القرطبي - ج ٦ ص ١٦٠

من أين تقطع يد السارق:

ذهب جمهور العلماء إلى أن اليد التي تقطع هي اليمنى، ومن المفصل - مفصل الكف - . ودليل الجمهور على ذلك ما روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قطع يد السارق من الرسغ وكذلك ثبت عن علي وعمر رضي الله عنهما كانا يقطعان من مفصل الرسغ.

وإذا عاد إلى السرقة ثانيًا قطعت رجله اليسرى باتفاق الفقهاء، ولما رواه الدار قطني عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال "إذا سرق السارق فاقطعوا يده، ثم إذا عاد فاقطعوا رجله اليسرى". ولفعل علي بن أبي طالب وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما من قطع يد السارق ثم قطع رجله، وكان ذلك بمحض من الصحابة ولم ينكر عليهما أحد فكان ذلك إجماعًا.

وأما إذا عاد إلى السرقة ثالثًا فلا قطع عند الحنفية والحنابلة ولكن يضمن المسروق ويسجن حتى يتوب. وقال المالكية والشافعية إذا سرق تقطع يده اليسرى وإذا عاد إلى السرقة رابعًا تقطع رجله اليسرى^(١).

شبهة والرد عليها:

يثير أعداء الإسلام شبهة خطيرة حول قطع يد السارق، فيقولون إن في هذا القطع شدة وغلظة وأن هذه شريعة الغاب والقفار لا شريعة الحضارة والمدنية. ولقد كذبوا في هذه الشبهة التي يثيرونها، لأنهم بقولهم هذا يرحمون المجرم من المجتمع ولا يرحمون المجتمع من المجرم الأثيم الذي سلب الناس أمنهم واستقرارهم، وأقلق مضاجعهم وجعلهم مهددين بين كل لحظة في الأنفس والأموال والأرواح. وقد كان من أثر نظرياتهم هذه التي لا تستند على عقل ولا منطق سليم أن أصبح في كثير من البلاد عصابات منظمة للقتل وسفك الدماء وسلب الأموال وزادت الجرائم واختل الأمن وفسد المجتمع وأصبحت السجون ممتلئة بالمجرمين وقطاع الطرق. والعجب أن هؤلاء الغربيين الذين يرون في الحدود الإسلامية شدة وقسوة لا

(١) روائع البيان تفسير آيات الأحكام - الصابوني - ج ١ ص ٥٢٣

تليق بعصرنا المتحضر والذين يدعون إلى إلغاء عقوبة القتل والزنى وقطع السارق ... الخ هم أنفسهم يفعلون ما تشيب له الرؤوس وتنخلع لهوله الأفتدة، فالحروب الهمجية التي يثيرونها والأعمال الوحشية التي يقومون بها من قتل الأبرياء والاعتداء على الأطفال والنساء وتهديم البيوت على من فيها لا تعتبر في نظرهم وحشية.

نعم إن الإسلام شرع عقوبة قطع يد السارق وهي عقوبة صارمة لكنه أمّن الناس على أموالهم وأرواحهم وهذه اليد الخائنة التي قطعت إنما هي عضو أشل تأصل فيه الداء والمرض وليس من المصلحة أن نتركها حتى يسري المرض إلى جميع الجسد... ويد واحدة تقطع كفيلة بردع المجرمين وكف عدوانهم وتأمين الاستقرار للمجتمع، وهما نحن نرى أن الدول التي تحكم بكتاب الله قد استتب فيها الأمن واختفت منها السرقات ولكن أكثر الناس لا يعلمون^(١).

وهكذا شرع الإسلام هذه العقوبة الصارمة على الذين يعتدون على حقوق المسلمين بالسرقة، وذلك ليحد من انتشار هذا الخلق الدنيء، والذي ينم انتشاره عن انحطاط أخلاقي واسع في المجتمع.

وقد انتشرت السرقة في المجتمعات الإسلامية اليوم انتشاراً كبيراً بسبب العقوبات المخففة التي يعاقب بها الذين يسرقون أموال الناس وأشيائهم، ثم بسبب انحطاط هذه المجتمعات في أخلاقها في كثير من الأحيان، وبالتالي يجب أن تكون هناك عقوبات أكثر صرامة كما يجب قبل ذلك تقوية الجانب الإيماني في نفوس المسلمين للحد من هذه الجريمة المنكرة.

رابعاً: الخيانة:

أصل الخون: النقص - كما أن معنى الدفاء التمام، ومنه تخونه إذانقصه، ثم استعمل في ضد الأمانة والوفاء، لأنك إذا خنت الرجل في شيء فقد أدخلت عليه النقصان فيه^(٢).

(١) انظر في رحاب التفسير - كشك - م ٢٠ ج ٦ ص ١١٠٦. روائع البيان تفسير آيات الأحكام - الصابوني - ج ١ ص ٥٢٤.

(٢) تفسير إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم - أبو السعود ج ٢ ص ٣٥٦.

والخيانة من أخطر ما يصيب المجتمع الإسلامي بالضعف والانحدار، وهي من مظاهر الانحطاط الأخلاقي في المجتمع، ولهذا حذر الله منها ونهى عن الوقوع فيها قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾^(١)

روى ابن جرير والزهري في سبب نزول هذه الآية "أن أبا لبابة رضي الله عنه بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بني قريظة فأشار إلى حلقه أنه الذبح فقال أبو لبابة رضي الله عنه لا والله لا أذوق طعاماً ولا شرباً حتى حرق مغشياً عليه، ثم تاب الله عليه فقبل له يا أبا لبابة قد تيب عليك قال لا والله لا أحل نفسي حتى يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذي يحلني فحله بيده"^(٢).

وعن ابن عباس رضي الله عنه أنها نزلت في أبي لبابة حين بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى قريظة لما حاصرهم، وكان أهله وولده فيهم فقالوا يا أبا لبابة ما ترى لنا أن نزل على حكم سعد بن معاذ فينا؟ فأشار أبو لبابة إلى حلقه أي إنه الذبح فلا تفعلوا فكان ذلك منه خيانة لله ورسوله"^(٣).

ومعنى الآية (لا تخونوا الله) بتعطيل فرائضه أو تعدى حدوده وانتهاك محارمه التي بينها لكم في كتابه (والرسول) بالرغبة عن بيانه لكتاب الله تعالى إلى أهوائكم، أو آراء مشايخكم أو آبائكم أو المخالفة عن أمره إلى أوامر أمرائكم وترك سنته إلى سنة أوليائكم، وبناء على زعمكم أنهم أعلم بمراد الله ورسوله (وتخونوا أمانتكم) أي لا تخونوا أماناتكم فيما بينكم وبين أولياء أموركم من الشئون السياسية ولا سيما الحربية وفيما بينكم بعضكم مع بعض من المعاملات المالية وغيرها حتى الاجتماعية والأدبية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "إذا حدث الرجل بحديث ثم التفت فهو أمانة"^(٤).

(١) سورة الأنفال آية ٢٧

(٢) الدر المنثور في التفسير بالمأثور-السيوطي- ج ٣ ص ١٩٣ .

(٣) التفسير الكبير-الرازي- ٨م ج ١٥ ص ١٥٧ .

(٤) سنن الترمذي-كتاب البر والصلة-باب ما جاء أن المجالس أمانة ج ٤ ص ٣٤١ رقم ١٩٥٩ . سنن أبي

داود-كتاب الأدب في نقل الحديث ج ٤ ص ٢٦٧ رقم ٤٨٦٨ .

والحيانة من صفات المنافقين كما أن الأمانة من صفات المؤمنين، روى

الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال "آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان"^(١).

(وأنتم تعلمون) أنكم تخونون أو وأنتم علماء تميزون الحسن من القبيح، أو تعلمون تحريم الله إياها وسوء عاقبة تلك المفاصد في الدنيا والآخرة، أو مما يعلم ببداهة العقل، واستفتاء القلب، كفعلة أبي لبابة التي كانت هفوة سببها الحرص على المال والولد، ولذلك فطن لها قبل أن يبرح موقفه رضي الله عنه^(٢).

ومما يدل على شدة جرم الخائنين نهي الله رسوله صلى الله عليه وسلم عن الدفاع عنهم أو الوقوف إلى جانبهم لأن هذا من شأنه أن يقوي مواقفهم وأن يبرئهم من خياناتهم بدل أن يحاسبوا عليها ويعاقبوا على هذه الخيانات قال تعالى ﴿وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾^(٣) قال السدي نزلت هذه الآية في طعمة بن أبيرق^(٤) وذلك بأن استودعه يهودي درعاً فحجده إياها وخانه فيها وطرحها في دار أبي مليك الأنصاري وأراد أن يرميه بسرقتها لما افتضح، وأبو مليك بريء من التهمة.

وحملة هذا يستدير على أن قوم طعمة أتوا النبي صلى الله عليه وسلم وكلموه في أن يذب عن طعمة ويرفع الدعوة عنه ودفعوا هم عنه ومنهم من يعلم أنه سرق، فكانت هذه معصية من مؤمنهم وخلق مقصود من منافقهم، فعصم الله رسوله من ذلك ونبه على مقالة قتادة بن النعمان ﴿وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾^(٥) قال القاضي ابن عطية رحمه الله "وهذا ليس بذنب، لأن

(١) صحيح البخاري-كتاب الشهادات-باب من أمر بإنجاز الوعد، وفعله الحسن. صحيح مسلم-كتاب

الإيمان-باب بيان خصال المنافق ج ١ ص ٧٨ رقم ٥٩.

(٢) انظر التفسير الكبير-الرازي-٨م ج ١٥٧ ص ١٥٧. تفسير المنار-محمد رشيد رضا-ج ٩ ص ٦٤٣. إرشاد

العقل السليم-لأبي السعود-ج ٢ ص ٣٥٦.

(٣) سورة النساء آية ١٠٥.

(٤) طعمة بن أبيرق بن عمير الأنصاري، ذكره أبو إسحاق المستملي في الصحابة، وقال شهد المشاهد كلها

إلا بدرًا. الإصابة في تمييز الصحابة-ابن حجر-ج ٢ ص ٢٢٤.

(٥) سورة النساء آية ١٠٥-١٠٦.

النبي صلى الله عليه وسلم إنما دافع عن الظاهر، وهو يعتقد براءتهم، والمعنى استغفر للمذنبين من أمتك والمتخاصمين في الباطل، لا أن تكون ذا جدال عنهم، فهذا حدك ومحلك من الناس أن تسمع من المتداعيين وتقضي بنحو ما تسمع وتستغفر للمذنب **﴿إِنَّ السَّلَةَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّاتًا أَثِيمًا﴾** (١) الخوان هو الذي تتكرر منه الخيانة والأثيم هو الذي يقصدها، فيخرج من هذا التشديد الساقط مرة واحدة، ونحو ذلك مما يجيء من الخيانة من غير قصد أو على غفلة" (٢).

والخيانة محرمة حتى على الأعداء فلا يجوز نقض العهد مع الكافرين بل يجب المحافظة عليه والوفاء به قال تعالى **﴿وَأَمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ وَلَا يُحْسِبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾** (٣). وهذه دلالة واضحة على إيجاب القرآن المحافظة على العهود مع الأعداء وتحريم الخيانة معهم (٤) روى مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "لكل غادر لواء يوم القيامة يرفع له بقدر غدره، ألا ولا غادر أعظم غدرًا من أمير عامة" (٥).

والتحذير من الخيانة هام جدًا لما للخيانة من أثر خطير على الأمة فقد نكبت الأمة الإسلامية أكثر من مرة بسبب الخيانة التي أوقعها بها بعض المنافقين الموالين للكافرين، مما أدى إلى قتل المئات وضياع البلاد والمقدسات في حروب المسلمين مع اليهود العاصيين.

ويدخل في الخيانة أكل أموال الناس بالباطل وبدون حق بالاعتداء عليها سواء بالاحتيال أو المكر، أو بالتطيف في الوزن والذي سبق وأن تحدثنا عنه في موضعه.

(١) سورة النساء آية ١٠٧.

(٢) المحرر الوجيز لابن عطية ج ٤ ص ٢٢٠.

(٣) سورة الأنفال الآيتان ٥٨-٥٩.

(٤) التفسير المنير - للزحيلي - ج ١٠ ص ٤٨.

(٥) صحيح البخاري - كتاب الجزية والموادعة - باب إثم الغادر للبر والفاجر - ج ٢ ص ١٢٩ - صحيح

مسلم - كتاب الجهاد والسير - باب تحريم الغدر - ج ٣ ص ١٣٥٩ - ١٣٦٠ رقم ١٧٣٥.

المطلب الثالث: خطر الانحطاط الأخلاقي على الأمم في الماضي والحاضر:

سبق وأن بينت أن للانحطاط الأخلاقي أثر عظيم في انحدار الأمم واندثارها، وذلك لما ينتشر في المجتمع من الرذائل والانحرافات والمخالفات التي تفسد المجتمع وتنشر فيه مساوئ الأعمال، وقد ذكرت بعض مظاهر الانحطاط في المجتمع في الفصل السابق، والمتأمل في هذه المظاهر وأثرها يتيقن من خطورتها على المجتمع وأثرها المدمر فيه، فالزنا مثلاً يؤدي إلى اختلاط الأنساب حتى لا يعلم الابن من أباء، ويشك الرجل في أبنائه، إذ قد ينسب إليه من ليسو منه، ويكثر اللقطاء حتى يلغون في قارعة الطريق، وعلى أكوام القمامة، وفي أقبية المستشفيات، وفي بيوت الخلاء وغيرها من الأماكن المستقدرة بلا رحمة ولا شفقة ولا وازع من ضمير، حتى اضطرت الدول إلى إنشاء مراكز للعناية بمؤلاء اللقطاء الذين لا يجدون من يعتني بهم أو حتى يتعرف عليهم كما أن انتشار الزنى في المجتمعات المحافظة يؤدي إلى جريمة عظيمة وهي القتل، إذ يقوم الرجال بقتل النساء والفتيات اللواتي يقترفن هذه الفاحشة حفاظاً على شرف العائلة من التلويث والفضيحة، زد على ذلك ما ذكرته في موضوع الزنا من مخاطر. ويتبع موضوع الزنا في حكمه اللواط الذي فيه انتكاس للفتنة البشرية والتي يأتي فيها الرجال الرجال دون النساء.

أما شرب الخمر فخطره على المجتمع عظيم إذ يبدد الأموال ويفسد العقول ويشتت شمل الأسر والمجتمعات ويث فيها البغضاء والمشاحنات.

وكذلك آثار السرقة والخيانة والتي منها التطفيف في الميزان وغيره-المدمرة على المجتمع من نشر للخوف والرعب وحرمان للطمأنينة وعدم الأمن، كل هذا له آثاره الخطيرة في البلاد وعلى العباد وقد كان لانتشار هذه الرذائل آثار هائلة على الأمم السالفة السابقة، إذ أهلك الله أمماً عديدة بسبب ما انتشر فيها من هذه الأخلاق الدنيئة كقوم لوط وشعيب عليهما السلام. كما إن الله أهلك سبعين ألفاً من قوم موسى عليه السلام في فترة وجيزة بسبب اقتراف أحد قادة الجيش لفاحشة الزنى، ولم يرفع عنهم

العذاب إلا بعد أن قتل فاعل الفاحشة، ورفع على رؤوس الرماح وقالوا "اللهم هكذا نفعل بمن عصاك".

أورد ابن إسحاق في قصة بلعم بن باعوراء أنه " لما دعا على موسى عليه السلام ولم يستجب له نصح الكنعانيين قائلاً لهم: حملوا النساء وأعطوهن السلع ثم أرسلوهن إلى العسكر بيعنها فيه، ومروهن فلا تمنع امرأة نفسها من رجل أرادها فإنهم إن زنى رجل منهم واحد كفيتموهم ففعلوا فلما دخل النساء العسكر مرت امرأة من الكنعانيين اسمها كسبتي - ابنة صور قائد قومه - برجل من عظماء بني إسرائيل وهو زمري بن شلوم رأس سبط بني شمعون بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام، فلما رآها أعجبه فقام فأخذ بيدها وأتى بها موسى عليه السلام وقال: إني أظنك ستقول هذا حرام عليك لا تقر بها قال: أجل هي حرام عليك قال: فوالله لا أطيعك في هذا فدخل بها قبه فوقع عليها، وأرسل الله عز وجل الطاعون في بني إسرائيل، وكان فنحاص بن العيزار بن هارون صاحب أمر موسى عليه السلام غائباً حين صنع زمري بن شلوم ما صنع فجاء والطاعون يحوس فيهم فأخبر الخبر فأخذ حربته وكانت من حديد كلها ثم دخل القبة وهما متضاجعان فانتظمهما بحربته ثم خرج بهما رافعهما إلى السماء والحربة قد أخذها بذراعيه واعتمد بمرفقه على خاصرته وأسند الحربة إلى لحيته وجعل يقول: "اللهم هكذا نفعل بمن يعصيك" ورفع الطاعون فحسب من هلك من بني إسرائيل في الطاعون فيما بين أن أصاب زمري المرأة إلى أن قتله فنحاص فوجدوه قد هلك منهم سبعون ألفاً، والمقلل لهم يقول عشرون ألفاً في ساعة من نهار" (١).

إن في هذه الحادثة لعبرة عظيمة لمن كان له قلب أو إحساس، إن إهلاك هذا العدد الكبير في هذا الزمن اليسير لدليل على عظم أثر الذنوب وخطره على الأمة التي تقع فيها.

هذا عن أثر الانحطاط الأخلاقي على الأمم في الماضي وهناك أمثلة عديدة على ذلك غير هذا المثال، أما أثر الانحطاط الأخلاقي في الحاضر فهو واضح بارز، فقد ذكر

(١) انظر تفسير القرآن العظيم - ابن كثير - ج ٢ ص ٢٦٧.

المؤرخون أن من أسباب سقوط الخلافة الإسلامية في الأندلس ما انتشر فيها من رذائل ومن انحطاط في الأخلاق والقيم، ثم إن ما تحياه الأمة الإسلامية اليوم من الذلة والمهانة إنما هو نتيجة الانحطاط الأخلاقي الذي تردت فيه بسبب الأفكار الهدامة التي تبنتها ودعت إليها القيادات والزعامات العميلة في العالم الإسلامي، فرفع الرايات الباطلة من قومية واشتراكية وعلمانية هذه الأفكار الغربية الكافرة كان لها أثر كبير في انتشار الأخلاق المنحرفة في البلاد الإسلامية، الأمر الذي أدى إلى انحدار الأمة.

كما أن العالم الغربي اليوم يقف على شفا هاوية بسبب ما انتشر فيه من الانحطاط الأخلاقي، حتى تنبأ بعض المفكرين الغربيين بقرب سقوط الحضارة الغربية بسبب انحطاطها الأخلاقي ومن أخبر بذلك الجنرال هاميلتون إذ يقول:

"إن القليل منا -الأمريكيين- يدرك أن بعض الظواهر الاجتماعية التي نعيشها في وقتنا الحاضر قد تؤثر بشكل مباشر على مستقبلنا، وإن من الظواهر الاجتماعية التي لم نعهدها في السابق وباتت مألوفة اليوم وستؤثر على مستقبلنا في الغد: ظاهرة تحول الرجال إلى نساء، والنساء إلى رجال، بدعوى "الحرية الشخصية".

ومن الظواهر التي لم تكن مألوفة في مجتمعنا، ثم تحولت إلى سلوك طبيعي بدعوى الحرية الشخصية" ظاهرة الإقبال على اقتناء أو مشاهدة الصور والمجلات الخليعة بين كل طبقات المجتمع الأمريكي وفتاته وعلى وجه الخصوص بين موظفي الكونجرس وموظفي المحكمة العليا على الرغم من الأمراض الاجتماعية التي قد تسببها تلك الصور الداعرة... إلى أن قال "لقد غيّر الأمريكيون قيمًا لم تكن قابلة للتغيير من قبل، وأصبح المجتمع الأمريكي يعاني من أمراض اجتماعية لم يكن يعرفها قبل عام ١٩٤٥م، وانتشر الجنس بين المراهقين، وزادت معه حالات الحمل والإجهاض والأمراض الجنسية، أهمل الآباء والأمهات الشباب والفتيات فهربوا منهم بلا رجعة، بل أصبح بعضهم يمارس السبغاء أو يجترف السرقة، انتشرت المخدرات وارتفعت نتيجة لها أرقام الجريمة ظواهر كثيرة لا نستطيع حصرها فضلا عن مناقشتها وكلها تدل على أن المجتمع الأمريكي يسير نحو الهاوية". ونقل عن لورانس جولد قوله "أنا لا أعتقد أن الخطر الأكبر الذي

يهدد مستقبلنا يتمثل في القنابل النووية أو الصواريخ الموجهة آلياً، ولا أعتقد أن حماية حضارتنا ستكون بهذه الطريقة، إن الحضارة الأمريكية ستزول وتنهار عندما نصبح عديمي الاهتمام، غير مباليين بما يجري في مجتمعاتنا، وعندما تموت العزيمة على إبقاء الشرف والأخلاق في قلوب المواطنين" (١).

هذه بعض شهادات مفكري الغرب والتي تحذر من السقوط والانحدار والهلاك وهناك كثير من هذه الدلالات على سقوط الحضارة الغربية في فترة قريبة بسبب الانحدار الأخلاقي الذي يعم العالم الغربي، وسأذكر مزيداً من هذه الأقوال عند الحديث عن الإعجاز الاجتماعي في القرآن (٢).

(١) السقوط التراجيدي.. أمريكا عام ٢٠٢٠ الجنرال المتقاعد: هامليتون هوز ترجمة د. محمد بن سعود البشر في

كتاب له جمع فيه كتب لكتاب أمريكيين باسم السقوط من الداخل ص ٨٥-٨٧.

(٢) انظر ص ٣٣١.

المبحث الخامس: البغي والاستكبار في الأرض

ويشتمل على مطلبين:

المطلب الأول: تعريفها والتحذير منهما:

تعريف البغي: هو "التعدي والاستطالة، يقال بغى الرجل علينا بغياً أي عدل عن الحق واستطال".

ويطلق ويراد به "الظلم والفساد" يقال فلان يبغى على الناس إذا ظلمهم وطلب أذاهم . والفئة الباغية: هي الظالمة الخارجة عن طاعة الإمام.

"وأصل البغي مجاوزة الحد، وبغى عليه يبغى بغياً، علا عليه وظلمه، وبغى الوالي: ظلم وكل مجاوزة وإفراط على المقدار الذي هو حد الشيء بغي.

والبغي على نوعين: أحدهما محمود وهو تجاوز العدل إلى الإحسان، والفرص إلى التطوع، والثاني مذموم وهو تجاوز الحق إلى الباطل، أو تجاوزه إلى الشبه، والبغي في أكثر المواضع مذموم" (١).

النهي عن البغي:

نهى القرآن الكريم عن البغي وحذّر منه لأنه يوقع في الفساد والمنكر، وهذا يتعارض مع أحكام الشرع الحنيف قال تعالى ﴿وَلَمَنْ اِنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ اِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ اُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ اَلِيمٌ وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ اِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ اَعْمَالِ الْحُسْنَى﴾ (٢) "في الآيات تعيين لمن عليه السبيل بعد نفي ذلك عن المنتصرين، والمراد بالذين يظلمون الناس من يتدوّنهم بالظلم أو يزيدون في الانتقام ويتجاوزون ما حد لهم، وفسر ذلك بعض العلماء بالذين يفعلون بهم-بالناس- ما لا يستحقونه وهو أعم (ويبغون في

(١) انظر: المفردات في غريب القرآن-الأصفهاني-ص٥٦. لسان العرب-ابن منظور-ج١٤ ص٥٨-٥٩.

المصباح المنير-لأحمد الفيومي-ج١ ص٦٤.

(٢) سورة الشورى الآيات ٤١-٤٢-٤٣.

الأرض بغير الحق) فيتكبرون فيها تحيراً وفساداً واعتداءً على النفوس والأموال، (أولئك لهم عذاب أليم) أولئك الموصوفون بالظلم والبغي بغير الحق لهم عذاب أليم بسبب ظلمهم وبغيهم، والمراد بهؤلاء الظالمين الباغين الكفرة، وقيل من يعمهم وغيرهم. **﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾** ^(١) وهذا التحذير من الظلم والبغي وما يؤدي إلى العذاب الأليم ^(٢).

"والبغي صفة ملازمة للعصاة المخالفين لأمر الله سبحانه، فهؤلاء إذا أصابتهم مصيبة أو حلت بهم كارثة لجأوا إلى الله واستعانوا به، فإذا ما أنجاهم من هذا الذي أصابهم بغوا وتعدوا على حدود الله تعالى قال سبحانه **﴿فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾** ^(٣) هذه هي حال كثير من الناس عندما يصيبهم الله بمحنة وابتلاء يرجعون إلى الله ويدعونه ويجارون إليه، لأن أنجاهم من هذه الضائقة والحنة ليكونن من الذين يشكرون الله على نعمته التي أنعم بها عليهم، فلما ينجيهم من هذا الذي هم فيه يعودون إلى البغي والفساد في الأرض، ولا يفون بما وعدوا من أنفسهم، بل يفعلون فعل الجاحدين لا فعل الشاكرين، ويجعلون البغي في الأرض بغير الحق مكان الشكر فقله تعالى (إذا هم يبغون) إذا هي الفجائية أي فاجأوا البغي في الأرض بغير الحق.

والبغي هو الفساد، وزيادة في الأرض للدلالة على أن فسادهم هذا شامل لأقطار الأرض، والبغي وإن كان ينافي أن يكون بالحق، بل لا يكون إلا بالباطل، لكن زيادة بغير الحق إشارة إلى أنهم فعلوا ذلك بغير شبهة عندهم بل تمرداً وعناداً، لأنهم قد يفعلون ذلك لشبهة يعتقدونها مع كونها باطلة. (يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا) سواء كان بغيًا على النفس خاصة بإيرادها موارد التهلكة والزج بها في ركب الندامة الخاسر بالمعصية، أو كان بغيًا على الناس، فالناس نفس واحدة على

(١) سورة الشورى آية ٤٣.

(٢) انظر الجامع لأحكام القرآن - القرطبي - ج ١٦ ص ٤٢. روح المعاني - الألوسي - ج ٩ م ٢٥ ص ٤٨.

(٣) سورة يونس آية ٢٣.

أن البغاة ومن يرضون منهم البغي يلقون في أنفسهم العاقبة، والبغي لا يتمثل في أشنع ولا أشنع من البغي على ألوهية الله، واغتصاب الربوبية والقوامة والحاكمية ومزاولتها في عبادة.

والناس حين يبغون هذا البغي يذوقون عاقبته في حياتهم الدنيا، قبل أن يذوقوا جزاءه في الدار الآخرة، يذوقون هذه العاقبة فساداً في الحياة كلها لا يبقى أحد لا يشقى به، ولا تبقى إنسانية ولا كرامة ولا حرية ولا فضيلة لا تضار به.

وأخبر سبحانه أن هذا البغي، وهو بغي الناس على بعضهم بعضاً هو سريع الزوال، قريب الاضمحلال، كسائر أمتعة الحياة الدنيا فإنها ذاهبة عن قريب متلاشية بسرعة ليس لذلك كثير فائدة ولا عظيم جدوى (ثم مرجعهم) أي مصيرهم ومآلهم إلى الله فيختبرهم بجميع أعمالهم ويؤتيهم إياها فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه^(١).

ومما يدل على خطورة بغي الناس بعضهم على بعض أمر الله بقتال الفئة الباغية المتعدية حدودها الظالمة لغيرها قال تعالى ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَت إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾^(٢).

"فإذا تقاتل فريقان من المسلمين، فعلى المسلمين أن يسعوا بينهما بالصلح، ويدعوهما إلى حكم الله، فإن حصل بعد ذلك التعدي من إحدى الطائفتين على الأخرى، ولم تقبل الصلح ولا دخلت فيه كان على المسلمين أن يقاتلوا هذه الطائفة الباغية حتى ترجع إلى أمر الله وحكمه، فإن رجعت تلك الطائفة الباغية عن بغيها وأجابت الدعوة إلى كتاب الله وحكمه، فعلى المسلمين أن يعدلوا بين الطائفتين في الحكم ويتحروا الصواب المطابق لحكم الله، يأخذوا على يد الطائفة الظالمة حتى تخرج

(١) انظر تفسير القرآن العظيم - ابن كثير - ج ٢ ص ٤١٣. فتح القدير - الشوكاني - ج ٢ ص ٥٤٠. في ظلال

القرآن - سيد قطب - ج ٤ ص ١١ ص ٤٠٤-٤٠٥. دار الشروق.

(٢) سورة الحجرات آية ٩.

من الظلم وتؤدي ما يجب عليها للأخرى" (١).

وبهذا نلاحظ أثر البغي في الانحدار المجتمع إذ إنه يمزقه ويجعله فرقاً متناحرة تبغي كل منها على الأخرى مما يضعف الأمة ويذهب قوتها، ومن أعلى درجات البغي، بغي الحكام على المحكومين، مما يقتضي وجوب رجوع هؤلاء البغاة عن بغيهم، لأن بغيهم من أهم أسباب الانحدار في الأمم لتضييقهم على شعوبهم وظلمهم لهم وسلب حرياتهم وتكثير أفواههم، وقد ابتليت الأمة الإسلامية في العصر الحاضر بحكام طغاة بغاة لا يتقون الله في شعوبهم، بل يلجأون إلى كل الوسائل لكبتهم والتضييق عليهم - خاصة الذين يعارضونهم ولا يتزلفون إليهم - مما أدى إلى زيادة الانحدار في البلاد الإسلامية، حتى إن العقول المفكرة والمبدعة هجرت بلادها وديارها وتوجهت إلى بلاد الغرب، بسبب ما يمارس ضدها من ظلم وتضييق وعدم تقدير واحترام يتناسب وقدراتها وإمكاناتها.

الاستكبار:

الكبر: "هو العظمة يقال كُبر بالضم يكبر أي عظم فهو كبير. والكبر نقيض الصغر، كُبر كُبراً وكُبراً فهو كبير وكُبار بالتشديد إذا أفرط.

وأعظم التكبر التكبر على الله بالامتناع من قبول الحق والإذعان له بالعبادة. والاستكبار يقال على وجهين: أحدهما: أن يتحرى الإنسان ويطلب أن يصير كبيراً، وذلك حتى كان على ما يجب، وفي المكان الذي يجب، وفي الوقت الذي يجب فمحمود، والثاني: أن يتشبع فيظهر من نفسه ما ليس له، وهذا هو المذموم، وعلى هذا ما ورد في القرآن" (٢).

وهو قوله تعالى ﴿أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ﴾ (٣). وشرح الرسول صلى الله عليه وسلم الكبر فقال "الكبر من بطر الحق وغمط الناس" (١) والغمط هو الازدراء والاحتقار" (٢).

(١) فتح القدير - الشوكاني - ج ٥ ص ٧٧ المكتبة العصرية.

(٢) انظر المفردات في غريب القرآن - الأصفهاني - ص ٤٢٢. المصباح المنير - للفيومي - ج ١ ص ١٨٣.

(٣) سورة البقرة آية ٣٤.

ذم الكبر والنهي عنه:

الكبر مرض من أمراض القلوب التي تفتك بها فتكاً عظيماً، وهو من الأخلاق الباطنة التي تحول بين صاحبها وبين أخلاق المؤمنين، ولهذا صرف الله المستكبرين عن فهم آياته عقاباً لهم على تكذيبهم قال تعالى ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا...﴾ الآية (٣). والمراد أن الله سيصرف عن فهم آياته، ويمنع فهم الحجج والأدلة الدالة على عظمته وشريعته وأحكامه قلوب المتكبرين عن طاعته المتكبرين على الناس بغير حق، فكما استكبروا بغير حق أذلم الله بالجهل، إذ يأبى الله أن يكرم قلوب البطالين بمكنون حكمة القرآن (وإن يروا كل آية) من الآيات المتزلة عليهم (لا يؤمنوا بها، وإن يروا سبيل الرشد) طريق صلاح الأمر وطريق الهدى (لا يتخذوه سبيلاً، وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلاً) أي طريق الضلال والهلاك يتخذوه سبيلاً، وعلل ذلك بقوله (ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا) أي كذبت بها قلوبهم (وكانوا عنها غافلين) لا يعلمون شيئاً مما فيها^(٤).

والكبر يشكل حاجزاً منيعاً بين الإنسان والإيمان، مما يجعله يرد دعوة الرسل ولا يستجيب لها استعلاء وتطاولاً عليهم، وهذه صفة كانت متأصلة في بني إسرائيل الذين كانوا يتعالون على الأنبياء ويرفعون عليهم، ويكفرون بما يدعونهم إليه قال تعالى ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾^(٥).

(١) سنن أبي داود- كتاب اللباس- باب ما جاء في الكبر- ج ٤ ص ٥٩ رقم ٤٠٩٢.

(٢) انظر فتح الباري شرح صحيح البخاري- لابن حجر العسقلاني- ج ١٠ ص ٥٠٦. مختصر منهاج

القاصدين- لابن قدامة المقدسي- ص ٢٤٩.

(٣) سورة الأعراف آية ١٤٦.

(٤) انظر تفسير القرآن العظيم- ابن كثير- ج ٢ ص ٢٤٧. تفسير مدارك التنزيل وحقائق التأويل- النسفي- ج ١

ص ٧٧.

(٥) سورة البقرة آية ٨٧.

"فهذا الخطاب الموجه لبني إسرائيل والذي يحرك مشاعرهم لتحييا بعد موتها يقول لهم: يا معشر يهود بني إسرائيل: أفكلما جاءكم رسول من رسلي بغير الذي تمناه أنفسكم تعظمتتم وتجرتم، وأنتم من قبوله (ففرقاً كذبتم وفرقاً تقتلون) فكذبتم منهم بعضاً ممن لم تقدرُوا على قتله مثل عيسى عليه السلام ومحمد صلى الله عليه وسلم، وقتلهم بعضاً مثل زكريا ويحيى وغيرهما، وقال (تقتلون) هكذا بصيغة المضارع، لأن القتل ظل عادة فيهم فهم قوم متعطشون إلى الدماء كالذئاب تنعشهم رؤية الدماء. وأضاف الفعل إليهم-أي لليهود في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم ومن بعده- وإن لم يباشروه بنفوسهم لأنهم رضوا بفعل أسلافهم فأضيف الفعل إليهم وإن فعله أسلافهم"^(١).

وهذا الكفر والعناد والاعتداء على الرسل بالتكذيب تارة وبالقتل أخرى يحصل من أعداء الله رغم حصول المعرفة عندهم ولكن لا تطاوعهم نفوسهم على الانقياد للحق كبيراً واستعلاء عليه قال تعالى ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾^(٢). فكذبوا بآيات الله حال كون أنفسهم مستيقنة لها (ظلمًا وعلوًا) أي ظالمين عالين، ويجوز أن يكون المراد أن الحامل لهم على التكذيب الظلم والعلو فانظر يا محمد (كيف كان عاقبة المفسدين) أي تفكر في ذلك فإن فيه معتبراً للمعتبرين^(٣).

والمستكبرون الذين يجحدون بآيات الله يحرصون على أن يكون لهم أتباع وأعوان في مخالفتهم للرسول ومعارضتهم لهم، إلا أنهم يتخلون عنهم ويتبرأون منهم يوم القيامة ولا يقرون بالدور الذي قاموا به في سبيل إفسادهم وإضلالهم، يقول تعالى في وصف حال المستكبرين وأعوانهم وما يجري بينهم من حوار يوم القيامة ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ

(١) انظر مجمع البيان في تفسير القرآن- للطبرسي- ١م ج ١ ص ٣٤٩. في رحاب التفسير - لعبد الحميد كشك

- ١م ج ١ ص ٢٠٦.

(٢) سورة النمل آية ١٤.

(٣) فتح القدير - الشوكاني - ج ٤ ص ١٥٩.

اسْتَضْعَفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ
اسْتَضْعَفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ وَقَالَ
الَّذِينَ اسْتَضْعَفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ
وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا...﴾ الآيات (١).

ففي يوم القيامة وفي ذلك الموقف العصيب يلقي الذين استضعفوا تبعه الموقف
على الذين استكبروا، وما يتوقعون بعدها من البلاء، يقولون لهم هذه المقولة الجاهزة
اليوم، ولم يكونوا في الدنيا بقادرين على مواجهتهم هذه المواجهة، كان يمنهم الذل
والضعف والاستسلام، وبيع الحرية التي وهبها الله لهم، والكرامة التي منحها إياهم، أما
اليوم وقد سقطت القيم الزائفة، وواجهوا العذاب الأليم، فهم يقولونها غير خائفين ولا
مبقين "لولا أنتم لكننا مؤمنين" ويضيق الذين استكبروا بالذين استضعفوا فهم في البلاء
سواء، ويردون عليهم بالاستنكار ويجيبونهم بالسب الغليظ (قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا
لِلَّذِينَ اسْتَضْعَفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ) فهو التحلي عن
التبعية، والإقرار بالهدى، وقد كانوا في الدنيا لا يقيمون وزناً للمستضعفين ولا
يأخذون منهم رأياً، ولا يعتبرون لهم وجوداً، ولا يقبلون منهم مخالفة ولا مناقشة! أما
اليوم - وأمام العذاب - فهم يسألونهم في إنكار (أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ
جاءكم) ؟ (بل أنتم مجرمون) من ذات أنفسكم لا تهتدون (لأنكم مجرمون) فيرد
عليهم المستضعفون ويجيبونهم بمكرهم الذي لم يكن يفتر نهاراً ولا ليلاً للصد عن
الهدى وللتمكن للباطل ولتلبيس الحق، وللأمر بالمنكر ولا استخدام النفوذ والسلطان في
التضليل والإغواء (وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ
تأمرونا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً). ثم يدرك الفريقان أن هذا الحوار اليائس لا
ينفع هؤلاء ولا هؤلاء ولا ينجي المستكبرين ولا المستضعفين فكل جرئته وإثمه، وبهذا
استحقوا العذاب جميعاً وأصابهم الكمد والحسرة وهم يرون العذاب حاضراً لهم

مهياً^(١). (وأسروا الندامة لما رأوا العذاب وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا هل يجزون إلا ما كانوا يعملون).

والكبر أول الذنوب التي عُصِيَ اللهُ بِهَا، وذلك عندما تكبر إبليس عن السجود لآدم عليه السلام وتعالى عن ذلك ظناً منه أنه أفضل من آدم، وأعلى منزلة بسبب أنه خلق من النار وأن آدم خلق من طين قال تعالى ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾^(٢).

فإن الله تعالى لما استثنى إبليس من الساجدين كان يجوز أن يظن أنه كان معذوراً في ترك السجود فيبين تعالى أنه لم يسجد مع القدرة وزوال العذر بقوله (أبى) لأن الإباء هو الامتناع مع الاختيار، أما من لم يكن قادراً على الفعل لا يقال له إنه أبى ثم قال كان يجوز أن يكون كذلك ولا ينضم إليه الكبر، فيبين تعالى أن ذلك الإباء كان على وجه الاستكبار بقوله (واستكبر) ثم كان يجوز أن يوجد الإباء والاستكبار مع عدم الكفر فيبين تعالى أنه كفر بقوله (وكان من الكافرين).

ولم تبيّن الآيات هنا موجب استكبار إبليس في زعمه، ولكنه بينه في مواضع أخر كقوله تعالى ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾^(٣) وقوله ﴿قَالَ لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمِيمٍ مَسْنُونٍ﴾^(٤) مثل قياس إبليس نفسه على عنصره الذي هو النار وقياسه آدم على عنصره، الذي هو الطين واستنتاجه من ذلك أنه خير من آدم، ولا ينبغي أن يؤمر بالسجود لمن هو خير منه، مع وجود النص الصريح الذي هو قوله (اسجدوا لآدم) يسمى في اصطلاح الأصوليين فاسد الاعتبار^(٥).

(١) في ظلال القرآن - سيد قطب - ج ٦م ٢٢ ص ٦٥١-٦٥٢.

(٢) سورة البقرة آية ٣٤.

(٣) سورة الأعراف آية ١٢.

(٤) سورة الحجر آية ٣٣.

(٥) انظر التفسير الكبير - الرازي - ج ٢ ص ٢٥٥. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن - الشنقيطي - ج ١

وهذا نرى أثر الكبر المدمر على المجتمع من خلال بث الشحناء والبغضاء بين أبنائه إذ يستعلي فريق منهم على باقي أفراد المجتمع ظناً منهم أنهم خير من غيرهم لكثرة ما لهم أو لمنصبهم وسلطانهم أو لعلمهم أو لأي سبب آخر . وهذا الأثر الخطير من شأنه أن يضعف المجتمع ويمزقه إلى طوائف وطبقات، تكون سبباً في انحدار المجتمع وهلاكه، وقد ذكر ابن القيم رحمه الله أن الكبر أصل الأخلاق المذمومة فقال: "إن الفخر والبطر والأشر والعجب والحسد والبغي والخيلاء والظلم والقسوة والتجبر والإعراض وإباء قبول النصيحة والاستئثار وطلب العلو وحب الجاه والرياسة وأن يحمد الإنسان بما لا يفعل وأمثال ذلك كلها ناشئة من الكبر"^(١) .

مما سبق يتأكد أثر الكبر الخطير في ضعف المجتمع وانحلاله وانحداره.

المطلب الثاني: بعض أمثلة البغي والاستكبار وأثرهما على الأمم:

إن من أعظم أمثلة البغي التي ذكرها القرآن الكريم قصة قارون الذي بغى على قومه واستعلي عليهم لما أعطاه الله من المال والخير قال تعالى فيما يقصه علينا من شأن قارون ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ...﴾^(٢) الآيات. "ذكر الله قصة قارون ليعين عاقبة البغي والجيروت في الدنيا والآخرة، فقد أهلك قارون بالحسف وزُلزلت به الأرض، وهوت من تحته ثم أصبح مثلاً يضرب للناس في ظلمه وعتوه، ويستبين لهم سوء عاقبة البغاة، وما يكون لهم من النكال والوبال في الدنيا والآخرة.

لقد كان قارون ابن عم موسى عليه السلام وقيل ابن خالته، ولم يكن في بني إسرائيل أقرأ للتوراة منه، وخرج عن طاعة موسى عليه السلام، وذلك هو معنى قوله تعالى (فبغى عليهم) أي تجاوز الحد في التجبر والتكبر عليهم، وخرج عن طاعة موسى وكفر بالله، وقيل كان بغيه على بني إسرائيل استخفافه بهم لكثرة ماله وولده، وقيل إن

(١) الفوائد - لابن القيم - ص ١٢٣ .

(٢) سورة القصص الآيات ٧٦-٨١ .

بغية بتسببه ما آتاه الله من المال لنفسه ولعلمه وحيلته، وقيل إن بغيه بأن جعل لبغيه جعلاً على أن تقذف موسى عليه السلام بنفسها ففعلت، فاستحلفها موسى على ما قالت فأخبرته بقصتها مع قارون، وقيل غير ذلك.

وأتى الله قارون من الكنوز وهو المال المدخر ما إن مفاتيح هذه الكنوز لتثقل على العصابة الأقوياء، وتميلهم بثقلها، فتوجه إليه قومه بالنصح والإرشاد بأن لا يبطر فإن الله لا يحب البطرين الأشرين، وأن يتبغى بهذا المال وجه الله ولا يفسد في الأرض بعمل المعاصي فإن الله لا يحب المفسدين.

بعد هذا البيان أردفت الآيات بتفصيل بعض مظاهر بغيه وكبريائه (فخرج على قومه في زينته) فذكر أنه خرج على قومه، وهو في أبهى حلية وحلله، والعدد العديد من أعوانه وحشمه، قصداً للتعالي على العشيرة، وأبناء البلد، وفي ذلك كسر للقلوب، وإذلال للنفوس، وتفريق للكلمة فلا تربطهم رابطة ولا تجمعهم جامعة، فيذلون في الدنيا بانقضاض الأعداء عليهم، وتفريقهم شذر مذر، وقد غرت هذه المظاهر بعض الجهال الذين لا هم لهم إلا زخرف الحياة وزينتها، فتمنوا أن يكون لهم مثلها، فرد عليهم من وفقهم الله لهديته، بأن ما عند الله من النعيم لمن اتقى خير مما أوتى قارون ﴿قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾ فما عند الله في الآخرة خير مما تمناه أولئك القوم ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ﴾ يقال خسف المكان يخسف خسوفاً: ذهب في الأرض وخسف به الأرض خسفاً، أي غاب فيها، والمعنى أن الله سبحانه غيبه وغيب داره في الأرض، ﴿فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُوهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ﴾ أي ما كان له جماعة يدفعون ذلك عنه، وما كان هو من الممتنعين مما نزل به من الخسف^(١).

أخرج ابن أبي شيبة في مصنفه وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه

(١) انظر فتح القدير - الشوكاني - ج ٤ ص ٢٣٢-٢٣٤ باختصار. في رحاب التفسير - كشك - ج ٤ ص

قال: "إن قارون أعطى بغياً من بغايا بني إسرائيل مالاً على أن تشهد على موسى أنه فجر بها، ثم إن قارون جاء إلى موسى عليه السلام فقال: اجمع بني إسرائيل فأخبرهم بما أمرك ربك، قال نعم، فجمعهم فقالوا له: ما أمرك ربك؟ قال أمرني أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وأن تصلوا الرحم وكذا وكذا، وأمرني إذا زنى وقد أحصن أن يرحم، قالوا: وإن كنت أنت قال نعم، قالوا: فإنك قد زنت، قال أنا؟ فأرسلوا للمرأة فجاءت، فقالوا: ما تشهدين على موسى؟ فقال لها موسى: أنشدك الله إلا ما صدقت، قالت: أما إذ نشدتنى بالله فإنهم دعوني وجعلوا لي جعلاً على أن أقذفك بنفسي وأنا أشهد أنك بريء وأنت رسول الله، فخر موسى ساجداً يبيكي، فأوحى الله إليه ما يبكيك؟ قد سلطناك على الأرض فمرها فتطيعك، فرفع رأسه فقال خذهم، فأخذهم إلى أعقابهم، فجعلوا يقولون: يا موسى يا موسى، فقال: خذهم، فأخذهم إلى ركبهم، فجعلوا يقولون: يا موسى يا موسى، فقال: خذهم، فأخذهم إلى أعناقهم، فجعلوا يقولون: يا موسى يا موسى، فقال: خذهم، فأخذهم فغشيتهم، فأوحى الله يا موسى، سألك عبادي وتضرعوا إليك فلم تجبهم، وعزيتي لو أنهم دعوني لأجبتهم. قال ابن عباس رضي الله عنهما وذلك قوله (فخسفنا به وبداره الأرض) فخسف به إلى الأرض السابعة وفي رواية السفلى" (١).

إن الذي حلَّ بقارون من العقاب الأليم و الحسف المشين هو عقاب عادل لكل أولئك الذين ييغون على الناس ويستعلون عليهم، لأثر هؤلاء البالغ في انحدار الأمة وتمزقها وتشتتها، ونشر الفساد بين أفرادها، فأكثر الناس فساداً ونشراً للفساد هم هؤلاء البغاة الذين يتلاعبون بمقدرات الشعوب، وهناك أمثلة كثيرة لهؤلاء البغاة في العصر الحاضر، الذين قادوا الناس إلى الهاوية من خلال حكمهم الشعوب بالحديد والنار، ونشر المحرمات والمنكرات بينهم، ومن خلال محاربة الفضيلة والقيم والدين بحجة أنه إرهاب وتخلف ورجعية، ولكن ورغم حرهم للدين ومعاداتهم للمؤمنين إلا أن الإسلام يزداد قوة واتساعاً في جميع الجهات والميادين.

(١) تفسير القرآن العظيم - ابن كثير - ج ٣ ص ٤٠١. الدر المنثور في التفسير بالمأثور - السيوطي - ج ٥ ص ١٥١.

هذا مثال عن البغي ودوره في انحدار الأمة وبوارها.

-أما الاستكبار فإن أعظم مثال يدل على أثره في انحدار الأمم وهلاكها ما قصه علينا القرآن عن فرعون وقومه، وقد فسرت الآيات القرآنية التي تحدثت في ذلك في أكثر من موضع من هذا البحث^(١)، ولهذا أود أن أقتصر هنا على الحديث عن آية واحدة توجز لنا سبب هلاك فرعون وقومه ودور الاستكبار الفرعوني في ذلك الهلاك يقول تعالى ﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُم إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَاَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾^(٢).

والاستكبار في الآية هو التعظيم بغير استحقاق، بل بالعدوان، وقد أوجد فرعون الكبر بغاية الرغبة فيه (هو وجنوده) بإعراضهم لشدة رغبتهم في الكبر على الحق والإلتباع للباطل (في الأرض) أرض مصر وعرفها إشارة إلى أنه لو قدر على ذلك في غيرها فعل (بغير الحق) بغير استحقاق، والتعبير بالتعريف يدل على أن التعظيم بنوع من الحق ليس بكبر وإن كانت صورته كذلك، وأما تكبره سبحانه فهو بالحق كله قال صلى الله عليه وسلم فيما حكاه عن ربه "الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني واحداً منهما ألقيته في النار"^(٣).

(وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون) أي فرعون وجنوده، ظنوا بنوا عليه اعتقادهم في أصل الدين الذي لا يكون إلا بدليل قاطع (أنهم إلينا) أي إلى حكمنا خاصة الذي عند انقطاع الأسباب (لا يرجعون) بالبعث والمعاد^(٤).

"ولما توهّموا عدم الرجعة إلى الله واستكبروا في الأرض بغير الحق، وكذبوا بالآيات والنذر أخذهم الله بقوته وعظمته فألقاهم في اليم، قال سبحانه (فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم) هكذا في اختصار حاسم، أخذ شديد ونبذ في اليم، نبذ كما

(١) انظر ص ٨٤

(٢) سورة القصص الآيات ٣٩-٤٠.

(٣) سنن أبي داود - كتاب اللباس - باب ما جاء في الكبر - ج ٤ ص ٥٩ رقم ٤٠٩٠.

(٤) انظر تفسير القرآن الكريم المسمى السراج المنير - للخطيب الشريبي - ج ٣ ص ١٠١. فتح القدير -

الشوكاني - ج ٤ ص ٢١٥.

تحذف الحصاة، أو كما يرمي الحجر، اليم الذي ألقى في مثله موسى الطفل الرضيع، فكان مأمناً وملجأً، وهو ذاته الذي ينبذ فيه فرعون الجبار وجنوده فإذا هو مخافة ومهلكة، فالأمن إنما يكون في جناب الله، والمخافة إنما تكون في البعد عن ذلك الجناب (فانظر كيف كان عاقبة الظالمين) فهي عاقبة مشهودة معروضة للعالمين، وفيها عبرة للمعتبرين، ونذير للمكذبين، وفيها يد القدرة تعصف بالطغاة والمتجبرين في مثل لمح البصر" (١).

إن في هاتين الآيتين بيان أثر الاستكبار على الأمة، فقد أهلك الله فرعون وقومه بسبب كبرهم وتعاليتهم تكبروا على الله وعلى خلق الله، فأذاقهم الله عذاب الدنيا ولعذاب الآخرة أشد وأبقى.

وهذا المصير هو مآل كل المتكبرين المتجبرين، إنه الخزي لهم في الحياة الدنيا والذلة والمهانة فتضعف بذلك قوتهم وتذهب ريحهم، وينحدرون إلى الهاوية، وفي الآخرة عذاب شديد لمن أصر على الاستكبار والعلو والاستعلاء.

(١) في ظلال القرآن - سيد قطب - ٦م ج ٢٠ ص ٣٥٠.

الفصل الرابع نماذج لأمم انحدرت فأهلكها الله

ويشتمل على ستة مباحث:

المبحث الأول: قوم نوح عليه السلام

المبحث الثاني: قوم لوط عليه السلام

المبحث الثالث: ثمود.

المبحث الرابع: عاد.

المبحث الخامس: قوم فرعون.

المبحث السادس: أصحاب الفيل.

الفصل الرابع مناذج لأمم المخدرات فأهلكها الله

ويشتمل على ستة مباحث:

المبحث الأول: قوم نوح عليه السلام:

بعث الله نبيه نوحاً عليه السلام إلى قوم يعبدون الأوثان من دون الله سبحانه، فدعاهم إلى نبذ عبادتهما، وإلى توحيد الله سبحانه، ولبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم ليلاً ونهاراً سرّاً وعلانية فلم يزدتهم دعاؤه إلا بعداً ونفوراً قال تعالى ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَعْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾^(١).

في الآيات حكاية لما جرى بين نوح عليه السلام وبين قومه إذ قال رب إني دعوت قومي إلى ما أمرتني بأن أدعوهم من الإيمان دعاء دائماً في الليل والنهار والسر والإجهار، بالترغيب تارة وبالترهيب أخرى، من غير تقصير، فلم يزدتهم ذلك إلا تباعدًا من الإيمان، واستمراراً على الضلالة والطغيان وعبادة الأصنام والأوثان، ونصبوا له العداوة في كل وقت وأوان، وتنقصوه وتنقصوا من آمن به، وتوعدوهم بالرجم والإخراج ونالوا منهم وبالغوا في أمرهم^(٢).

وقد تناول الزمان والمجادلة بينه وبينهم حتى استعجلوا عقاب الله كما قال تعالى ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾^(٣) وقال

(١) سورة نوح الآيات ٥-٩.

(٢) قصص الأنبياء - لابن كثير - ص ٧٢.

(٣) سورة العنكبوت آية ١٤.

تعالى ﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾^(١) . وبهذا استعجل قوم نوح نقمة الله وعذابه وسخطه وقالوا لنوح قد حاججتنا فأكثرت من ذلك ونحن لا نتبعك فأتنا بما تعدنا من النعمة والعذاب، ادع علينا بما شئت فليأتنا ما تدعو به، فقال لهم إن الذي يعاقبكم ويعجل لكم العذاب هو الله الذي لا يعجزه شيء^(٢) ثم إنه لما يمس من إيمانهم وصلاتهم ورأى أنه لا خير فيهم دعا عليهم دعوة غضب، فلبى الله دعوته وأجاب طلبته قال تعالى على لسان نوح عليه السلام ﴿رَبِّ إِنْ قَوْمِي كَذَّبُونِ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتَحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَأَنْجِنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ﴾^(٣) "وليس الغرض من دعاء نوح عليه السلام إخبار الله تعالى بالتكذيب لعلمه أن عالم الغيب والشهادة أعلم، ولكنه أراد بدعائه القول: إني لا أدعوك عليهم لما آذوني، وإنما أدعوك لأجلك ولأجل دينك ولأنهم كذبوني في وحيك ورسالتك، فاحكم بيني وبينهم، والمراد من الحكم إنزال العقوبة عليهم وبدل على ذلك قوله تعالى بعدها (ونجني ومن معي من المؤمنين) ولولا أن المراد إنزال العقوبة لما كان لذكر النجاة بعده معنى، (فأنجيناه ومن معه في الفلك المشحون ثم أغرقنا بعد الباقين) والفلك هو السفن والمشحون المملوء، وبين تعالى بعد أن أنجى نوحًا ومن معه أنه أغرق الباقين وأن إغراقه لهم كان كالمأخر عن نجاتهم^(٤) أي نوح ومن معه من المؤمنين وقد أمر الله نوحًا أن يصنع السفينة العظيمة ليركب فيها ومن معه من المؤمنين قال تعالى ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوْحَيْنَا﴾^(٥) "أي بأمرنا لك وبمرأى منا لصنعتك لها، ومشاهدتنا لذلك، لترشدك إلى

(١) سورة هود الآيات ٣٢-٣٣ .

(٢) تفسير القرآن العظيم - لابن كثير - ج ٢ ص ٤٤٤ .

(٣) سورة الشعراء آية ١٢٠ .

(٤) التفسير الكبير - الرازي - ج ١٢ م ٢٤ ص ١٥٥-١٥٦ .

(٥) سورة المؤمنون آية ٢٧ .

الصواب في صنعتها ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطَبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾^(١).

فتقدم إليهم بأمره العظيم العلي أنه إذا جاء أمره وحل بأسه، أن يحمل في هذه السفينة من كل زوجين اثنين من الحيوانات وسائر ما فيه روح من المأكولات وغيرها لبقاء النسل، وأن يحمل معه أهله أي أهل بيته إلا من سبق عليه القول منهم، أي إلا من كان كافراً فإنه قد نفذت فيه الدعوة التي لا ترد، ووجب عليه حلول البأس الذي لا يُرد وأمر أنه لا يراجعهم فيهم إذا حل بهم ما يعاينه من العذاب العظيم، الذي قد حتمه عليهم الفعال لما يريد^(٢).

ثم إنه جاء وعد الله ففتح السماء عليهم بماء منهمر وفجر الأرض عيوناً عظماً قال تعالى ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ وَحَمَلْنَا عَلَى ذَاتِ الْأَوَاحِ وَدُسرٍ﴾^(٣).

"وعلى الماء على رؤوس الجبال، فكان على أعلى جبل في الأرض خمسة عشر ذراعاً، فهلك ما على وجه الأرض من حيوان ونبات فلم يبق إلا نوح ومن معه، قال ابن عباس رضي الله عنهما "أرسل الله المطر أربعين يوماً فأقبلت الوحش حين أصابها المطر والطين إلى نوح، وسخرت له فحمل منها كما أمره الله فركبا فيها لعشر ليال مضين من رجب، وكان ذلك لثلاث عشرة خلعت من آب وخرجوا فيها يوم عاشوراء من الحرم فلذلك صام من صام يوم عاشوراء، وكان الماء نصفين نصفاً من السماء ونصفاً من الأرض وطافت السفينة بالأرض كلها لا تستقر حتى أتت الحرم فلم تدخله ودارت بالحرم أسبوعاً ثم ذهبت في الأرض تسير بهم حتى انتهت إلى الجودي، وهو جبل بقردي بأرض الموصل فاستقرت عليه فقيل عند ذلك (بعداً للقوم الظالمين) ولما

(١) سورة المؤمنون آية ٢٨.

(٢) قصص الأنبياء ص ٧٧.

(٣) سورة القمر الآيات ١١-١٣.

استقرت قيل (يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي وغيض الماء) نشفته الأرض، وأقام نوح في الفلك إلى أن غاض الماء، فلما خرج منها اتخذ بناحية من قَرْدَى (١) من الماء أرض الجزيرة موضعاً وابتنى قرية سموها ثمانين، وهي الآن تسمى سوق الثمانين لأن كل واحد ممن معه بني لنفسه بيتاً وكانوا ثمانين رجلاً (٢).

وهكذا كانت عاقبة قوم نوح الانحدار والهلاك بسبب إصرارهم على الكفر والعصيان، وعدم استجابتهم لدعوة نوح عليه السلام التي لبث فيها ألف سنة إلا خمسين عاماً، وهذه هي عاقبة الظالمين الكافرين المصرين على كفرهم وعنادهم.

المبحث الثاني: قوم لوط عليه السلام:

"كان لوط عليه السلام قد نزل بمدينة سدوم، وكان أهلها من أفجر الناس وأكفرهم وأسوأهم طوية وأردأهم سريرة وسيرة، يقطعون السبيل ويأتون في ناديهم المنكر، ولا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون.

وابتدع قوم لوط فاحشة لم يسبقهم إليها أحد من بني آدم، وهي إتيان الذكران من العالمين، وترك ما خلق الله من النسوان لعباده الصالحين.

فدعا لوط عليه السلام إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له، ونهاهم عن تعاطي هذه المحرمات والفواحش والمنكرات، والأفاعيل المستقبحات فتمادوا في ضلالهم وطغيانهم واستمروا على فجورهم وكفراهم فأحل الله بهم من البأس الذي لا يرد ما لم يكن في خلدتهم وحسابهم وجعلهم مثله في العالمين، وعبرة يتعظ بها أولوا الألباب من العالمين (٣) قال تعالى في شأن قوم لوط ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ...﴾ الآيات (٤).

(١) سبق التعريف بما ص ١٧١.

(٢) الكامل في التاريخ - ابن الأثير - ج ١ ص ٥٨.

(٣) قصص الأنبياء - لابن كثير - ص ١٧٨.

(٤) سورة الأعراف الآيات ٨٠-٨٤.

"وذلك حين قال لقومه في سدوم (أتأتون الفاحشة) وكانت فاحشتهم التي كانوا يأتونها والتي عاقبهم الله عليها إتيان الذكران، هذه الفاحشة التي لم يسبقهم بفعلها أحد من العالمين (إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء) وهذا إخبار عن لوط أنه قال لقومه توبيخاً لهم على فعلهم إنكم أيها القوم لتأتون الرجال في أدبارهم، شهوة منكم لذلك، من دون الذي أباحه الله لكم وأحله من النساء (بل أنتم قوم مسرفون) بإتيانكم ما حرم الله عليكم وعصيانه بفعلكم هذا، وذلك هو الإسراف في هذا الموضع، مع إبصارهم وعلمهم بأن هذا منكر"^(١) قال تعالى في سورة النمل **﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾**^(٢) أي تعلمون أنها فاحشة لم تسبقوا إليها وإن الله خلق الأنثى للذكر ولم يخلق الذكر للذكر ولا الأنثى للأنثى فهي مضادة لله في حكمته وحكمه"^(٣).

﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾^(٤) "هذا جواب قوم لوط للوط عندما وبخهم على فعلهم القبيح وركوبهم ما حرم الله عليهم من العمل الخبيث فقال بعضهم لبعض: أخرجوا لوطاً وأهله ولذلك قيل (أخرجوهم) فجمع، وقد جرى قبل ذكر لوط وحده دون غيره، وقد يحتمل أن يكون إنما جمع بمعنى أخرجوا لوطاً ومن كان على دينه من قريبتكم، فاكتفى بذكر لوط في أول الكلام عن ذكر أتباعه. (إنهم أناس يتطهرون) أي يتزهون عما نفعه نحن فيه من القاذورات كلها ومنها إتيان الرجال في الأدبار، وهذا ذم من قوم لوط له بما يمدح به، وهو التطهر من هذه الدناءة التي اصفقوا هم عليها، وقد يكون هذا تمكماً بالتطهر من هذا الرجس القدر، وقد يكون إنكاراً عليه أن يسمى هذا تطهراً فهم من انحراف الفطرة بحيث لا يستشعرون ما في ميلهم المنحرف من قذارة، وقد يكون ضيقاً

(١) المحرر الوجيز - لابن عطية - ج ١٢ ص ١٢٢.

(٢) سورة النمل آية ٥٤.

(٣) الكشاف - الرخشي - ج ٣ ص ١٤٧.

(٤) سورة الأعراف آية ٨٢.

بالطهر والتطهر إذا كان يكلفهم الإقلاع عن ذلك الشذوذ^(١).

فلما وصل الحال بقوم لوط إلى هذا الحد الذي وصل إليه، وأخذوا يذمون لوطاً ومن معه بما يمدحون به، وقالوا له فيما قالوا (ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين) فطلبوا منه وقوع العذاب الذي حذرهم منه، عندئذ استحقوا عذاب الله سبحانه وسخطه، فأرسل الله ملائكة في صور شباب حسان إلى لوط عليه السلام اختبأ من الله لقوم لوط وإقامة للحجة عليهم، قال تعالى ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئَاءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾^(٢) لما قدمت الملائكة إلى قرية سدوم بصرت بهم بنتا لوط - وهما تسقيان - ورأتا هيئة حسنة، فقالتا ما شأنكم؟ ومن أين أقبلتم؟ قالوا من موضع كذا نريد هذه القرية، قالتا: فإن أهلها أصحاب فواحش، فقالوا: أيها من يضيفنا؟ قالتا نعم، هذا الشيخ وأشارتا إلى لوط، فلما رأى لوط هيئتهم خاف قومه عليهم، وخشي إن لم يضيفهم ضيفهم غيره، وحسبهم بشراً من الناس (وسيء بهم وضاق بهم ذرعاً) أي ساءه مجيئهم، يقال ساء يسوء فهو لازم، وساءه يسوءه فهو متعد أيضاً وضاق صدره بمجيئهم وكرهه، وقيل ضاق وسعه وطاقته (وقال هذا يوم عصيب) أي شديد في الشر، قال ابن عباس رضي الله عنهما وقناة: شديد بلاؤه، وذلك لما يعلم من مدافعة الليلة عنهم، كما كان يصنع بهم في غيرهم، وكانوا قد اشرطوا عليه ألا يضيف أحداً، ولكن رأى ما لا يمكن المحيد عنه (وجاءه قومه يهرعون إليه) أي يسرعون أو يستحثون عليه، قال ابن عباس رضي الله عنهما "يهرولون، وسبب إسرعهم ما روى أن امرأة لوط الكافرة لما رأت الأضياف وجمالهم وهيئتهم خرجت حتى أتت مجالس قومها. فقالت لهم، إن لوطاً قد أضاف الليلة فتية ما رؤي مثلهم جمالا وكذا وكذا فحينئذ جاعوا يهرعون إليه (ومن قبل) قبل مجيء الرسل، وقيل قبل لوط (كانوا يعملون السيئات) وهي عادتهم من إتيان الرجال، فلما

(١) جامع البيان في تفسير القرآن - الطبري - م ٥ ج ٨ ص ٥٤٢. في ظلال القرآن - سيد قطب - م ٣ ج ٨ ص

٥٥٥-٥٥٦.

(٢) سورة هود آية ٧٧.

جاءوا إلى لوط، وقصدوا أضيافه قام لهم لوط مدافعاً قال (هؤلاء بناتي) وقد اختلف المفسرون في قوله هذا، فقيل: كان له ثلاث بنات من صلبه، وقيل بنتان: زيتا وزعوراء. فقيل كان لهم سيدان مطاعان فأراد أن يزوجهما ابنتيه، وقيل: ندهم في هذه الحالة إلى النكاح وأشار بقوله (بناتي) إلى النساء جملة إذ نبي القوم أب لهم، كما قال تعالى ﴿التَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾^(١) (هن أظهر لكم) أي أزواجكم أحل لكم مما تريدون، والتطهر التزهر عما لا يحل ﴿فاتقوا الله ولا تخزون في ضيفي أليس منكم رجل رشيد﴾ فلا تهينوني ولا تذلوني أليس منكم رجل رشيد، وهذا هي لهم عن تعاطي ما لا يليق من الفاحشة، وشهادة عليهم بأنه ليس فيهم رجل له مسكة ولا فيه خير بل الجميع سفهاء فجرة أقوياء كفره أغبياء.

وقال القرطبي (أليس منكم رجل رشيد) أي شديد يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر وقيل رشيد ذو رشد أو راشد أو مرشد أي صالح مصلح. فقال قومه عليهم لعنة الله مجيبين لنبيهم فيما يأمرهم به من الأمر السديد (قالوا لقد علمت ما لنا في بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد) قالوا لقد علمت يا لوط أنه لا أرب لنا في نساتنا وإنك لتعلم مرادنا وغرضنا. روى أن قوم لوط خطبوا بناته فردّهم، وكانت سنتهم أن من رد في خطبة امرأة لم تحل له أبداً (قال لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد) لما رأى استمرارهم في غيهم، وضعف عنهم ولم يقدر على دفعهم تبنى لو وجد عوناً على ردهم فقال على جهة التفجع والاستكانة (لو أن لي بكم قوة) أي أنصاراً وأعوأناً، وجواب لو محذوف أي لرددت أهل الفساد، وحلت بينهم وبين ما يريدون، أو لو أن لي عشيرة ومنعه ينصرونني عليهم ليحل بهم ما يستحقونه من العذاب على هذا الخطاب. قال أبو هريرة رضي الله عنه إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال "يرحم الله لوطاً قد كان يأوي إلى ركن شديد"^(٢). وكان قوم لوط في تلك اللحظة يعمهون

(١) سورة الأحزاب آية ٦.

(٢) صحيح البخاري- كتاب بدء الخلق- باب قول الله تعالى (لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين) م ٢٤

في غيهم وغوايتهم، فلم تنفعهم دعوة لوط لهم بالرجوع وترك أضيافه حتى وصفهم القرآن بقوله (لعمرك إهم لفي سكرهم يعمهون)^(١) فأقسم عز وجل بحياة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم بأنهم يتحذرون في غوايتهم كالسكارى، فالغواية تذهب بعقل صاحبها كما تذهب به الخمر".

عند ذلك وعند إصرار قوم لوط على الوقوع في الفاحشة مع ضيوفه، رغم مدافعتهم لهم ومنعهم من تحقيق رغبتهم في الفاحشة، عند ذلك أعلم الملائكة لوطاً بحقيقة أمرهم فقالوا له (قالوا يا لوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك) فلما علم أنهم رسل الله مكن قومه من الدخول فأمر جبريل عليه السلام يده على أعينهم فعموا، وعلى أيديهم فحفت قال تعالى ﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذْرِي^(٢)﴾ وطمانوه أنهم لن يصلوا إليه بمكروه أو سوء. ثم أمره أن يسري بأهله من آخر الليل وأن يتبع أديبارهم أي يسير خلفهم كالساقية لهم (ولا يلتفت منكم أحد) يعني عند سماع صوت العذاب إذا حل بقومه (إلا امرأتك) وهذا استثناء من قوله (فأسر بأهلك) كأن يقول إلا امرأتك فلا تسر بها. (إنه مصيبها ما أصابهم) من العذاب وهو رميهم بالحجارة لكونها كانت كافرة.

ثم إن الملائكة بشرت لوطاً بملاك هؤلاء البغاة العتاة الملعونين الذين جعلهم الله سلفاً لكل خائن مريب (إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب) أي إن موعد عذابهم الصبح المسفر عن تلك الليلة، والاستفهام في (أليس الصبح بقريب) للإنكار التقريري، ولعل جعل الصبح ميقاتاً لهلاكهم لكون النفوس فيه أسكن والناس فيه مجتمعون لم يتفرقوا إلى أعمالهم (فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها) فلما جاء عذابنا جعلنا عاليها سافلها وذلك أن جبريل عليه السلام أدخل جناحه تحت قرى قوم لوط وهي خمس وقيل سبع مدن بمن فيهن من الأمم فرفعها من تخوم الأرض حتى أدناها من السماء، حتى سمع أهل السماء أصوات ديكتهم ونباح كلابهم ونهيق حميرهم، لم

(١) سورة الحجر آية ٧٢.

(٢) سورة القمر آية ٣٧.

تسكنفى لهم جرة ولم ينكسر لهم إناء، ثم نكسوا على رؤوسهم فصار عاليها سافلها (وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود) قيل إن أمطرنا تستخدم في العذاب، ومطرنا في الرحمة، والسجيل الطين المتحجر بطبخ وغيره، والمنضود الذي يتبع بعضه بعضاً في النزول وهي معلمة مختومة عليها أسماء أصحابها، كل حجر مكتوب عليه اسم الذي يترل عليه، وذكر المفسرون أنها نزلت على أهل البلد وعلى المتفرقين في القرى مما حولها، فبينما أحدهم يكون عند الناس يتحدث إذ جاءه حجر من السماء فسقط عليه من بين الناس فدمره ففتبعهم الحجارة من سائر البلاد حتى أهلكتهم عن آخرهم فلم يبق منهم أحد، وفي هذا دليل على أن من فعل فعلهم حكمه الرجم^(١).

بهذه العقوبة الوخيمة أسدل الستار على قوم لوط، الذين شذوا عن الفطرة، ووقعوا في وحل الشهوات وهم يعلمون حقيقة هذا المنكر الذي هم فيه، والذي كانوا هم أول من فعله لم يسبقهم إليه أحد من العالمين، بل إن من انتكاس فطرهم أنهم أنكروا على لوط عليه السلام تطهره من رجسهم ونجسهم، وأرادوا إخراجه من قريتهم لعدم فعله فعلهم ولعدم وقوعه فيما وقعوا فيه من الفاحشة.

ثم إن العقوبة التي تعرضوا لها من رفع قراهم إلى السماء ثم نكسها على رؤوسها يتفق مع الانتكاسة الأخلاقية التي وصلوا إليها.

وفي عقوبتهم بالرجم بالحجارة دليل بأن مقترف جريمة اللواط يرحم حتى الموت، كما رجم الله قوم لوط^(٢).

في ما سبق عبرة وعظة لمن تدبر وتأمل حال هذه الأمة الغابرة، وما حلَّ بها من النكال والهلاك، في هذا الوقت الذي انتشر فيه الشذوذ الجنسي - اللواط - وأصبح

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن - للقرطبي - ٥م ج ٩ ص ٨١. تفسير القرآن العظيم - ابن كثير - ج ٢ ص

٤٥٥. قصص الأنبياء - ابن كثير - ص ١٨٢-١٨٦ باختصار. فتح القدير - الشوكاني - ج ٣ ص ١٧٢-١٧٣.

(٢) وقد ذهب إلى أن حد اللواط الرجم كل من المالكية والحنابلة وفي رواية عند الشافعي، إذ قالوا: إن حد

اللوواط الرجم بالحجارة حتى يموت، الفاعل والمفعول به بكراً كان أو ثيباً. الفقه على المذاهب الأربعة -

عبد الرحمن الجزيري ج ٥ ص ١٤٠.

ممارسة غير شاذة، خاصة في الدول الشرقية والغربية، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على الهوة السحيقة التي تردت إليها هذه المجتمعات، وهذا يبشر بانتهيارها وانحدارها لما انتشر فيها من المنكرات والانحرافات.

فلتحذر الأمة الإسلامية من الوقوع في هذا الوحل، لأنها إن وقعت فيه هلكت وبادت مع العلم أن أعداء الإسلام يعملون جاهدين على إيقاعها في هذا المنكر الخطير. فالحذر الحذر من مخططاتهم.

المبحث الثالث: عاد:

"كانت لعاد حضارة عريقة قائمة على العمران وهندسة المباني وإقامة المصانع وإنشاء المدن على نحو يأخذ الأبواب ويهر الأبصار، وإن هذه الحضارة لتبرز من وصف الله لها قال تعالى ﴿كَذَّبَتْ عَادَ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطْشَتُمْ جَبَّارِينَ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾^(١).

والريع المرتفع من الأرض، والظاهر أنهم كانوا يبنون فوق المرتفعات بنياناً يبدو للناظر من بعد كأنه علامة، وأن القصد من ذلك كان هو التفاخر والتطاول بالمقدرة والمهارة، ومن ثم سماه عبثاً، ولو كان لهداية المارة ومعرفة الاتجاه ما قال لهم (تعبتون). ويبدو كذلك من قوله (وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون) أن عاداً كانت قد بلغت من الحضارة الصناعية مبلغاً يذكر، حتى لتتخذ المصانع لنحت الجبال وبناء القصور، وتشيد العلامات على المرتفعات، وحتى ليحول في خاطر القوم أن هذه المصانع وما ينشعونه بواسطتها من البنيان كافية لحمايتهم من الموت، ووقايتهم من

(١) سورة الشعراء الآيات ١٢٣-١٣٥.

مؤثرات الجو ومن غارات الأعداء، وهكذا تعرض الآيات لوحة حية معبرة لحضارة مكتملة زاهية قد استجمعت عناصر البناء والعمارة وإقامة المصانع وتشديد الحصون وزراعة الحدائق وتفجير العيون وكثرة الأموال ووجود الأيدي العاملة من الرجال والأولاد، وهي بهذا حضارة زراعة وعمارة"^(١).

ومن شدة عظمة تلك الحضارة وما وصلت إليه من عمارة وصفها الله بقوله ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾^(٢).
إلا أن هذه الحضارة الصناعية، حضارة العمارة والبناء، وتلك المقومات المادية، لا تجلب الخير والسعادة، ولا توفر لأهلها إمكانية البناء ودفع الهلاك إلا إذا صاحبها طاعة الله واتباع دينه، وهذا لم يتوفر لعاد، إذ إنهم رغم ما من الله به عليهم من هذا الخير وفتح لهم من أبواب العطاء، ورغم هذا التقدم المادي الحضاري رغم ذلك كله كفروا بالله سبحانه وخالفوا رسوله وطغوا وتجبروا مما أدى إلى إنزال العقاب بهم وإهلاكهم، فلم تعن عنهم حضارتهم ولم تنفعهم مدنياتهم لأنها كانت قائمة على غير هدى الله سبحانه، قال تعالى ﴿وَأَذْكُرُ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ السُّنُورُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمَنْ خَلْفَهُ إِلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ قَالُوا أَجِئْنَا لِنَتَأَفَّكُنَا عَنْ عَالِهَتِنَا فَأَتْنَا بِمَا تَعَدْنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾^(٣).

وكانت عاد قد حبس عنهم المطر أياماً فساق الله إليهم سحابة سوداء، فخرجت عليهم من واد لهم يقال له العتب متجهة نحو مزارعهم ف (قالوا هذا عارض

(١) في ظلال القرآن - سيد قطب - ٥٣ ج ١٩ ص ٢٦١٠. قيم حضارية ج ١ ص ١٥٧-١٦٠ باختصار.

(٢) سورة الفجر الآيات ٦-٨.

(٣) سورة الأحقاف الآيات ٢١-٢٥.

مطرنا) أي سحاب عارض فاستبشروا وقالوا هذا غيم فيه مطر، فلما قالوا ذلك أجاب عليهم هود عليه السلام بأن هذا ما استعجلتم به من العذاب وذلك في قولهم (فأتنا بما تعدنا) فأرسل الله عليهم ريحاً من ذلك السحاب فأهلكت كل شيء مرت عليه من نفوس وأموال أو مما أمرت بتدميره بأمر ربها حتى أصبح لا يرى إلا مساكنهم وهي حاوية على عروشها ليس فيها أحد منهم، فلم تدفع عنهم آلتهم بل دمرتهم ثم أشار إلى أن هذا لا يقتصر على عاد، بل ينتظر لمن كان على شاكلتهم من أهل مكة وغيرها، بقوله (كذلك نجزي القوم المجرمين) أي الكافرين إذا تمادوا في غيهم وطمعوا على ربهم^(١).

المبحث الرابع: ثمود:

أنشأت ثمود حضارة عظيمة بارزة، وقد تجلت عناصر حضارة ثمود في بناء القصور الفخمة، ونحت البيوت في الجبال، يشير إلى ذلك قوله تعالى ﴿وَأذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آيَةَ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾^(٢).

أي تذكروا إذ جعلكم الله خلفاء لعاد في الحضارة والعمران والقوة والبأس وبوأكم في الأرض أي أنزلكم فيها وجعلها مباءة ومنازل لكم: تتخذون من سهولها قصوراً زاهية، ودوراً عالية^(٣) بما حذقتهم بإلهامه تعالى من فنون الصناعة كضرب الآجر^(٤) واللبن^(٥) والجص^(٥) وهندسة البناء ودقة النجارة، وتحتون الجبال أي بعضها

(١) انظر محاسن التأويل - للقاسمي - ج ١٥ ص ٢٢. روح المعاني - الألوسي - ج ٩ ص ٢٥. فتح القدير - الشوكاني - ج ٥ ص ٢٩ بتصرف.

(٢) سورة الأعراف آية ٧٤.

(٣) الآجر واللبن: طيبخ الطين... وهو الذي يبنى به، وهذا لفظ فارسي معرب. لسان العرب ج ٤ ص ١١

(٤) اللين: المضروب من الطين مربعاً للبناء، واحدته لبنة. تاج العروس من جواهر القاموس - الزبيدي - ج ٩

ص ٣٢٨

(٥) الجص: ما يطلى به البناء. انظر القاموس المحيط ج ٢ ص ٣٠٨

بيوتًا بما علمكم من فن النحت، وآتاكم من القوة والصبر"^(١).

وهذه العناصر المذكورة في الآية تبين مواهب ثمود في فن النحت والعمارة. ثم تأتي العناصر الأخرى في قوله سبحانه ﴿أَتَتْرُكُونَ فِي مَا هَاهُنَا ءَامِنِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ﴾^(٢).

وهذه العناصر تبين مواهبهم في فن الزراعة من إقامة الحدائق وغرس الجنان والبساتين، وترك الدلالات المختلفة للتعبيرات القرآنية على هذه الحضارة انطباعاً قوياً بالمهارة الخارقة والبراعة الحاذقة لأولئك القوم، وتأمل هذا التعبير (فارهيين) أي حاذقين في نحتها، وهي دلالة على قوتهم في الفن والمهارة في النحت .. كما توحى كلمة هضيم بأن ثمار النخيل ناضجة لينة لطيفة سهلة الهضم... وكلمة جنات تشع بالرفاهية والسعادة لأولئك الأقوام، وهي المفهوم من قوله سبحانه (أتركون فيما ههنا آمنين) لأن الأمن يحمل معنى السعادة والنعيم. والمراد: أتركون في هذا كله من جنات وعيون وزروع متنوعات، ونخل جيدة الطلع، سهلة الهضم حتى كأن جناها مهضوم لا يحتاج إلى جهد في البطون! وتتركون في البيوت تنحتونها في الصخور بمهارة وبراعة وفي أناقة وفراهة؟^(٣).

إلا أن ثمود سلكوا نفس المسلك الذي سلكته عاد من الكفر بنعم الله والتنكر لآلائه بالجحود والإفساد ومخالفة الرسول الذي أرسله الله إليهم وهو صالح عليه السلام.

وبهذا استحقوا عقاب الله ونزل بهم بأسه فهلكوا عن آخرهم، وبادت حضارتهم ودمر الله عليهم ديارهم، ولم ينج منهم إلا صالح ومن آمن معه قال تعالى ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذْنَا لَهُمْ صَاعِقَةً الْعَذَابِ الْهُونِ

(١) المنار - محمد رشيد رضا - ٤م - ج ٨ ص ٤٤٨.

(٢) سورة الشعراء آية ١٤٦-١٤٩.

(٣) انظر في ظلال القرآن - سيد قطب - ٦م - ج ١٩ ص ٢٣١-٢٣٢. فتح القدير - الشوكاني - ج ٤ ص ١٣٩.

قيم حضارية ج ١ ص ١٦٤-١٦٥.

بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ»^(١) .

بين الله لثمود سبيل الهدى والنجاة ودلهم على طريق الخير والفلاح، بأن أرسل إليهم رسولا يأخذ بأيديهم إلى سبيل الحق، إلا أنهم استحبوا الكفر على الإيمان، والعمى على البيان، والمعصية على الطاعة فأخذتهم الصاعقة المهلكة المهينة جزاء بما كسبته أيديهم من الكفر والعصيان.

وهذا يؤكد حقيقة ثابتة أنه لا يمكن أن تقوم حضارة وأن تبقى محافظة على بقائها، دون أن تتعرض للاندثار والبوار، إلا إذا كانت تلك الحضارة قائمة على أساس طاعة الله ومرضاته، وعلى الإيمان والتقوى، فهذه ضمانات أكيدة لبقاء تلك الحضارة ونموها وتوسعها، وبدون ذلك لا يمكن أن تدوم إلى فترة من الزمن طويلة أو أن تبقى معمرة، وإنما هي سائرة إلى دمار محقق^(٢) .

المبحث الخامس: قوم فرعون:

أرسل الله رسوله موسى عليه السلام إلى فرعون وملئه، فدعاهم إلى توحيد الله وعبادته وحده، إلا أن فرعون أصر على الكفر وادعاء الربوبية، ونادى في قومه قائلاً لهم ما علمت لكم من إله غيري.

ثم إن فرعون طلب إلى موسى أن يأتيه بآية تدل على صدق رسالته فقال مخاطباً موسى ﴿إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنَّ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾^(٣) .

"فألقي موسى عصاه فإذا هي حية ضخمة الذكر، وهي أعظم الحيات (مبين) أي حية لا لبس فيها، وأخرج يده وأظهرها من جيبه أو من جناحه، كما في قوله تعالى (وأدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء) أي من غير برص، وكان

(١) سورة فصلت آية ١٧ .

(٢) من أراد الاستزادة فليرجع إلى مطلب "أمثلة على أثر الكفر في الهلاك" ص ١٧١ وما بعدها.

(٣) سورة الأعراف الآيتان ١٠٦-١٠٧ .

موسى أسمر شديد السمرة، ثم أعاد يده إلى جيبه فعادت إلى لونها الأول، قال ابن عباس رضي الله عنهما "كان ليده نور ساطع يضيء ما بين السماء والأرض، وقيل: كانت تخرج يده بيضاء كالثلج تلوح، فإذا ردها عادت إلى مثل سائر بدنه"^(١).

عند ذلك استشار فرعون قومه في شأن موسى عليه السلام فأشاروا عليه أن يؤجله حتى يجمع له السحرة ليقاوموه قال تعالى على لسان الملائم من قوم فرعون ﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ يَا تُوَكُّ بِكُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٍ﴾^(٢) والمعنى: "أخره ومناظرته لوقت اجتماع السحرة، وقيل احبسه، وذلك محتمل لأنك إذا حبست الرجل عن حاجته فقد أخرته. روي أن فرعون أراد قتله ولم يكن يصل إليه فقالوا له لا تفعل فإنك إن قتلته أدخلت على الناس في أمره شبهة، ولكن أرجئه وأخاه إلى أن تحشر السحرة ليقاوموه فلا يثبت له عليك حجة، ثم أشاروا عليه بإنفاذ حاشرين يجمعون السحرة، ظنًا منهم بأنهم إذا كثروا غلبوه وكشفوا حاله"^(٣).

"فأخذ فرعون بمشورة ملئه وجمع السحرة فكانوا سبعين ساحرًا، وقيل اثنين وسبعين وتواعدوا يوم عيد كان لفرعون، وجاء موسى ومعه أخوه هارون ويده عصاه حتى أتى الجمع وفرعون في مجلسه مع أشرف قومه، فقال موسى للسحرة حين جاءهم ﴿قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيَسْحَتِكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنْ افْتَرَى﴾^(٤) وهذا دعاء بالهلاك بمعنى ألزمتكم الله عذابًا وهلاكًا، والمراد به في هذا الموطن الزجر والردع والحث والتحريض على ترك الافتراء (لا تفتروا على الله كذبًا) بأن تدعو أن الآيات التي ستظهر على يدي سحر، أو لا تشركوا مع الله أحدًا، والافتراء التقول والكذب عن عمد (فيسحتكم) فيهلككم ويستأصلكم بسببه بعذاب هائل لا يقادر قدره (وقد خاب من افتري) الخيبة فوت الطلب، والافتراء أي على الله

(١) الجامع لأحكام القرآن - القرطبي - ج ٧ ص ٢٥٦ .

(٢) سورة الشعراء الآيات ٣٦-٣٧ .

(٣) التفسير الكبري - الرازي - ١٢م ج ٢٤ ص ١٣٢

(٤) سورة طه آية ٦١ .

كائنًا من كان بأي وجه كان" (١) .

وبعد هذا الزجر والردع من موسى عليه السلام، قال له السحرة ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾ (٢) وهذه مبارزة من السحرة لموسى عليه السلام فقال لهم موسى ألقوا أنتم أولاً، فألقوا حبلاً غلاظاً وخشباً طويلاً فإذا هي حيات كأمثال الجبال قد ملأت الوادي فأقبلت يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى فكان أول ما اختطفوا بسحرهم بصر موسى وبصر فرعون ثم أبصار الناس بعد، قال تعالى ﴿قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٣) .

"فلما رأى موسى عليه السلام هذه الحبال والعصي وقد تحولت إلى ثعابين عظام أوجس في نفسه خيفة فأوحى الله إليه وأمره أن يلقي ما في يمينه وهي عصاه فإذا هي تأكل ما يلقونه ويوهمون أنه حق وهو باطل قال ابن عباس رضي الله عنهما "فجعلت لا تمر بشيء من حبالهم ولا من خشبهم إلا التقمته" فعرفت السحرة أن هذا شيء من السماء ليس بسحر فخرؤا سجداً وقالوا (آمنوا برب العالمين رب موسى وهارون) ثم أخذ موسى عصاه فإذا هي في يده كما كانت ووقع السحرة سجداً (قالوا آمنوا برب العالمين رب موسى وهارون) لو كان هذا ساحراً ما غلبنا (٤) ، أما فرعون فـ ﴿قَالَ ءَأَمَّنْتُمْ لِي قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرٌ كُفُّمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَا أَصْلَبُكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمَنَّ أَنِّي أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾ (٥) فقطعهم وقتلهم وهم يقولون ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا

(١) تنوير الأذهان من تفسير روح البان - البرسوي - ج ١٦ ص ٤٣٤ .

(٢) سورة الأعراف آية ١١٥ .

(٣) سورة الأعراف آية ١١٦-١١٨ .

(٤) تفسير القرآن العظيم - ابن كثير - ج ٢ ص ٢٣٧ .

(٥) سورة طه آية ٧١ .

وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ»^(١) فكانوا أول النهار كفاراً وآخر النهار شهداء»^(٢).

"واستمر موسى عليه السلام في دعوته فرعون وملئه إلى الحق وازداد إصرار فرعون على الطغيان والكفر، بل زاد على ذلك فقتل الرجال واستحيا النساء من بني إسرائيل وهم صابرون يحتملون العذاب ويرجون فرج الله. عند ذلك أخذ الله فرعون وملئه بالفقر والقحط والجذب قال تعالى ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقَصْنَا مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾^(٣) وهذه أول إشارة لتحذير فرعون من عاقبة كفره وطغيانه إلا إنه لم يتدبر ولم يتفكر ومضى في عتوه تأخذه العزة بالإثم ويزيده الابتلاء عناداً ﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنَسْحَرَنَّ بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾^(٤) فهو الجموح الذي لا تروضه تذكره ولا يرده برهان، ولا يريد أن يتدبر لأنه يعلن الإصرار على التكذيب قبل أن يواجه البرهان - قطعاً للطريق على البرهان - وهي حالة نفسية تصيب المتحيرين حين يدمغهم الحق، وتجبههم البينة ويطاردهم الدليل - بينما هواهم ومصالحتهم وملكهم وسلطانهم كله في جانب آخر غير جانب الحق والبينة والدليل، عندئذ تتدخل القوة الكبرى سافرة بوسائلها الجبارة ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾^(٥).

أرسل الله عليهم هذه الآيات للإنذار والابتلاء وهي واضحة مفصلة تتبع كل خطوة منها الأخرى وتصدق اللاحقة منها السابقة»^(٦).

وهكذا بين سبحانه أنواع الآيات التي ابتلى بها بني إسرائيل وجمعها رغم أنها كانت متفرقة إذ كانت كل آية منها تأتي منفردة عن غيرها، وكانوا كلما جاءهم آية

(١) سورة الأعراف آية ١٢٦.

(٢) انظر الكامل في التاريخ - ابن الأثير - ج ١ ص ١٤١. فتح القدير - الشوكاني - ج ٢ ص ٢٩٤.

(٣) سورة الأعراف آية ١٣٠.

(٤) سورة الأعراف آية ١٣٢.

(٥) سورة الأعراف آية ١٣٣.

(٦) في ظلال القرآن - سيد قطب - م ٣ ج ٣ ص ٦١٧.

توجهوا إلى موسى وطلبوا إليه أن يدعو ربه ليكشف عنهم البلاء، ويعدونه أن يرسل معهم بني إسرائيل إذا نجاهم من ذلك، ولكنهم كانوا في كل مرة ينقضون عهدهم ولا يوفون لموسى عليه السلام بما وعدوه قال تعالى ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بِالْغُوهِ إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ﴾^(١).

"فهذا إخبار من الله تعالى عن كفرهم وعتوهم واستمرارهم على الضلال والجهل والاستكبار عن اتباع آيات الله وتصديق رسوله مع ما أيد به من الآيات العظيمة الباهرة والحجج البليغة القاهرة التي أراهم الله إياها عياناً وجعلها عليهم دليلاً وبرهاناً وكلما شاهدوا آية وعابنوها وجهدهم وأضنكهم حلفوا وعاهدوا موسى لكن كشف عنهم هذه ليؤمنن به وليرسلن معه من هو من حزبه، فكلما رفعت عنهم تلك الآية عادوا إلى شر مما كانوا عليه وأعرضوا عما جاءهم به من الحق ولم يلتفتوا إليه فيرسل الله عليهم آية أخرى هي أشد مما كانت قبلها وأقوى فيقولون فيكذبون ويعدون ولا يوفون، لكن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بني إسرائيل فيكشف عنهم ذلك العذاب الويل، ثم يعودون إلى جهلهم العريض الطويل، هذا والعظيم الخليم القدير يُنظِرُهُمْ ولا يعجلُ عليهم ويؤخرهم ويتقدم بالوعيد إليهم"^(٢) إلى أن استحق القوم عقاب الله واستحقوا الانتقام منه سبحانه، وذلك عاقبة كفرهم وجحودهم وعصيانهم وضلالهم ومخالفتهم لما جاء به موسى عليه السلام، فأخذهم الله بقوته وأذاقهم بأس سطوته فكانوا من الهالكين المغرقين بعدما كانوا من العتاة المتحيرين المتكبرين، ودمر الله ديارهم وجعلها غنيمة للمؤمنين- من بني إسرائيل- إذ أوحى الله إلى موسى عليه السلام ومن معه من بني إسرائيل بالخروج من مصر والتوجه تلقاء البحر وعلم فرعون بخروجهم فتبعهم بجنده ورجاله، ولما وصل موسى عليه السلام

(١) سورة الأعراف الآيات ١٣٤-١٣٥.

(٢) البداية والنهاية - ابن كثير - ج ١ ص ٢٤٩.

ومن معه إلى البحر أمره الله أن يضربه بعصاه فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم وسار فيه موسى ومن معه آمنين مطمئنين، وتبعهم فرعون وجنده وساروا من نفس الطريق الذي سار فيه موسى ومن معه، فأمر الله البحر فأطبق عليهم فكانوا من المغرقين المهالكين وهذه هي عاقبة العتاة المتحجرين.

قال تعالى ﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَعَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾^(١) وقال تعالى ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرْكًا وَلَا تَخْشَىٰ فِتْنَةً مِنْهُمْ فِرْعَوْنَ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ وَأَصْلَ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ﴾^(٢).

"وهكذا أخذ الله فرعون وجنوده - بعد إقامة الحجة عليهم والإنذار إليهم - أخذ عزيز مقتدر فجعلهم عبرة ونكالا وسلفاً لمن أشبههم من الكافرين ومثلاً لمن اتعظ بهم من عباده المؤمنين"^(٣). فانتقلوا من التعالي والتطاول والاستكبار إلى الهوي في الأعماق والأغوار جزاء وفاقاً ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾^(٤) وهذا ربط بين التكذيب بالآيات والغفلة عنها وبين هذا المصير المقدر، ويقرر أن الأحداث لا تجري مصادفة ولا محض فلتات عابرة كما يظن الغافلون"^(٥).

المبحث السادس: أصحاب الفيل:

إن في قصة أصحاب الفيل عبر جليلة وعظات عظيمة، تدل على أن قوة الله

(١) سورة الأعراف آية ١٣٧.

(٢) سورة طه الآيات ٧٧-٧٨-٧٩.

(٣) البداية والنهاية - ابن كثير - ج ١ ص ٢٤٩.

(٤) سورة الأعراف آية ١٤٦.

(٥) في ظلال القرآن - سيد قطب - م ٣ ج ٩ ص ٦٢٠.

هي القاهرة الغالبة وأن قوى البشر مهما بلغت مقهورة مغلوبة.

وفيها دلالة كذلك على أن الله يدافع عن بيوته التي أسست على تقوى الله،

ليعبد فيها ويذكر فيها اسمه إذا عجز البشر عن الدفاع عنها.

قال تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ﴾^(١).

يقول تعالى ذكره لنبيه صلى الله عليه وسلم ألم تنظر يا محمد بعين قلبك فترى كيف فعل ربك بأصحاب الفيل الذين قدموا من اليمن يريدون تخريب الكعبة من الحبشة ورئيسهم أبرهة الحبشي الأشرم، (ألم يجعل كيدهم في تضليل)، أي ألم يجعل سعي الحبشة أصحاب الفيل في تخريب الكعبة في تضليل يعني في تضليلهم عما أرادوا وحاولوا من تخريبها وقوله (وأرسل عليهم طيراً أبابيل) أي أرسل عليهم ربك طيراً متفرقة يتبع بعضها بعضاً من نواح شتى وهي جماع لا واحد^(٢).

"وكان السبب الذي من أجله حلت عقوبة الله تعالى بأصحاب الفيل هو مسير أبرهة الحبشي بجنده ومعه الفيل إلى بيت الله الحرام لتخريبه، وكان الذي دعاه إلى ذلك فيما قال ابن إسحاق "أن أبرهة بنى القليس كنيسة لم يرَ مثلها في زمانها بشيء من الأرض وكتب إلى النجاشي -ملك الحبشة- إني قد بنيت لك كنيسة لم يين مثلها لملك كان قبلك، ولست بممته حتى أصرف إليها حج العرب. فلما تحدثت العرب بكتاب أبرهة إلى النجاشي غضب رجل من كنانة، فخرج الكناني حتى أتى القليس فقعده فيه -أي أحدث- حيث لا يراه أحد ثم خرج فلحق بأرضه فأخبر أبرهة بذلك، فقال من صنع هذا؟ فقيل له صنعه رجل من أهل البيت الذي تحجه العرب بمكة لما سمع بقولك أنك تريد أن تصرف حج العرب إلى بيتك هذا، فغضب فجاء فقعده فيها أي إنه ليس لذلك بأهل، فغضب أبرهة عند ذلك وحلف ليسيرن إلى البيت حتى

(١) سورة الفيل .

(٢) جامع البيان في تفسير القرآن -الطبري- ١٢م ج ٣٠ ص ١٩٣.

يهدمه، ثم أمر الحبشة فتهيأت وتجهزت، ثم سار وخرج معه بالفيل وسمعت بذلك العرب فأعظموه وفضعوا به ورأوا جهاده حقاً عليهم حين سمعوا بأنه يريد هدم الكعبة بيت الله الحرام، فخرج له رجل كان من أشرف أهل اليمن يقال له ذو نفر فقاتله، فهُزم ذو نفر وأصحابه، وأخذ له ذو نفر فأتى به أسيراً، حتى إذا كان أبرهة بأرض خثعم عرض له نفيل بن حبيب الخثعمي في قبيلتي خثعم وهما شهران وناهس ومن تبعه من قبائل العرب فقاتله فهزمه أبرهة وأخذه أسيراً، وسار أبرهة حتى وصل إلى الغمس فبعث رجلاً من الحبشة يقال له الأسود بن معضود على خيل له حتى انتهى إلى مكة، فساق إليه أموال تمامة من قريش وغيرهم وأصاب فيها مائتي بعير لعبد المطلب بن هاشم- وهو يومئذ كبير قريش وسيدها- ثم إن أبرهة بعث حماطة الحميري إلى مكة ليأتيه بسيدها- فجاءه بعبد المطلب، فقال أبرهة لترجمانه قل له ما حاجتك؟ فقال له ذلك الترجمان فقال: حاجتي أن يرد عليّ الملك مائتي بعير أصابها لي فلما قال له ذلك قال أبرهة لترجمانه قل له لقد كنت أعجبتني حين رأيتك ثم قد زهدت فيك حين كلمتني، أتكلمني في مائتي بعير أصبتها لك وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك قد جئت لأهدمه لا تكلمني فيه؟ فقال عبد المطلب: إني أنا رب للإبل وإن للبيت رباً سيمنعه، فقال ما كان لي تمتع مني، قال: أنت وذاك، فرد على عبد المطلب إبله، ثم إن عبد المطلب رجع إلى قريش فأخبرهم الخبر وأمرهم بالخروج من مكة للتحرز في رؤوس الجبال فلما أصبح أبرهة تهيأ لدخول مكة وهيأ فيه وعبأ جيشه، فلما وجهوا الفيل إلى مكة برك، فوجهوه إلى اليمن فقام يهرول.

وأرسل الله عليهم طيراً من البحر أمثال الخطاطيف والبلسان مع كل طائر منها ثلاثة أحجار يحملها حجر في منقاره وحجران في رجليه أمثال الحمص والعدس لا تصيب منهم أحداً إلا هلك، فخرجوا يتساقطون بكل طريق ويهلكون بكل مهلك على كل منهل، وأصيب أبرهة في جسده وخرجوا به معهم يسقط أمثلة أمثلة كلما

سقطت أثملة اتبعتها منه مدة تمت قيحًا ودمًا حتى قدموا به صنعاء وهو مثل فرخ الطير فمات حتى انصدع صدره عن قلبه فيما يزعمون^(١) .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما في هذه السورة "أقبل أصحاب الفيل حتى إذا دنوا من مكة استقبلهم عبد المطلب فقال لملكهم ما جاء بك إلينا ألا بعثت فنأتيك بكل شيء أردت فقال: أخبرت بهذا البيت الذي لا يدخله أحد إلا أمن فحئت أخيف أهله فقال إنا نأتيك بكل شيء تريد فارجع، فأبى أن يرجع إلا أن يدخله وانطلق يسير نحوه، وتخلف عبد المطلب فقام على جبل فقال لا أشهد مهلك هذا البيت وأهله ثم قال: اللهم إن لكل إله حلالا فامنع حلالك لا يغلبن محالهم أبدًا محالك، اللهم فإن فعلت فأمر ما بدالك، فأقبلت مثل السحابة من نحو البحر حتى أظلتهم طيرًا أباييل التي قال الله ترميهم بحجارة من سجيل، فجعل الفيل يعج عجاج فجعلهم كعصف مأكول"^(٢) .

هاتان روايتان من روايات عديدة وردت في بيان هذه السورة، وهي جميعًا تتحدث عن محاولة أبرهة دخول مكة لهدم الكعبة، والمصير المخزي المذل الذي آل إليه حاله وحال جنده، من الهلاك والدمار والموت.

إلا أن أقوال العلماء اختلفت في طبيعة الطير الأباييل التي أرسلها الله على جيش أبرهة فذهب أكثر العلماء إلى أنها طيور حقيقية حتى قال ابن عباس في وصفها "هي طير، وكانت طيرًا لها خراطيم كخراطيم الطير وأكف كأكف الكلاب"^(٣) . وقال قتادة "هي طير بيض خرجت من قبل البحر"^(٤) . وذهب بعضهم: إلى أن هذه الطير قد تكون هي الذباب والبعوض، وأنها كانت تحمل ميكروبات أصابت أبرهة

(١) جامع البيان في تفسير القرآن - الطبري - ١٢م ج ٣٠ ص ١٩٣. البداية والنهاية - ابن كثير - ج ٢ ص ١٦٠-١٦١.

(٢) الدر المنثور في التفسير المأثور - السيوطي - ج ٥ ص ٤٤٢.

(٣) جامع البيان في تفسير القرآن - الطبري - ١٢م ج ٣٠ ص ١٩٣.

(٤) المرجع السابق ١٢م ج ٣٠ ص ١٩٣.

وحيشه بداء الجدري والحصبة.

وممن ذهب إلى ذلك محمد عبده إذ يقول في تفسيره في جزء عم، "وفي اليوم الثاني فشا في جند الجيش داء الجدري والحصبة... وهذا الطاغية الذي أراد أن يهدم البيت، أرسل الله عليه من الطير ما يوصل إليه مادة الجدري أو الحصبة فأهلكته، وأهلكت قومه قبل أن يدخل مكة، وهي نعمة غمر الله بها أهل حرمه -على وثبتهم- حفظاً لبيته حتى يرسل من يحميه بقوة دينه صلى الله عليه وسلم وإن كانت نقمة من الله حلت بأعدائه أصحاب الفيل الذين أرادوا الاعتداء على البيت دون جرم اجترمه ولا ذنب اقترفه. هذا ما يصح الاعتماد عليه في تفسير السورة وما عدا ذلك فهو مما لا يصح قبوله إلا بتأويل، إن صحت روايته"^(١).

ورد على هذا الذي ذهب إليه محمد عبده، سيد قطب فقال "نحن لا نرى أن هذه الصورة التي افترضها الأستاذ محمد عبده -صورة الجدري أو الحصبة من طين ملوث بالجرثيم- أو تلك التي جاءت بها بعض الروايات من أن الحجارة ذاتها كانت تخترق الرؤوس والأجسام وتنفذ منها وتمزق الأجساد فتدعها كفتات ورق الشجر الجاف -وهو العصف- لا نرى أن هذه الصورة أو تلك أدل على قدرة الله ولا أولى بتفسير الحادث كنتلك في نظرنا من حيث إمكان الوقوع ومن حيث الدلالة على قدرة الله وتدبيره، ويستوي عندنا أن تكون السنة المألوفة للناس المعهودة المكشوفة لعلمهم وهي التي جرت فأهلكت قوماً أراد الله إهلاكهم، أو أن تكون سنة الله قد جرت بغير المألوف للبشر وغير المعهود المكشوف لعلمهم فحققت قدره ذلك.

فأما في هذا الحادث بالذات فنحن أميل إلى اعتبار الأمر قد جرى على أساس الخارقة غير المعهودة، وأن الله أرسل طيراً أبابيل غير معهودة تحمل حجارة غير معهودة، تفعل بالأجسام فعلاً غير معهود"^(٢).

وهذا هو الحق، وهو الذي ذهب إليه المفسرون من الصحابة والتابعين ومن

(١) نقلاً عنه في ظلال القرآن -سقطب- ٨م ج ٣٠ ص ٦٦٧

(٢) في ظلال القرآن -سيد قطب- ٨م ج ٣٠ ص ٦٨٨-٦٩٩.

جاء بعدهم ولم يشذ عنهم إلا القليل خاصة في هذا العصر الذي تأثر فيه بعض المفسرين بالمكتشفات الحديثة، وأرادوا التوفيق بين ما جاء به القرآن من خوارق للعادات، وبين هذه المكتشفات، وما هذا إلا تلفيق مقيت لا يصح.

خلاصة الفصل:

إن الإصرار على الكفر والمعاصي وعدم التوبة والإنابة إلى الله عز وجل سبب رئيس في نزول العذاب بالآمة وهلاكها وهو ما لخصه بعض العلماء بقولهم "ما نزل عذاب إلا بذنب ولا رفع إلا بتوبة" هذه هي النتيجة التي نخرج بها من خلال هذا الفصل الذي تحدثنا فيه عن أحوال أمم بادت واندثرت وانحدرت بكفرها ومعاصيها ومخالفتها لنصح أنبيائها.

وهذا الذي حلّ بالأمم الماضية يمكن أن يحلّ بالأمم اللاحقة، لأن الله لا يجابي أحداً فهو ميزان حق لجميع الخلق، فأما أمة تكفر بالله وتكبر على طاعته، وتعالى على اتباع دينه يهلكها الله ويدمرها ويجعل الدائرة تدور عليها، وإذا أمهل الله أمة من الأمم فلم يعذبها فهذا لا يعني أن الله غافل عنها أو أنه تاركها، بل إن هذا استدراج لها وإملاء، لتزداد في طغيانها وانحرافها فإذا حلّ بها عذاب الله كان عقابه أليماً شديداً قال تعالى ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾^(١) "أي سنأخذهم بالعذاب على غفلة ونسوقهم إليه درجة فدرجة حتى نوقعهم فيه من حيث لا يعلمون أن ذلك استدراج، لأنهم يظنونهم إنعاماً ولا يفكرون في عقابته وما سيلقون في نهايته، (وأملي لهم) أي أمهلهم ليزدادوا إثماً (إن كيدي متين) قوي شديد لا يفوته شيء، وسمى سبحانه إحسانه كيذاً كما سماه استدراجاً لكونه في صورة الكيد باعتبار عقابته، ووصفه بالمتانة لقوة أثره في التسبب للهلاك"^(٢).

(١) سورة القلم آية ٤٤.

(٢) فتح القدير - الشوكاني - ٥م ج ٣٠ ص ٣٤١-٣٤٢.

هكذا يستدرج الله الكافرين وعملي لهم ليزدادوا طغياناً وإثمًا، ثم يأخذهم بقوته ويهلكهم بعذابه.

فلستحذر الأمة اليوم من عذاب السله وأخذه، فقد أفسدت وطغت وجاهرت بالمعاصي والذنوب، وهذه ذنوب تستوجب عذاب الله وعقابه إن لم تتب الأمة وترجع عن غيرها وعصيانها.

الفصل الخامس

عوامل الارتقاء والانحدار بين حقائق القرآن ونظريات علم الاجتماع

ويشتمل على مبحثين:

المبحث الأول: نظريات علم الاجتماع وتناولها لعوامل الارتقاء والانحدار

المبحث الثاني: مقارنة هذه النظريات مع عوامل الارتقاء والانحدار في القرآن، مع بيان نتيجة المقارنة، وإبراز وجه الإعجاز الاجتماعي في القرآن.

الفصل الخامس

عوامل الارتقاء والانحدار بين حقائق القرآن ونظريات علم الاجتماع
ويشتمل على مبحثين:

المبحث الأول: نظريات علم الاجتماع وتناولها لعوامل الارتقاء والانحدار:
لقد اخترت من بين نظريات علم الاجتماع التي تتحدث في الارتقاء والانحدار
(تقدم المجتمعات وتأخرها) خمس نظريات لكبار علماء الاجتماع الغربيين وهم:
أوجست كونت، دوركايم، هربرت سبنسر، لستر وورد، كارل ماركس.

أولاً: أوجست كونت:^(١)

تطور المجتمع عند كونت:

يعتبر كونت على رأس أصحاب المدرسة العصرية التي تقول أن المجتمع البشري
كالفرد، يقوم على ما تقوم به الهيئات والأفراد من وظائف. وعلى ذلك فالأسس
المادية للحكومة هي مبادئ توزيع العمل وربط الجهود، وتكون علاقات السيادة
والخضوع، وهذه الأسس تتفق والميزات النفسية للإنسان، وهي الميزات التي تؤدي إلى
أن يحكم بعض الأفراد بينما يطيع البعض الآخر.

ولكن كونت يضيف إلى مبدأ توزيع العمل الذي يعتبر أساس نظام الدولة مبدأ
آخر وهو مبدأ القوة، ويضيف إلى هذين المبدأين ثلاثة مبادئ أخرى هي: التوجيه
الفكري، والعقاب الأخلاقي، ثم الرقابة الاجتماعية، ويجب أن يسود في المجتمع إذن
إلى جانب السلطة السياسية وهي الدولة سلطة (دين الإنسانية)، وبهذا فإن المجتمع
الكامل يشتمل على ثلاثة نظم تدرجية: أولاً الأسرة وأساسها العاطفة والوجدان،
وثانياً: الدولة وأساسها العمل أو الفعل أو التنفيذ، وثالثاً الكنيسة وتقوم على العقل ثم

(١) كونت: فيلسوف فرنسي ولد في مونبليه سنة ١٧٩٨ أسس المذهب الوضعي توفي سنة ١٨٥٧ . المنجد في
الأعلام لإدوار لحد ص ٤٤٤.

على التأليف بين النظم الثلاثة^(١).

"ودين الإنسانية الذي ينادي به كونت، هو دين يجعل "الإنسانية" هي الجهة المقصودة بكل الأعمال الدينية التي رأى أنها تجمع بين الفضيلة والتأملات الفكرية والتوجهات النفسية العاطفية، لتكون فكرة "الإنسانية" بدل الرب الخالق.

وحين بدأ له أن يخترع هذا الدين رأى أن توجه العبادة بالفكر والعاطفة والعمل لمحبة الإنسانية وخيرها وتقدمها الارتقائي"^(٢).

التطور التاريخي للنظم الاجتماعية:

"يقول كونت إن التطور الاجتماعي ما هو إلا نتيجة لوظائف المخ الثلاث: الوجدان والعمل والتفكير أو الإدراك.

ويعبر كونت عن هذه المراحل الثلاث بقوله "إن الوجدان يمر بثلاث مراحل: مرحلة التعلق وهي التي تسود العصر الوثني بنظامه العائلي، ومرحلة الإجلال، وهي التي تسود عصر تعدد الآلهة الذي ينشأ فيه نظام الدولة، وأخيراً مرحلة حب الخير وهي التي تسود عصر التوحيد أو القول بإله واحد.

وأما العمل فيمر بثلاث مراحل وهي مرحلة الغزو، ومرحلة الدفاع ومرحلة الصناعة وأخيراً التفكير أو الإدراك يمر بالمراحل الثلاث التي اشتهر بها كونت وهي المرحلة الدينية التي كان العقل البشري يعلل الظواهر فيها بإرجاعها لمظاهر دينية، أو لقوى خفية كالأرواح والشياطين، والمرحلة الميتافيزيقية التي كان يرجع الظواهر فيها إلى مفهومات مجردة لا معنى لها كصفة المائية والنارية، وأخيراً المرحلة الوضعية العلمية وهي التي يعلل الظواهر فيها بإرجاعها إلى قوانين مستنبطة من المشاهدة والتجربة والمنهج التاريخي والمنهج المقارن.

إذن مرت الإنسانية فيما يرى كونت بمراحل ثلاث قائمة على هذا التقسيم الثلاثي لقوى المخ، وهو يبدأ كما ذكرنا بالمرحلة اللاهوتية التي تنقسم بدورها إلى

(١) تاريخ الفكر الاجتماعي والمدارس الاجتماعية - د. حسن سعفان - ص ٢٠٣.

(٢) كواشف وزيوف في المذاهب الفكرية المعاصرة. د. عبد الرحمن الميداني ص ٤١٥.

ثلاث مراحل: المرحلة الوثنية، ومرحلة تعدد الآلهة، ثم مرحلة التوحيد. ثم المرحلة الميتافيزيقية التي تمتد من سنة ١٣٠٠ إلى سنة ١٨٠٠ ميلادية وأخيراً تبدأ المرحلة الوضعية منذ سنة ١٨٠٠ إلى ما لا نهاية وهي أعظم المراحل^(١).

بناء على هذه المراحل يتبين أن كونت كان ينظر إلى المرحلة التي كان يرجع الناس فيها إلى الدين، وإلى الآلهة ثم إلى إله واحد أن هذه المرحلة مرحلة عقيمة لا قيمة لها، وإنما كانت عبارة عن طفولة النوع الإنساني، وهذا يدل على مدى معاداته ومحاربه للأديان حتى في مرحلة التوحيد التي يعبد فيها إله واحد، وهذا الذي دفعه لأن يخترع دين الإنسانية الذي تحدثنا عنه سابقاً، والتي تُعبد فيه الإنسانية من دون الله وإن كونت كان يقدم المرحلة الوضعية على غيرها من المراحل السابقة ويعتبرها أنفع وأسمى المراحل التي تستخدم لاكتساب المعارف الإنسانية.

نوعا الاجتماع: الحالة الاستقرارية والحالة التطورية:

"يقسم كونت علم الاجتماع في دراساته إلى قسمين بحسب ما إذا كان يبحث في قوانين الحالة الاستقرارية للمجتمع وهذا القسم يسمى الاستقرار الاجتماعي، أو في قوانين الحالة التطورية للمجتمع، وهذا القسم يسمى التطور الاجتماعي.

والحالة الاستقرارية -الاستقرار الاجتماعي- هو دراسة الأجزاء المختلفة للمجتمع ومدى أثر هذه الأجزاء على الأجزاء الأخرى وتأثيرها بها، وما يؤدي إليه ذلك من عمليات اجتماعية تقوم خصوصاً على التعاون بين الأفراد وتوزيع العمل بينهم، كما يدرس الانسجام أو التأليف المنسجم بين أجزاء المجتمع ونظمه.

أما دراسة الحالة التطورية -التطور الاجتماعي- فإنها تستهدف دراسة عوامل "التقدم في المجتمع" إذ يبحث في تغير النظم الاجتماعية من عصر لآخر ومن مجتمع لآخر والعوامل المؤثرة في هذا المجال.

(١) تاريخ الفكر الاجتماعي والمدارس الاجتماعية - د. حسن سفيان - ص ٢٠٤-٢٠٥.

وهو يدرس في هذا النوع من قانونه الثلاثي عن تطور التاريخ البشري ومروره بمراحل ثلاث كما سبق أن بينا وما ينطوي عليه هذا التطور من عوامل نفسية واجتماعية ثم سكانية^(١).

وبهذا التقسيم لحالات الاجتماع يظهر جلياً أن كونت جعل المادة هي أساس التقدم الاجتماعي من خلال ربط التقدم بالتعاون بين الأفراد وتوزيع العمل بينهم، ومدى الانسجام بين أجزاء المجتمع ونظمه.

ثم من خلال جعل قانونه الثلاثي عن تطور التاريخ البشري ومروره بمراحل ثلاث وهي التي تحدثنا عنها سابقاً، من خلال جعلها سبب التقدم، والتي تنتهي حسب نظريته بالمرحلة الوضعية العلمية التي يعتبرها أعظم المراحل وأفضلها، وهي مرحلة مادية لا علاقة لها بالدين. وهذا التفسير المادي بعيد كثيراً عن الجانب الروحي، الذي يربط تطور المجتمع بإرادة الله وقدرته وأثر هذه القدرة والقوة على ارتقاء المجتمع وانحداره، ثم أثر الارتباط بالله والإيمان به وتقواه في تطور المجتمع وتقدمه.

نظرة كونت للأخلاق:

يرى كونت أن الأخلاق هي نتاج المجتمع الذي يضعها هو، على الوجه الذي يراه مناسباً له، وليست نابعة من إيمانه بالله واتباعه لشرعه، يقول كونت "فالمجتمع الحديث لم ينشئ بعد نظاماً أخلاقياً سليماً، فالعلاقات الصناعية التي تطورت تطوراً ضخماً لا زالت متروكة لتسير على أسس ارتجالية، وذلك بدلا من تنظيمها على أسس أخلاقية مدروسة فالحرب بين العمال، ورأس المال وأصحاب العمل، وبين الدولة، السفارة والمستترة هي الآن السبيل الوحيد لتنظيم العلاقات بين العمال ورأس المال" ويضيف "يجب إذن والحال هذه أن ننشئ أخلاقاً جديدة نشرها بين الأفراد..."^(٢).

وهكذا يرى أن الأخلاق هي نتاج المجتمع وهي من وضع البشر وليست من عند الله سبحانه، وهذا يقتضي أنها أخلاق وقوانين بشرية قاصرة جائرة مفسدة، نفهم

(١) تاريخ الفكر الاجتماعي والمدارس الاجتماعية - د. حسن سعفان - ص ٢٠٨.

(٢) المرجع السابق ص ٢١٠.

ذلك من قوله "المجتمع الحديث لم ينشئ".

فالأفراد داخل المجتمع هم الذين ينشئون الأخلاق، وليست أخلاقاً سماوية ثابتة.

ثانياً: دور كايم: (١)

نظرية دور كايم في التطور والتضامن الاجتماعي:

بحث دور كايم في طبيعة التطور الاجتماعي والعوامل المؤدية إليه، ويتفق دور كايم مع أصحاب المذهب النفعي في أن تطور المجتمعات من بدائية إلى متحضرة يتبعه زيادة أكثر في توزيع العمل وفي تخصص الأفراد، ففي المجتمعات البدائية نجد أن تقسيم العمل أو توزيعه بدائي، فالأفراد يقومون تقريباً بنفس الأعمال وهم إنما يتشابهون في أعمالهم، كما هم متشابهون من حيث هم أناس يخضعون لعوامل واحدة في حياتهم الجمعية، هذا التشابه يؤدي إلى سيادة نوع من التضامن يسميه دور كايم بالتضامن الميكانيكي أو الآلي الذي يقوم على محض تشابه الأفراد وعلى ما تسودهم من عادات وتقاليد يخضعون لها خضوعاً آلياً خوفاً من العقاب، فالتشريعات الجنائية الأولى كانت تستهدف حفظ نوع من التوازن الخلفي في المجتمع وذلك بعقاب الخارج على ما يرسمه العقل الجمعي من قواعد.

أما في المجتمعات المتحضرة أو التي تطورت فإننا نجد أن الأفراد يتخصصون، فكل فئة تشتغل في حرفة معينة ومن هنا تظهر ظاهرة توزيع العمل، وهذا التوزيع يبدو لأول وهلة وكأنه يفصل الأفراد الواحد عن الآخر، ولكنه في الواقع يؤدي بهم إلى زيادة التضامن فيما بينهم لأن كل فرد سيعمل عملاً واحداً يتخصص فيه ويعتمد في بقية مطالب معيشته على الآخرين، ومن هنا يزيد التماسك الاجتماعي بين الأفراد واعتمادهم على بعض، وبالتالي ينشأ نوع من التضامن الاجتماعي يسمى "التضامن العضوي" لأن كل فرد أو فئة من الأفراد سيكون بمثابة عضو في جسم اجتماعي كبير

(١) دور كايم: عالم اجتماعي فرنسي ولد سنة ١٨٥٨ توفي سنة ١٩١٧. المنجد في الأعلام لإدوار الحود

يعتمد على الأعضاء الأخرى في حياته ويعتمد عليه الآخرون أيضاً في حياتهم.
وفي مثل هذه المجتمعات نجد ظهور الفردية الإنسانية وتكاملها، ولكنها ليست
فردية أنانية أو شهوية، لأن مثل هذه الفردية لا تؤدي بحال ما إلى التماسك
الاجتماعي"^(١)

"هكذا يرى دور كايم أن تنوعات الحجم والكثافة في المجتمع تنتهي بنا إلى
تغيرات واضحة في التركيب الاجتماعي، فزيادة حجم جماعة اجتماعية زيادة عددية
تؤدي إلى كثافة التبادل التجاري أو التنافس بحيث تقوم العلاقات على أساس مبدأ
تقسيم العمل والتخصص، وهكذا يتقدم المجتمع بتطور تقسيم العمل فيه واتساع نطاقه
حيث تتباين الوظائف الاجتماعية وتتعدد العلاقات الوظيفية فيه"^(٢).

أما عن التطور الاجتماعي الذي يرجع إلى كثافة السكان العديدة والأخلاقية،
فزيادة السكان تزيد من التنافس بين الأفراد، ومن ثم يلزم الأفراد بالتخصص لكي
يعيشوا"^(٣).

ويذكر دور كايم أن هناك ضابطاً تلقائياً في مجتمع الاتحاد الميكانيكي - المجتمع
البدائي الميكانيكي الآلي - يطرح على الأفراد ضرورة التماثل في بناء الشخصية ليحدد
التماثل والوحدة في بناء النسق البدائي، لكن الأمر يختلف في مجتمع تقسيم العمل - أي
المجتمع المتحضر - إذ إنها مختلفة وذات شخصيات متباينة لأنها مرتبطة أساساً بأدوار
مهنية مختلفة، ويذكر وفقاً لهذا أن في البناء الجديد الذي يسوده تقسيم العمل يكون
على العقل الجمعي مسؤولية ابتكار الوسيلة التي تكون وظيفتها الأساسية جمع هذه
الوظائف في كل واحد"^(٤).

(١) تاريخ الفكر الاجتماعي والمدارس الاجتماعية - د. حسن سغفان ص ٢٥٦.

(٢) التغير الاجتماعي مدخل النظرية الوظيفية لتحليل لتغيير - فادية الجولاني - ص ١٦٢.

(٣) تاريخ الفكر الاجتماعي والمدارس الاجتماعية - د. حسن سغفان - ص ٢٥٧.

(٤) التغير الاجتماعي مدخل النظرية الوظيفية لتحليل لتغيير - فادية الجولاني ص ١٦٤.

نظرية دور كايم في الدين:

يذهب دوركايم في كتابه عن "الأشكال الأولية للحياة الدينية" إلى أن الدين "شيء اجتماعي"، وأن الظواهر أو الوقائع الدينية ظواهر اجتماعية وهذا يتضمن مبدأين رئيسيين، الأول: أن الأفكار الدينية والطقوس المتعلقة بها ليست إلا رمزاً للعقل الجمعي والمجتمع، والثاني: أن المجتمع هو المصدر الوحيد للتجربة الدينية، إذ هو الذي يجعلنا

نفرق تفرقة تامة بين الحسي والروحي.

ويرى دوركايم أن الإله والعشيرة التي تعبده ليسا في الحقيقة إلا شيئاً واحداً بعينه، وأن الله في الواقع ليس إلا رمزاً يعبر عن المجتمع. وهو بالتالي يرى أن المجتمع هو مصدر الأفكار الدينية جميعاً.

ويجعل دوركايم العقل الجمعي هو المبدع والأمر والناهي للأفراد، إذ هو مصدر الوقائع الاجتماعية، فالعقل الجمعي هو أساس المثاليات الأخلاقية والقيم والدين بل والمعرفة والتطور الاجتماعي، وذلك أن فرداً ما من الأفراد لا يستطيع أن يغير من نظم الجماعة مهما أوتي من حول وقوة ما لم يكن في ذلك معبراً عن رأي العقل الجمعي، وإلا فشل في دعواه، فالعقل الجمعي لا العقل الفردي هو أساس التطور وهو الذي يضع المعايير الأخلاقية والمقاييس الجماعية في المجتمع^(١).

من خلال عرض نظرية دوركايم للبناء الاجتماعي والتطور يبرز الجانب المادي فيما عرضه من أسباب لهذا التطور، إذ يكون المجتمع في أول نشأته بدائي، والتضامن فيه ميكانيكي عفوي حسب العادات والتقاليد التي تحكم المجتمع، ثم عندما يتطور المجتمع ويتحضر تنتقل الروابط والتضامن إلى عضوي وذلك من خلال التخصص في الأعمال والحرف، فتختار كل فئة حرفة لها، وبهذا يتوزع العمل، ويتساعد أفراد المجتمع فيما بينهم من خلال هذا التنوع والتخصص في الحرف، إذ تحتاج كل فئة منهم

(١) تاريخ الفكر الاجتماعي والمدارس الاجتماعية - د. حسن سغفان ص ٢٦١.

إلى الفئة الأخرى من أصحاب الحرف المختلفة، وبهذا يصبح المجتمع كالجسد الذي تتعاون أعضاؤه في تأدية ما يحتاجه هذا الجسد ولهذا سمي تضامناً عضوياً، وبهذا جعل دور كاييم الروابط التي تربط المجتمع والتي تؤدي إلى تطوره مادية بحتة حسب الحاجة إلى الآخرين في الأمور المعيشية الدنيوية وبحسب تخصصاتهم المتنوعة، وذلك بعيداً عن أي روابط دينية عقائدية توحد بينهم وتجمع كلمتهم.

خاصة أن دور كاييم كما هو واضح من رأيه في الدين لا يؤمن بوجود إله خالق عظيم يدبر شئون الكون وإنما الإله في فهمه انعكاس للمجتمع، فالمجتمع ومن خلال العقل الجمعي هو الذي يوجد الإله الذي يشاء.

فالعقل الجمعي كما هو عند دور كاييم "شيء موجود خارج عقول الأفراد وهو ليس مجموع عقولهم، ولا يشترط أن يكون موافقاً لعقل أحد منهم ولا لمزاجه الخاص، وهو يؤثر في عقول جميع الأفراد من خارج كيانهم وهم لا يملكون إلا أن يطيعوه، ولو على غير إرادة منهم، والعقل الجمعي دائم التغير يحل اليوم ما كان قد حرّمه بالأمس، أو يحرم ما كان قد أحله، دون ضابط ولا منطق معقول". وبهذا فإنه لا يمكن بمقتضى سلطان "العقل الجمعي" المتغير تصور ثبات شيء من القيم إطلاقاً، فلا الدين ولا الأخلاق ولا سائر القيم لها ثبات، بل متغيرات، بسلطان العقل الجمعي الذي لا سلطان للمجتمع البشري عليه ولا حول لهم ولا قوة معه"^(١).

ويرى دور كاييم في الأخلاق ما يراه في الدين من أن مصدر الأخلاق هو العقل الجمعي كذلك لأن فرداً أو أفراداً لا يستطيعون أن يغيروا نظم الجماعة مهما أوتي هؤلاء من فهم وعلم.

وعلى هذا يجعل للعقل الجمعي -الذي هو مجرد تخيل خرافي مجرد من أي دليل عقلي أو علمي- السيطرة التامة على الدين والأخلاق، دون أن يعترف بالله سبحانه وتعالى وما جاء من عنده من أديان ورسول يدعون إلى الفضائل ويحاربون الرذائل والمحرمات. وكل هذا الذي يراه إنما يريد منه خدمة اليهود الذين يعملون على طمس

(١) كواشف وزبوف في المذاهب الفكرية المعاصرة - د. عبد الرحمن الميداني - ص ٣٣٧.

الدين والأخلاق والقيم في نفوس الناس.

ثالثاً: هيربرت سبنسر^(١).

يرى سبنسر أن التطور أمر تحتمه ظروف المجتمعات نفسها بحيث يكون التطور هو المميز للمجتمعات بعضها عن البعض الآخر، كما أن الكائن الحي يتغير في تركيبه تبعاً لتغير الظروف الطبيعية والبيئية، كذلك أيضاً يكون تغير شكل المجتمع، وكما أن الفرد في شأنه وتكوينه يبدأ في صورة بسيطة ومتبعة ثم يكبر حجمه عن طريق التكاثر فكذلك يكون المجتمع أيضاً، إذ بدأ بسيطاً صغيراً ويزداد حجمه عن طريق اندماج بعض مكوناته بعضها مع البعض الآخر.

ويعتمد سبنسر في تفسيره لظاهرة التغير الاجتماعي على عوامل كثيرة بعضها داخلية تتعلق بالتكوين العقلي لأفراد المجتمع وبعضها خارجية وهي تمثل في نظره أثر البيئة، وأياً كان التغير الذي يوجه إلى هذه العوامل، فإنه فطن إلى أن التغير لا يحدث تلقائياً بل لا بد من عوامل تؤدي إليه وتدفع لحدوثه في المجتمعات، ويؤخذ على سبنسر أن قضيته التي ذهب إليها مذهباً عمومياً حيث ذهب إلى أن التطور يسير دائماً من البسيط إلى المركب أي إلى التعقيد أمر لا يتفق في كثير من الحالات مع واقع الحياة الاجتماعية^(٢).

"وقد عرض سبنسر قوانينه في التطور حيث ذكر ثلاثة مبادئ رئيسية:

المبدأ الأول: أن ثمة قوة موجودة باستمرار بلا فناء. المبدأ الثاني: هو أن المادة لا تفتنى.

المبدأ الثالث: أن الحركة تستمر إذا لم يعقها عائق.

وإلى جانب هذه المبادئ الثلاثة ثمة أربعة ثانوية، وأولها أن العلاقة بين

قوتين تظل ثابتة، وهذه العلاقة هي ما يسميها القانون، وهو ثابت لا يتغير، والثاني:

(١) هيربرت سبنسر انجليزي من المدرسة الاختيارية ولد سنة ١٨٢٠م تأثر بمذهب التطور توفي سنة ١٩٠٣ .

المنجد في الأعلام. - ادوار لحدود - ص ٢٦٢.

(٢) التغير الاجتماعي مدخل النظرية الوظيفية لتحليل التغير - فادية الجولاني - ص ١٥٧-١٥٨.

أن القوة لا تفنى ولكنها تتغير أو تتحول، الثالث: أن كل شيء يتبع في حركته الجهة التي تكون المقاومة فيها أقل، والتي تكون قوة الجذب فيها أكبر، الرابع: هو انسجام الحركة، يضاف إلى هذه العوامل قانون عام يربطها جميعاً وهو قانون التطور.

فالتطور في العالم المادي يؤدي إلى تكامل المادة وتلاشي الحركة، كما يؤدي بالمادة من تجانس أجزاء غير متناسقة إلى حالة غير متجانسة لأجزاء متناسقة، ثم يطبق سينسر هذه المبادئ على المجتمعات، فالمجتمعات عبارة عن أجسام حية.

ونجد بين المجتمع والوسط الذي يعيش فيه نوعاً من تعادل القوى كذلك الذي يوجد بين الأجسام المادية، وهناك توازن بين المجتمع وغيره من المجتمعات الأخرى وبين طبقة اجتماعية وطبقة أخرى في داخل المجتمع.

وهذا التوازن بين المجتمعات أو بين مجتمع والوسط الذي يعيش فيه أو بين الأفراد يتخذ صورة نضال من أجل المعيشة، وبذلك يصبح الصراع النشاط العادي للمجتمع، وفي هذا الصراع ينتشر الخوف من الأحياء ومن الأموات على السواء، والخوف من الأحياء يؤدي إلى نشأة النظام السياسي في المجتمع.

أما الخوف من الأموات فإنه يؤدي إلى ظهور النظم والعادات الدينية، ويؤدي ذلك إلى تنظيم المجتمع على أسس دينية سياسية، وبذلك يتطور الصراع ليتخذ الشكل العسكري.

والنظام العسكري يشكل العادات والتقاليد والأخلاق والنظم الاجتماعية بحيث يجعل المجتمع مستعداً للحروب، ويؤدي الشكل العسكري إلى أن يتلع المجتمع المجتمعات الصغيرة التي تناحمة كما يؤدي إلى تكامل النظم الاجتماعية.

هذه العملية تؤدي إلى توسيع رقعة المجتمع وضم عدد كبير من الأفراد كما تؤدي إلى حالة السلم وسيادة الصناعات والحرف في المجتمع، وتؤدي حالة السلم والصناعات هذه إلى صب أخلاق الأفراد في قوالب وأنماط من شأنها أن تجعل العلاقات بين الأفراد على أسس من الصداقة والمشاركة الوجدانية، وبذلك ينتقل

المجتمع إلى حالة يقل فيها الضغط الاجتماعي على الفرد الذي تظهر شخصيته وأصالته في ازدياد مستمر^(١).

من خلال النظر فيما ذكره سبنسر من عوامل تقدم المجتمعات نلمس أن تغير المجتمعات واقع تحت تأثير الطبيعة والبيئة فهما اللتان تؤثران في تغير المجتمع وتقدمه من خلال الاندماج أي اندماج بعض مكونات المجتمع في بعضها، وهو يغفل هنا القوة الإلهية والقدرة الربانية التي تسيطر على الكون وتتحكم فيه، وهو يصور الطبيعة على أن لها إرادة فاعلة وقدرة مؤثرة في هذا الكون، وهذا انحراف وضلال.

كما يعتمد سبنسر في تفسيره للتغير الاجتماعي على عوامل داخلية تتعلق بالتكوين العقلي لأفراد المجتمع، وهو بهذا يجعل العقل هو ميزان وعامل رئيسي في التقدم الاجتماعي، وكذلك عوامل خارجية تمثل البيئة وهو في كل هذا يغفل القوة والإرادة الإلهية وما يحققه الإيمان بالله وتقواه من أثر في تقدم المجتمعات.

وقد ذكر سبنسر خلال عرضه لقوانين التطور أن هناك قوة موجودة باستمرار بلا فناء، وهي علة ما هو موجود في الكون ولكنه لم يتحدث عن أثر هذه القوة بشكل واضح مفصل، أو دور هذه القوة في تقدم المجتمع، كما لم يبين أثر هذه القوة في الجانب الديني أو الأخلاقي فكأنها قوة بلا أثر في تطور أو دين أو خلق.

ولكن قد يقال إن سبنسر ذكر أن هذه القوة هي علة ما نجده من ظواهر في الكون، نعم ذكر ذلك لكن لم يبين ما هي هذه الظواهر الكونية وإن كان لها أثر في التقدم الاجتماعي أم ليس لها أثر في ذلك، فظواهر الكون كثيرة وهي في أكثرها لا أثر لها في التقدم الاجتماعي، أو إن كان هناك دين وأخلاق تأمر بهما هذه القوة وتوجه إليهما وهذا يبين أنها قوة غامضة بل ليس لها أثر روحي على الخلق.

والذي يؤكد أنه لا أثر لهذه القوة التي ذكرها سبنسر في الدين والأخلاق ذكره بعد ذلك أن سبب ظهور النظم والعادات الدينية هو الخوف من الأموات الناشئ عن الصراع في المجتمع، وأن سبب ظهور العادات والتقاليد والأخلاق إنما هو

(١) تاريخ الفكر الاجتماعي والمدارس الاجتماعية-د. حسن سعفان- ص ٢٨٩-٢٩٠.

النظام العسكري الذي يشكل هذه الأمور.

ومن عوامل التقدم والتطور في المجتمعات عند سينسر هيمنة المجتمعات الكبرى على المجتمعات الصغيرة وابتلاعها لها، ودمجها بداخلها كما أشرنا إلى ذلك سابقاً.

وبهذا يجعل سينسر مجموعة العوامل المادية كالطبيعة والتكوين العقلي للأفراد ثم الصراع بين المجتمعات، وابتلاع المجتمعات الكبيرة للمجتمعات الصغيرة، كل هذه العوامل سبب في تقدم المجتمع وتطوره وانتقاله من حالة إلى أخرى، كانتقاله من الحالة العسكرية إلى الحالة الاقتصادية ثم الخلقية. في حين يجعل الجانب الديني نتاج الخوف من الأموات، والجانب الأخلاقي نتاج التقدم الصناعي وانتشار حالة السلم في المجتمع، وهو بهذا يريد أن يبين أن الأخلاق التي يريدها، إنما هي الأخلاق التي يختارها المجتمع لنفسه، والتي تتفق مع طبيعة تكوينه ووجوده وليست الأخلاق التي يأمر الله بها أو التي جاءت عن طريق رسل الله وتشريعاته، فهو إذن يرى أن المجتمع يتطور من الحالة العسكرية إلى الحالة الصناعية ثم أخيراً إلى حالة التقدم الخلقى الذي يتناسب وحالة المجتمع الغربي الصناعي السائد اليوم في دول الغرب الصناعي.

رابعاً: لستروورد: (١)

يعتبر لستروورد من عمداء المدرسة الآلية لعلم الاجتماع، وهي التي تفسر الظواهر والعلاقات الاجتماعية تفسيرات آلية ميكانيكية على غرار الظواهر المادية وهو يرى أن نشأة المجتمع وتطوره يخضعان لعوامل أو قوى ميكانيكية وعضوية تتضافر مع بعضها، وتنتج لنا شكلاً اجتماعياً معيناً، وهذا الاتحاد بين القوى الميكانيكية العضوية يسميه (اتحاد القوى) ينتج شكلاً لا يحتوي على مجرد العناصر التي تتألف منها القوى كالتفاعل الكيماوي الذي ينتج مركباً يختلف تمام الاختلاف عن مجرد العناصر الداخلة في تركيبه.

(١) لم أجد ترجمة له.

أما النظرة الثانية التي يؤسس عليها وورد نظريته في علم الاجتماع النظري فهي قانون توفير الجهود الذي يكون أساس الميكانيكا الاجتماعية، ويتلخص هذا القانون في أن قوى الطبيعة تتبع في تطورها الجهة التي تكون فيها المقاومة أقل. ويدرس علم الاجتماع المجتمع في حالتيه الاستقرارية والتطورية على نحو ما قال به كونت تقريباً، والقوى التي تؤثر في نشأة الحياة الاجتماعية وتطورها على نوعين:

قوى فيزيقية مادية وقوى روحية أخلاقية، أما الفيزيقيه فتتقسم إلى قوى تستهدف المحافظة على الكائن الحي وصيانه وقوى تستهدف حفظ النوع وهي القوى الإنجابية. أما الثانية فهي قوى اجتماعية أخلاقية والتيارات الأخلاقية والجمالية والدينية التي تسود المجتمع^(١).

إن لستروورد يركز في تطور المجتمع على الجانب المادي بشكل كبير كما هو واضح إذ يجعل تطور المجتمع يخضع للعوامل الميكانيكية العضوية، والتي تنتج شكلاً جديداً للمجتمع يختلف عن المجتمع الذي سبقه من خلال زيادة عناصر جديدة فيه. أما تأثره بما جاء به كونت في حالتي الاستقرار والتطور، فإن كونت كما مرَّ سابقاً جعل المرحلة الوضعية العلمية هي المرحلة الأفضل من بين المراحل الثلاث التي ذكرها وجعل أولها المرحلة الدينية التي لم يقدّم لها وزناً فهي مرحلة طفولة الإنسانية وضعفها. التيارات الأخلاقية الدينية التي يقول بما وورد كعامل من عوامل تقدم المجتمع، إنما هي تيارات أخلاقية تابعة من المجتمع ذاته ومن تفكير أفرادها وليست أخلاق أو ديانة مترلة من عند الله سبحانه بحيث يتبع فيها الدين القويم والصراط المستقيم الذي جاء به رسل الله المكرمين.

(١) تاريخ الفكر الاجتماعي والمدارس الاجتماعية-د. حسن سغفان-ص ٣٢٧.

خامساً: كارل ماركس^(١):

إن العامل الاقتصادي عند ماركس هو المحدد الأساسي لبناء المجتمع وتطوره، وإنه يتكون أساساً من الوسائل التكنولوجية للإنتاج، وهذه تحدد بدورها ما أسماه ماركس بالتنظيم الاجتماعي. أي العلاقات التي ينبغي على الناس أن يدخلوا فيها لإنتاج السلع بطريقة أكثر كفاءة وهكذا تنتمي مسلمات ماركس للحتمية الاقتصادية^(٢).

ويقول ماركس إن في المجتمع نوعين من البناء، البناء أو الأساس الأسفل وهو يتكون من العوامل الاقتصادية والمادية، ثم البناء أو الأساس الأعلى وهو الأفكار والمبادئ وأي تغيير في البناء الأسفل يتبعه تغيير في البناء الأعلى. ويضيف ماركس إلى ذلك أن ثمة تفاعلاً أو تأثيراً متبادلاً بين كلا الأساسين أو البنائين العلوي والسفلي.

إذن هناك تأثير مشترك بين العوامل الفكرية والعوامل المادية في المجتمع^(٣). ونظرية ماركس مادية بحتة إذ إنه لا يؤمن بالله ولا بالأديان، وله قولة مشهورة "الدين أفيون الشعوب".

وقد فسر ماركس التاريخ تفسيراً مادياً، وبناءً على ذلك يجعل الاقتصاد هو أساس التقدم في المجتمع، "وقسم الحياة البشرية بمقتضى هذا التصور إلى خمس مراحل حتمية: هي الشيوعية الأولى، والرق، والإقطاع، والرأسمالية، والشيوعية الثانية والأخيرة.

وجعل الانتقال من كل طور من هذه الأطوار إلى الطور اللاحق له حتمياً من جهة ومردوداً إلى أسباب مادية اقتصادية من جهة أخرى.

(١) ماركس ولد سنة ١٨١٧ في تريف بألمانيا وهو من رجال السياسة والفلسفة والاجتماعية. توفي سنة ١٨٨٣. المنجد في الأعلام ص ٤٦٧.

(٢) التغيير الاجتماعي مدخل النظرية الوظيفية لتحليل التغيير - د. فادية الجولاني - ص ١٢٨.

(٣) تاريخ الفكر الاجتماعي - والمدارس الاجتماعية - د. حسن سعفان - ص ٣٥٦.

فالشيوعية الأولى هي الأصل الذي عاشت عليه البشرية الأولى في بداوتها وجوهرها المميز هو عدم وجود ملكية فردية لشيء على الإطلاق، ثم اكتشف الإنسان الزراعة فأدى هذا الأمر المادي البحت إلى الانتقال إلى طور اقتصادي جديد تبدل فيه كل شيء تبديلاً كاملاً، فراحت القبائل القوية تقاتل القبائل الضعيفة وتسترقيها وتشغلها في فلاحه الأرض فنشأ الرق ونشأت الملكية الفردية.

ثم اخترع الإنسان المحراث مما أدى إلى طور اقتصادي جديد فنشأ الإقطاع، ونشأت معه أفكار وعقائد جديدة، ومن سمات هذه المرحلة التدين وترابط الأسرة وسيطرة الرجل على الأسرة بكل أعضائها.

ثم اخترع الإنسان الآلة فنشأت الرأسمالية - بسبب مادي بحت - وانتقلت صورة الملكية الفردية من ملكية زراعية إقطاعية إلى ملكية صناعية رأسمالية، ونشأت أوضاع فكرية واجتماعية واقتصادية جديدة.

وفي هذا المجتمع يقل التدين إلى أقصى حد، لأن الناس ليسو في حاجة إلى التوكل على الله أو الاعتماد على قوة غيبية كما يزعم.

ثم نشأ الصراع بين العمال وأصحاب رؤوس الأموال فنشأت الشيوعية لا لأسباب مادية في هذه المرة إنما لأسباب اقتصادية، وهي صنو الأسباب المادية في نقل الناس من طور إلى طور، لكن في هذه المرحلة لا يحدث طور ينقل الناس إلى طور جديد بعد الشيوعية إذ الشيوعية هي المستقر الأخير للبشرية كما كانت بدايتها هي الشيوعية^(١).

وبهذا يفسر ماركس التطور والتقدم في المجتمع والتاريخ تفسيراً مادياً بحتاً بعيداً عن الدين والأخلاق، بل إنه يُعدُّ من المحاربيين للأديان والأخلاق، الذين يعتبرون الدين مخدراً للشعوب، جاء في البيان الشيوعي الذي أصدره ماركس ورفيقه إنجلز "إن القوانين والقواعد الأخلاقية والأديان أو هام برجوازية تتستر خلفها مصالح

(١) مذاهب فكرية معاصرة - محمد قطب - ص ١٠٢.

بورجوازية"^(١). فيصف الدين والأخلاق بأنهما ستار لأصحاب رؤوس الأموال يبتزون من خلالها أموال الناس ويأكلونها ظلماً وعدواناً، هذا هو مفهوم الدين والأخلاق عند ماركس ومن ساروا على دربه.

المبحث الثاني: مقارنة نظريات علم الاجتماع مع عوامل الارتقاء والانحدار في القرآن:

إن من خلال الاستعراض السابق لنظريات ثلة من كبار علماء الاجتماع الغربيين، بل من المؤسسين الأولين لهذا العلم، نعلم يقيناً أن هؤلاء العلماء قد بنوا نظرياتهم في ارتقاء المجتمعات وانحدارها على أسس مادية بحتة، فالمادية هي المقوم الأساسي لتقدم المجتمعات وتأخرها، وإن كان اختار كل واحد منهم جزءاً من العوامل المادية بنى عليه نظريته، مع تأثر بعضهم ببعض في جانب من الجوانب كما سبق أن ذكرنا ذلك.

أما الجانب الديني والأخلاقي فإنه كان باهتاً جداً في نظرياتهم، وإن كان قد ذكره بعضهم إلا أنه كان يريد به مفهوماً خاصاً، يختلف عن المفهوم الذي يفهمه المسلم من دينه وأخلاقه، لأنهم يرون أن الدين والأخلاق من وضع البشر ومن اختيار المجتمعات التي لها حرية اختيار دياناتها، والأخلاق التي تتناسب معها، والتي تتفق مع أهوائها.

وإذا ما أردنا أن نعقد مقارنة بين ما جاء به القرآن من عوامل الارتقاء والانحدار، وما ذكره علماء الاجتماع في هذا الجانب لوجدنا أن الفارق كبير جداً. فالقرآن الكريم عرض من عوامل الارتقاء المادية، مثل الذي ذكره علماء الاجتماع، وهذا فيما لا يتعارض مع القرآن. كما أنه زاد عليهم أشياء لم يذكرها، ومن الأمور التي ذكرها علماء الاجتماع، وجاء ذكرها في القرآن قبل ما يقرب من

(١) كشوف وزيوف في المذاهب الفكرية المعاصرة-د. عبد الرحمن الميداني-ص ٢٠٠.

١٣٠٠ عام (ثلاث مائة عام وألف) من ذكرهم لها كعوامل للارتقاء ما يلي:

١. العلم الديني والدنيوي: فقد أمر الإسلام بالعلم وحض عليه، وقد فصلنا القول في هذا الباب في موضعه^(١)، وذكر علماء الاجتماع العلم تحت مسمى العقل والإدراك، والمرحلة العلمية كمرحلة متطورة من المراحل التي تمر بها المجتمعات كما عند كونت ودوركايم وسبنسر ووورد.

٢. توزيع العمل: أي توزيع الأعمال على أبناء المجتمع في تخصصات متعددة بحيث يساعد كل فرد الآخرين في أعمالهم، ويؤدي هذا إلى تحقيق التكامل في الأعمال والوظائف داخل المجتمع. وقد أمر الإسلام بهذا الجانب، فأمر بالعمل والسعي في مناكب الأرض وعمارتها، والتعاون في تأدية ذلك والقيام به، وقد سبق الحديث عن هذا الباب في البحث السابع من الفصل الأول^(٢). وذكر علماء الاجتماع هذا الجانب كعامل من عوامل تقدم المجتمعات كما رأينا عند كونت ودوركايم.

٣. القوة المادية والعسكرية: من القضايا التي ذكرها القرآن كعامل من عوامل تقدم المجتمع الجهاد، والإعداد المادي العسكري، وقد فصلت القول فيه في مبحث الجهاد^(٣). وهذا من العوامل التي ذكرها بعض علماء الاجتماع كسبب من أسباب تقدم المجتمع كما بينا عند سبنسر.

٤. الجانب الاقتصادي: اعتنى الإسلام بالاقتصاد وأقام منهجاً اقتصادياً عظيماً، ويدخل في هذا الجانب العمل على تنمية الاقتصاد داخل الدولة الإسلامية من خلال ممارسة الأعمال بأنواعها المتعددة من صناعة وزراعة وتجارة وغير ذلك. واعتنى بعض علماء الاجتماع بالجانب الاقتصادي خاصة ماركس الذي جعل الاقتصاد هو أساس التقدم في المجتمع وفسر تطور المجتمعات كلها بناء عليه.

هذه بعض القضايا المادية التي ذكرها علماء الاجتماع كأساس لتقدم المجتمعات

(١) انظر ص ٤١ من هذا البحث.

(٢) انظر ص ٦٩ من هذا البحث.

(٣) انظر ص ٧١ من هذا البحث.

وارتقاؤها، وقد ذكر القرآن الكريم هذه القضايا واعتنى بها، إلا أن القرآن أضاف إلى هذه العوامل كثيراً غيرها خاصة في الجانب الديني الروحي والأخلاقي، كالإيمان بالله، والتقوى، والعمل الصالح، وطاعة الله ورسوله، والعلم الديني والديني، والصبر والشكر، والتوكل على الله، والاستغفار، ونصرة دين الله بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والعمل لإقامة الخلافة الإسلامية، وللإصلاح والعدل، كل هذه القضايا والعوامل لم يتطرق إليها علماء الاجتماع المعاصرون الذين لا يؤمنون بالله ولا يتقونه، ولا يقيمون لطاعته وزناً، ولا يعملون بالأخلاق التي فرضها وأمر عباده بالتزامها والتخلق بها ليعيشوا عيشة هنية ويحيوا حياة طيبة.

هذا عن عوامل الارتقاء عند علماء الاجتماع، أما عوامل الانحدار فإن علماء الاجتماع لم يتعرضوا لذكرها بشكل مباشر وإنما تُعلم من خلال مفهوم المخالفة لما ذكروه من عوامل التقدم وبالتالي فإن عوامل الانحدار عندهم هي ما يصاد عوامل الارتقاء.

وقد ذكرنا عوامل الارتقاء عند بعض علماء الاجتماع فيما سبق، ومن خلال ذكرها يمكن أن نستنتج عوامل الانحدار عندهم وهي ما يلي:

١. انتشار الجهل في الأمة، لأن الجهل مضاد للعلم والإدراك.
٢. عدم توزيع الأعمال بين أبناء المجتمع أي عدم التعاون، وهذا مضاد لما ذكره علماء الاجتماع من مقومات التقدم وهو توزيع العمل.
٣. ضعف القوة المادية والعسكرية لأنهم يرون أن القوة العسكرية من أسباب التقدم في المجتمعات.

٤. الانهيار الاقتصادي: فضعف الاقتصاد في المجتمع يؤدي إلى انحداره وانهياره. هذه عوامل الانحدار عند علماء الاجتماع وهي عوامل مادية بحتة كما هو ملحوظ وواضح، وقد فاق القرآن بطرحه لعوامل الانحدار هذه العوامل بدرجات كبيرة جداً، إذ جمع بين العوامل المادية، والمخالفات الدينية المؤدية للانحدار، وكما

ذكرنا أن من عوامل الانحدار الكفر والظلم والفساد بأنواعه المتعددة وكذلك الانحطاط الأخلاقي بمظاهره المتنوعة والبغي والاستكبار.

هذه العوامل المؤدية للانحدار، والتي تتعلق بعمقها بالمسلم ومعاملاته وأخلاقه، هي التي تؤثر في انحطاط المجتمع وتؤدي حَقًّا إلى الهاوية، وأما ما عرضه علماء الاجتماع فإنها عوامل مادية تمامًا، وإنما ليست وحدها عوامل اندثار المجتمع بل إن علماء الاجتماع أغفلوا أهم عوامل الانحدار وهي التي تتعلق بالجانب الديني والأخلاقي والتي عرضها القرآن وذكرتها سابقًا، وبهذا يكون عرضهم لعوامل الانحدار ناقصًا جدًّا، بل إن المجتمعات الغربية اليوم تسير في طريق الانحدار إلى الهاوية رغم عدم وجود عوامل الانحدار التي ذكرها علماء الاجتماع.

فالمجتمعات الغربية لا ينتشر فيها الجهل، ولا ينقصها توزيع العمل، وليست بالضعيفة ماديًا وعسكريًا، ولا منهارًا اقتصاديًا، ورغم ذلك فإنها تنحدر بشدة وقوة وإن دلائل انهيارها بادية وواضحة، وهذا ما سنذكره بشهادة علماء الغرب في العصر الحديث إن شاء الله.

ولكن قد يقول قائل: "إن كونت ودوركائيم وسبنسر ووورد ذكروا الجانب الديني والأخلاقي كعوامل لتقدم المجتمعات، وبالتالي فإن عدم وجود هذين العاملين يؤدي إلى الانحدار، ونرد على هؤلاء بالقول لقد ذكرنا ما يريد كل واحد من هؤلاء من ذكره للدين والأخلاق عند الحديث عن آرائهم وبيان المراد بها، وهي باختصار إنما تعني الدين الذي يختاره كل مجتمع لنفسه والذي يرتضيه أفراده، وكذلك الأخلاق التي يشرعها المجتمع على حسب ما يخلو لأبنائه وما يتفق مع شهواتهم وأهوائهم، وليس المراد بالدين هو دين الله الحق ولا بالأخلاق أخلاق الإسلام العظيمة الشريفة.

وهذا ما شهد به وأكده العلماء الغربيون اليوم يقول جيمس باترسون، وبيتر

كيم: "الأمريكيون هم الذين يشرعون لأنفسهم القوانين والمبادئ الأخلاقية، نسبة ١٣ % منا فقط تؤمن بالوصايا العشر^(١)، إننا نختار من قوانين الإله ما نعتقد أنه صواب

(١) أي الوصايا الدينية والأخلاقية التي وردت في سفر تثنية الاشتراع - من أسفار التوراة-.

فقط، ليست هناك قطعاً قيم أخلاقية متفق عليها في هذه البلاد"^(١).

هذا الذي ذكره هذان العالمان ليوضح تماماً ما يريده علماء الاجتماع من ذكرهم للدين والأخلاق، إنهما الدين والأخلاق اللذان يشرعهما المشرعون الغربيون، ومما يزيد ذلك تأكيداً أن الغرب اليوم قد وضع لنفسه قوانين أخلاقية هذه القوانين تبيح ما حرّم الله وتعتدي على حدود الله، فأباحوا الزنا تحت اسم الحرية الشخصية وأحلوا شرب الخمر، وأكل الربا، واللواط، والسحاق، حتى انتشرت الرذائل وعمت كل جزء من أجزاء العالم الغربي الكافر، وانتشر على إثر ذلك الفجور وكثرت الجرائم كالقتل والسرقة والخيانة، كل ذلك بسبب القوانين التي وضعها ساسة الغرب والتي يدعون أنها قوانين أخلاقية، حتى إنهم يلومون على من يمنع المنكرات ويعاقب عليها عقاباً رادعاً، على أن هذا الردع فيه اعتداء على حقوق الإنسان وحرية. نعم هذا هو مفهوم الغربيين للدين والأخلاق الذي هو في حقيقته تحطيم للقيم والأخلاق وليس عملاً بها.

وقد حذر كثير من علماء الغرب من مغبة اهتار المجتمعات الغربية وانحدارها بسبب ما انتشر فيها من هذه الرذائل والمنكرات والجرائم التي فاقت كل التقديرات، وسأذكر في الصفحات القادمة بعض ما نقل عن علماء ومفكرين غربيين من تحذيرات من الانحدار والمهلك التي توشك المجتمعات الغربية أن تقع فيه.

الإعجاز الاجتماعي في القرآن:

إن هذه المقارنة التي عقدناها بين ما جاء في القرآن من عوامل الارتقاء والانحدار، وما ذكره علماء الاجتماع من نظريات في هذا الموضوع، لتعطي إجابة واضحة جلية على ما يتميز به القرآن الكريم، وما يتعالى به القرآن العظيم على ما جاء به علماء الاجتماع، فإن ما جاء به القرآن الكريم من عوامل للارتقاء وأمر باتباعها،

(١) يوم أن اعترفت أمريكا بالحقيقة. لجيمس باترسون وبيتر كيم. ترجمة د. محمد بن سعود البشر في كتابه السقوط من الداخل ص ٢٦.

ومن عوامل للانحدار وأمر باحتناهما، ليلبغ الذرى^(١) السامقة^(٢) ويعلو إلى الثريا في عظمته وجلالته، في حين أن ما جاء به علماء الاجتماع ليغوص في الوحل والثرى، ولم يرتفع عن الأرض لو شبرًا في انحطاطه ودناءته.

وأعظم شاهد على ما ذكرنا تلك المجتمعات العظيمة التي أنشأها وحفظها القرآن تلك المجتمعات التي كان يعمها العدل والطمأنينة، ويشملها الأمن والسلام، تلك المجتمعات المطهرة من الرذائل والنجاسات، والتي لم يظلم فيها أحد، ولم يغتصب فيها حق، المجتمعات التي تعالت عن الدنيا والرزائل فلم يعد فيها عنف بين الأفراد والأسر ولا تفكك في روابطها، بل إنها متصفة بكل الصفات الحميدة المشرفة التي يشهد لها الداني والقاصي، حتى إن المسلم إذا اترف ذنبًا أو خطيئة يأتي إلى الرسول صلى الله عليه وسلم أو إلى الخليفة ويطلب إليه أن يطهره منها.

فالذي يدرس سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وسيرة الخلفاء من بعده، ومن جاء بعدهم في الدولة الأموية والعباسية، ويقرأ تاريخ هذه الدول التي امتدت قرونًا طويلة ليعلم علم اليقين أثر القرآن في قيام هذه المجتمعات وصيانتها لها وحفظها لها من عوامل الانحدار.

كل هذا كان عندما كان المسلمون متمسكين بالقرآن حق التمسك ومتبعين له حق الاتباع، هذا عن دور القرآن الكريم في ارتقاء الأمة وبناء المجتمعات وتقديمها. أما ما جاء به علماء الاجتماع من نظريات تعتمد على الناحية المادية، وتغفل الجوانب الروحية والأخلاقية، فإنها أنشأت مجتمعات متقدمة ماديًا وعلميًا ولكنها منحطة أخلاقيًا، وخواوية دينيًا وروحيًا، حتى إنها لتوشك على الانهيار والانحدار، رغم تقدمها العلمي، ورغم رقيها الاقتصادي، فهي مجتمعات كما وصفها أحد الكتاب

(١) الذرى: جمع ذرورة وهي أعلى سنام البعير، وذرورة كل شيء وذرورته: أعلاه، والجمع الذرى وذرورة السنام والرأس أشرفها. لسان العرب - ابن منظور - ج ١٤ ص ٢٨٤.

(٢) السامقة: السمق: سمق النبات إذا، سمق النبت والشجر والنخل يسمق سمقًا وسموقًا، فهو سامق وسميق، ارتفع وعلا وطال، ونخلة سامقة طويلة جدًا. المصدر السابق ج ١٠ ص ١٦٣.

الغربيين مزخرفة من الخارج لكنها فارغة ومنهارة من الداخل، فهي آيلة إلى السقوط في كل وقت، ولهذا حذر كثير من الكتاب والمفكرين الغربيين من مغبة الاستمرار في هذا الإنحلال الأخلاقي والتفكك الأسري وانتشار العنف في تلك المجتمعات، لأن هذا كله يقودها إلى الهاوية والدمار، وهاك بعض التحذيرات التي أطلقها علماء ومفكرو الغرب والتي ذكروا فيها إحصائيات تدل على قرب سقوط تلك الحضارات الخاوية الفارغة المنهارة من الداخل.

يقول اللورد سئل "لقد أسسنا بنياناً ظاهره النبل والتناسق، ولكننا أهملنا المتطلبات الرئيسية اللازمة لتنظيم داخلية، لقد وضعنا التصميم الدقيق للوعاء وزخرفنا ظاهره وبدا جميلاً نظيفاً، أما باطنه فسلب واغتصاب وتطرف إننا لم نستخدم ما عندنا من علم وقوة متزايدين على مر الأيام إلا للمتاع الجسدي ولكننا تركنا الجانب الروحي ضعيفاً قاصراً"^(١).

ويقول بروجي "إن الخطر الكامن في المدنية المادية البحتة يمكن تلخيصه في أنه موجه إلى هذه المدنية نفسها، هذا الخطر هو الاختلال وعدم التوازن المتوقع حدوثه إذا لم تجد الحياة الروحية لها طريقاً إلى جانب المدنية المادية، لتعيد إلى الحياة الإنسانية توازنها الذي تفتقر إليه"^(٢).

ويقول هاملتون هوز عن واقع الحياة الأمريكية اليوم "إن أمريكا الآن عام ١٩٩٢م تواصل انحدارها وانحرافها اجتماعياً وأخلاقياً، قد هجر الأمريكيون الكثير من القيم السياسية والأخلاقية التي ساهمت في جعلهم من أقوى شعوب الأرض في وقتنا الحاضر، لقد وصل الأمريكيون إلى درجة من الانحراف جعلهم يسمون الأشياء بغير أسمائها ويفسرون الحقائق بغير مفهومها على كل المستويات: في المجتمع، وفي الكونجرس، وفي السلطة القضائية، أما الحرية فقد أساء الكثير إلى مفهومها وتمادى في ممارستها حتى تلبى رغباته الشخصية، ولو كانت على حساب القيم والأعراف

(١) الغرب نحو الدرب. محفوظ العباسي ص ٣٨٠.

(٢) المرجع السابق ص ٣٨١.

والأنماط السلوكية السائدة في المجتمع، إن الولايات المتحدة الآن تعيش في حالة غير طبيعية من الاشمئزاز والقرع وخيبة الأمل، وليس السبب في هذا كله الحكومة وحدها، بل إن الشعب أيضاً أسهم وبشكل كبير في هذا الانحدار الخطير، إنه سقوط ولكن من نوع آخر"^(١).

ويقول اندرشايبرو "قد تقدمت الولايات المتحدة الدول الصناعية الأخرى في أنواع الجرائم التالية: القتل، الاعتداء الجنسي، السطو على المنازل، السرقة من السيارات، والاعتداء على الآخرين بالضرب وتعريضهم لإصابات جسدية.

إن أكثر من عشرين ألف جريمة قتل تقع في المجتمع الأمريكي سنوياً، بمعدل جريمة واحدة في كل ٢٥ دقيقة، وتشير الدراسات الإحصائية أن هذا الرقم يزداد بشكل مستمر ومزعج سواء في المدن الأمريكية الكبيرة أو الصغيرة، وأقرب دليل على ذلك أن نسبة زيادة الجريمة في مدينتي ميلواكي، ونيو أورليانز بلغت أكثر من ١٠٠% في الفترة من ١٩٨٥م إلى ١٩٩٠م، وكثير من مرتكبي جرائم القتل يتعاطون المخدرات".

ويواصل قوله "أصبحت قضية تعاطي المخدرات تمثل خطراً يهدد بتقويض البنية الاجتماعية في أمريكا التي كانت من أهم أسباب انعدام القيم الاجتماعية والأخلاقية وتفكك الأسرة، إن هناك أكثر من مليون جريمة تعاطي للمخدرات تسجل سنوياً لدى الجهات الرسمية المسؤولة"^(٢).

هذا هو الحال في الدول الغربية المتقدمة وعلى رأسها أمريكا التي تعتبر قبلة كثير من الزعماء في العالم والتي هي القطب الأوحيد، وقائدة النظام العالمي الجديد، ها هي مهددة بالانهيار والانحدار بشهادة علمائها بسبب الانهيار الأخلاقي الذي يعمها. وفي إحصائية نشرت أخيراً عن نسبة الجرائم في إسرائيل التي تعتبر من الدول

(١) السقوط التراجيدي .. أمريكا عام ٢٠٢٠ لهاملتون هوز ترجمة د. محمد بن سعود البشر في كتاب السقوط من الداخل ص ٩٥.

(٢) السقوط من الداخل - د. محمد بن سعود البشر - ص ٥٤-٥٥.

المتقدمة كذلك، بل إنها تعتبر جزءاً من أوروبا. تبين هذه الإحصائية الارتفاع الكبير في نسبة الجرائم من قتل واغتصاب وغير ذلك. وهذه نتائج الإحصائية كما بينها التقرير والذي جاء فيه على النحو التالي "سجل تقرير رسمي يجمع نشاطات الشرطة الإسرائيلية في مجال مكافحة الجريمة ارتفاعاً حاداً على عدد حوادث الاغتصاب وجرائم القتل المرتكبة ضد النساء في إسرائيل في فترة النصف الأول من العام الجاري. ويتضح من معطيات تضمنها التقرير الصادر من الشرطة الإسرائيلية في مجال الجريمة ارتفاعاً حاداً على عدد حوادث الاغتصاب تضمنها التقرير الصادر من الشرطة الإسرائيلية أن اعتداءات الاغتصاب في إسرائيل تطال منذ عام ٢٠٠٠ امرأتين في المعدل كل يوم، وأن جريمة قتل تسجل كل ثلاثة أيام، ويسجل بمرور كل ٢٤ ساعة وقوع ثمانية حوادث سطو، و٥٧ حادث اعتداء بالضرب على نساء، و٧٢ حادث اقتحام وسرقة لمتاجر، و٨٢ حادثاً مماثلاً يتعرض له مبنى سكني، بينما تسرق خلال كل يوم ٧٩ سيارة. وتشير معطيات الشرطة إلى مقتل ٦٢ شخصاً في جرائم قتل وقعت في إسرائيل منذ العام الحالي، وسجل منذ بداية عام ٢٠٠٠ مقتل سبع نساء إسرائيليات على يد أزواجهن.

وعلى صعيد الاعتداءات الجنسية على النساء أشار تقرير الشرطة إلى وقوع ٢١٠٥ حادث من بينها ٣٤٤ حادث اغتصاب. كذلك سجل ارتفاع على عدد ملفات الإجرام والجنوح الموجهة ضد الشبان الإسرائيليين القاصرين، إذ بلغ عدد الملفات التي فتحتها الشرطة على هذا الصعيد ١٤٩٢٥ ملفاً خلال فترة الشهور الستة الأولى من عام ٢٠٠٠ وسجلت الشرطة منذ بداية العام الحالي وقوع ١٠٤٠٧ حوادث عنف داخل العائلة، وتقول الشرطة الإسرائيلية في سياق تقريرها إنها نفذت منذ بداية العام الحالي ٢١٦١٦ اعتقالاً جنائياً^(١).

وهكذا يجلي هذا التقدير بوضوح مدى انتشار الجرائم الخطيرة في المجتمع الإسرائيلي، مما يؤكد على أن هذا المجتمع يعيش في توتر وعدم استقرار أو طمأنينة

(١) نقلا عن جريدة الرسالة الصادرة بتاريخ ٢٥/ربيع آخر/١٤٢١هـ، ٢٧/٧/٢٠٠٠م العدد ١٦٦.

نتاج القوانين التي تحكمه، والنظريات التي يقوم عليها. وهي ترجع إلى النظريات الغربية في الاجتماع وغيره، الأمر الذي أثبت فشل هذه النظريات الذريع في إقامة مجتمعات أخلاقية آمنة مطمئنة تسودها المحبة والإخاء، ترتقي في المجالات المتعددة، وليس في مجال واحد وهو المجال المادي، دون باقي الجوانب التي لا وجود لها في تلك المجتمعات.

هكذا وبنظرة فاحصة لما سبق يمكننا الجزم باستعلاء القرآن الكريم في طرحه وتعالیه فيما عرضه من عوامل للارتقاء والانحدار على نظريات علم الاجتماع التي ثبت فشلها في هذا الجانب.

وبهذا يثبت إعجاز القرآن الاجتماعي من خلال بنائه مجتمعات قوية متألّفة مترابطة متحابّة مطهرة من الفواحش والضلالات "الكفر، الولاء للكافرين، التحاكم لغير ما أنزل الله، الزنا، اللواط، التبرج، الإختلاط، السرقة، الخيانة، الربا، شرب الخمر، الظلم، العدوان، العنف، التفكك الأسري" وغير ذلك من هذه العوامل المدمرة، وبهذا ينشأ مجتمع في القمة السامقة في كل الجوانب اللازمة لقوة وارتقاء المجتمع.

وهذا إعجاز اجتماعي بحق، لأن القوانين البشرية والنظريات الاجتماعية وإن كانت لأعظم العلماء الاجتماعيين تقف عاجزة عن إقامة مثل هذه المجتمعات التي أقامها القرآن، بل إنه أمر خارق بحق، يقف أمامه الأعداء عاجزين ذليلين معترفين بعجزهم وضعفهم لأنهم ورغم محاولاتهم الكثيرة وأفكارهم العديدة التي طرحوها لإقامة مجتمع قوي نظيف لم يستطيعوا تحقيق هذه الرغبة، بل فشلوا فيها فشلاً ذريعاً، وهما هي المجتمعات التي قامت على نظرياتهم المادية البحتة تتعرض للسقوط والانهيار، بل إن بعضها قد سقط بالفعل، فالاتحاد السوفيتي الذي كان يقيم بناء مجتمعه على النظرية الاجتماعية لماركس، والذي كان يمثل ثاني قوة في العالم، نراه اليوم وقد انهار وتمزق وتشتت شذر مذر، وشهد قاداته بفشل النظرية الماركسية المادية في إقامة المجتمع القوي النظيف المتناسك.

كل هذا يدل على الإعجاز الاجتماعي في القرآن والذي يمتاز على النظريات الاجتماعية الغربية.

ولكن قد يقول قائل: إن المسلمين يعيشون اليوم حالة من الضعف والذلة رغم وجود القرآن بين أظهرهم، فما السبب في ذلك؟

إن السبب في ذلك واضح وبيّن وهو أن الحكام والزعماء المسلمين تخلوا عن كتاب الله فعطلوا أحكامه وهجروا تشريعاته، واستعاضوا عنها بالقوانين الغربية الوضعية، فحل بهم ما حلّ من هذا الضعف والإهميار، ولو أنهم اتبعوا كتاب الله وعملوا به عملاً صحيحاً لما وصل حالهم إلى ما وصل إليه اليوم.

الفصل السادس

الأمة الإسلامية بين الارتقاء والانحدار

ويشتمل على مبحثين:

المبحث الأول: نبذة عن ماضي المسلمين وحاضرهم:

كان العرب في الجزيرة العربية يعيشون على هامش العالم فترة من حياتهم غير قصيرة وكانت "الحضارات" تقوم على أطرافها في الشمال والجنوب، ويحتك العرب بهما في حركتهم التجارية الدائبة في رحلة الشتاء والصيف، ولكنهم ظلوا عازفين عن تغيير معهود حياتهم، مشغولين بالثارات القبلية المستمرة عن تشكيل دولة ذات حكومة مركزية تتوحد فيها القبائل وينشأ عنها حضارة مستقرة"^(١).

ولم يكن يخطر على بال أحد أن هذه الأمة الغارقة في الجاهلية والسادرة في ظلمات الضلالات، أن تسجل أنصع صفحات التاريخ البشري، وأن تأتي بأروع أنواع البطولات وأن يصدر منها ما يحير العقول ويروع القلوب ويدهش الألباب. ثم ما كان يخطر على بال أحد أن يقوم العرب بجزء مما قاموا به ولكن بماذا نعلل ما وقع من أحداث، وما تحقق على أيديهم من أعمال؟ هؤلاء العرب الذين كانوا إلى أمس القريب يستبد بهم الفرس ويهزؤ بهم الروم والذين غزاهم الحبشان في عقر دارهم.

هؤلاء قد تغيروا فطاردوا الفرس حتى استولوا على ديارهم، ونازلوا الرومان حتى أجلوهم عن أحب البلاد إليهم، وما زال هؤلاء العرب ينتقلون من نصر إلى نصر حتى انقرضت على أيديهم دول وتقلصت بهمهم ممالك وتغيرت بعزائمهم معالم الدنيا وتبدلت الأرض وما عليها، وأصبح علمهم - العلم الوحيد الذي يرفرف عاليًا خفاقًا شامخًا متعاليًا في مشرق الأرض ومغارها فوق كل سهل وعلى متن كل

(١) رؤية إسلامية لأحوال العالم المعاصر - محمد قطب - ص ١٧٤.

جبل" (١).

فقد فتح الله على يد رسوله مكة وخيبر والبحرين وسائر الجزيرة العربية وأرض اليمن كاملة، ثم لما مات صلى الله عليه وسلم وتولى بعده أبو بكر الصديق رضي الله عنه فتح الله على المسلمين أطرافاً من بلاد فارس، ثم في عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه اتسعت حدود الدولة الإسلامية ففتح الله على يديه بلاد الشام ومصر وأكثر بلاد فارس، ولما تولى الخلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه امتدت الفتوحات الإسلامية في زمنه امتداداً سريعاً واسعاً.

ثم استمرت الفتوحات الإسلامية في اتساعها خلال حكم الدولة الأموية حتى وصل المسلمون أثناء الحكم الأموي إلى بلاد الأندلس وذلك من جهة الغرب (٢)، أما من الناحية الشرقية فقد فتح المسلمون بلاد ما وراء النهر في التركستان وطشقند جنوب روسيا، ووصل الفتح الإسلامي حتى باكستان وبنقلادش والتركستان الصينية سنة ٩٥-٩٦هـ (٣).

وهكذا امتد السلطان الإسلامي إلى هذه الأطراف المترامية العظيمة، مما زاد من قوة الأمة الإسلامية.

ولكن القضية التي تلفت النظر ليست هي قضية الأرض التي فتحت بهذه السرعة المذهلة، وإنما قضية القلوب، لقد فتح الفتح الإسلامي ملايين من القلوب التي دخلت في الدين الجديد، بغير ضغط ولا إكراه، سواء في مصر والشام، أو في العراق وفارس، أو في الشمال الإفريقي أو في بلاد الهند أو في غيرها من البلاد... هذه القلوب لم يفتحها السيف! فالسيف قد يفتح الأرض ولكن لا يفتح القلوب! إنما فتحها العلم بالقرآن والعمل به ممثلاً في سلوك واقعي من الفاتحين، وذلك من بين ما انفردت به حركة التوسع الإسلامي عن حركات التوسع التاريخية في القدم

(١) من هدى القرآن - محمد نمر الخطيب - ص ١٦٩.

(٢) تاريخ العالم الإسلامي - د. إبراهيم العدوي - ص ١٨٣.

(٣) المرجع السابق ص ١٧٨-١٧٩.

والحديث^(١) .

جاء القرآن من عند الله العزيز العليم إلى محمد صلى الله عليه وسلم معلم البشرية الأول، وكان أول بدئه قوله تعالى ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾^(٢) .

أول الرسالة وأول الدعوة طالب المولى بالعلم، العلم الذي بنى حضارة تبهر العقول، وتستهوئ الألباب، وتشرح الصدور، ويطلب جل شأنه بالعلم، فدين الإسلام إذاً أساسه العلم ووحيه الحق وروحه الحضارة في أجلى صورها وأبهى معانيها العلم بأوسع صورته وأدق معانيه، وإلا فبم نفس انتقال العرب بعد إسلامهم من عداد الأمم الجاهلية المشردة إلى مصاف الأمم الراقية السائدة؟ بل إلى صف فوق الصفوف صارت فيه وحدها حافظة للعلم والحضارة والفنون دون سائر الأمم، وقد اعترفت لها الكافة بالزعامة في ذلك قرونًا طويلة^(٣) .

لقد كان الإسلام ميلادًا جديدًا للإنسان، كان تحريراً له من خرافاته وأوهامه وتصويراته الفاسدة عن الله والكون والحياة والإنسان، وتحريراً له من عبوديته الزائفة، سواء عبوديته للآلهة المزعومة أو لشهواته أو للأعراف المنحرفة، أو عبودية البشر بعضهم لبعض في صورة أشخاص لهم قداسة، أو في صورة مشرعين من عند أنفسهم بغير ما أنزل الله^(٤) .

وبنظرة فاحصة لما سبق يتضح أن اتباع القرآن وتطبيق أحكامه هو السبب فسيما وصل إليه المسلمون من الكرامة والعزة والنصر، والفتوحات السريعة والواسعة التي حققها الله على أيديهم.

(١) رؤية إسلامية لأحوال العالم المعاصر - محمد قطب - ص ١٣٥ .

(٢) سورة العلق الآيات ١-٥ .

(٣) الإسلام أصل حضارة العالم - للشيخ محمود محمد المدني - ص ٩٠٥ .

(٤) رؤية إسلامية لأحوال العالم المعاصر ص ١٣٤ .

حاضر المسلمين:

هذا عن ماضي المسلمين وما تحقق فيه من انتصارات وما قامت فيه من حضارة عظيمة كان لها دور في حضارة الغرب القائمة اليوم.

أما حاضر المسلمين فإنه يختلف عن ماضيهم تمامًا، فالمسلمون يعيشون في تأخر وضعف، وفي ذلة وانحدار، بسبب تركهم لمصدر عزتهم وكرامتهم وهو كتاب الله الذي جعله الله مصدرًا للقوة والتقدم قال تعالى ﴿...إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾^(١) "ونصر الله إنما يتحقق باتباع كتابه والعمل بدينه"^(٢).

إذن سبب تخلف المسلمين اليوم هو بعدهم عن الإسلام الحقيقي وسوء فهمهم أو تطبيقهم له، إذ إنهم للأسف أخذوا أسوأ ما في الموارث التي في عصور التخلف عندنا وأسوأ ما عند الغرب.

فنحن نعرف أن عندنا أشياء طيبة في تراثنا وأشياء رديئة وتركنا الطيب وأخذنا الرديء، كذلك نجد أن الغربيين عندهم أشياء حسنة وأخرى سيئة، أخذنا أسوأ ما عند الغربيين، رغم أن عندهم العلم التجريبي والتكنولوجيا والنظام وحسن الإدارة ولكن لم نأخذ هذه الأشياء مع إننا من صلب ديننا، المنهج العلمي أيضًا أخذوه من عندنا واعترف بذلك مؤرخوهم ومنصفوهم، منهج العلم التجريبي أخذوه من الحضارة الإسلامية، ولكننا رغم ذلك تركنا هذه الأمور، وأخذنا التحلل الذي عندهم أخذنا قشور الحضارة، أخذنا العري، والربا، والقوانين الوضعية، بعجزها متناسين أن لدينا شريعتنا الإسلامية التي لم تتوصل تلك القوانين الوضعية لحقيقة كنهها، فهي قوانين ضمنت للفرد والمجتمع في كل زمان ومكان حقوقه وواجباته كاملاً، وضمنت السعادة في الدنيا والآخرة"^(٣).

ومما أدى إلى تخلف وتأخر الأمة الإسلامية ما شنه عليها الاستعمار وأتباعه من

(١) سورة محمد آية ٧.

(٢) فتح القدير - الشوكاني - ج ٥ ص ٣٨.

(٣) هموم المسلم المعاصر - د. القرضاوي - ص ١٩-٢٠.

حرب شاملة لكي تتحقق له الغلبة على هذه الأمة، وتستمر تلك الغلبة إلى عشرات ومئات السنين، وبدلاً من أن يُرد على الاستعمار بحرب شاملة وقوفاً على أرض الإسلام، اندفع الفكر المتغرب، الذي حارب وصارع هذه السيطرة الاستعمارية المباشرة، ونادى بالاستقلال إلى مواصلة تلك الحرب، وكذلك فعل الفكر المتغرب، الذي أعلن معاداته للقواعد العسكرية الأجنبية، فواصل تلك الحرب ظناً منه أن في ذلك تحريراً للشعب، وتحريراً للمرأة، وتخلصاً من سلطة الأب في العائلة وإطلاقاً للعقل، واندفاعاً على طريق الاستقلال والتقدم الاجتماعي، ولكنه ما درى أن تلك الحرب تأتي بنتائج معاكسة تماماً، وإذا بالشعب يُحطم ويُشل وإذا بالمرأة تتيه وتضيع، وإذا بالعائلة تتمزق وتتخبط، وإذا بالعقل يصبح مغلولاً إلى الغرب، وإذا بالاستقلال تبعية، وبالتقدم الاجتماعي مزيداً من التخلف، ثم وصلت الأمور إلى أن يعلن ذلك الفكر نفسه أننا نعيش "زمن الانحطاط العربي" وما هي إلا العقوبة الحتمية التي تدفعها الأمة بسبب الحرب التي شنت على الإسلام ورجاله^(١).

وقد أكد الله في القرآن أن من أهم أسباب الذلة والمهانة محادة الله ورسوله ومعاداة الله ورسوله وفي هذا يقول سبحانه ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُتِبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾^(٢) ويقول عز وجل ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذْلِينَ﴾^(٣).

فالذين يشاققون ويعادون ويخالفون الله ورسوله كُتبتوا وأذلوا وأخزوا كما أذل الله وأخزى الذين عصوه من كفار الأمم الماضية المعادين لرسول الله سبحانه، وهم في الأذلين الذين كتب الله عليهم الذل في الدنيا والآخرة^(٤).

وبهذا نعلم سر تأخر الأمة الإسلامية اليوم وتخلفها عن ركب الحضارة والتقدم

(١) الإسلام وتحديات الانحطاط المعاصر - منير شفيق - ص ١٤٩.

(٢) سورة المجادلة آية ٥.

(٣) سورة المجادلة آية ٢٠.

(٤) فتح القدير - الشوكاني - ج ٥ ص ٢٣٠-٢٣٩.

وذلك هو مخالفتها لأمر الله وعصيانها لأوامره، وتركها للإسلام ولأحكامه وتشريعاته، هذا هو سر ما وصل إليه المسلمون من الذلل والتخلف والتراجع. وبناء على ذلك فإن الأمة الإسلامية بحاجة إلى عودة صادقة إلى الله وإلى عمل كامل بكتاب الله لأن هذا وحده هو مصدر عزة الأمة وكرامتها.

المبحث الثاني: البشائر بارتقاء الأمة الإسلامية:

بشر الله في القرآن الكريم بالنصر والارتقاء للأمة الإسلامية، بل إنه وعد بذلك وعداً، ووعد الله لا يتخلف ومن البشائر قول الله تعالى ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾^(١). لقد تقدم وعد الله للمرسلين بنصرهم، وجنده المؤمنين بالغلب والظفر، وهذا الوعد واقع وكلمة الله قائمة، ولقد استقرت جذور العقيدة في الأرض، وقام بناء الإيمان، على الرغم من جميع العوائق وعلى الرغم من تكذيب المكذبين، وعلى الرغم من التنكيل بالدعاة والمتبعين، ولقد ذهبت عقائد المشركين والكفار وذهبت سطوتهم ودولتهم، وبقيت العقائد التي جاء بها الرسل، تسيطر على قلوب الناس وعقولهم، وتكيف تصوراتهم وأفهامهم، وما تزال على الرغم من كل شيء هي أظهر وأبقى ما يسيطر على البشر في أنحاء الأرض، وكل المحاولات التي بذلت لمحو العقائد الإلهية التي جاء بها الرسل وتغليب أية فكرة أو فلسفة أخرى قد باءت بالفشل، باءت بالفشل حتى في الأرض التي نبعت منها، وحققت كلمة الله لعباده المرسلين إهم لهم المنصورون وإن جنده لهم الغالبون^(٢).

وقد قضى الله بنصرة رسله والمؤمنين معهم فقال عز وجل ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ

(١) سورة الصافات آية ١٧١.

(٢) انظر تفسير زاد المسير في علم التفسير - لأبي الفرج الجوزي - ج ٧ ص ٩٣. في ظلال القرآن - سيد قطب -

ج ٧ ص ٢٣ ص ٧٤.

أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ»^(١) وهذا شرح لذل الكافرين، وبيان لعز المؤمنين وذلك بغلبة جميع رسل الله بالحجة والسيف لأعدائهم الكافرين، والغلبة قهر المنازع حتى يصير في حكم الذليل للقاهر، وقد يقهر ما ليس بمنازع، والله تعالى غالب بمعنى أنه قاهر لمن نازع أوليائه (إن الله قوى) على نصره أنبيائه (عزيز) غالب لا يدفعه أحد عن مراده، منيع بكثرة مقدراته، قال مقاتل: "إن المسلمين قالوا إنا لندرجو أن يظهرنا الله على فارس والروم، فقال عبد الله بن أبي بن سلول: أتظنون أن فارس والروم كبعض القرى التي غلبتموها، كلا والله إنهم أكثر جمعًا وعدة فأنزل الله هذه الآية"^(٢).

وهذه البشارة بالنصر وقضاء الله به لرسله وللمؤمنين جاء التبشير بها في كتب الله السابقة وهذا يزيد التأكيد على هذا النصر قال تعالى ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾^(٣) وأظهر الأقوال في هذه الآية أن الزبور الذي هو الكتاب يراد به جنس الكتاب فيشمل الكتب المتزلة، كالتوراة والإنجيل وزبور داود وغير ذلك، وإن المراد بالذكر أم الكتاب، وعليه فالمعنى ولقد كتبنا في الكتب المتزلة على الأنبياء أن الأرض يرثها عبادي الصالحون بعد أن كتبنا ذلك في أم الكتاب (والصالحون) هم العاملون بطاعة الله، والمتهون إلى أمره ونهيه، دون العاملين منهم بمعصيته المؤثرين طاعة الشيطان على طاعته"^(٤).

هذه بشارات متتابعة متتالية تبشر بنصر وتمكينه للمؤمنين، كل هذا ليؤكد على معية الله لرسله وللمؤمنين وحفظه وحمایته لهم في وجه الطغاة والمتكبرين الذين يريدون طمس الحقيقة وإطفاء نور الله سبحانه، ويبدلون كل إمكاناتهم لتحقيق هذا الهدف، لكن الله تكفل بإفشال مخططاتهم ومكرهم قال الله تعالى ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا

(١) سورة المجادلة آية ٢١.

(٢) انظر التفسير الكبير-الرازي- ١٥م ج ٢٩ ص ٢٤٠. التبيان في تفسير القرآن - للطوسي - ٩م ج ٢٨ ص ٥٥٦. تنوير الأذهان - للروسوي - ٤م ج ٢٨ ص ٢٦٤.

(٣) سورة الأنبياء آية ١٠٥.

(٤) انظر أضواء البيان - للشنقيطي - ج ٤ ص ٧٥٨. محاسن التأويل - للقاسمي - ج ١٠ ص ٤٣١٣.

نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ
بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ^(١) .

فأعداء الله يريدون بل ويعملون جاهدين لإطفاء نور الله، أي لإبطال الإسلام
والدين، وذلك من خلال الطعن في هذا الدين، وقولهم عن القرآن أنه سحر، ومثل الله
حال هؤلاء كمن ينفخ في نور الشمس بفيه ليطفئه (والله متم نوره) بإظهاره في الآفاق
وإعلانه على غيره ومبلغه غايته.

وإتمام الدين في الآية يعني إتمامه بحسب النقصان في الأثر وهو الظهور في
سائر البلاد من المشرق إلى المغرب، إذ الظهور لا يظهر إلا بالإظهار وهو الإتمام.
(ولو كره الكافرون) ذلك الإظهار للدين فإنه كائن لا محالة (هو الذي أرسل رسوله
بالحق ليظهره على الدين كله) أي أرسل محمداً بالحق والرشاد ليظهره
على الدين كله بالحجج والغلبة باليد والقتال. ومعنى "ليظهره" ليجعله ظاهراً على
جميع الأديان عالياً عليها غالباً لها ولو كره المشركون ذلك فإنه كائن لا محالة، ومن
الإظهار ألا يبقى دين سوى الإسلام آخر الزمان، قال مجاهد (ليظهره على الدين كله)
بمخرج عيسى عليه السلام حينئذ لا يبقى كافر إلا أسلم^(٢) .

هكذا يبشر الله في كتابه المؤمنين بالنصر والتمكين ليزدادوا ثباتاً على الدين
وصبراً على الابتلاءات التي يمارسها بحقهم المتكبرون المتغطرسون من المجرمين.
هذا وقد بشر الرسول صلى الله عليه وسلم هذه الأمة بالارتقاء والرفعة فقال
صلى الله عليه وسلم "بشر هذه الأمة بالسنا والرفعة والنصر والتمكين في الأرض، من
عمل منهم عمل الآخرة للدنيا لم يكن له في الآخرة نصيب"^(٣) .

(١) سورة الصف الآيات ٩-١٠ .

(٢) انظر الجامع لأحكام القرآن - للقرطبي - ج ١٨ ص ٥٦. التفسير الكبير - الرازي - ج ٢٩ ص ٣١٥-٣١٦
بتصرف. فتح القدير - الشوكاني - ج ٥ ص ٢٧٤

(٣) مسند الإمام أحمد ج ٥ ص ١٧٧. صحيح الجامع الصغير وزياداته - الألباني - ج ١ ص ٥٤٥.

وقال صلى الله عليه وسلم: "إن الله زوى^(١) لي الأرض مشارقها ومغاربها وسيبلغ ملك أمي ما زوى لي منها"^(٢).

والأعظم من ذلك وأجلّ قوله صلى الله عليه وسلم "ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله هذا الدين بعز عزيز، وبذل ذليل، عزاً يعز الله به الإسلام، وذلاً يذل الله به الكفر"^(٣)

إنما البشائر العظيمة التي يطير لها قلب المؤمن فرحاً واستبشاراً بنصر الله سبحانه وتعالى تحقيقاً لوعده ووعده رسوله صلى الله عليه وسلم والذي أكد صلى الله عليه وسلم أن الخلافة الراشدة ستعود إلى ما كانت عليه في سالف عهدها زمن الخلفاء الراشدين وتحقق للمسلمين انتصارات مؤزرة عظيمة وتكون لهم فتوحات مظفرة باهرة وينتشر الخير وتزداد البركة وترتفع راية الحق وتخبو راية الباطل قال صلى الله عليه وسلم "تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة، فتكون ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها، ثم يكون ملكاً عاصباً، فيكون ما شاء الله أن يكون ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها، ثم يكون ملكاً جبرياً، فيكون ما شاء الله أن يكون، ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة ثم سكت"^(٤)

وعن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال: سألتني رسول الله صلى الله عليه وسلم "أتعرف الحيرة؟"^(٥) قلت لم أرها وقد أنبتت عنها قال: "فو الذي نفسي بيده ليتمن الله

(١) زوى أي ضم وجمع

(٢) صحيح مسلم - كتاب الفتن وأشراط الساعة - باب هلاك الأمة بعضهم ببعض - ج ٤ ص ٢٢١٥ رقم ٢٨٨٩.

(٣) مسند الإمام أحمد ج ٤ ص ١٤٤ صحيح - سلسلة الأحاديث الصحيحة - الألباني - المستقبل للإسلام - ج ١ ص ٧ رقم ٣.

(٤) صحيح البخاري - كتاب النبوات - باب علامة النبوة في الإسلام - م ٢ ج ٤ ص ٢٤١. مسند الإمام أحمد ج ٤ ص ٣٧٢

(٥) الحيرة: وهي بالكسر: البلد القديم بظهر الكوفة، ومحلة معروفة بنيسابور. النهاية في غريب الحديث =

هذا الأمر حتى تخرج الطعينة - المرأة - من الحيرة حتى تطوف بالبيت من غير جوار أحد، ولتفتحن كنوز كسرى بن هرمز "قلت: كسرى بن هرمز؟ قال: "نعم كسرى ابن هرمز"، وليبدلنَّ المال حتى لا يقبله أحد" قال عدي بن حاتم^(١) رضي الله عنه فهذه الطعينة تخرج من الحيرة فتطوف بالبيت من غير جوار أحد، ولقد كنت فيمن فتح كنوز كسرى بن هرمز، والذي نفسي بيده لتكونن الثالثة لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قالها"^(٢)

ومن البشارات الجليلة التي تتوق نفوس المسلمين جميعاً لتحقيقها وهي كائنة لا محالة، تبشيره صلى الله عليه وسلم بانتصار المسلمين على اليهود وذلك بقوله صلى الله عليه وسلم "لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود حتى يختبئ اليهود من وراء الشجر والحجر، فيقول الشجر والحجر: يا مسلم هذا يهودي خلفي تعال فاقتله إلا الغرق فإنه من شجر اليهود"^(٣)

إن هذه البشارات الواردة في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم لتمثل نوراً يضيء للمسلمين النفق المظلم الذي يسرون فيه وتبشر بنهايته، إن فيها دلالة على أن الفرج قريب وأن الفجر آت، وأن ظلام الذل والتراجع الإسلامي يوشك على نهايته، ليشرق نور العزة والكرامة من جديد، إنه وعد الله بإتمام هذا النور، وإنها بشارة رسول الله صلى الله عليه

=والأثر- ابن الأثير- ج ١ ص ١٦٧.

(١) عدي بن حاتم بنس عبد الله بن سعد بن الحشْرَج بن امرئ القيس بن عدي بن أخزم بن أبي ربيعة بن جرول بن ثقل بن عمرو بن العوث بن طيبي الطائي، وأبوه حاتم وهو الجواد الموصوف بالجود، الذي يضرب به المثل. وفد عدي على النبي صلى الله عليه وسلم سنة تسع في شعبان، وقيل سنة عشر فأسلم وكان نصرانياً. توفي سنة سبع وستين وقيل سنة ثمان وستين وله مائة وعشرون سنة. أسد الغابة في معرفة الصحابة- ابن الأثير- ج ٣ ص ٥٠٥-٥٠٧.

(٢) مسند الإمام أحمد ج ٤ ص ٣٥٠.

(٣) صحيح البخاري - كتاب الجهاد والسير- باب قتال اليهود- م ٢ ج ٤ ص ٥٣. صحيح مسلم - كتاب الفتن وأشراف الساعة- باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيتمنى أن يكون مكان الميت من البلاء. ج ٤ ص ٢٢٣٩ رقم

وسلم بعودة الخلافة التي تحمل مشعل هذا النور، فليستبشر المسلمون فرحاً بما وعدهم الله ورسوله ولا يأسوا أو يقنطوا مما يروونه من حال المسلمين اليوم فهي مرحلة توشك على الزوال.

ولكن هذا يتطلب من المسلمين عودة إلى الله ورجعة إلى دينه، ليكونوا أهلاً لنصرته ومعيته، وإلا فإن الله سيستبدل بهم من أهل لذلك ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالِكُمْ﴾ (١).

فليحذر المسلمون اليوم من أن يستبدلهم الله بغيرهم إن هم بقوا على حالهم من البعد عن الله وترك شريعته، وليسارعوا في الفرار إلى الله ليحقق لهم ما وعدهم ول يمنحهم نصره وعزته وما ذلك على الله بعزيز.

الخلاصة

إن دراسة عوامل ارتقاء الأمم وانحدارها من أهم القضايا التي يجب أن تتجه إليها الأنظار، لأنه قضية يتعلق بها مصير الأمة بكاملها، فإن كان المنهاج الذي تتبعه الأمة منهاجاً صحيحاً مستقيماً، كان في هذا نجاة الأمة وتقدمها وارتقاؤها، أما إن كان المنهاج والنظريات التي تسير عليها الأمة نظريات خاطئة منحرفة معوجة، فإنها ستقود الأمة إلى الانحدار والتراجع والذلة والهوان.

ومما لا شك فيه أنه لا توجد قواعد وتشريعات توجه لارتقاء الأمم أعظم وأجل مما أنزله الله، الذي خلق الخلق وهو يعلم طبيعتهم، وما فيه نفعهم وضررهم. فقد أنزل الله كتاباً عظيماً فيه صلاح الأمة وفلاحها، وفيه نجاتها وارتقاؤها ومهما اختارت الأمة غير هذا الطريق فإنها لن تبلغ الغاية ولن تحقق المقصود، وقد فصل الله عوامل ارتقاء الأمة وفلاحها في كتابه وحض على العمل بها، كما بين عوامل انحدار الأمم وحذر منها.

إنني في هذه الرسالة حاولت جهدي لأجلي عوامل الارتقاء التي وجهنا الله - للعمل بها في كتابه، وعوامل الانحدار التي حذرنا منها، وذكرت أمثلة للأمم أخذت بعوامل الارتقاء فأعزها الله، وأخرى أخذت بعوامل الشقاء فأذلها الله وأهلكها. كما عرّجت في رسالتي إلى عوامل التقدم والتأخر عند بعض علماء الاجتماع الغربيين، وعقدت مقارنة بين العوامل التي ذكروها، وما بينه القرآن الكريم من عوامل الارتقاء والانحدار، وذكرت ما يميز به القرآن على هذه العوامل، وما يتعالى به عليها، خاصة في دور القرآن في إنشاء مجتمعات قوية طاهرة متماسكة، وهذا التمايز الذي يتصف به القرآن الكريم على نظريات علم الاجتماع يمكن أن نطلق عليه "الإعجاز الاجتماعي في القرآن" هذا الجانب الإعجازي الهام الذي يتصف به كتاب الله سبحانه وتعالى، والذي يحتاج إلى إبراز وتحلية. وأسأل الله أن أكون قد حققت

ذلك ولو في جانب منه.

النتائج التي توصلت إليها في هذا البحث:

١. إن ما ذكره القرآن من عوامل الارتقاء والانحدار يتعالى على كل ما ذكره البشر في هذا الموضوع، مهما بلغوا من قوة في العلم والتفكير.
٢. إن العمل بعوامل الارتقاء التي بينها القرآن فيه النجاة والفلاح والارتقاء وقد ذكرت أمثلة على ذلك في ثنايا الرسالة.
٣. في اتباع سبل الشيطان والوقوع في الكفر والفساد والمنكرات هلاك الأمة وانحدارها، والأمثلة على ذلك كثيرة عديدة.
٤. إن عوامل التقدم والارتقاء التي وضعها علماء الاجتماع الغربيين لا يمكن أن تفلح في إنشاء مجتمع قوي متماسك، نظيف طاهر، لأنها عوامل قاصرة محدودة تعتمد على الجانب المادي دون التعرض للجانب الديني والأخلاقي.
٥. يبرز الإعجاز الاجتماعي في القرآن واضحاً جلياً من خلال المقارنة بين عوامل الارتقاء والانحدار في القرآن وبين عوامل التقدم والتأخر عند علماء الاجتماع. ويزداد ذلك وضوحاً من خلال المقارنة بين المجتمعات التي نشأت وقامت على أحكام القرآن، والمجتمعات التي نشأت على نظريات علم الاجتماع.
٦. من النتائج الهامة التي توصلت إليها في هذه الرسالة، أن الأمة الإسلامية ستستعيد قوتها وعزتها، وتعود إلى قيادة البشرية من جديد بعد أن أصابها اليوم ما أصابها من ضعف وتأخر.

أما التوصيات التي أوصي بها:

١. يجب على المسلمين كافة العمل بما أوصى الله به في كتابه من أسباب الارتقاء والتقدم.
٢. يجب اجتناب عوامل الانحدار التي نهى الله عنها وحذر منها.

٣. على المسلمين أن يطمئنوا ويثقوا بنصر الله لأنه لا بد آت، كما عليهم أن يحرروا أنفسهم من اليأس والقنوط لأنه محبط ومثبط.
٤. أوصي المسلمين بعدم الاغترار بالمجتمعات الغربية التي ظاهرها التقدم والتحضر وهي في حقيقتها مفككة متداعية، تحمل في داخلها عوامل الفناء والاندثار. وأوجه نداءً خاصاً إلى المتغربين من أبناء المسلمين الذين يدعون إلى تتبع آثار الغرب في كل ما يدعون إليه، وأنصحهم بدراسة واقع المجتمعات الغربية دراسة واعية من خلال توجيهات القرآن، ليعلموا حقيقة هذه المجتمعات الغربية، ومن ثم يتوقفون عن تأييدها وعن دعوة المسلمين إلى تقليدها والتشبه بها.
٥. الأمة الإسلامية اليوم لن تصلح إلا بما صلح به المسلمون الأوائل، فقد كان المسلمون يعيشون قبل الإسلام في جاهلية وتأخر، فأنقذهم الله منها بالقرآن، والأمة الإسلامية اليوم تعيش في جاهلية وتأخر ولن تصلح وتتقدم إلا بعودتها إلى القرآن.
٦. يجب على جميع الأقطار الإسلامية أن تعمل على محاربة عوامل الانحدار التي تنتشر في البلاد الإسلامية والتي تجد دعماً قوياً من الحكومات في الأقطار الكافرة لأن الهلاك والعذاب إذا نزل بقوم عمّ الجميع.
- هذه جملة من النتائج والتوصيات التي وفقني الله للتوصل إليها، وأسأل الله العليّ القدير أن ينفذ بها من قرأها واطلع عليها إنه على كل شيء قدير.

الفهارس العامة

وتشتمل على خمسة فهارس هي:

أولاً: فهرس الآيات القرآنية.

ثانياً: فهرس الأحاديث الشريفة.

ثالثاً: فهرس الأعلام.

رابعاً: فهرس المصادر والمراجع.

خامساً: فهرس الموضوعات.

١- فهرست الآيات القرآنية

الرقم المسلسل	طرف الآية	السورة ورقم الآية	رقم الصفحة
١-	أبي واستكبر	البقرة ٣٤	٢٨٤
٢-	أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم	البقرة ٤٤	٤٧
٣-	اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم	الأعراف ٣	٣٤
٤-	أتركون فيما هاهنا آمنين	الشعراء ١٤٦-١٤٩	٣٠٧
٥-	ادع إلى سبيل ربك بالحكمة	النحل ١٢٥	٢٠١-١١١
٦-	إذ يوحى ربك إلى الملائكة	الأنفال ١٢	٣٠
٧-	أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا	الحج ٣٩-٤٠	٦٠
٨-	اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود	ص ١٧-٢٠	١٥٠
٩-	اعملوا آل داود شكرًا	سبأ ١٣	٨٩
١٠-	أفحکم الجاهلية ييغون	المائدة ٥٠	٢٠٨
١١-	أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم	البقرة ٨٧	٢٨٥
١٢-	اقرأ باسم ربك الذي خلق	العلق ١-٥	٣٤٩-٤٣
١٣-	ألا إن الظالمين في عذاب مقيم	الشورى ٤٥	١٨٥
١٤-	إلا تنفروا يعذبكم عذابًا أليمًا	التوبة ٣٩	٦٤
١٥-	التائبون العابدون الحامدون السائحون	التوبة ١١٢	١١٦
١٦-	آلم أحسب الناس أن يتركوا	العنكبوت ١-٣	٨٠

٢١-١٨	الأنعام ٨٢	الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم	-١٧
١٨	آل عمران ١٧٣	الذين قال لهم الناس إن الناس	-١٨
٧١	النساء ٧٦	الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله	-١٩
٢٢٦	البقرة ٢٧٥- ٢٧٩	الذين يأكلون الربا لا يقومون	-٢٠
٢٢١	البقرة ٢٧٤	الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار	-٢١
٢٦١	النور ٢	الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة	-٢٢
٣٦٣	النور ٣	الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة	-٢٣
١١٥	التوبة ٦٧	المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض	-٢٤
٥٠	فاطر ٢٨	ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء	-٢٥
٣١٤	الفيل	ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل	-٢٦
٧٠	التوبة ١٦	أم حسبتم أن تتركوا	-٢٧
٨١-٧٠	آل عمران ١٤٢	أم حسبتم أن تدخلوا الجنة	-٢٨
٨٠	البقرة ٢١٤	أم حسبتم أن تدخلوا الجنة	-٢٩
٣٠١	الأحزاب ٦	النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم	-٣٠
٣٠	النحل ١٢٨	إن الله مع الذين اتقوا	-٣١
٦٦	التوبة ١١١	إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم	-٣٢
٣٥٠	محمد ٧	إن تنصروا الله ينصركم	-٣٣
٣٥١	المجادلة ٥	إن الذين يحادون الله ورسوله كتبوا	-٣٤
٣٥١	المجادلة ٢٠	إن الذين يحادون الله ورسوله أولئك في الأذلين	-٣٥
١٢٩-٩٥	هود ٨٨	إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت	-٣٦
١١٤	الأحزاب ٤٥	إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً	-٣٧

١١٩	الأنبياء ٩٢	إن هذه أمتكم أمة واحدة	-٣٨
١٣٣	النساء ٥٨	إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها	-٣٩
١٤٧	البقرة ٢٤٧	إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً	-٤٠
١٤٧	البقرة ٢٤٧	إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم	-٤١
١٤٧	البقرة ٢٤٨	إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت	-٤٢
١٤٨	البقرة ٢٤٩	إن الله مبتليكم بنهر	-٤٣
١٧٨	الحاقة ١١	إننا لما طغى الماء	-٤٤
٢٠٨	يوسف ٦٧	إن الحكم إلا لله	-٤٥
٢٤٨	الأعراف ٢٠١	إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف	-٤٦
٢٧٦	النساء ١٠٧	إن الله لا يحب من كان خواناً أثيماً	-٤٧
٣٠٨	الأعراف ١٠٦-١٠٧	إن كنت جئت بآية فأت بها	-٤٨
٢٨٩	القصص ٧٦-٨١	إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم	-٤٩
٤٦	فاطر ٢٨	إنما يخشى الله من عباده العلماء	-٥٠
١٨	الأنفال ٢	إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم	-٥١
٢١٥	المائدة ٥٥	إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا	-٥٢
٢٦٧	المائدة ٩١	إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة	-٥٣
١٢٤	الحجرات ١٠	إنما المؤمنون أخوة	-٥٤
٦٤	الحجرات ١٥	إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله	-٥٥

٧١-٦٥	التوبة ٤١	انفروا خفافاً وثقالاً	-٥٦
٢٤٥	الزخرف ٣٢	أهم يقسمون رحمة ربك	-٥٧
٤٦	الشعراء ١٩٧	أو لم يكن لهم آية	-٥٨
٨٤	البقرة ١٥٧	أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة	-٥٩
٢١٢	النساء ١٣٨- ١٣٩	بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليماً	-٦٠
٢٤٢	آل عمران ١٢٥	بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورههم	-٦١
١٨٠	هود ٦٥	تمتعوا في داركم ثلاثة أيام	-٦٢
٣٨	البقرة ١٨٧	حتى يتبين لكم الخيط الأبيض	-٦٣
٢٨	البقرة ٢	ذلك الكتاب لا ريب فيه	-٦٤
٧٠	محمد ٤	ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم	-٦٥
١٦٨	المنافقون ٣	ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا	-٦٦
١٧٢	محمد ٩	ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله	-٦٧
١٨٧	هود ١٠٠-١٠٢	ذلك من أنباء القرى	-٦٨
٢٢٧	البقرة ٢٧٥	ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا	-٦٩
٣١٣	الأعراف ١٤٦	ذلك بأنهم كذبوا بآيتنا	-٧٠
١٧٤	نوح ٥	رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً	-٧١
٢٩٦	الشعراء ١٢٠	رب إن قومي كذبون	-٧٢
٣١٠	الأعراف ١٢٦	ربنا أفرغ علينا صبراً	-٧٣
١٩٠	القصص ٣٧	ربي أعلم بمن جاء بالهدى	-٧٤
١١٧	النساء ١٨٥	رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس	-٧٥

٢٨٥	الأعراف ١٤٦	سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون	-٧٦
٣١٨-١٨٢	القلم ٤٤-٤٥	سنستدرجهم من حيث لا يعلمون	-٧٧
٤٦	آل عمران ١٨	شهد الله أنه لا إله إلا هو	-٧٨
٢٣	طه ١٢٣-١٢٤	فإما يأتينكم مني هدى	-٧٩
٢٨	الحج ٤٦	فإنها لا تعمى الأبصار	-٨٠
٣٩	المائدة ٣٨	فاقطعوا أيديهما	-٨١
٧٨	الأحقاف ٣٥	فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل	-٨٢
٨٦	هود ٤٩	فاصبر إن العاقبة للمتقين	-٨٣
٨٦	غافر ٥٥	فاصبر إن وعد الله حق	-٨٤
٩٥	هود ١٢٣	فاعبده وتوكل عليه	-٨٥
٢٣٣-٩٨	الجمعة ١٠	فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض	-٨٦
١٠٣	محمد ١٩	فاعلم أنه لا إله إلا الله	-٨٧
١٤٤	المائدة ٢٦	فإنها محرمة عليهم أربعين سنة	-٨٨
١٧٤	المؤمنون ٢٦	فأوحينا إليه أن اصنع الفلك	-٨٩
١٨١	الحاقة ٧	فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية	-٩٠
٢٣٣	الملك ١٥	فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه	-٩١
١٩٢	الأعراف ١٣٦-١٣٧	فانتقمنا منهم فأغرقتناهم في اليم	-٩٢
١٩٣	القصص ٤٠	فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم	-٩٣
٢٢٩	البقرة ٢٧٩	فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله	-٩٤
٢٩٦	المؤمنون ٢٧	فأوحينا إليه أن اصنع الفلك	-٩٥
٢٩٧	المؤمنون ٢٨	فإذا جاء أمرنا وفار التنور	-٩٦
٣٠١	هود ٧٨	فاتقوا الله ولا تحزون في ضيفي	-٩٧

٣١١	الأعراف ١٣٣	فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل	-٩٨
٣١٣	الأعراف ١٣٧	فانتقمنا منهم فأغرقناهم في اليم	-٩٩
٢٠١-١١٢	آل عمران ١٥٩	فبما رحمة من الله لنت لهم	-١٠٠
٢٢١	الغاشية ٢٢-٢١	فذكر إنما أنت مذكر	-١٠١
١٠٢	النصر ٣	فسبح بحمد ربك واستغفره	-١٠٢
١٤٢	الصفات ١٤١	فساهم فكان من المدحضين	-١٠٣
١٥٢	ص ٣٦	فسخرنا له الريح	-١٠٤
٦٨	النساء ٩٥	فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم	-١٠٥
٢٩٧-١٧٥	القمر ١٢-١١	ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر	-١٠٦
١٠٣	نوح ١٢-١٠	فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً	-١٠٧
٢٠١-١١١	طه ٤٤	فقولا له قولاً لنا	-١٠٨
٢٠٦	النساء ٦٥	فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك	-١٠٩
٢٩٥	العنكبوت ١٤	فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً	-١١٠
١٤١	يونس ٩٨	فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها	-١١١
١٤٣	الصفات ١٤٣-١٤٤	فلولا أنه كان من المسبحين	-١١٢
٥١	الطارق ٧-٥	فلينظر الإنسان مم خلق	-١١٣
١٨٩	الأنبياء ١٥	فما زالت تلك دعواهم	-١١٤
١٥٢	البقرة ٢٥١	فهزموهم بإذن الله	-١١٥
٧٥-٦٦	التوبة ٢٩	قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر	-١١٦
١٤٧	البقرة ٢٤٦	قالوا وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله	-١١٧
١٥١	النحل ٤٠-٣٨	قال يا أيها الملأ أياكم يأتي بي بعرشها	-١١٨
١٧٣	نوح ٧-٥	قال رب إني دعوت قومي ليلاً ونهاراً	-١١٩

١٢٠-	قالوا أجتئنا لعبد الله وحده	الأعراف ٧٠	١٧٧
١٢١-	قال قد وقع عليكم من ربكم رجس	الأعراف ٧١	١٧٧
١٢٢-	قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجوًا	هود ٦٢	١٧٩
١٢٣-	قال يا قوم اعبدوا الله	الأعراف ٧٣	١٧٩
١٢٤-	قالوا تقاسموا بالله لنبيته وأهله	النمل ٤٩	١٨٠
١٢٥-	قال أنا خير منه خلقتني من نار	الأعراف ١٢	٢٨٨
١٢٦-	قال لم أكن لأسجد لبشر خلقتة من صلصال	الحجر ٣٣	٢٨٨
١٢٧-	قال رب إني دعوت قومي ليلاً ونهارًا	نوح ٥-٩	٢٩٥
١٢٨-	قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا	هود ٣٢-٣٣	٢٩٦
١٢٩-	قالوا يا لوط إنا رسل ربك	هود ٨١	٢٠٣
١٣٠-	قال لهم موسى ويلكم لا تفتروا على الله كذبًا	طه ٦١	٣٠٩
١٣١-	قالوا أرجه وأخاه	الشعراء ٣٦-٣٧	٣٠٩
١٣٢-	قالوا يا موسى إما أن تلقى	الأعراف ١١٥	٣١٠
١٣٣-	قال ألقوا فلما ألقوا سحروا أعين الناس	الأعراف ١١٦-١١٨	٣١٠
١٣٤-	قال آمنتم له قبل أن آذن لكم	طه ٧١	٣١٠
١٣٥-	قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء	فصلت ٤٤	٢٨
١٣٦-	قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول	النور ٥٤	٣٤
١٣٧-	قل هل يستوي الذين يعلمون	الزمر ٩	٤٣
١٣٨-	قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم	التوبة ٢٤	٦٥-٦١
١٣٩-	قل هذه سبيلي أدعو إلى الله	يوسف ١٠٨	١١٥

١٧٢	التوبة ٦٥-٦٦	قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون	-١٤٠
٢٥٥	النور ٣٠-٣١	قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم	-١٤١
٥	البقرة ١٨٠	كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت	-١٤٢
٦٠	البقرة ٢١٦	كتب عليكم القتال	-١٤٣
٣٥٢	المجادلة ٢١	كتب الله لأغلبن أنا ورسلي	-١٤٤ ك
٢٩	الشعراء ١٠٥-١٠٦	كذبت قوم نوح المرسلين	-١٤٥
٢٩	الشعراء ١٢٣-١٢٤	كذبت عاد المرسلين	-١٤٦
٢٩	الشعراء ١٤١-١٤٢	كذبت ثمود المرسلين	-١٤٧
٢٩	الشعراء ١٦٠-١٦١	كذبت قوم لوط المرسلين	-١٤٨
٢٩	الشعراء ١٧٦-١٧٧	كذب أصحاب الأيكة المرسلين	-١٤٩
٨٨	البقرة ١٥١-١٥٢	كما أرسلنا فيكم رسولا	-١٥٠
١٠٨	آل عمران ١١٠	كنتم خير أمة أخرجت للناس	-١٥١
٣٠	طه ٤٦	لا تخافا إني معكما أسمع وأرى	-١٥٢
١٢٣	النساء ١١٤	لا خير في كثير من نجواهم	-١٥٣
٢١٧-٢١١	المجادلة ٢٢	لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون	-١٥٤
٢١٦	آل عمران ٢٨	لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء	-١٥٥

٨٢	آل عمران ١٨٦	لتبلون في أموالكم وأنفسكم	-١٥٦
٢٩٤	الحجر ٧٢	لعمرك إني سكرتهم يعمهون	-١٥٧
٩٢	سبأ ١٥-١٧	لقد كان لسبأ في مسكنهم آية	-١٥٨
١٣١	الحديد ٢٥	لقد أرسلنا رسلنا بالبينات	-١٥٩
١٥٧	التوبة ٢٥-٢٦	لقد نصركم الله في مواطن كثيرة	-١٦٠
٥	آل عمران ٣٠	ما عملت من خير محضراً	-١٦١
١١٤	المائدة ٩٩	ما على الرسول إلا البلاغ	-١٦٢
١٦٧	الأحقاف ٣	ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق	-١٦٣
١٨٥	غافر ١٨	ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع	-١٦٤
٣٧	النساء ٨٠	من يطع الرسول فقد أطاع الله	-١٦٥
٤٠	النحل ٩٧	من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى	-١٦٦
٢٢١	ق ٤٥	نحن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم بجبار	-١٦٧
ج	الرحمن ٦٠	هل جزاء الإحسان إلا الإحسان	-١٦٨
٩٨	الملك ١	هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً	-١٦٩
٣	البقرة ٣٠٥	وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة	-١٧٠
٢٧	الأنعام ١٥٣	وأن هذا صراطي مستقيماً	-١٧١
٣٥	المائدة ٤٨	وأنزلنا إليك الكتاب بالحق	-١٧٢
٣٨	النحل ٤٤	وأنزلنا إليك الذكر	-١٧٣
٥٧	محمد ٣٨	وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم	-١٧٤
٥٤	الأعراف ١٧٥-١٧٦	واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا	-١٧٥

٧٢	الأنفال ٦٠	وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة	-١٧٦
٧٧	الكهف ٣٨	واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم	-١٧٧
٨٥-٧٧	البقرة ٤٥	واستعينوا بالصبر والصلاة	-١٧٨
٧٩	النحل ١٢٦-١٢٧	وإن عاقبتهم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به	-١٧٩
٧٨	هود ١١٥	واصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين	-١٨٠
٨٥	الأعراف ١٣٧	وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون	-١٨١
٨٨	الأنفال ٢٦	واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون	-١٨٢
٨٨	النحل ٨٧	والله أخرجكم من بطون أمهاتكم	-١٨٣
٩٠	إبراهيم ٧	وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم	-١٨٤
١٠٢	النساء ١٠٦	واستغفر الله إن الله كان غفوراً رحيماً	-١٨٥
١٠٥	هود ٣	وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه	-١٨٦
١١٢	الأنفال ٢٥	واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا	-١٨٧
١١٢	الأعراف ١٦٤-١٦٥	وإذ قالت أمة منهم لم تعظون قوماً	-١٨٨
١١٩	المؤمنين ٥٢	وإن هذه أمتكم أمة واحدة	-١٨٩
١١٥	التوبة ٧١	والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض	-١٩٠
١٢٤	النساء ١٢٨	والصلح خير	-١٩١
١٢٧-١٢٥	الحجرات ٩	وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا	-١٩٢
١٢٥	النساء ٣٥	وإن خفتن شقاق بينهما	-١٩٣
١٢٦	النساء ١٢٨	وإن امرأة خافت	-١٩٤
١٢٨	آل عمران ١٠٣	واذكروا نعمة الله عليكم	-١٩٥
١٢٩	الأحقاف ١٥	وأصلح لي في ذريتي	-١٩٦

١٣١	الرحمن ٧-٨-٩	والسما رفعها ووضع الميزان	-١٩٧
١٣٤	المائدة ٤٩	وأن احكم بينهم بما أنزل الله	-١٩٨
١٣٧	النساء ٣	وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا	-١٩٩
١٥٥	النساء ٢٣	وأن تجمعوا بين الأختين	-٢٠٠
١٦٦	البقرة ٣٤	وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم	-٢٠١
١٧٧	الأعراف ٦٥-٦٧	وإلى عاد أخاهم هودًا	-٢٠٢
١٧٨	الحاقة ٧	وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر	-٢٠٣
١٩٠	الشعراء ١٠	وإذ نادى ربك موسى أن ائت	-٢٠٤
٢٠٢	الأنفال ٢٥	واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة	-٢٠٥
٢٢٢	الشورى ٣٨	وأمرهم شورى بينهم	-٢٠٦
٢٢٥	المزمل ٢٠	وآخرون يضربون في الأرض	-٢٠٧
٢٢٥	النساء ١٦١	وأخذهم الربا وقد هؤوا عنه	-٢٠٨
٢٣٦	الأنعام ١٥٢	وأوفوا الكيل والميزان بالقسط	-٢٠٩
٢٣٧	الإسراء ٣٥	وأوفوا الكيل إذا كلتم	-٢١٠
٢٥٥	النور ٦٠	والقواعد من النساء اللاتي لا يرجون	-٢١١
٢٧١	المائدة ٣٨	والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما	-٢١٢
٢٧٦	الأنفال ٥٨-٥٩	وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم	-٢١٣
٢٨٣	الحجرات ٩	وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا	-٢١٤
٢٨٨	البقرة ٣٤	وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم	-٢١٥
٢٩٢	القصص ٣٨-٤٠	واستكبر هو وجنوده في الأرض	-٢١٦

٣٠٥	الأحقاف ٢١- ٢٥	واذكر أنما عاد إذ أنذر قومه	-٢١٧
٣٠٦	الأعراف ٧٤	واذكروا إذ جعلكم خلفاء	-٢١٨
٣٠٧	فصلت ١٧	وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى	-٢١٩
٣٢	البقرة ١٩٧	وتزودوا فإن خير الزاد التقوى	-٢٢٠
٤٦	العنكبوت ٤٣	وتلك الأمثال نضربها للناس	-٢٢١
١٨٤	الشورى ٤٤	وترى الظالمين لما رأوا العذاب	-٢٢٢
١٢٢-٢٤٦	المائدة ٢	وتعاونوا على البر والتقوى	-٢٢٣
٢٨٦	النمل ١٤	وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلوّاً	-٢٢٤
١٦٧	الكهف ٣٥-٣٦	ودخل جنته وهو ظالم لنفسه	-٢٢٥
٢١٩	القلم ٩	ودوا لو تدهن فيدهنون	-٢٢٦
١٤٢	الأنبياء ٨٧	وذا النون إذ ذهب مغاضباً	-٢٢٧
١٢٢	الزخرف ٣٢	ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات	-٢٢٨
٢٤٩	آل عمران ١٣٣- ١٣٥	وسارعوا إلى مغفرة من ربكم	-٢٢٩
١٨٤	الشعراء ٢٧٧	وسيعلم الذين ظلموا أي نقلب ينقلبون	-٢٣٠
١٦٩	النحل ١١٢	وضرب الله مثلاً قرية	-٢٣١
٢٦٠	الفرقان ٦٨	وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً	-٢٣٢
١٦١-٢١	النور ٥٥	وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات	-٢٣٣
٤٣	البقرة ٣١	وعلم آدم الأسماء كلها	-٢٣٤

٦٢	البقرة ١٩٠	وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم	-٢٣٥
١٦٩	نوح ٢٣	وقالوا لا تدرن أهتكم	-٢٣٦
٢٤٠	العراف ٩٠-٩١	وقال الملأ الذين كفروا من قومه	-٢٣٧
٣١١	الأعراف ١٣٤- ١٣٥	وقالوا مهما تأتنا به من آية	-٢٣٨
٤٣	طه ١١٤	وقل رب زدني علمًا	-٢٣٩
١٣١	الشورى ١٥	وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب	-٢٤٠
١٦	القيامة ٢٧	وقيل من راق	-٢٤١
١٧٦	هود ٤٤	وقيل يا أرض ابلعي ماءك	-٢٤٢
١٨٨	الأنبياء ١١	وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة	-٢٤٣
٦٨	آل عمران ١٦٩	ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتًا	-٢٤٤
١٢٣	البقرة ٢٢٤	ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم	-٢٤٥
١٨٣	إبراهيم ٤٢-٤٣	ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون	-٢٤٦
١٥٥	النساء ٢٢	ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء	-٢٤٧
٢١٦	هود ١١٣	ولا تركنوا إلى الذين ظلموا	-٢٤٨
٢٤١	الأنفال ٤٦	ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم	-٢٤٩
٢٦٠	الإسراء ٣٢	ولا تقربوا الزنا	-٢٥٠
٢٧٥	النساء ١٠٥	ولا تكن للخائنين خصيمًا	-٢٥١
٢١	آل عمران ١٣٩	ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون	-٢٥٢
١٣٥	المائدة ٨	ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا	-٢٥٣
١٠٩	آل عمران ١٠٤	ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير	-٢٥٤
٢	الإسراء ٧٠	ولقد كرمنا بني آدم	-٢٥٥

٢٩	النساء ١٣١	ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب	-٢٥٦
١٥٧	آل عمران ١٢٣ ١٢٤-	ولقد نصركم الله بيدر وأنتم أذلة	-٢٥٧
١٨٧	يونس ١٣	ولقد أهلكنا القرون من قبلكم	-٢٥٨
١٩٠	الأعراف ١٣٠- ١٣٣	ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين	-٢٥٩
٢٤١	آل عمران ١٥٢	ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه	-٢٦٠
٣٠٢	القمر ٣٧	ولقد راودوه عن ضيفه	-٢٦١
٣١٣	طه ٧٧-٧٨- ٧٩	ولقد أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي	-٢٦٢
٣٥٢	الصفات ١٧١	ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين	-٢٦٣
٣٥٣	الأنبياء ١٠٥	ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر	-٢٦٤
١٩	الأعراف ٩٦	ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا	-٢٦٥
٢٠	المائدة ٦٦	ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل	-٢٦٦
٧٠	محمد ٣١	ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم	-٢٦٧
٨١	البقرة ١٥٥- ١٥٧	ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع	-٢٦٨
٢١٨	البقرة ١٢٠	ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى	-٢٦٩
٣٠٠	هود ٧٧	ولما جاءت رسلنا لوطاً سيء بهم	-٢٧٠
٢٨٢	الشورى ٤٣	ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور	-٢٧١
٢٨١	الشورى ٤١- ٤٣-٤٢	ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل	-٢٧٢

٢٨٦	سبأ ٣١-٣٣	ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند رهم	-٢٧٣
٢٩٨	الأعراف ٨٠-٨٤	ولوطاً إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة	-٢٧٤
٢٩٩	النمل ٥٤	ولوطاً إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون	-٢٧٥
٣١٢	الأعراف ١٣٤-١٣٥	ولما وقع عليهم الرجز	-٢٧٦
١٣٧	النساء ١٢٩	ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء	-٢٧٧
٦٤	الحج ٤٧	ولن يخلف الله وعده	-٢٧٨
١٦٠	الحج ٤٠	ولينصرن الله من ينصره	-٢٧٩
١٧	يوسف ١٧	وما أنت بمؤمن لنا	-٢٨٠
٣٧	الحشر ٧	وما آتاكم الرسول فخذوه	-٢٨١
٤٨	هود ٨٨	وما أريد أن أخالفكم	-٢٨٢
٢٠٦	الشورى ١٠	وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله	-٢٨٣
٢٢٥	الروم ٣٩	وما آتيتم من ربا ليربوا في أموال الناس	-٢٨٤
٢٩٩	الأعراف ٨٢	وما كان جواب قومه إلا أن قالوا	-٢٨٥
٣١	الطلاق ٣	ومن يتق الله يجعل له مخرجاً	-٢٨٦
٣٣	النساء ٦٩-٧٠	ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم	-٢٨٧
٥٠	الروم ٢٢	ومن آياته خلق السموات والأرض	-٢٨٨
١٦٦	العنكبوت ٦٨	ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً	-٢٨٩
ج	النمل ٤١	ومن شكر فإنما يشكر لنفسه	-٢٩٠

٨٦	القصص ٥-٦	ونريد أن نمن على الذين استضعفوا	-٢٩١
٧٢	الإسراء ٨٢	ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة	-٢٩٢
٣١	الحديد ٤	وهو معكم أينما كنتم	-٢٩٣
٨٨	النحل ١٤	وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحمًا	-٢٩٤
١٥١	النمل ١٦	وورث سليمان داود	-٢٩٥
١٠٥	هود ٥٢	ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه	-٢٩٦
٢٣٧	المطففين ١-٥	ويل للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون	-٢٩٧
٦٧-٢٢	الصف ١٠-١٣	يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم	-٢٩٨
٢٥	النساء ١	يا أيها الناس اتقوا ربكم	-٢٩٩
٢٥	آل عمران ١٠٢	يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله	-٣٠٠
٢٦	الحشر ١٨	يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر	-٣٠١
٢٧	البقرة ٢١	يا أيها الناس اعبدوا الله	-٣٠٢
٢٧	البقرة ١٨٣	يا أيها الذين آمنوا كتب	-٣٠٣
٣١	الأنفال ٢٩	يا أيها الذين آمنوا إن تقوا الله	-٣٠٤
-١١٨-٣٣ ٢٠٥-١١٩	النساء ٥٩	يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله	-٣٠٥
٦٨-٣٩	الأنفال ٢٤	يا أيها الذين آمنوا استجبوا لله وللرسول	-٣٠٦
-٦٣-٤١ ٨٥٦	الأنفال ٤٥-٤٦	يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة	-٣٠٧
٤٨	الصف ٢	يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون	-٣٠٨

٦٣	الأَنْفَال ١٥	يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا	-٣٠٩
٦٤	التوبة ٣٨	يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا	-٣١٠
٨٣	آل عمران ٢٠٠	يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا	-٣١١
١٠٧	محمد ٧	يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم	-٣١٢
١١٠	المائدة ٦٧	يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك	-٣١٣
١٣٢	النساء ١٣٥	يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط	-٣١٤
١٥٨	الأحزاب ٩	يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم	-٣١٥
٢١٩	المتحنة ١	يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء	-٣١٦
٢٢٣	النساء ١٣٥	يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط	-٣١٧
٢٢٣	المائدة ١	يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود	-٣١٨
٢٢٦	آل عمران ١٣٠	يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا	-٣١٩
٢٢٨	البقرة ٢٧٨	يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا	-٣٢٠
٢٤٥	النساء ١	يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم	-٣٢١
٢٦٥	النساء ٤٣	يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى	-٣٢٢

٢٦٥	المائدة ٩٠	يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر	-٣٢٣
٢٧٤	الأنفال ٢٧	يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول	-٣٢٤
١٧١	هود ٤٣	يا بني اركب معنا	-٣٢٥
٢٠٢	لقمان ١٧	يا بني أقم الصلاة وأمر بالمعروف	-٣٢٦
١٣٤	ص ٢٦	يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض	-٣٢٧
٤٦	المجادلة ١١	يرفع الله الذين آمنوا منكم	-٣٢٨
٣٥٣	الصف ٩-١٠	يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم	-٣٢٩
١٢٧	الأنفال ١	يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول	-٣٣٠
٢٦٧-٢٦٥	البقرة ٢١٩	يسألونك عن الخمر والميسر	-٣٣١
٢٢٨	البقرة ٢٧٦	بمحق الله الربا ويربي الصدقات	-٣٣٢

٢- فهرس

الأحاديث الشريفة

رقم الصفحة	أطراف الأحاديث	رقم الحديث
٣٥٥	أتعرف الحيرة؟	١-
٢	اتق الله حيثما كنت	٢-
١٨٥	اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات	٣-
٢٦٩	اجتنبوا الخمر فإنها أم الخبائث	٤-
٢٣٠	اجتنبوا السبع الموبقات	٥-
١٥٠	أحب الصلاة إلى الله صلاة داود	٦-
٥٩	إذا تبايعتم بالعينة	٧-
١٢٠	إذا خرج ثلاثة في سفر	٨-
١٦٨	إذا قال المسلم لأخيه يا كافر	٩-
٢٧٢	إذا سرق السارق فاقطعوا يده	١٠-
٢٧٤	إذا حدث الرجل بحديث ثم التفت	١١-
٢٩٧	أرسل الله المطر أربعين	١٢-
٢٥١	استفت قلبك وإن أفتاك الناس	١٣-
٢٠٦	اسق أرضك ثم أرسل الماء	١٤-
٨٩	أفلا أكون عبداً شكوراً	١٥-
١٢٣	ألا أخيركم بأفضل من درجة الصيام	١٦-
٧٣	ألا إن القوة الرمي	١٧-

١٠٤	الاستغفار ممحاة للذنوب	-١٨
١٣٧	اللهم هذا قسمي فيما أملك	-١٩
٢٢٩	ألا وإن كل ربا من ربا الجاهلية موضوع	-٢٠
٣١	إن الله سيجعل لك محرّجاً	-٢١
٤٧	إن الله وملائكته وأهل السموات والأرض	-٢٢
٥٤	إن أناساً من أمّتي سيتفقّهون	-٢٣
٦٩	إن في الجنة مائة درجة	-٢٤
١١٤	إن من الأنبياء من يأتي يوم القيامة ومعه الرهيط	-٢٥
١٢٠	إن السلطان ظل الله في الأرض	-٢٦
٢٩١	إن قارون أعطي بغياً من بغايا بني إسرائيل	-٢٧
٣٥٥	إن الله زوى لي الأرض	-٢٨
٢٢٠	انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ	-٢٩
٣٠	أوصيكم بتقوى الله	-٣٠
٢٧٥	آية المنافق ثلاث	-٣١
٣٥٤	بشر هذه الأمة بالسنا والرفعة	-٣٢
٤١	تركت فيكم أمرين	-٣٣
٢٤٧	تعين الرجل في دابته فتحمله عليها	-٣٤
٣٥٥-١٢١	تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون	-٣٥
٧٣	الحج عرفة	-٣٦
٣٣	جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال	-٣٧
٢٣٠	الدرهم من الربا	-٣٨
٤٤	الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله	-٣٩
٦٩	رأس الأمر الإسلام	-٤٠
١٦٨	سباب المسلم فسوق	-٤١

٥٦	صنفان من أمتي إذا صلحا	-٤٢
٤٤	طلب العلم فريضة	-٤٣
٤٧	فضل العالم على العابد	-٤٤
٢٧١	قطع النبي صلى الله عليه وسلم في مجن	-٤٥
١٧٥	كان نوح مكث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً	-٤٦
٢٩٢	الكبرياء ردائي والعظمة إزاري	-٤٧
٢٨٤	الكبر من بطر الحق وغمط الناس	-٤٨
٣٩	كيف تقضي إذا عرض لك قضاء	-٤٩
٦٣	لا هجرة بعد الفتح	-٥٠
١٢٠	لا يحل لثلاثة يكونون بفلاة	-٥١
٢٢٢	لا تجتمع أمتي على ضلالة	-٥٢
٢٣١	لا تبيعوا الذهب بالذهب	-٥٣
٢٤٢	لا تبرحوا إن رأيتمونا ظهرنا عليهم	-٥٤
٢٧١	لا تقطع يد السارق إلا في ربع دينار	-٥٥
٣٥٦	لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود	-٥٦
٢٣٠	لعن الله آكل الربا	-٥٧
٦٩	لغدوة في سبيل الله أو روحة	-٥٨
١٥٧	لقد أوذيت في الله وما يؤذي أحد	-٥٩
٢٧٦	لكل غادر لواء يوم القيامة	-٦٠
٩٨	لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله	-٦١
٢٦٢	لو سرق فاطمة بنت محمد	-٦٢
٣٥٥	ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار	-٦٣
١٢٤	ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس	-٦٤
٣٩	ليس بذلك، إنما هو الشرك	-٦٥

٨٤	ما أعطي أحد عطاء خيراً وأوسع من الصبر	-٦٦
٤٤	من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً	-٦٧
٥٥	من تعلم علماً مما يبتغي به وجه الله	-٦٨
٧١	من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا	-٦٩
١١٩	من خلع يداً من طاعة	-٧٠
١٣٧	من كانت له امرأتان فمال إلى إحداهما	-٧١
١٨٥	من ظلم قيد شبر من الأرض	-٧٢
١٨٦	من كانت له مظلمة	-٧٣
٢٠٠	من رأى منكم منكراً فليغيره	-٧٤
٣٥	هذا سبيل الرشد	-٧٥
٩٧	هم الذين لا يكتونون ولا يسترقون	-٧٦
٩٠	والله إني لأحبك فلا تنسى أن تقول	-٧٧
١٦٨	والله لا يؤمن والله لا يؤمن	-٧٨
١١٣	والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف	-٧٩
٢٠٩	وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله	-٨٠
٢٣٨	ويل واد في جهنم يهوي فيه الكافر	-٨١
٤٨	يؤتى بالرجل يوم القيامة	-٨٢
٣٠	يا أيها الناس عليكم بتقواكم	-٨٣
١٦٠	يا شيبة إنه لا يراها إلا كافر	-٨٤
١٨٥	يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي	-٨٥
٢٣٩	يا معشر المهاجرين خمس خصال	-٨٦
٣٠١	يرحم الله لوطاً	-٨٧

٣- فهرس الأعلام

رقم الصفحة	العَلَم	الرقم المسلسل
١٢٤	إبراهيم الزجاج	-١
١٥٢	ابن السائب الكلبي	-٢
١٧	ابن القيم الجوزية	-٣
١٥٢	أبو قيس	-٤
١٥٤	أبو رجاء العطاردي	-٥
	أبي بن كعب	-٦
٤٤	أحمد بن حنبل	-٧
٥٦	أحمد بن تيمية	-٨
٢٥٦	أسماء بنت مرثد	-٩
٨٣	أشعث بن قيس	-١٠
١٦٢	أصحمة	-١١
١٤٧	الأعمش	-١٢
٣٢١	أوجست كونت	-١٣
١٩	جندب بن عبد الله	-١٤
٢١٩	حاطب بن أبي بلتعة	-١٥
٢٨٤	الحاكم	-١٦
١٠٣	حذيفة بن اليمان	-١٧
١٠٣	الحسن البصري	-١٨

٣٢٥	دور كاتم	-١٩
١٩٨	رفاعة الطهطاوي	-٢٠
١٢٤	الزجاج	-٢١
٥٦	سعيد بن المسيب	-٢٢
١٠٤	الشعبي	-٢٣
٢٧٥	طعمة بن أبيرق	-٢٤
٢٤	طلق بن حبيب	-٢٥
١٦٢	عامر بن الجراح	-٢٦
١٠٠	عامر بن فهيرة	-٢٧
٢١٣	عبادة بن الصامت	-٢٨
٤٨	عبد الرزاق	-٢٩
٢٤٢	عبد الله بن جبير	-٣٠
	عبد الله بن حنظلة	-٣١
٢١٤	عبد الله بن عبيد	-٣٢
٣٥٦	عدي بن حاتم	-٣٣
٢٩	العرباض بن سارية	-٣٤
١٥٦	عروة بن الزبير	-٣٥
٥٧	عز الدين بن عبد السلام	-٣٦
٩١	عمر بن عبد العزيز	-٣٧
٣١	عوف الأشجعي	-٣٨
٤٤	قتادة بن دعامة	-٣٩
٣٢١	كونت	-٤٠
٣٣٤	ماركس	-٤١
٢٥٤	مجاهد بن جبر	-٤٢

١٧٣	مقاتل بن سليمان	-٤٣
٢٥١	ميمون بن مهران	-٤٤
٣٢٩	هريرك سنسر	-٤٥
١٤٤	يوشع بن نون	-٤٦

٤- فهرس

المصادر والمراجع

١. أثر الذنوب في هدم الأمم والشعوب - محمد محمود الصواف - دار الاعتصام.
٢. أحكام القرآن - أبو بكر محمد بن عبد الله المعروف بابن العريب - تحقيق محمد عبد القادر عطا - دار الكتب العلمية - بيروت ط ١ ١٩٨٨ م - ١٤٠٨ هـ.
٣. الأحكام السلطانية والولايات الدينية - أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري البغدادي الماوردي - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان.
٤. إحياء علوم الدين - الإمام أبو حامد الغزالي - دون ذكر دار النشر.
٥. الأخلاق الإسلامية وأسسها - عبد الرحمن الميداني - دار القلم الطبعة الثالثة ١٩٩٢ م.
٦. أدب الدنيا والدين - أبي الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري الماوردي.
٧. ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة - د. مصلح بيومي - المكتبة التوفيقية الطبعة الثانية ١٩٧٩ م.
٨. إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم - لأبي السعود محمد بن محمد بن مصطفى العمادي - دار الفكر - دار إحياء التراث العربي.
٩. الأساس في التفسير - سعيد حوى - دار السلام.
١٠. الاستيعاب في معرفة الأصحاب - لأبي عمر يوسف بن عبد الله القرطبي - دار الكتب العلمية - الطبعة الأولى ١٩٩٥ م.
١١. أساليب الغزو الفكري - د. علي جريشة ومحمد شريف الزريق - دار الاعتصام.
١٢. أساليب الغزو والتيارات المعادية للإسلام - د. محمد نعيم ياسين - الوفاء للطباعة والنشر.
١٣. أسد الغابة في معرفة الصحابة - مجد الدين أبي السعادات المبارك بن محمد الجزري ابن الأثير - دار الفكر.

١٤. الإسلام على مفترق الطرق - محمد أسد (ليوبولد فايس) ترجمة د. عمر فروخ
- دار العلم للملايين الطبعة الثانية ١٩٤٨م
١٥. إسلامنا - السيد سابق - دار الكتاب العربي
١٦. الإسلام والخلافة في العصر الحديث - د. محمد ضياء الدين الرئيس - دار التراث
١٧. الإسلام وأوضاعنا السياسية - عبد القادر عودة - مؤسسة الرسالة
١٨. الإسلام عقيدة وشريعة - محمود شلتوت - مؤسسة الرسالة
١٩. الإسلام والحضارة الغربية - د. محمد محمد حسين
٢٠. الإسلام والتعاون - عبد المنعم حمادة - مطبعة القاهرة
٢١. الإسلام أصل حضارة العالم - الشيخ محمود محمد المدني
٢٢. الإسلام وتحديات الانحطاط المعاصر - منير شفيق - الزهراء للإعلام العربي -
الطبعة الثانية ١٩٨٧م.
٢٣. الإصابة في تمييز الصحابة - لابن حجر العسقلاني - دار إحياء التراث العربي
ط ١٣٢٨هـ
٢٤. أصول الدعوة - د. عبد الكريم زيدان - دار البيان الطبعة الثالثة ١٩٧٦م
٢٥. أصول الدين - عبد القاهر بن طاهر البغدادي - دار الكتب العلمية الطبعة الثالثة
١٩٨١م
٢٦. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن - محمد الأمين الشنقيطي - مكتبة ابن
تيمية القاهرة ١٩٨٨م
٢٧. الإنسان والحضارة - يوسف الجولاني
٢٨. أنوار التنزيل وأسرار التأويل - ناصر الدين عبد الله بن عمر بن محمد
البيضاوي - دار الكتب العلمية
٢٩. إيثار الحق على الخلق - لأبي عبد الله محمد بن المرتضى اليماني - دار الكتب
العلمية

٣٠. الإيمان أركانه حقيقته نواقضه - د. محمد نعيم ياسين - جمعية عمال المطابع
التعاونية ١٩٨٢م
٣١. أسرار التفاسير لكلام العلي الكبير - لأبي بكر الجزائري - دون ذكر دار النشر
الطبعة الأولى ١٩٩٣م
٣٢. الإيمان (الفتاوى) - لتقي الدين أحمد بن تيمية - دون ذكر دار النشر
٣٣. الإيمان والحياة - د. يوسف القرضاوي - مؤسسة الرسالة الطبعة الرابعة
١٩٧٩م
٣٤. البحر المحيظ - لأبي عبد الله محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان
الأندلسي - دار إحياء التراث العربي
٣٥. بحر العلوم - نصر بن محمد السمرقندي - دار الكتب العلمية الطبعة الأولى
١٩٩٣م
٣٦. البداية والنهاية - لأبي الفدا إسماعيل بن عمرو بن كثير - دار الكتب العلمية.
٣٧. بداية المجتهد ونهاية المقتصد - محمد بن أحمد بن رشد القرطبي - دار المعرفة.
٣٨. تاج العروس من جواهر القاموس - لمحمد المرتضى الحسيني الزبيدي - مكتبة الحياة
٣٩. تاريخ بغداد - للخطيب البغدادي - دار الكتب العلمية
٤٠. التاريخ الكبير - الحافظ أبي عبد الله الذهبي - دار الكتب - ١٩٧٣م
٤١. تاريخ الرسل والملوك - لأبي جعفر بن جرير الطبري تحقيق أبي الفضل إبراهيم
- دار المعارف - الطبعة الرابعة
٤٢. تاريخ العالم الإسلامي - د. إبراهيم العدوي
٤٣. تاريخ الفكر الاجتماعي - د. حسن شحاته سغفان - دار النهضة العربية الطبعة
الرابعة ١٩٦٦م
٤٤. تاريخ الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامي - د. أبو زيد شلبي - مكتبة وهبة
٤٥. تاريخ الحضارة الإسلامية - السياسة - الإدارة - القضاء - د. صلاح حسن
العاور - مكتبة إيهاب ١٤١٦هـ - ١٩٩٦.

- ٤٦ . تفسير النكت والعيون - الماوردي - دار الكتب العلمية.
- ٤٧ . تفسير القرآن العظيم - إسماعيل بن عمرو بن كثير - دار المعرفة - دار الفكر - دار المعرفة.
- ٤٨ . تفسير القرآن الحكيم (المنار) - محمد رشيد رضا - دار الفكر - الهيئة المصرية
- ٤٩ . التفسير القرآني للقرآن - عبد الكريم الخطيب - دار الفكر العربي
- ٥٠ . التفسير الكاشف - محمد جواد مغنية - دار العلم للملايين
- ٥١ . التفسير الكبير - محمد بن عمرو بن الحسين الرازي - دار الفكر - دار إحياء التراث العربي - دار الكتب العلمية
- ٥٢ . التفسير الواضح - محمد حجازي - دار الكتاب العربي.
- ٥٣ . التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج - د. وهبة الزحيلي - دار الفكر المعاصر.
- ٥٤ . تفسير المراغي - الشيخ محمد مصطفى المراغي - دار الفكر.
- ٥٥ . التنصير مفهومه وأهدافه ووسائله وسبل مواجهته - د. علي النملة - دار الصحوة
- ٥٦ . تنوير الأذهان من تفسير روح البيان - للشيخ إسماعيل حقي البروسوي - اختصار محمد علي الصابوني - دار الصابوني.
- ٥٧ . تهذيب إحياء علوم الدين - عبد السلام هارون - مؤسسة الكتب الثقافية الطبعة الأولى ١٩٨٨ م
- ٥٨ . توجيهات إسلامية لإصلاح الفرد والمجتمع - محمد جميل زينو - دار الصمعي
- ٥٩ . تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان - عبد الرحمن بن ناصر السعدي - مؤسسة مكة للطباعة والنشر ١٣٩٨ هـ
- ٦٠ . تيسير العلي القدير باختصار تفسير ابن كثير - محمد نسيب الرافعي - مكتبة المعارف
- ٦١ . جامع الأصول في أحاديث الرسول - الإمام المبارك بن محمد بن الأثير الجزري -

- تحقيق وتخریج وتعلیق عبد القادر الأرنؤوط- دار الفكر ١٣٩٠هـ-١٩٧١م.
٦٢. جامع البيان في تفسير القرآن- لمحمد بن جریر الطبري- دار المعرفة- دار الريان للتراث
٦٣. الجامع لأحكام القرآن- لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي- دار إحياء التراث العربي
٦٤. الجامع الصحيح (صحيح البخاري)- للإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري- دار الحديث.
٦٥. الجامع الصحيح (سنن الترمذي) - لأبي عيسى محمد بن عيسى الترمذي- دار الفكر- بيروت- الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.
٦٦. الجهاد في سبيل الله- لأبي الأعلى المودودي- مؤسسة الرسالة- الطبعة الأولى- ١٣٩٧هـ-١٩٧٧م.
٦٧. الجهاد والفدائية في الإسلام- حسن أيوب- الكويت- الطبعة الأولى- ١٣٩٧هـ-١٩٧٧م.
٦٨. حاضر العالم الإسلامي- د. علي جريشة ومحمود سالم- مطابع الدجوي
٦٩. حتى لا تغرق السفينة- سلمان العودة- دار الوطن للنشر
٧٠. الحضارة الإسلامية وأسسها ومبادئها. الإيمان بالله وملائكته وكتبه واليوم الآخر - لأبي الأعلى المودودي- دار الخلافة للطباعة والنشر.
٧١. الحكم الجامعة لشتى العلوم النافعة - عبد الله بن زيد آل محمود- مطبوعات المحاكم الشرعية والشؤون الدينية بقطر. ط ٣- ١٤١١هـ
٧٢. الخلافة والملك- لأبي الأعلى المودودي
٧٣. خلق المسلم- محمد الغزالي- دار القلم دمشق
٧٤. الدر المنثور في التفسير المأثور- جلال الدين السيوطي- مطبعة الأنوار الحمديّة
- ١٩٩٠م
٧٥. دراسات في الحضارة الإسلامية- د. أحمد الشريف- دار الفكر.

٧٦. دلائل النبوة-إسماعيل بن محمد بن الفضل الأصبهاني- إعداد أبي عبد الله محمد ابن محمد الحداد-دار طيبة-الرياض- الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ-١٩٨٨م.
٧٧. الدين الخالص- محمد صديق خان- دار التراث
٧٨. رؤية إسلامية لأحوال العالم المعاصر- محمد قطب- مكتبة السنة الطبعة الأولى ١٩٩١م
٧٩. الربا - لأبي الأعلى المودودي- مؤسسة الرسالة- بيروت ١٣١٩هـ - ١٩٧٩م.
٨٠. الرحيق المختوم- الشيخ صفى الرحمن المباركفوري- دار إحياء التراث
٨١. روائع البيان في تفسير آيات الأحكام- محمد علي الصابوني- دار السلام الطبعة الأولى ١٩٩٥م
٨٢. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني- لشهاب الدين محمد أفندي الألوسي البغدادي- دار الفكر- دار التراث
٨٣. روح الدين الإسلامي- عفيف عبد الفتاح طّبارة- دار العلم للملايين- بيروت- الطبعة الثامنة عشرة ١٩٧٩م.
٨٤. زاد المسير في علم التفسير- لأبي الفرج الجوزي- المكتب الإسلامي
٨٥. زاد المعاد في هدى خير الأنام- لمحمد بن أبي بكر بن القيم الجوزية- مؤسسة الرسالة - تحقيق شعيب وعبد القادر الأرناؤوط
٨٦. السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم- لشمس الدين محمد بن محمد الشريبي- دار المعرفة
٨٧. السقوط التراجيدي...أمريكا عام ٢٠٠٠- الجنرال المتقاعد هاميلتون هوز ترجمة د. محمد بن سعود البشر - دار العاصمة
٨٨. السقوط من الداخلي- د. محمد بن سعود البشد- دار العاصمة.
٨٩. سلسلة الأحاديث الصحيحة-محمد ناصر الدين الألباني-المكتب الإسلامي الطبعة الرابعة ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م.

٩٠. السلوك الاجتماعي في الإسلام - حسن أيوب - دار الندوة
٩١. سنن النسائي بشرح السيوطي - الحافظ جلال الدين السيوطي - دار الفكر - بيروت الطبعة الأولى ١٣٤٨هـ - ١٩٣٠م.
٩٢. سنن ابن ماجه - لأبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني ابن ماجه - تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي - دار إحياء التراث العربي
٩٣. سنن الدارمي - الإمام أبو محمد عبد الله الدارمي - دار الكتب العلمية - دار العلم.
٩٤. سنن أبي داود - سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي - راجعه وضبطه أحاديثه دار إحياء التراث العربي.
٩٥. السنن الكبرى - أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي - تحقيق عبد القادر عطا - دار الكتب العلمية بيروت.
٩٦. السنة ومكانتها في التشريع - د. مصطفى السباعي - المكتب الإسلامي - الطبعة الثانية
٩٧. السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية - تقي الدين أحمد بن تيمية - دار المعرفة - الطبعة الرابعة ١٩٦٩م
٩٨. سير أعلام النبلاء - شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي - مؤسسة الرسالة الطبعة التاسعة ١٩٩٠م
٩٩. شرح العقيدة الطحاوية - لابن أبي العز الحنفي - تحقيق جماعة من العلماء خرج الأحاديث محمد ناصر الدين الألباني - المكتب الإسلامي الطبعة الثانية
١٠٠. الصير في القرآن - د. يوسف القرضاوي - الدوحة جمعية قطر الطبعة الثالثة ١٩٩٥م
١٠١. الصحاح تاج اللغة العربية وصحاح العربية - إسماعيل بن حماد الجوهري - دار العلم للملايين الطبعة الأولى ١٩٥٦م
١٠٢. صحيح مسلم - لأبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري - دار إحياء الكتب العربية الطبعة الأولى ١٩٥٥م

١٠٣. صحيح مسلم بشرح النووي- الإمام محي الدين النووي- دار إحياء التراث العربي.
١٠٤. صحيح الجامع الصغير وزيادته- محمد ناصر الدين الألباني- المكتب الإسلامي- الطبعة الثالثة- ١٤٠٨هـ.
١٠٥. صحيح سنن ابن ماجه- محمد ناصر الدين الألباني- المكتب الإسلامي - بيروت- الطبعة الثالثة ١٤٠٨-١٩٨٨م.
١٠٦. الطبقات الكبرى- ابن سعد- دار صادر.
١٠٧. طريق المهجرتين وباب السعادتين- محمد بن أبي بكر بن القيم الجوزية- مطابع الدوحة الحديثة قطر- تحقيق عبد الله الأنصاري
١٠٨. العدالة الاجتماعية في الإسلام- سيد قطب- دار الشروق
١٠٩. عدة الصابرين- لابن القيم الجوزية تحقيق عصام الصباطي- دار الحديث الطبعة الأولى ١٩٩٣م
١١٠. العقائد الإسلامية وأسسها- عبد الرحمن الميداني
١١١. عناصر القوة في الإسلام- سيد سابق- دار الكتاب العربي
١١٢. عون المعبود شرح سنن أبي داود- ابن القيم الجوزية- مكتبة ابن تيمية
- ١١٣- الغرب نحو الدرب - محفوظ العباسي- شركة ومطبعة الزهراء الطبعة الأولى ١٩٨٧م
١١٤. الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام - د. عبد الستار فتح الله سعيد- دار الأنصار
١١٥. فتح القدير - محمد بن علي الشوكاني- المكتبة العصرية - الطبعة الأولى ١٩٩٧م
١١٦. فتح البيان في مقاصد القرآن- أبي الطيب صديق بن حسن القنوجي- دار إحياء التراث

١١٧. فتح الرحمن في تفسير القرآن - أ. د. عبد المنعم تعيلب - دار السلام الطبعة

الأولى ١٩٩٥م

١١٨. فتح الباري شرح صحيح البخاري - لابن حجر العسقلاني - دار المعرفة

١١٩. الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين - سليمان الجمل - المكتب الثقافي

١٢٠. الفصل في الملل والأهواء والنحل - لابن حزم - دار الجيل

١٢١. الفقه على المذاهب الأربعة - عبد الرحمن الجزيري - دار إحياء التراث العربي -

الطبعة الثانية.

١٢٢. فقه السنة - السيد سابق - دار الكتاب العربي - بيروت.

١٢٣. الفوائد - شمس الدين بن القيم الجوزية - دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الثانية

١٩٧٣م

١٢٤. في ظلال القرآن - سيد قطب - دار إحياء التراث العربي - بيروت - الطبعة السابعة

١٣٩١هـ - ١٩٧١م.

١٢٥. في رحاب التفسير - عبد الحميد كشك - المكتب المصري للتحديث

١٢٦. القاموس المحيط - الفيروز آبادي - دار الفكر

١٢٧. قيم حضارية

١٢٨. قصص الأنبياء - إسماعيل بن عمرو بن كثير - دار إحياء الكتب العربية

١٢٩. الكامل في التاريخ - لابن الأثير - دار الكتب العلمية

١٣٠. الكبائر - شمس الدين الذهبي - دار إحياء الكتب العربية

١٣١. الكشف عن حقائق التزوير وعيون الأفاويل في وجوه التأويل - محمود بن عمر

بن محمد بن عمر الخوارزمي الزمخشري - دار الريان - دار المعرفة شركة مصطفى

البابي الحلبي

١٣٢. كواشف وزیوف في المذاهب الفكرية المعاصرة - د. عبد الرحمن الميداني - دار

القلم

١٣٣. لباب التأويل في معاني التنزيل - علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي المعروف

- بالخازن- دار الفكر شركة مصطفى الحلبي
 ١٣٤. لسان العرب- ابن منظور- دار صادر
 ١٣٥. لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم- الأمير شكيب أرسلان- مطبعة عيسى
 البابي الحلبي- الطبعة الثالثة
 ١٣٦. ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين- لأبي الحسن الندوي- دار الأنصار- دار
 القلم الطبعة العاشرة ١٩٧٧م
 ١٣٧. مجمع البيان لعلوم القرآن- لأبي علي الفصل بن الحسن بن الفضل الطبرسي-
 مطبعة السعادة
 ١٣٨. مجموعة التوحيد- لابن تيمية- دار الفكر الطبعة العاشرة
 ١٣٩. المجتمع المتكافل في الإسلام- د. عبد العزيز الخياط- مكتبة الأقصى مؤسسة
 الرسالة الطبعة الثانية ١٩٨١
 ١٤٠. مجمع الزوائد ومنبع الفوائد- الحافظ نور الدين الهيثمي- دار الفكر.
 ١٤١. محاسن التأويل- القاسمي- دار إحياء الكتب العربية- دار الفكر
 ١٤٢. المحرر الوجيز في تفسير الكلام العزيز- لابن عطية الأندلسي.
 ١٤٣. المحلى- لابن حزم- المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر
 - ١٤٤. مختار الصحاح- للإمام محمد بن أبي بكر الرازي- دار الفكر بيروت
 ١٤٥. مختصر منهاج القاصدين- أحمد بن قدامة المقدسي- دار إحياء الكتب العربية
 ١٤٦. المختصر في أخبار البشر- لأبي الفداء عماد الدين- دار الكتب العلمية
 ١٤٧. مدارك التنزيل وحقائق التأويل- أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود
 النسفي- دار القلم الطبعة الأولى
 ١٤٨. مذاهب فكرية معاصرة - محمد قطب- دار الحياة
 ١٤٩. المستدرک علی الصحیحین- الإمام الحافظ أبي عبد الله النيسابوري- تحقيق
 مصطفى عطا- دار الكتب العلمية- بيروت- الطبعة الأولى ١٤١١هـ - ١٩٩٠م.
 ١٥٠. مسند الإمام أحمد- الإمام أحمد بن حنبل- دار الفكر العربي- المكتب الإسلامي.

١٥١. مسند الإمام أحمد- شرح وفهرسة أحمد شاكر- الطبعة الرابعة.
 ١٥٢. المصباح المنير- أحمد الفيومي- دار الفكر المعاصر- مصطفى البابي الحلبي
 ١٥٣. معالم في الطريق- سيد قطب- دار الشروق الطبعة التاسعة ١٩٨٢م
 ١٥٤. معالم التزئيل- الحسين بن مسعود البغوي- شركة مصطفى البابي الحلبي الطبعة الثانية.

١٥٥. المعجم الكبير- الطبراني- تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي- مكتبة ابن تيمية.
 ١٥٦. المعجم الوسيط- د. إبراهيم أنيس. د. عبد الحلیم منتصر- دون ذكر دار النشر
 الطبعة الثانية

١٥٧. المعجم المفهرس لألفاظ القرآن- محمد عبد الباقي- دار الريان
 ١٥٨. معجم مقاييس اللغة- لأحمد بن فارس- دار الجيل الطبعة الأولى
 ١٥٩. معجم البلدان- للإمام شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي
 - البغدادى- دار إحياء التراث العربي- ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.
 ١٦٠. المفردات في غريب القرآن- الراجب الأصفهاني- دار المعرفة
 ١٦١. المقدمة في علم الاجتماع- عبد الرحمن بن خلدون- دون ذكر دار النشر
 ١٦٢. المنتظم في علم الاجتماع- لابن الجوزي- دار الكتب العلمية الطبعة الأولى
 - ١٦٣. المنجد في الأعلام- لأدوار لحد- دار المشرق

١٦٤. من وصايا الرسول صلى الله عليه وسلم - عفيف طبارة- دار الاعتصام
 ١٦٥. من هدي القرآن في الأخلاق والدين والاجتماع- محمد نمر الخطيب- مطبعة
 اليقظة ١٩٥٠م

١٦٦. منهاج الإسلام في الحكم- محمد أسد. تعريب منصور ماضي- دار العلم
 للملايين الطبعة الأولى ١٩٥٧

١٦٧. منهاج السنة النبوية مجموعة التوحيد- تقي الدين أحمد بن تيمية- دار الفكر
 ١٦٨. موارد الظمان لدروس الزمان- عبد العزيز محمد السلطان- ط٢٠- ١٤١٢

١٦٩. موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية- د. أحمد شليبي.
١٧٠. موسوعة الطالب الذكي- عبد الوهاب عثمان- مكتبة القرآن
١٧١. الموطأ- الإمام مالك- دار إحياء الكتب العربية
١٧٢. ميزان الاعتدال في نقد الرجال- أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي- دار الفكر العربي.
١٧٣. نحو إنسانية سعيدة- محمد المبارك- دار الفكر
١٧٤. نحو بناء مجتمع البدائل الإسلامية- أنور الجندي- دار الاعتصام
١٧٥. النكت والعيون- لأبي الحسن البصري الماوردي- دار الكتب العلمية
١٧٦. النهاية في غريب الحديث والأثر- مجد الدين أبي السعادات المبارك بن محمد الجزري ابن الأثير- تحقيق طاهر الزاوي، ومحمد الطناجي- دار الكتب العربية.
١٧٧. النهر المسد من البحر المحيط- لأبي حيان الأندلسي- تقديم وضبط بوران الضناوي- دار الفكر- ط ١ ١٩٨٧ م.
١٧٨. هل نحن مسلمون- محمد قطب- دار الشروق
١٧٩. هموم المسلم المعاصر- د. يوسف القرضاوي- مكتبة التراث الإسلامي
١٨٠. الواقع الفاسد وضرورة التغيير- محمد نبهان- مكتبة الرسالة الحديثة
١٨١. واقعا المعاصر- محمد قطب- مؤسسة المدينة للصحافة والطباعة والنشر
١٨٢. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان- لأبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان- تحقيق د. إحسان عباس- دار صادر- دار الثقافة بيروت.
١٨٣. الولاء والبراء- محمد بن سعيد القحطاني- النور الإسلامية الطبعة الثانية
١٨٤. يوم أن اعترفت أمريكا بالحقيقة- جيمس بارتسون وبيتر كيم ترجمة د. محمد بن سعود البشر- دار العاصمة.

دوريات:

١٨٥. مجلة الأزهر- السنة التاسعة والخمسون ج ١٢ ذي الحجة ١٤٠٧.

١٨٦. مجلة الجامعة الإسلامية-المدينة المنورة العدد الثامن- السنة الخامسة- محرم

١٣٩٣هـ-١٩٧٣م.

١٨٧. نشرة خطر التبرج والسفور على الأفراد والمجتمع- ابن باز.

الجرائد:

١٨٨. جريدة الرسالة-٢٥ ربيع آخر- ١٤٢١هـ - ٢٧/٧/٢٠٠٠ العدد ١٦٦.

٥٥٤- فهرس

الموضوعات

رقم الصفحة	الموضوع	الرقم المسلسل
ب	الإهداء	-١
ج	شكر و عرفان	-٢
هـ	المقدمة	-٣
و	أهمية وأسباب اختيار الموضوع	-٤
ز	أهداف البحث	-٥
ز	منهج البحث	-٦
ح	الدراسات السابقة	-٧
ط	خطة البحث	-٨
١	تمهيد	-٩
١	تعريف الأمة لغة واصطلاحاً	-١٠
٢	استخلاف الله الإنسان في الأرض	-١١
٥	الحضارة	-١٢
٥	الحضارة لغة	-١٣
٦	الحضارة اصطلاحاً	-١٤
٧	الفرق بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية	-١٥
١٠	مقومات الحضارة	-١٦
١٠	البيئة المادية	-١٧
١١	البيئة الإنسانية	-١٨

١٠	البيئة المادية	-١٧
١١	البيئة الإنسانية	-١٨
١١	المقوم الاقتصادي	-١٩
١٢	المقوم السياسي	-٢٠
١٣	المقوم الأخلاقي	-٢١
١٤	المقوم الثقافي	-٢٢
١٦	الفصل الأول: حقيقة الارتقاء ومقوماته في ضوء القرآن الكريم	-٢٣
١٦	التمهيد: تعريف الارتقاء	-٢٤
١٦	مقومات الارتقاء في ضوء القرآن الكريم	-٢٥
١٧	المبحث الأول: الإيمان	-٢٦
١٧	تعريف الإيمان: لغة واصطلاحًا	-٢٧
١٨	الإيمان يزيد وينقص	-٢٨
١٩	الإيمان مفتاح الرزق	-٢٩
٢٠	الإيمان وأثره في ارتقاء الأمم	-٣٠
٢٤	المبحث الثاني: التقوى	-٣١
٢٤	تعريف التقوى لغة واصطلاحًا	-٣٢
٢٥	الأمر بالتقوى	-٣٣
٢٧	التقوى مناط الأعمال الصالحة	-٣٤
٢٨	المتقون هم الذين يهتدون بالقرآن	-٣٥
٢٩	التقوى وصية الله للأولين والآخرين	-٣٦
٣٠	تقوى الله وأثرها في الارتقاء	-٣٧
٣٣	المبحث الثالث: طاعة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم	-٣٨

٤٢	المبحث الرابع: العلم الديني والديني ودور العلماء في ارتقاء الأمم	-٣٩
٤٢	تعريف العلم لغة واصطلاحاً	-٤٠
٤٢	الحث على طلب العلم وبيان فضله	-٤١
٤٥	تشريف الله لأهل العلم	-٤٢
٤٧	ذم الذين يقولون ما لا يفعلون	-٤٣
٤٩	اعتناء القرآن بالعلم المادي	-٤٤
٥١	شهادة بعض علماء الغرب في مدينة الإسلام	-٤٥
٥٣	دور العلماء في ارتقاء الأمم	-٤٦
٥٩	المبحث الخامس: الجهاد في سبيل الله	-٤٧
٥٩	تعريف الجهاد لغة واصطلاحاً	-٤٨
٥٩	وقت فرض الجهاد والمرحل التي مرَّ بها	-٤٩
٦٢	حكم الجهاد	-٥٠
٦٤	الأمر بالجهاد وفضله	-٥١
٧٠	الجهاد تمحيص وابتلاء	-٥٢
٧١	الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله	-٥٣
٧٢	إعداد العدة	-٥٤
٧٤	من الشبهات حول الجهاد	-٥٥
٧٧	المبحث السادس: الصبر والشكر	-٥٦
٧٧	تعريف الصبر لغة واصطلاحاً	-٥٧
٧٧	الأمر بالصبر	-٥٨
٧٩	الابتلاء تمحيص للمؤمنين	-٥٩
٨٣	فضل الصبر	-٦٠
٨٥	الصبر وأثره في ارتقاء الأمة	-٦١

٨٧	المطلب الثاني: الشكر	-٦٢
٨٧	تعريف الشكر لغة واصطلاحًا	-٦٣
٩٠	الشكر يزيد النعم	-٦٤
٩٢	كفر النعمة سبب في زوالها	-٦٥
٩٤	المبحث السابع: التوكل على الله والأخذ بالأسباب	-٦٦
٩٤	تعريف التوكل وحقيقته	-٦٧
٩٤	فضيلة التوكل والحض عليه	-٦٨
٩٧	الأخذ بالأسباب لا يناقض التوكل	-٦٩
١٠٠	التوكل على الله وأثره في الارتقاء	-٧٠
١٠٢	المبحث الثامن: الاستغفار	-٧١
١٠٣	الاستغفار يزيد الرزق	-٧٢
١٠٧	المبحث التاسع: نصره دين الله بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والعمل لإقامة الخلافة الإسلامية	-٧٣
١٠٨	فضل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والحض عليهما	-٧٤
١١١	الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة	-٧٥
١١٢	الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سبيل النجاة	-٧٦
١١٤	الدعوة إلى الله سبيل الرسول والمؤمنين	-٧٧
١١٦	أثر الدعوة في الارتقاء	-٧٨
١١٧	العمل لإقامة الخلافة الإسلامية	-٧٩
١١٨	الأدلة على فريضة الخلافة	-٨٠
١٢٢	المبحث العاشر: الإصلاح والعدل	-٨١
١٢٢	الإصلاح الاجتماعي: الأمر بالإصلاح وأهميته	-٨٢
١٢٤	أنواع الإصلاح	-٨٣
١٢٤	إصلاح الأفراد	-٨٤

١٢٥	إصلاح الأسرة	-٨٥
١٢٧	الإصلاح بين الطوائف	-٨٦
١٢٨	الإصلاح مهمة الأنبياء	-٨٧
١٣٠	العدل	-٨٨
١٣١	الدعوة إلى العدل	-٨٩
١٣٣	مجالات العدل	-٩٠
١٣٣	العدل في الحكم والقضاء	-٩١
١٣٤	العدل مع الأعداء	-٩٢
١٣٧	العدل بين الزوجات	-٩٣
١٣٨	العدل والارتقاء	-٩٤
١٤١	الفصل الثاني: نماذج لأمم ارتقت فأعزها الله	-٩٥
١٤١	المبحث الأول: قوم يونس عليه السلام	-٩٦
١٤٤	المبحث الثاني: بنو إسرائيل بقيادة يوشع بن نون	-٩٧
١٤٦	المبحث الثالث: طالوت ومن بغده داود وسليمان عليهما السلام	-٩٨
١٥١	انتقال الملك إلى سليمان	-٩٩
١٥٣	المبحث الرابع: الأمة الإسلامية	-١٠٠
١٦٥	الفصل الثالث: حقيقة الانحدار وأسبابه في ضوء القرآن الكريم	-١٠١
١٦٥	تمهيد: معنى الانحدار	-١٠٢
١٦٥	أسباب الانحدار في القرآن الكريم	-١٠٣
١٦٥	المبحث الأول: الكفر بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم	-١٠٤
١٦٥	المطلب الأول: تعريف الكفر وأسبابه وأقسامه	-١٠٥
١٦٦	أنواع الكفر: القسم الأول: كفر يخرج من الملة	-١٠٦

١٦٨	القسم الثاني: الكفر الأصغر الذي لا يخرج من الملة	-١٠٧
١١٦٩	أسباب الكفر	-١٠٨
١٧٣	المطلب الثاني: أمثلة على أثر الكفر في الهلاك	-١٠٩
١٧٣	أولاً: هلاك قوم نوح عليه السلام	-١١٠
١٧٦	ثانياً: هلاك عاد الأولى	-١١١
١٧٩	ثالثاً: هلاك ثمود	-١١٢
١٨٣	المبحث الثاني: الظلم	-١١٣
١٨٣	المطلب الأول: تعريف الظلم والنهي عنه	-١١٤
١٨٧	المطلب الثاني: خطر الظلم على الأمة	-١١٥
١٨٩	أمثلة على خطر الظلم على الأمم	-١١٦
١٩٤	المبحث الثالث: الفساد في الأرض	-١١٧
١٩٤	المطلب الأول: تعريف الفساد وأسباب انتشاره	-١١٨
١٩٤	التعليم	-١١٩
١٩٧	الابتعاث إلى الخارج	-١٢٠
١٩٨	وسائل الإعلام	-١٢١
٢٠٠	علاج الفساد	-١٢٢
٢٠٥	المطلب الثاني أنواع الفساد	-١٢٣
٢٠٥	أولاً: الفساد السياسي	-١٢٤
٢٠٥	أ- الحكم بغير ما أنزل الله	-١٢٥
٢١٠	ب- موالة الكافرين	-١٢٦
٢١٥	صفات من تجب موالاتهم	-١٢٧
٢١٦	من مظاهر الولاء للكافرين	-١٢٨
٢٢١	ج- الاستبداد السياسي	-١٢٩
٢٢٤	ثانياً: الفساد الاقتصادي	-١٣٠

٢٢٤	أولاً: الربا	-١٣١
٢٢٥	حكم الربا	-١٣٢
٢٣١	أنواع الربا	-١٣٣
٢٣١	شبهة ورد	-١٣٤
٢٣٣	الأسباب التي لأجلها حرّم الله الربا	-١٣٥
٢٣٦	التطيف في الكيل والميزان	-١٣٦
٢٣٦	تعريف التطيف	-١٣٧
٢٣٦	حكم التطيف	-١٣٨
٢٤٠	ثالثاً: الفساد الاجتماعي	-١٣٩
٢٤٠	التنازع والتفكك	-١٤٠
٢٤٤	عدم التعاون	-١٤١
٢٤٨	المبحث الرابع: الانحطاط الأخلاقي	-١٤٢
٢٤٨	المطلب الأول: أسباب انتشاره: أولاً: ضعف التقوى والوازع الديني	-١٤٣
٢٥٢	ثانياً: التبرج والاختلاط	-١٤٤
٢٦٠	المطلب الثاني: من مظاهر الانحطاط الأخلاقي	-١٤٥
٢٦٠	أولاً: انتشار الزنا	-١٤٦
٢٦٣	المفاسد المترتبة على الزنا	-١٤٧
٢٦٥	ثانياً: شرب الخمر	-١٤٨
٢٦٧	مضار الخمر	-١٤٩
٢٧٠	ثالثاً: السرقة	-١٥٠
٢٧٢	من أين تقطع يد السارق	-١٥١
٢٧٢	شبهة الرد عليها	-١٥٢
٢٧٣	رابعاً: الخيانة	-١٥٣

٢٧٧	المطلب الثالث: خطر الانحطاط الأخلاقي على الأمم في الماضي والحاضر	-١٥٤
٢٨١	المبحث الخامس: البغي والاستكبار في الأرض	-١٥٥
٢٨١	المطلب الأول: تعريفهما والتحذير منهما	-١٥٦
٢٨١	النهي عن البغي	-١٥٧
٢٨٤	الاستكبار	-١٥٨
٢٨٤	تعريف الاستكبار	-١٥٩
٢٨٥	ذم الكبر والنهي عنه	-١٦٠
٢٨٩	المطلب الثاني: بعض أمثلة البغي والاستكبار وأثرها على الأمم	-١٦١
٢٩٥	الفصل الرابع: نماذج للأمم انحدرت فأهلكها الله	-١٦٢
٢٩٥	المبحث الأول: قوم نوح عليه السلام	-١٦٣
٢٩٨	المبحث الثاني: قوم لوط عليه السلام	-١٦٤
٣٠٤	المبحث الثالث: عاد	-١٦٥
٣٠٦	المبحث الرابع: ثمود	-١٦٦
٣٠٨	المبحث الخامس: قوم فرعون	-١٦٧
٣١٣	المبحث السادس: أصحاب الفيل	-١٦٨
٣١٨	خلاصة الفصل	-١٦٩
٣٢١	الفصل الخامس: عوامل الارتقاء والانحدار بين حقائق القرآن ونظريات علم الاجتماع	-١٧٠
٣٢١	المبحث الأول: نظريات علم الاجتماع وتناولها لعوامل الارتقاء والانحدار	-١٧١
٣٢١	أولاً: أوجست كونت: تطور المجتمع عند كونت	-١٧٢
٣٢٢	التطور التاريخي للنظم الاجتماعية	-١٧٣

٣٢٣	نوعا الاجتماع: الحالة الاستقرارية والحالة التطورية	-١٧٤
٣٢٤	نظرة كونت للأخلاق	-١٧٥
٣٢٥	ثانياً: دور كايم	-١٧٦
٣٢٥	نظرية دور كايم في التطور والتضامن الاجتماعي	-١٧٧
٣٢٧	نظرية دور كايم في الدين	-١٧٨
٣٢٩	ثالثاً: هربرت سبنسر	-١٧٩
٣٣٢	رابعاً: لستروورد	-١٨٠
٣٣٤	خامساً: كارل ماركس	-١٨١
٣٣٦	البحث الثاني: مقارنة نظريات علم الاجتماع مع عوامل الارتقاء والانحدار	-١٨٢
٣٤٠	الإعجاز الاجتماعي في القرآن	-١٨٣
٣٤٧	الفصل السادس: الأمة الإسلامية بين الارتقاء والانحدار	-١٨٤
٣٤٧	المبحث الأول: نبذة عن ماضي المسلمين وحاضرهم	-١٨٥
٣٥٢	المبحث الثاني: البشائر بارتقاء الأمة الإسلامية	-١٨٦
٣٥٨	الخاتمة	-١٨٧
٣٥٩	النتائج التي توصلت إليها في هذا البحث	-١٨٨
٣٥٩	التوصيات التي أوصي بها	-١٨٩
٣٦١	الفهارس العامة	-١٩٠
٣٦٢	فهرس الآيات القرآنية	-١٩١
٣٨٠	فهرس الأحاديث الشريفة	-١٩٢
٣٨٤	فهرس الأعلام	-١٩٣
٣٨٧	فهرس المصادر والمراجع	-١٩٤
٤٠٠	فهرس الموضوعات	-١٩٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسوله الأمين وبعد:

ملخص الرسالة

تبحث الرسالة في موضوع عوام ارتقاء الأمم وانحدارها في ضوء القرآن الكريم وقد بدأت الرسالة بالحديث عن الأمة وعن استخلاف الله للإنسان في الأرض وعن الحضارة ومدلولها ومقوماتها.

ثم انتقلت إلى البحث في عوامل الارتقاء والتقدم في القرآن الكريم وهي الإيمان بالله، التقوى، طاعة الله ورسوله ﷺ، العلم الديني والدنيوي، الجهاد في سبيل الله، الصبر والشكر، التوكل على الله والأخذ بالأسباب، الاستغفار، نصره دين الله بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والعمل لإقامة الخلافة الإسلامية، الإصلاح والعدل.

وبعد الانتهاء من الحديث عن هذه العوامل ضربت أمثلة للأمم أخذت بعوامل الارتقاء فأعزها الله وهذه الأمم هي: قوم يونس عليه السلام، بنو إسرائيل بقيادة يوشع بن نون، طالوت ومن بعده داود وسليمان عليهما السلام، الأمة الإسلامية ومن ثم بدأت الحديث عن عوامل الانحدار كما فصلها القرآن الكريم وهي: الكفر بالله ورسوله ﷺ، الظلم، الفساد في الأرض، الانحطاط الأخلاقي، البغي والاستكبار.

وقد ضربت أمثلة للأمم انحدرت فأهلكها الله وهي: قوم نوح عليه السلام، قوم لوط عليه السلام، عاد، ثمود، قوم فرعون، أصحاب الفيل، وأهيت هذه الأمثلة بملخص أجملت فيها أثر المعاصي والذنوب في هلاك الأمم والشعوب.

وبعد الانتهاء من الحديث عن عوامل الارتقاء والانحدار شرعت في عقد مقارنة بين عوامل الارتقاء والانحدار في القرآن الكريم وعوامل التقدم والتأخر عند بعض علماء الاجتماع الغربيين وهم أوجست كونت، دوركايم، هربرت سبنسر، لستروورد، كارل ماركس.

والهدف من هذه المقارنة إبراز جانب الإعجاز الاجتماعي في القرآن والذي برز بشكل جلي وبيّن من خلال المقارنة خاصة عند الحديث عن المجتمعات التي نشأت وفق تعاليم القرآن وأحكامه وتلك المجتمعات التي قامت على نظريات علم الاجتماع الغربي،

والفارق العظيم بين هذه المجتمعات الغربية مما جعل بعض علماء الغرب يحذرون من انهيار الحضارة الغربية في فترة زمنية وجيزة.

وبعد ذلك أخذت في الحديث عن واقع الأمة الإسلامية في الماضي والحاضر ومدى ما تمتعت به الأمة الإسلامية في الماضي من الكرامة والعزة والقوة، وما آل إليه حالها اليوم من الذل والضعف، والأسباب التي أدت إلى ذلك.

ثم أتت ذلك بذكر البشائر التي وردت في القرآن الكريم والسنة المطهرة والتي تبشر بنصرة هذا الدين العظيم وعودة العزة والقوة لهذه الأمة الإسلامية.

وفي نهاية البحث ختمت الرسالة بخاتمة ذكرت فيها النتائج التي توصلت إليها من خلال البحث، ثم التوصيات التي أوصى بها المسلمين لتمهيد لهم الطريق لاستعادة عزتهم وكرامتهم.

وبهذا تم البحث والله الحمد والمنة.

and strength, while at the present it is distinguished by its humiliation and weakness. The researcher also referred to the reasons which led to the current situation of the Islamic nation. The researcher then referred to the promises of Quran and Sunna which indicate that Islam will achieve victory, and Muslims will feel that they are superior and strong. The conclusion includes the results of the study and the recommendations that Muslims should follow to regain their superiority and dignity.

Abstract

The study discusses the factors which lead to the progress of nations and their deterioration in the light of the principles of Quran. It started by a brief about the nation, the aims of the presence of man on earth, civilization, its significance and foundations.

Then the researcher talked about the factors of development and progress in Quran, namely believing in Allah, piety, obeying Allah and his messenger (Peace of Allah be upon him), the religious and worldly science, the struggle in the path of Allah, patience, thankfulness, depending on Allah, forgiveness, preaching to do the good and avoid the bad, working to establish the Islamic caliphate, mediation and justice.

Later the researcher gave examples of nations which followed the way of Allah and, therefore, won his victory. Among these nations were the people of Younis (Peace of Allah be upon him), the people of Israel led by Yousha' bin Noun, Talout, Dawoud, Sulyman (Peace of Allah be upon him) and the Islamic nation.

Then the writer mentioned the factors of deterioration as described in Quran. These include:

Not believing in Allah and his messenger (Peace of Allah be upon him), injustice, corruption on earth, the moral decline, oppression, and overprouding. The researcher gave examples of peoples who didn't follow the path of Allah and, therefore, they were destroyed.

The examples included the people of Nouh (Peace of Allah be upon him), the people of Lout (Peace of Allah be upon him), Aad, Thamoud, the people of Pharoah, and the people of the Elephant. The researcher came to the conclusion that wrong doing and sins played an important role in the destruction of nations and peoples.

After talking about the factors of development and deterioration's, the researcher made a comparison between the factors of development and deterioration in Quran and the factors of progress and backwardness according to the views of the scholars of sociology in the westerg August Kunt, Durkayim, Hebert Spencer, Listord, Charles Marches.

The purpose of this comparison is to identify the social inimitability in Quran which was demonstrated clearly and vividly in the comparison, especially in the societies which were established according to the principles of Quran and its rulings, and the societies which were established according to the theories of sociology in the west. The findings showed the big difference between the nature of the Islamic societies and the nature of the western societies.

Theses findings have convinced the scholars in the west to say that the western civilization could fall within a short period of time. The status of the Islamic nation in the past and the present was discussed. In the past, the Islamic nation was characterized by dignity, superiority